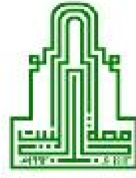
بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريـــخ

موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي

(٦٥٦-٨٠٣هـ/١٢٥٨-١٤٠١م)

Attitude of Muslim's Scholar's in Iraq and Sham countries to ward Magholi's invasion

(٦٥٦ – ٨٠٣ H. D /١٢٥٨ – ١٤٠١ A.D)

إشراف الأستاذ الدكتور

محـــمـــد موفـــق الأرنـــاؤوط

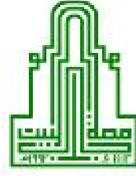
إعداد الطالب

خميس بن علي بن سيف الرواحي

الرقم الجامعي/ ٠٧٢٠٣٠٣٠٠١

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريـــخ

موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي

(٦٥٦-٨٠٣هـ/١٢٥٨-١٤٠١م)

Attitude of Muslim’s Scholar’s in Iraq and Sham countries to ward Magholi’s invasion

(٦٥٦ – ٨٠٣ H. D /١٢٥٨ – ١٤٠١ A.D)

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد موفق الأرناؤوط

إعـــــداد

خميس بن علي بن سيف الرواحي

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
أ.د - محمد موفق الأرنـــــاؤوط	مشرفا ورئيسا	....
د – عليان عبد الفتاح الجالودي	عضوا	....
د – أنـــور الخــــــالـــدي	عضوا	....
أ.د – سـليـمـــان الخـرابشـــة	عضوا	....

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت.

نوقشت وأوصي بإجازتها بتاريخ: / /٢٠١١م

الإهداء

إلى والدي الذي بذل لتربيتي وتعليمي ما لا يمكن لي أن أصفه، و لا أن أكافئه عليه، فجزاه الله خير الجزاء

إلى روح والدتي التي تقدمتني إلى الدار الآخرة، أسأل الله لها الرحمة والرضوان

إلى خالي العزيز الذي أشم فيه رائحة والدتي على مر الأيام وكر الأعوام

إلى رفيقة الدرب وأنيسة القلب زوجتي التي ما فتئت تؤازرني وتشجعني وتسد مسدي حتى يسر الله إتمام الدراسة والرسالة

إلى فلذات الكبد وقرة العين أبنائي وبناتي فتح الله لهم أنوار العلم والمعرفة

إلى إخواني وأخواتي سند الأيام وأعوان الزمان

إلى كل ذي رحم ودود، وذي مصاهرة نجود

إلى كل من جمعتني بهم محبة في الله خالصة، وعن سفاسف الدنيا ناكصة

إلى روح كل عالم ورد ذكره في هذه الرسالة مجاهدا للغزو المغولي بفعله أو قوله

أهدي هذا العمل المتواضع

الشكر والتقدير

الحمد لله في الأولى والآخرة، وله الشكر سبحانه على نعمائه المتكاثرة، وآلائه المتوافرة، وإن من تمام شكر الله تعالى على العبد أن يشكر من أسدى له معروفا، وكان له عليه فضلا ونورا.

هذا وإنه من الواجب واللازم عليَّ في مستهل هذه الرسالة أن أزجي أسمى آيات الشكر والتقدير والعرفان لأسرة جامعة آل البيت – عموما – ولأسرة قسم التاريخ – خصوصا – على ما بذلوه تجاهي من جهد إداري وعلمي طيلة فترة دراستي بالجامعة فجزاهم الله جميعا خير الجزاء.

كما أتقدم بالشكر الجزيل العميم لمن رأيت فيه حقا أبوة العلم أستاذي الحبيب إلى قلبي الأستاذ الدكتور محمد الأرناؤوط، الذي تفضل – متواضعا – بقبول الإشراف على هذه الرسالة، التي ما كان لها أن تستوي على سوقها لولا الله ثم توجيهاته السديدة، وإضافاته العديدة، وإنه لشرف لي أن تتألق رسالتي بإشرافه، وأن تحظى بشيء من أفكاره.

والشكر موصول للدكتور الغالي عليان الجالودي – رئيس وحدة الدراسات العمانية بجامعة آل البيت – حيث تبرع بمتابعة الرسالة، وإسداء خالص توجيهاته، التي أنارت الدرب لي، وأزاحت كثيرا من العقبات التي اعترضتني أثناء الكتابة، والشكر ثانيا له بتفضله بقبول مناقشة هذه الرسالة.

والشكر أيضا للدكتور أنور الخالدي – رئيس قسم التاريخ بجامعة آل البيت – الذي تفضل بالموافقة على مناقشة الرسالة، ولا أنسى توجيه خالص شكري وتقديري للأستاذ الدكتور سليمان الخرابشة – عميد كلية الآداب بجامعة اليرموك – الذي فرغ من وقته لمناقشة هذه الرسالة رغم ارتباطاته العملية والعلمية الكثيرة.

كما أحب أن أزجي جزيل شكري وامتناني لمكتبة جامعة آل البيت، ومكتبة جامعة اليرموك، ومكتبة الجامعة الأردنية، ومكتبة مركز السلطان قابوس الثقافي بجامعة السلطان قابوس، ومكتبة جامعة زايد المركزية بالعين، ومكتبة جامعة أم القرى بمكة المكرمة، على ما قدموه لي من تعاون ملموس أثناء كتابة هذه الرسالة.

ولا أنسى هنا أن أوجه شكري العميق لكل الإخوان الذي كانت لهم في هذه الرسالة آثار ولمسات علمية ولغوية ومنهجية مسددة.

وختاما لا يسعني إلا أن أقدم شكري لكل من وقف معي طيلة فترة الدراسة ولم يرد ذكرهم هنا، ولزوجتي أم يوسف مساحة خالصة وكبيرة من الشكر والثناء.

جزى الله الجميع خير الجزاء

المحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضـــــــــــــــوع | الصفحة

الرموز والمختصرات

الرموز الآتية تعني:

ص : صفحة.

ج : جزء.

ط : طبعة.

ت : تاريخ الوفاة.

د.ن : دون ناشر.

د.م : دون مكان نشر.

د.ط : دون طبعة.

د.ت : دون تاريخ نشر.

هـ : للدلالة على السنة الهجرية.

م : للدلالة على السنة الميلادية.

ملخص الدراسة

مرت الأمة الإسلامية عبر تأريخها الطويل بأحوال مختلفة، تنوعت ما بين قوة وضعف، وتقدم وتقهقر، وانتصار وهزيمة، إلا أن الذي يميز كل هذه المتغيرات ويجمع بين مفرداتها، ذلك التميز الحضاري، وقوة المخزون الثقافي، وعلو كعب الجانب الفكري للأمة الإسلامية، إذ منح كل ذلك الأمة امتدادا حضاريا، جعلها حاضرة رغم ضعفها، ومؤثرة رغم عجزها، ولا أدل من ذلك ما حدث في حال الغزو المغولي لبلاد الإسلام، إذ إن انتصار الأمة الحقيقي على المغول لم يكن في الجانب العسكري بقدر ما كان في الجانب الحضاري الذي أهوى بهيلمان المغول ابتداء بعين جالوت، وانتهاء باعتناقهم الإسلام.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة للكشف عن موقف نخبة من أهم نخب المجتمع ألا وهي نخبة العلماء لبيان حقيقة موقفهم من غزو المغول لبلاد الإسلام، ومدى مساهمة هذا الموقف في تحقيق النصر المشار إليه آنفا.

وقد تم تناول هذا الموضوع من خلال أربعة فصول، فصل تمهيدي وثلاثة فصول رئيسية وخاتمة متضمنة لأهم النتائج.

اشتمل الفصل الأول على تمهيد بذكر أحوال العراق وبلاد الشام السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية قبيل الغزو المغولي، فحاولت الدراسة تجلية هذه الأوضاع لتوضيح للتعرف على علاقتها بسقوط العراق وبلاد الشام بيد المغول قبل طردهم من الأخيرة بعد معركة عين جالوت. كما تطرق هذا الفصل لذكر حال المغول ونشأتهم ومن ثم توسعاتهم في البلاد الإسلامية، وانقسام دولتهم بعد وفاة مؤسسها جنكيز خان، حتى انتهى الحال بغالب دول المغول إلى اعتناق الإسلام، مع التركيز بعد إسلام المغول على صراع مغول الدولة الإيلخانية في فارس والعراق مع الدولة المملوكية.

أما الفصل الثاني فتناول بيان مواقف علماء العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الأول، حيث تم عرض تلك المواقف في ثلاثة مباحث، هي المواقف السياسية والمواقف الفكرية والمواقف

العسكرية، وفي المبحث الرابع من هذا الفصل تم بيان مواقف علماء العراق بعد صيرورتها جــزءا من الدولة المغولية الإيلخانية من غزو المغول لبلاد الشام.

وفي الفصل الثالث وضح الباحث مواقف علماء العراق وبلاد الشام من الغزو المغــولي الثــاني وهو الغزو الذي حصل من المغول بعد إسلامهم، وقد فصّل الباحث تلك المواقــف فــي المواقــف السياسية والفكرية والعسكرية، كما عرض الباحث لمواقف علماء العراق من غــزو تيمــور لنــك لبلادهم بعد زوال العهد الإيلخاني.

وتم في الفصل الأخير من الدراسة وهو الفصل الرابع بيان المواقف المتعاونة مع المغــول فــي غزويهم الأول والثاني للعراق وبلاد الشام.

وقد اتضح من الدراسة أن موقف العلماء كان رافضا ومنددا بالغزوين المغوليين الأول والثــاني للعراق وبلاد الشام، وأن اعتناق المغول للإسلام لم يؤثر في تغيير موقف العلماء المناوئ لغــزوهم للعراق وبلاد الشام.

كما اتضح أن مواقف العلماء المتعاونة والمرحبة بالغزو المغولي الأول والثاني للعــراق وبــلاد الشام كانت قليلة جدا في مقابل المواقف الرافضة لذلكما الغزوين.

المقدمة:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من اتبع نهجهم، واقتفى أثرهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فمن الحوادث المهمة في التاريخ – عامة - والتاريخ الإسلامي – خاصة – الغزو المغولي لبلاد الإسلام، الذي غير خريطة العالم الإسلامي، وحول مجرى حوادثه، وأصاب جسمه في الصميم، وزالت بسببه دول، وقامت أخرى، وحُرم التراث الفكري الإسلامي بسببه من موارد علمية عظيمة ضاعت في طوفانه.

ومن الطبيعي أن يكون لأهل الإسلام - من حكام وعلماء وأعيان ووجهاء وعامة - موقف من هذا الغزو، وبما أن العلماء هم إحدى النخب المهمة والمؤثرة داخل المجتمع المسلم فإن لبيان موقفهم من هذا الغزو أهمية كبيرة في الكشف عن تعاطي المجتمع الإسلامي بمجموعه مع الغزو؛ ومن هنا جاءت هذه الدراسة للكشف عن موقف علماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي.

أهمية الموضوع وقيمته العلمية:

تبرز أهمية هذا الموضوع في عدة جوانب منها:

١- تسليط الضوء على موقف العلماء المسلمين تجاه الغزو المغولي قبل إسلام المغول وبعده، هذا الموقف الذي يمثل في حقيقته موقف الشريعة الإسلامية والتي يمثلها العلماء في كل عصر ومصر، وبالتالي طرح الرأي الشرعي في قتال المغول وخاصة بعد دخولهم الإسلام، مما يجعل سكان العراق وبلاد الشام في طمأنينة من هذا القتال.

٢- تجدد القضايا الساخنة المؤثرة على عموم الأمة وعليه؛ فإن لبيان موقف العلماء في مثل هذه القضايا توضيحا للأمة جمعاء في مختلف أزمانها وأقطارها بمنهج العلماء في هذه القضايا ليستنيروا به في التعامل مع قضاياها المتجددة.

٣- وجود الشبهات حول سلبية موقف العلماء المسلمين تجاه قضـايا الأمـة، وعـدم أهليـتهم للمشاركة في قضاياها السياسية، الأمر الذي دفع نحو طرح هذه الدراسة لكشف حقيقة هـذه الشبهة.

أسئلة الدراسة:

جاءت هذه الدراسة لتجيب على الأسئلة الآتية:

١- ما أنواع المواقف التي اتخذها العلماء المسلمون في العراق وبلاد الشـام تجـاه الغـزوين المغوليين الأول والثاني؟
٢- هل كان موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام مـن الغـزوين المغـوليين الأول والثاني واحدا أم مختلفا؟
٣- هل كان لموقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغـزوين المغـوليين الأول والثاني تأثيرا في المجتمع نحو القيام بمواجهتهما ومقاومتهما؟
٤- هل ظهرت من بعض العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام مواقف متعاونة مع المغـول أثناء غزويهم الأول والثاني؟

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج الاستقرائي بتتبع وتصفح جزئيات موضوع البحث من أجل الوصول إلـى نتائج وأحكام عامة متعلقة بهذا الموضوع.

كما اتبعت الدراسة المنهج الاستنباطي القائم على دراسة النصوص المتعلقة بموضـوع الدراسـة بهدف الوصول إلى نتائج مدعمة بالأدلة الواضحة.

إضافة إلى ذلك حرصت الدراسة على اتباع المنهج التحليلي للأحداث والوقائع؛ بهدف الوصـول إلى نتائج صحيحة قدر الإمكان.

خطة البحث:

قسم موضوع البحث – إضافة إلى هذه المقدمة - إلى أربعة فصول وخاتمة، انتظمت وفق الشكل الآتي:

الفصل الأول: أحوال العراق وبلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٥٨٩ – ٦٥٦هـ/ ١١٩٣-١٢٥٨م)، ويحتوي هذا الفصل على مبحثين، تحدث الباحث في المبحث الأول عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وتطرق الباحث إلى بيان نبذ يسيرة عن كل جانب من الجوانب المذكورة.

ففيما يتعلق بالأوضاع السياسية قبيل الغزو المغولي، وضح الباحث وضع العراق وبلاد الشام وعلاقتهما مع القوى المحيطة بهما مثل: الصليبيين في بلاد الشام، والأرمن في شمال بلاد الشام، والخوارزميين في خراسان، والإسماعيليين في أجزاء من بلاد فارس، مع التركيز على الوضع السياسي في العراق وبلاد الشام ببيان حال الخلافة العباسية في العراق في عصرها الأخير.

وأما بلاد الشام فكان الحديث عنها مركزا على وضع أمراء الدولة الأيوبية الذين خلفوا صلاح الدين الأيوبي – رحمه الله – وما آل وضع البلاد في عهدهم من خلافات بينية مستمرة كان لها الأثر الكبير في عدم تأهل بلاد الشام في استمرار حملها لمشروع مقاومة الغزاة لهذه المنطقة من جهة، وفي زوال دولتهم على أيدي المماليك من جهة أخرى.

وفيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية ركزت الدراسة على بيان أهم الأسباب التي أثرت في ضعف اقتصاد العراق وبلاد الشام عشية الغزو المغولي، كما تطرقت إلى بيان أهم الكوارث البيئية التي أصابت العراق وبلاد الشام في الفترة التي سبقت الغزو المغولي ومدى تأثيرها على تدهور الوضع الاقتصادي فيهما، إضافة إلى تأثير الوضع السياسي السيء على الوضع الاقتصادي.

وتناولت الدراسة الأوضاع الاجتماعية في العراق وبلاد الشام قبيل الغزو المغولي، حيث تناول الباحث الحديث الخلافات بين الفرق الإسلامية وتحديدا بين السنة والشيعة، كما تم الحديث عن الاضطرابات الاجتماعية التي كانت تحدث بين الفينة والأخرى بين محال المجتمع المختلفة، إضافة إلى بيان أوضاع الحركات الاجتماعية ومدى تأثيرها على استقرار المجتمع العراقي والشامي في

الفترة قبيل الغزو المغولي، كما تطرقت الدراسة إلى ذكر أهم الأعراق التي سكنت العراق وبلاد الشام عشية الغزو المغولي.

وأما بالنسبة للوضع الفكري فكان الحديث متعلقا ببيان طبيعة الحركة العلمية والثقافية بالعراق وبلاد الشام قبيل الغزو المغولي، وأثر ازدهار الحركة العلمية في ارتفاع مكانة العلماء بين أفراد المجتمع باختلاف طبقاته وأطيافه، مما عمل على ظهور مواقف مشرفة للعلماء تجاه الغزو المغولي من خلال قيامهم بأدوار متعددة وعلى مستويات متباينة ساهمت في تصدي المجتمع بجميع فئاته للغزو المغولي.

المبحث الثاني: الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام

عرض الباحث هذا المبحث عبر أربعة محاور، فتحدث في المحور الأول عن المغول ونشأتهم وقيام دولتهم على يد جنكيز خان، ومن ثم توسعاتهم صوب الصين من جهة، وصوب العالم الإسلامي من جهة أخرى وصراعهم مع الدولة الخوارزمية.

وبين الباحث ما آلت إليه الدولة المغولية بعد وفاة جنكيز خان سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) من تقسيمات إدارية، مع إيضاح استمرار الزحف المغولي باتجاه العالم الإسلامي حتى تم لهم إسقاط الدولة الخوارزمية سنة (٦٢٩هـ/١٢٣٢م).

وأما المحور الثاني فكان الحديث فيه عن الغزو المغولي الأول للعراق وبلاد الشام، وقد وضح الباحث من خلال هذا المحور سقوط بغداد بيد المغول بقيادة هولاكو وأقوال المؤرخين في ذلك، ثم تطرق الباحث لذكر أهم المواجهات العسكرية التي دارت بين المماليك والمغول بعد تشكل كيانهم الجديد والذي عرف باسم الدولة الإيلخانية، ونتائج هذه المواجهات.

ثم تعرض الباحث في المحور الثالث لبيان كيفية إسلام المغول وظروف اعتناقهم للإسلام، وأسباب هذا التحول وما آلت إليه الإمبراطورية المغولية بعد اعتناق غالب أقاليمها الإسلام.

وفي المحور الرابع بين الباحث ما يتعلق بغزوات المغول الإيلخانيين لبلاد الشام بعد اعتناقهم الإسلام ونتائج هذه الغزوات وتأثيراتها على بلاد الشام، كما بين الباحث غزو المغول للعراق وبلاد الشام زمن تيمورلنك، وأشار إلى مدى الفظائع التي ارتكبها هذا الغزو الأخير بالعراق وبلاد الشام،

وأنه فاق في شراسته وعجرفته ما ارتكبه المغول من جرائم بالعراق والشام على عهد هولاكو وغازان.

وخصص الباحث الفصل الثاني لبيان مواقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الأول (٦٥٦ – ٦٩٤هـ /١٢٥٨ – ١٢٩٤م)، واشتمل هذا الفصل على أربعة مباحث، تحدث الباحث في المبحث الأول عن المواقف السياسية التي برزت من علماء العراق والشام تجاه الغزو المغولي الأول، وقد جاء هذا المبحث في خمسة محاور، وضح الباحث في المحور الأول قيام العلماء بالسفارات والمراسلات بين الحكام المسلمين من جهة، وبينهم وبين خانات المغول وسلاطينهم من جهة أخرى، وخصص المحور الثاني للحديث عن دور العلماء في تقديم النصح للحكام والأمراء المسلمين للعمل بكل ما من شأنه التصدي للمغول ومجابهتهم، وأما المحور الثالث فقد وضح الباحث فيه جهود العلماء في تهيئة الأوضاع الداخلية المهيئة لمواجهة المغول، وتناول الباحث في المحور الرابع بيان أدوار العلماء في القيام بتقليل مفاسد الغزو المغولي، وفي المحور الخامس وضح الباحث جهود العلماء في إصلاح الآثار السسلبية التي نجمت عن الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام.

أما المبحث الثاني فكان الحديث فيه عن المواقف الفكرية لعلماء العراق والشام تجاه الغزو المغولي الأول، وقد انتظم هذا المبحث في خمسة محاور هي: الدعاء والقنوت، والخطابة والوعظ، والتأليف، والفتوى، والشعر.

وخصص الباحث المبحث الثالث لبيان المواقف العسكرية لعلماء العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الأول، والتي تمثلت في مشاركات العلماء العسكرية في المعارك التي دارت بين المسلمين والمغول، ووقوع البعض منهم في أسر المغول، كما أشار الباحث إلى من تعرض من العلماء للقتل والتعذيب على أيدي المغول أثناء مداهمتهم للمدن الإسلامية.

أما المبحث الرابع من هذا الفصل فكان بعنوان موقف علماء العراق من الغزو المغولي الأول، وهو مخصص للحديث عن بعض المواقف التي ظهرت من علماء العراق بعد سقوطه بيد المغول وصيرورته جزءا من الدولة الإيلخانية.

وتناول الباحث في الفصل الثالث من الدراسة بيان مواقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الثاني، وانتهج الباحث في معالجة هذا الفصل النهج نفسه الذي اتبعه في الفصل الثاني؛ بغرض التركيز على بيان موقف العلماء من الغزو المغولي قبل إسلام المغول وبعده، ومدى تشابه هذا الموقف أو اختلافه.

وقد جاء هذا الفصل في أربعة مباحث، كان أولها متعلقا بتوضيح المواقف السياسية التي ساهم من خلالها علماء العراق وبلاد الشام في التصدي للغزو المغولي الثاني، وقد تضمن المبحث الأول أربعة محاور هي: السفارات والمراسلات، ومناصحة العلماء للحكام والأمراء المسلمين وتوضيح صور هذه المناصحة، وتهيئة الأوضاع الداخلية لمجابهة الغزو المغولي، والعمل على تقليل آثار الغزو المغولي، وإصلاح ما خلفه الغزو من مفاسد.

وفي المبحث الثاني وضح الباحث أهم المواقف الفكرية التي أبداها علماء العراق والشام تجاه الغزو المغولي الثاني، وتمثلت هذه المواقف في: الدعاء والقنوت، والتأليف، وإصدار الفتاوى، والشعر.

وتعرض الباحث في المبحث الثالث لبيان الموقف العسكري لعلماء العراق والشام تجاه الغزو المغولي الثاني موردا تلك المواقف في جوانب المشاركة العسكرية، ووقوعهم في الأسر، وتعرضهم للتعذيب والقتل، وتناول المبحث الأخير من هذا الفصل بيان موقف علماء العراق الخاضعين للدولة الإيلخانية من الغزو المغولي لبلاد الشام، كما تناول بيان موقفهم من غزو تيمور لنك لبلادهم.

وتناول الباحث في الفصل الرابع بيان مواقف علماء العراق وبلاد الشام المتعاونة مع الغزو المغولي، واشتمل هذا الفصل على مبحثين، تحدث الباحث في المبحث الأول عن المواقف المتعاونة مع الغزو المغولي الأول والتي ظهرت من بعض العلماء في العراق وبلاد الشام.

وفي المبحث الثاني وضح الباحث المواقف المتعاونة مع الغزو المغولي الثاني والتي ظهرت من بعض العلماء في العراق وبلاد الشام، وجاء هذا المبحث في محورين، كان أولهما مخصصا للحديث عن المواقف التي ظهرت من العلماء أثناء غزو سلاطين الدولة المغولية الإيلخانية، بينما تناول المحور الثاني بيان موقف العلماء المتعاونة مع المغول أثناء غزو تيمورلنك للعراق وبلاد الشام.

وأخيرا ختم الباحث الدراسة بخاتمة وضع فيها أهم النتائج التي توصل إليها.

ويجدر التنبيه على عدة نقاط مهمة تتعلق بخطة البحث وهي:

أولا: يقصد بالموقف الذي صدَّرت به الدراسة عنوانها ما صدر من العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من مواقف وأدوار تجاه الغزوين المغوليين الأول والثاني، وتمثلت هذه المواقف في المواقف السياسية والفكرية والعسكرية.

ثانيا: أن المراد بالعلماء في فترة الدراسة هم العلماء المسلمون الممثلون في القضاة ونوابهم والفقهاء والمحدثين والمفتين والمدرسين وأئمة الجوامع والمساجد وكتَّاب سر الدولة.

ثالثا: قسمت الدراسة الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام إلى قسمين، هما: الغزو المغولي الأول، ويراد به غزو المغول للعراق وبلاد الشام قبل اعتناقهم للإسلام، والغزو المغولي الثاني، ويراد به غزو المغول للعراق وبلاد الشام بعد اعتناقهم للإسلام، وهي منهجية – بحسب اطلاع الباحث – جديدة في ميدان الحديث عن الغزو المغولي للبلاد الإسلامية.

رابعا: أطلقت الدراسة لفظ " المغول " على تلك الأقوام التي هاجمت العراق وبلاد الشام، دون غيره من الألفاظ التي وردت عند بعض المؤرخين المسلمين كالتتار والتتر والططر والمغل؛ وكان سبب هذا الاختيار أن " المغول " هي القبيلة التي ينتمي إليها جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية، والتي تمكن جنكيز خان من خلالها من إخضاع بقية القبائل مكونها منها كيانا متحدا، وثمة سبب آخر وراء اختيار الدراسة تسمية " المغول " على غيرها من التسميات وهو أن التتار أو التتر شعبة متفرعة من المغول، وليس المغول فرع من التتر، فالأصل هنا هم المغول وليس التتر، وعلى الرغم من أن التتر تمكنوا في فترة من الزمن من السيطرة على المغول، إلا أنه في فترة الدراسة تمكن المغول بقيادة جنكيز خان من السيطرة على التتر وعلى غيرها من القبائل، وأصبح المغول هم أصحاب الدولة والغلبة، وعليه؛ يمكن أن يقال أن التتر مغول، وليس المغول تترا[1]، والجامع

---

(١) الغامدي، سعد بن حذيفة، سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام، دار ابن حذيفة، الرياض، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ص٥٣-٥٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الغامدي، سقوط الدولة العباسية.

بين المغول والتتار أو التتر هو انتمائهم للجنس التركي الذي ينتمي إليه أيضا قبائل وشعوب عديدة مثل: السلاجقة والخوارزمية والقفجاق والخزر والأويغور والأفار وكيرايت ونايمان والمجر والبلغار والقرغيز[1].

خامسا: شملت الدراسة إضافة إلى توضيح موقف علماء العراق والشام من الغزو المغولي، بيان موقف علماء الديار المصرية من هذا الغزو، وسبب ذلك أن مصر وبلاد الشام طيلة فترة الدراسة كانتا خاضعتين لسلطة واحدة هي سلطة السلطان المملوكي المقيم بمصر، وكانت كل المشاريع الجهادية الموجهة ضد المغول منطلقة من مصر بقيادة السلاطين؛ ومن هنا لزم بيان مواقف علماء مصر لما لذلك من أهمية في اكتمال صورة موقف علماء بلاد الشام من الغزو المغولي.

سادسا: أن الباحث تبنى وجهات نظر قد تخالف بعضها وجهات نظر باحثين آخرين في تفسير مواقف العلماء من الغزوين المغوليين الأول والثاني؛ وما ذاك إلا اجتهاد من الباحث في قراءة وتحليل تلك المواقف.

الدراسات السابقة:

بحسب اطلاع الباحث وجدت بعض الدراسات التي تناولت بيان مواقف ودور العلماء من الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام، وهذه الدراسات هي:

١- دراسة للباحث عبد الله بن فراج الشهري بعنوان " دور العلماء المسلمين في حركة الجهاد ضد المغول "، وهي رسالة ماجستير نوقشت بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة (١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ومع وجود هذه الدراسة فإن ثمة فروقات مهمة بينها وبين الدراسة الحالية، تمثل أهمها في:

---

(١) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون(٨ج)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٥، ص٥٨٣ و ص٥٩٣، وسيشار ليه عند وروده لاحقا: ابن خلدون، العبر؛ عبد الحليم، رجب محمود، انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، د.م، د.ط، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ص١٣-١٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: عبد الحليم، انتشار الإسلام؛ لين، ستانلي بول، الدول الإسلامية(٢ج)، ترجمة: محمد صبحي فرزات، مطبعة الملاح، دمشق، د.ط، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ج٢، ص٤٩٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: لين، الدول الإسلامية.

- اختلاف المدة الزمنية التي عالجتها كلا الدراستين، فالدراسة الأولى امتدت فترتها الزمنية من سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م) إلى سنة (٧٢١هـ /١٣٢١م)، بينما الدراسة الحالية امتدت فترتها من سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) إلى سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م)، ومن هنا يلاحظ إهمال الدراسة السابقة لبيان موقف العلماء في فترة غزو تيمور لنك للعراق وبلاد الشام.

- توسع الدراسة الحالية في بيان مواقف العلماء من الغزو المغولي، حيث قسمت هذه الدراسة مواقف العلماء إلى مواقف سياسية وفكرية وعسكرية، مع ذكر تفصيلات هذه المواقف وهو ما افتقدته الدراسة السابقة، إضافة إلى التفريق بين الغزو المغولي قبل إسلام المغول وبعده.

- لم تتطرق الدراسة السابقة لتفصيل وتحليل مواقف بعض العلماء المتعاونة مع المغول في غزوهم للعراق وبلاد الشام، وهو ما قامت به الدراسة الحالية.

٢- دراسة قام بها الباحث عبد المعز بني عيسى بعنوان " الغزو المغولي لدمشق وآثاره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية " وهي رسالة ماجستير نوقشت بجامعة اليرموك سنة (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، وقد أشارت هذه الدراسة لمواقف بعض العلماء من الغزو المغولي دون تفصيل أو تحليل لها مما أوقع باحثها في نتائج رفضتها هذه الدراسة وأشارت إليها في موضعها.

٣- دراستان غير أكاديميتين قام بهما الباحث أكرم حسن العلبي الأولى بعنوان " معارك المغول الكبرى في بلاد الشام "، والثانية بعنوان " تيمورلنك وحكايته مع دمشق "، وقد تطرق الباحث في دراستيه لذكر مواقف بعض العلماء من غزو المغول لبلاد الشام دون تفصيل واستيعاب، وقد كان للدراسة الحالية وجهات نظر خالفت فيها رأي الباحث الفاضل في تصنيفه لمواقف بعض العلماء.

٤- بحث لشوكت حجة بعنوان " مواقف أئمة المسلمين من الغزو الإيلخاني(مغول فارس) لبلاد الشام ومصر " نشر في مجلة الجامعة الإسلامية سنة ١٤١٨هـ/٢٠٠٧م، تطرق الباحث فيه إلى نبذ يسيرة عن بعض مواقف علماء بلاد الشام تجاه غزو غازان لبلادهم دون تفصيل واستيعاب، كما أنه لم يتطرق إلى غزو تيمورلنك للعراق وبلاد الشام.

تعريف بأهم موارد الدراسة:

اعتمدت الدراسة على عدد من المصادر تنوعت ما بين كتب للتاريخ العام أو التاريخ الحولي، وكتب للطبقات والتراجم، وكتب للرحلات وغيرها، كما اعتمدت على مراجع حديثة عربية ومعربة، وأفادت الدراسة أيضا من بعض الرسائل الجامعية المتعلقة بموضوع البحث.

أولا: كتب التاريخ العام:

١- " الكامل في التاريخ " لعلي بن محمد المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

يعد كتاب الكامل في التاريخ من كتب التاريخ العام المهمة، وقد تناول ابن الأثير التاريخ لأكثر من ستة قرون فهو مؤلف جامع لمختلف أخبار الدول والملوك، واعتمد في مادته على نقولات من مؤرخين معاصرين له ضاعت معظم كتبهم وبقي كثير من موادها محفوظة في مؤلفه.

وقد أفادت الدراسة من كتاب الكامل في الفصل الأول المتعلق ببيان الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية للعراق وبلاد الشام قبيل الغزو المغولي، خاصة أن ابن الأثير كان معاصرا لكثير من أحداث هذه الفترة، فكانت أخباره بمثابة أخبار الشاهد العيان للأحداث.

٢- " تاريخ ابن الساعي " لعلي بن أنجب السلامي البغدادي (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م).

وقد ذهب محقق الكتاب الدكتور محمد عبد الله القدحات إلى أن هذا الجزء المنشور ما هو إلا الجزء التاسع من " تاريخ ابن الساعي " وليس هو الجزء التاسع من كتاب " الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير " كما هو معروف ومشتهر، بل ونفى المحقق الفاضل نسبة كتاب " الجامع المختصر " لابن الساعي أصلا[(١)].

---

(١) ابن الساعي، علي بن أنجب بن عثمان السلامي البغدادي(٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، تاريخ ابن الساعي وبذيله الضائع من تاريخ ابن الساعي، تحقيق: محمد عبدالله القدحات، دار الفاروق، عمان، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، مقدمة التحقيق، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الساعي، تاريخ.

و" تنبع أهمية تاريخ ابن الساعي من أن مصنفه كان شاهد عيان لما كانت عليه بغداد قبيل الغزو المغولي وبعده، بل يكاد يكون المصدر الوحيد لكثير من المعلومات عن الحوادث التاريخيـــة التـــي مرت بها الخلافة العباسية في هذه الحقبة العصيبة من تاريخها "(١).

وقد أفادت الدراسة من تاريخ ابن الساعي في تغطية أحداث الفصـــل الأول المتعلـــق بأوضـــاع العراق وبلاد الشام قبيل الغزو المغولي.

٣- " تاريخ العالم " (جهانكشاي) لعلاء الدين عطا ملك الجويني(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).

تولى المؤرخ عطا ملك الجويني أمر الديوان ببغداد نيابة عن المغول ســنة (٦٥٧هـــ/١٢٥٩م) واستمر كذلك حتى سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وكان قبل ذلك من عمال الـديوان للأميــر المغــولي أرغون حاكم إيران، وبحكم قربه من المغول وأسفاره المتعددة في بلادهم تمكن من أن يجمع مـــادة تاريخية وفيرة عنهم، كتب على أساسها بالفارسية تاريخ تلك الأقوام، وقد أصبح كتابه هذا المرجـــع الرئيسي لتاريخ المغول.

والكتاب – على التحقيق – يتكون من جزأين، ابتدأ المؤلف المجلد الأول ببيان أحـــوال المغـــول وعاداتهم قبل ظهور جنكيز خان باختصار، ثم أفاض في الحديث عن حياة جنكيز خـــان وقوانينـــه وحروبه وتوسعاته، كما تحدث عن خلفائه وأعمالهم، وتعرض عطا ملك أيضا في كتابه لبيان بدايـــة تكون الدولة الخوارزمية ثم زوالها على أيدي المغول.

وأما المجلد الثاني فاشتمل على الحديث عن تولي منكو قاآن السلطة، كما تحـدث عـــن هجـــوم هولاكو ضد البلاد الغربية وقضائه على الإسماعيليين سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، حيث تنتهي أحداث الكتاب(٢).

---

(١) ابن الساعي، تاريخ، مقدمة التحقيق.

(٢) الجويني، علاء الدين عطا ملك الجويني(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، تاريخ العالم (جهانكشاي) (٢ج)، تحقيق: محمد عبد الوهاب القزويني، ج١ ترجمة: السباعي محمد السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـــ/ ٢٠٠٧م، ص ص٣٣-٤٥. ج٢ ترجمة: محمد التونجي، دار الملاح، د.م، ط١، ١٤٠٥هـــ/١٩٨٥م، ص٢٧٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الجويني، تاريخ جهانكشاي.

٤- " كتاب الحوادث " لمؤلف مجهول من أهل القرن الثامن الهجري.

اشتهر هذا الكتاب باسم " الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة " ونسب لعبدالرزاق بن أحمد المعروف بابن الفُوَطي بعد أن حققه الدكتور العلامة مصطفى جواد بذلك الاسم وتلك النسبة سنة ١٩٣٢م، وقد حقق الكتاب الأستاذان الكبيران الفاضلان الدكتور بشار عواد معروف والدكتور عماد عبد السلام رؤوف سنة ١٩٩٧م وذهبا إلى أن تسمية الكتاب بذلك الاسم ليست صحيحة وأن نسبته إلى ابن الفوطي غير صحيحة كذلك، وبينا أنهما لم يجدا دليلا على ذلك الاسم وتلك النسبة، ما دفعهما إلى القول بجهالة المؤلِّف وتجوزا في المؤلَّف وأسمياه " الحوادث "؛ لاشتهاره بين الدارسين بهذا الاسم، ولموافقته مضمون الكتاب(١).

ويغطي كتاب الحوادث في حوادثه الفترة من سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) إلى سنة (٧٠٠هـ/١٣٠١م)، وقد أفادت الدراسة منه في تلك الفترة – خاصة – فيما يتعلق بأوضاع العراق قبيل الغزو المغولي، ومواقف علماء العراق من الدولة الإيلخانية والدولة المملوكية.

٥- " المقتفي على كتاب الروضتين " المعروف بتاريخ البَرزالي، لعلم الدين القاسم بن محمد البرزالي الإشبيلي الدمشقي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م).

جعل مؤلف الكتاب الشيخ البرزالي كتابه ذيلا على كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " للحافظ أبي شامة، ومن المعلوم أن أبا شامة نفسه ذيل على كتابه الروضتين بكتاب " الذيل على الروضتين "، امتد فيه بحوادثه ووفايته إلى سنة وفاته التي هي سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، فكان كتاب المقتفي بذلك ذيلا على ذيل الروضتين، وامتدت حوادثه من سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) إلى سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٨م).

وتنبع أهمية تاريخ البرزالي " من صدقية مؤلفه، فهو محدث قبل أن يكون مؤرخا، ومن يكون محدثا حافظا عارفا بالحديث ورواته يكون عالما بعلم الجرح والتعديل الذي يضع المقاييس لصدق

---

(١) مؤلف مجهول، كتاب الحوادث(وهو الكتاب المنسوب لابن الفوطي باسم الحوادث الجامعة والتجارب النافعة)، تحقيق: بشار عواد معروف وعماد عبدالسلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، مقدمة التحقيق، ص ص٥-١٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: مجهول، الحوادث، تَراجع الدكتور مصطفى جواد لاحقا عما ذهب إليه في تحقيقه السابق، ينظر: مقالة الدكتور مصطفى جواد، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد٦، بغداد، ١٩٥٩م، ص٣٧٢، (نقلا عن مقدمة تحقيق تاريخ ابن الساعي).

الرواة وروایاتهم، أو ضعفهم وتدلیسهم. ولما كان المؤلف البرزالي مشهودا لــه بالصــدق والثقــة والدرایة عند جمیع علماء عصره، وإجماعهم في النقل عنه واعتماد روایته، فــإن هــذا یكفــي أن یضفي الأهمیة لكتابه " ولذا اعتمد علیه كثیر من المؤرخین كالنویري والفیومي والذهبي والإســنوي والسبكي والأدفوي وابن كثیر والصفدي والمقریزي وابن حجر وغیرهم[١].

وقد أفادت الدراسة من كتاب المقتفي في الفترة التي یغطیها من الأحداث إفادة كبیرة؛ بسبب قرب مصادره التي استقى منها مادة كتابه، وأیضا بسبب معاصرته لكثیر من الأحداث التي یــذكرها فــي كتابه.

٦- " تاریخ الإسلام ووفیات المشاهیر والأعلام " للإمام الحافظ شیخ الإسلام شمس الدین أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(ت٧٤٨هــ/١٣٤٧م).

یعتبر كتاب تاریخ الإسلام كتاب شامل في التاریخ والتراجم لمدة زمنیة لیست بالقصیرة فهو یمتد في حوادثه وتراجمه من فترة النبوة وحتى سنة (٧٠٠هــ/١٣٠٠م)، كما أن الإمــام الــذهبي مــن المعروفین بالضبط والتحري في النقل، ومما زاد كتابه حسنا على حسن أن مؤلفه من رجال الحدیث بل من أئمتهم وكبارهم، ولذا جاءت روایاته مأمونة أكثر من غیرها؛ بسبب اعتنائه بــالتحري فــي الروایة والنقل.

وقد كانت إفادة الدراسة من هذا الكتاب كبیرة جدا، إذ لا یكاد یخلو فصل من فصولها إلا ولكتاب تاریخ الإسلام فیها أثر وفائدة.

٧- " تاریخ ابن حجي " لأبي العباس أحمد بن حجي الدمشقي (ت٨١٦هــ/١٤١٣م).

والموجود من هذا التاریخ هو جزء منه یغطي الفترة من سنة (٧٩٦هـــــ/١٣٩٣م) إلــى ســنة (٨١٥هــ/١٤١٢م)، وهناك جزء مفقود من الكتاب تمتد ســنواته مــن (٧٤١هـــــ/١٣٤٠م إلــى ٧٤٦هــ/١٣٤٥م) ومن سنة (٧٦٩هــ/١٣٦٧م إلى ٧٩٥هــ/١٣٩٢م).

---

(١) البرزالي، علم الدین القاسم بن محمد الإشبیلي الدمشقي(ت٧٣٩هــ/١٣٣٨م)، المقتفي على كتاب الروضــتین المعروف بتاریخ البرزالي(٤ج)، تحقیــق: عمــر عبــد الســلام تــدمري، المكتبــة العصــریة، بیــروت، ط١، ١٤٢٧هــ/٢٠٠٦م، مقدمة التحقیق، ص ص٩٢-٩٧، وسیشار إلیه عند وروده لاحقا: البرزالي، المقتفي.

والموجود من الكتاب حققه عمر علي ذياب الشامي لنيل درجة الماجستير من جامعة اليرموك سنة (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، كما نشرته دار ابن حزم في طبعتها الأولى سنة (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) بتعليق عبد الله الكندري، وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب فيما يتعلق بأحداث غزو تيمور لنك للعراق وبلاد الشام - ولا سيما - أن المؤلف كان معاصرا لأحداثه، ومن هنا كان لما دونه عن أحداث هذا غزو تيمورلنك أهمية خاصة.

٨- " السلوك لمعرفة دول الملوك " لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

وكتاب السلوك للمقريزي كتاب جامع في التاريخ تميز بتتبع تفاصيل الأحداث، وانفرد بإيراد أحداث لم ترد عند غيره من المؤرخين؛ وحفظ كتابه أخبار كتب ضاعت وفقدت في جملة ما فقد من تراث الأمة الإسلامية. ويعتبر كتاب السلوك أحد المصادر الأصيلة والأساسية للبحث، إذ اعتمدت الدراسة عليه في غالب الفصول وخاصة الفصول الرئيسية منها.

٩- " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " لجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

وكتاب النجوم الزاهرة كتاب جمع فيه مؤلفه كل ما يتعلق بأخبار الديار المصرية من بداية الفتح الإسلامي لمصر سنة (٢٠هـ/٦٤٠م) وحتى سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، والأهمية التاريخية لهذا الكتاب تكمن في أحداث الدولة المملوكية إلى نهاية الكتاب؛ بسبب اعتماد ابن تغري بردي على مصادر قريبة ومطلعة على الأحداث " فهو ابن الطبقة المملوكية الحاكمة، وقريب من السلاطين وأبنائهم وحواشيهم، وعلى صلة مباشرة بكبار موظفي الدولة من عسكريين ومدنيين؛ لذا فهو يؤرخ للأحداث من داخلها وينقل عن أبطالها وشهودها المتصلين بها، ... كما كان يقدم رواياته في كثير من الأحيان بعبارات إسناد مباشر، هذا بالإضافة إلى مشاهداته الخاصة ومعايشته للأحداث "(١).

---

(١) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة(١٦ج)، تعليق: محمد حسين مشمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ج١، مقدمة التحقيق، ص٣٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

وكانت إفادة الدراسة من المعلومات المتعلقة بأحداث الدولة المملوكية وعلاقتها مع المغول، كبيرة جدا - ولا سيما - ما يتعلق بأحداث الغزو التيموري للعراق وبلاد الشام.

ثانيا: كتب السير والتراجم:

١- " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي " لمحمد بن أحمد النسوي(ت٦٣٩هـ/١٢٤١م).

التحق النسوي بخدمة السلطان جلال الدين منكبرتي فعهد إليه بوظيفة كاتب الإنشاء، وتولى لاحقا وظيفة منصب الوزارة في مدينة نسا، وقد كان النسوي رسول السلطان في كثير من سفاراته إلى حكام المسلمين[١].

كتب النسوي كتابه بعد وفاة سيده بعشر سنين مما يعطي مؤشرا إلى أن كتابه لم يقع تحت تأثير معين وإن كانت معاني الولاء تجاه السلطان جلال الدين تظهر في كتابه بسبب إحسانه السابق إليه[٢].

وقد أفادت الدراسة من كتاب النسوي في تغطية الأحداث المتعلقة بغزو المغول للدولة الخوارزمية وقضائهم عليها لكونه كان شاهد عيان لكثير من أحداث هذا الغزو.

٢- " الروض الزاهر في سيرة الملك الناصر" لعلاء الدين عبد الله بن عبد الظاهر (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م).

يعتبر كتاب " الروض الزاهر " من كتب السيرة الغيرية خصه مؤلفه بالسلطان الظاهر بيبرس، والأهمية التاريخية لمؤلفات الشيخ ابن عبد الظاهر عموما تكمن في الوظيفة التي تولاها فقد كان صاحب ديوان الإنشاء للسلطان الظاهر بيبرس، والسلطان المنصور قلاوون، والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون؛ مما مكنه من توثيق معلوماته التي كتبها، والقيام بتصحيحها، كما كان هو بنفسه

---

(١) النسوي محمد بن أحمد (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م)، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، د.م، د.ط، د.ت، المقدمة، ص٢٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: النسوي، سيرة السلطان منكبرتي.

(٢) المصدر نفسه، المقدمة، ص٢٤.

شاهدا على كثير من الأحداث التي رواها في كتبه[١]، وقد مكنتــه معاصــرته للأحــداث، أن يقــدم معلومات موثوقة للمؤرخين الذين جاءوا من بعده؛ الأمر الذي جعله مصدرا لكثير من هؤلاء مثــل: النويري وابن الفرات وابن دقماق والقلقشندي والمقريزي وابن إياس[٢].

وقد أفادت الدراسة من كتاب " الروض الزاهر " في توثيق الأحداث المتعلقــة بجهــود الظــاهر بيبرس في مقاومة الغزو المغولي لبلاد الشام.

٣- " الوافي بالوفيات " لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هــ/١٣٦٣م).

وتعود أهمية كتاب " الوافي " إلى مميزاته الجامعة لما قبله من كتب التراجم، وشموليته النوعيــة والمكانية، كما أن مؤلفه كان شاهد عيان لبعض الأحداث التي سردها في فترة البحث، إضافة إلــى أنه شغل مناصب هامة في الدولة المملوكية، وهو من الرجال الذين لعبوا دورا سياسيا وعلميا وأدبيا في هذا العصر، وكان كثيرا ما يستقي معلوماته مباشرة ممن يترجم له، أو ممن كان يعرفــه أو لــه صلة به، أو من معلومات شفهية عن أصحاب خبرة واطلاع، أو من مصادر ومظان رسمية بحكــم لمناصب التي تولاها والتي ساعدته في الوصول إلى معلومات قد تكون سرية لا يطالها غيره مــن مؤرخي عصره "[٣].

٤- " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هــ/١٤٤٨م).

وهو كتاب كما يظهر من عنوانه مختص بتراجم رجال أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشــر الميلادي، فهو يترجم ابتداء من سنة (٧٠١هــ/١٣٠١م) إلى آخر سنة (٨٠٠هـــ/١٣٩٧م)، وقــد كانت استفادة البحث منه كبيرة فيما يتعلق بتراجم أعلام هذه الفترة.

٥- " عجائب المقدور في نوائب تيمور " لأحمد بن محمد الدمشقي المشــهور بــابن عربشــاه (ت٨٥٤هــ/١٤٥٠م).

---

(١) فرغلي، إبراهيم، المؤرخ المصري ابن عبد الظاهر، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٨هــ/١٩٩٨، ص٣٤ وص٤١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: فرغلي، ابن عبد الظاهر.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٥.

(٣) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت٧٦٤هــ/١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات(٢٩ج)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هــ/١٩٩٩م، ج١، مقدمة التحقيق، ص ص١٨-١٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الصفدي، الوافي.

ويعد الكتاب أحد المصادر المهمة عن حياة تيمورلنك عموما وعن غزوه لبلاد الشام بوجه خاص؛ ذلك أنه الكتاب الوحيد باللغة العربية عن حياة تيمورلنك، كما أن مؤلفه كان معاصرا لتيمورلنك[١]، فإن الشيخ ابن عربشاه كان في الثانية عشر من عمره عندما غزا تيمور لنك مدينة دمشق، بل وكان أحد أسارى تيمور الذين اصطحبهم إلى سمرقند، كما يعد شاهد عيان لتلك الأحداث فهو يقول: " أردت أن أذكر منها ما رأيته وأقص في ذلك ما رُوِّيتُه "[٢].

ومما يعطي الكتاب أهمية أيضا أنه اشتمل على المراسلات التي دارت بين السلطانين المملوكيين الظاهر برقوق، وابنه الناصر فرج من جهة، وبين تيمور لنك من جهة أخرى، وأهمية إثبات هذه الرسائل تكمن في أن الشيخ ابن عربشاه، نقلها من أصولها التركية والفارسية، حيث أصبحت هذه الوثائق من أهم العناصر في تحقيق سيرة تيمور[٣].

ثالثا: كتب الجغرافيا والرحلات

١- " معجم البلدان " لياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).

يعتبر كتاب " معجم البلدان " كتاب جغرافي تعرض فيه المؤلف لبيان الأقاليم الجغرافية وما تحتوي عليه من مدن، كما أنه ذكر فيه كثيرا من الجوانب الأدبية والتاريخية وتراجم العلماء، وقد أفادت الدراسة منه في التعريف بالمدن وتحديد مواقعها.

٢- " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة " لمحمد بن عبد الله الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م).

ولد ابن بطوطة بطنجة سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) وخرج منها سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما

---

(١) ابن عربشاه، أبو محمد أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي، (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، مقدمة التحقيق، ص١٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن عربشاه، عجائب المقدور.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٣) ابن عربشاه، عجائب المقدور، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، د.ط، مقدمة التحقيق، ص ص٦-٧.

وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد المغول وأواسط إفريقية، واتصل بكثير من الملـوك والأمراء فمدحهم، واستعان بهباتهم على أسفاره، وعاد إلى بلاده بعد سبع وعشرين سـنة، وأملـى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة (٧٥٦هـ/١٣٥٥م)[١].

وتمثلت إفادة الدراسة من رحلة ابن بطوطة في تلك الشواهد التي ذكرها المؤلف عـن الوجـود الإسلامي في بلاد الأوزبك والبلغار وبلاد ما وراء النهر، بما يعطي دلالات على عمـق الوجـود الإسلامي في تلك البلاد، كما أفادت الدراسة من أخبار ابن بطوطة عن أوضاع الدولة الإيلخانية في عهد محمد خدا بنده.

٣- " رحلة ابن خلدون " لعبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

كتاب " رحلة ابن خلدون " كان في البداية جزء من كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر " ختم به ابن خلدون كتابه المذكور وعنونها بـ " التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشـرقا "، وقـد ظـل كذلك حتى حقق جزء التعريف منفصلا العالم المغربي محمد بن تاويت الطنجـي سـنة (١٩٥٣م)، ونشره بالعنوان المذكور.

وقد أفاد الكتاب من كتاب الرحلة لابن خلدون في بيان تفاصيل المقابلة التي دارت بين علماء دمشق - وعلى الأخص مقابلة ابن خلدون نفسه - مع تيمورلنك.

رابعا: المراجع والدراسات الحديثة

أفادت الدراسة من عدة مراجع حديثة من أهمها:

١- " بلاد الشام قبيل الغزو المغولي " لعلي بن محمد بن عودة الغامدي.

وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب في أحداث الفصل الأول المتعلق ببيان أحوال بلاد الشام قبيـل الغزو المغولي.

---

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصـار وعجائـب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة(٢ج)، تعليق: محمد السعيد، المكتبة التوفيقيـة، القـاهرة، د.ط، د.ت، ص٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن بطوطة، الرحلة.

٢- " انتشار الإسلام بين المغول " لرجب محمد عبد الحليم.

أفادت الدراسة من هذا الكتاب في التعرف على كيفية انتشار الإسلام بين المغول، وكيف أصبح المغول بعد إسلامهم، وأهم المظاهر الإسلامية التي انتشرت في بلادهم.

٣- " معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي " لمحمد أحمد دهمان.

أفادت الدراسة من هذا المرجع فائدة كبيرة في توضيح الوظائف والمصطلحات الغامضة التي انتشرت في العهد المملوكي.

٤- " معجم الأسر الإسلامية الحاكمة " لسليمان أحمد السعيد.

يعتبر هذا الكتاب موسوعة عامة في الأسر التي حكمت البلاد الإسلامية من القرن الأول الهجري وحتى القرن الرابع عشر الهجري.

وقد أفادت الدراسة منه في التعرف على الدول الإسلامية التي تعرضت لها الدراسة وتاريخ قيامها وزوالها.

علاوة ما ذكر، هناك مصادر ومراجع أخرى أفادت منها الدراسة، إضافة إلى بعض الرسائل الجامعية ومن أهمها رسالة عبد الله بن فراج الشهري بعنوان " دور العلماء المسلمين في حركة الجهاد ضد المغول، ورسالة عبد المعز بني عيسى بعنوان " الغزو المغولي لدمشق وآثاره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

الفصل الأول

أحوال العراق وبلاد الشام قبيل الغزو المغولي

(٥٨٩ – ٦٥٦هـ/ ١١٩٣ - ١٢٥٨م)[١]

المبحث الأول

الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية

أولا: الحياة السياسية

كانت المنطقة الممتدة في العراق وبلاد الشام ومحيطها قبيل الغزو المغولي تتميز بوجود قوى وكيانات متنوعة يمكن إجمالها كما يأتي[٢]:

١- الخلافة العباسية في العراق، وكانت في عصرها الأخير المتهالك.
٢- الأمراء الأيوبيون في مصر وبلاد الشام، وكانوا في صراع بيني متجدد.
٣- الصليبيون المتمركزون في الشريط الساحلي الشامي.
٤- الأرمن في شمال بلاد الشام.
٥- الخوارزميون في خراسان.
٦- الإسماعيليون ومركزهم قلعة أَلَموت.

وتقتضي الدراسة تسليط الضوء على وضع هذه القوى كلا على حدة حتى تكون صورة العراق وبلاد الشام السياسية واضحة في الفترة التي سبقت الغزو المغولي:

---

(١) حدد الباحث هذه الفترة بسبب التحول السياسي الخطير الذي أحدثته وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) في المحيط الجغرافي لمادة الدراسة.

(٢) إسماعيل، اكتمال، الحملات المغولية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية على بلاد الشام، دار رسلان، دمشق، د.ط، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ص ٣٩-٤٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: إسماعيل، الحملات المغولية؛ حافظ، أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، د.م، د.ط، د.ت، ص ٢٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: حافظ، الدولة الخوارزمية؛ الغامدي، علي عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ص٦٥ و ص ص٣٤٨-٣٥٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الغامدي، بلاد الشام.

١- الخلافة العباسية في العراق

تولى الخلافة العباسية في هذه الفترة أربعة من الخلفاء وهم: الناصر لدين الله[(١)](٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م)، والظاهر بأمر الله[(٢)](٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م)، والمستنصر بالله[(٣)](٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٥-١٢٤٢م)، والمستعصم بالله[(٤)](٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م).

وقد أطلق المؤرخون على هذه الفترة اسم العصر العباسي الأخير، الذي تميز في الجملة بالضعف في النواحي السياسية، حيث تجلت مظاهر هذا الضعف في أمور منها:

أ- ضعف الخلفاء

---

(١) الناصر لدين الله: أبو العباس أحمد بن الخليفة المستضيء بأمر الله الحسن العباسي، ولد سنة (٥٥٣هـ/١١٥٨م) بويع بالخلافة بعد وفاة والده أول ذي القعدة سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م)، امتدت خلافته سبعا وأربعين سنة فكان بذلك أطول بني العباس خلافة، توفي سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م). الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان(ت٧٤٨هـ-١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام(٥٢ج)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج٤٥، ص ص٨٣-٩٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الذهبي، تاريخ؛ الصفدي، الوافي، ج٦، ص ص١٩٢-١٩٥؛ ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي(ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب(١٠ج)، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ج٧، ص ص١٧٢-١٧٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن العماد، شذرات الذهب.

(٢) الظاهر بأمر الله: أبو نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله أحمد العباسي، ولد سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م)، كان نعم الخليفة محسنا إلى رعيته، دامت خلافته تسعة أشهر ونصف، توفي سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م). الذهبي، تاريخ، ج٤٥، ص ص١٦٥-١٦٩؛ الصفدي، الوافي، ج٢، ص ص٦٩-٧٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص١٩٢-١٩٣.

(٣) المستنصر بالله: أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد العباسي، ولد سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)، بويع له بالخلافة بعد وفاة والده، وكانت دولته جيدة في الجملة، توفي سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م). الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٥ج)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ج٢٣، ص ص١٥٥-١٥٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الذهبي، السير؛ الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات(٤ج)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج٢، ص ص٥٣٣-٥٣٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الكتبي، فوات.

(٤) المستعصم بالله: عبد الله بن منصور العباسي، ولد سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، بويع له بالخلافة بعد وفاة والده، وكان حسن الديانة، لكنه قليل الرأي والتدبير والتيقظ فيما يخص أمور الدولة. الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٥٨-٢٦٢؛ الصفدي، الوافي، ج١٧، ص ص٣٤٣-٣٤٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٤٦٧-٤٦٨.

يعد الناصر لدين الله أول خلفاء هذا العصر، والحقيقة أن آراء المؤرخين غير متفقة في شخصية الناصر السياسية، ففي الوقت الذي يتهمه البعض بالضعف وسوء الإدارة ، حيث كان - في رأيهم - قبيح السيرة في رعيته، وخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد[١]، يرى البعض الآخر – وهم الأكثر - بأنه كان من أجدر بني العباس خلافة، حيث أعاد هيبة الخلافة، وقضى على كل محاولة لسحب البساط من تحت قدمها؛ حيث تخلص سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) من هيمنة أستاذ داره[٢] مجد الدين أبو الفضل[٣] عندما قام بقتله[٤]، كما حاول بسط هيمنة الخلافة على دول الأطراف من خلال تبنيه لنظام الفتوة[٥]، إضافة إلى ذلك فإنه تمكن من التخلص من سيطرة

---

(١) ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم(ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ(٩ج)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج٩، ص ص٧٤٥-٧٤٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الأثير، الكامل؛ الصفدي، الوافي، ج٦، ص١٩٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٣٢.

(٢) لقب يطلق على القائم على الشؤون الخاصة بالخليفة أو السلطان. دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: دهمان، معجم.

(٣) مجد الدين أبو الفضل: هبة الله بن أبي القاسم علي، كان شيعيا غاليا، ارتقى في أيام الناصر، وحكمه في الأمور والصدور حتى سعى به بعض الناس؛ فقتل سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م). الذهبي، تاريخ، ج٤١، ص ص١٦٧-١٦٨.

(٤) أحلام حسن مصطفى النقيب، سياسة الخليفة الناصر الداخلية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ص١٩٢-١٩٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: أحلام، سياسة الخليفة الناصر.

(٥) الفتوة: لغة: الشجاعة ولعب الخفة والقوة، وفي العصر العباسي أصبحت الفتوة اسما لجماعة من مظاهر أفرادها لبس زي خاص بها كالسراويل، يرأسهم متقدم فتيان وهو بمثابة رئيس الجماعة، واتخذت الفتوة في تطورها صورا مختلفة، فهناك فتوة الفرسان وهي فتوة فضيلة وبر، وفتوة اللاهين وهي فتوة العيارين وأكثر أتباعها من المتمردين على المجتمع، وفتوة الصوفية وهي مما اقتبسه الصوفية من الفتوة من مُثُل جيدة وأدخلوه إلى منهجهم، وفتوة الماجنين وهي فتوة الذين يميلون إلى الشرب والسماع واللهو، وفتوة المترفين وهي فتوة أصحاب الثراء والجاه والسلطة وكان من مظاهرها الخروج إلى الصيد والتفنن في الرمي. وقد اختلفت آراء المؤرخين في علة تبني الناصر الفتوة ودعمها، فمنهم من يقول بعبثية الناصر ولهوه عن أمور الدولة، ومنهم من يرى أن ذلك كان نوعا من الأساليب لتقوية سلطة الخلافة، ولتوحيد الأمة، من خلال ربط الفتوة بشخصه فيحصل له من أفرادها الانقياد =

= والطاعة، كما أن إسنادها لعلي بن أبي طالب –رضي الله عنه – يعطي سلطة أدبية للخلافة إضافة لسلطتها الروحية من جانب، ويعمل على القضاء على التعصب المذهبي من خلال تقرب الناصر من الشيعة دون الابتعاد عن السنة، ومنهم من يرى أن دافع الخليفة الناصر من ذلك بث روح جديدة وعزيمة فتية في نفوس الشباب وقادة المسلمين لمجابهة الأخطار التي أصبحت تهددت الدولة، ومنهم من يرى أن عمل الخليفة هذا ما هو إلا محاولة لزيادة الصلة والترابط بين الخلافة وأمراء الأطراف الذين قويت مكانتهم على حساب دولة الخلافة. لمعرفة آراء المؤرخين حول فتوة الناصر، ينظر: أحلام، سياسة الخليفة الناصر، ص ص١٥٠-١٥٨؛ الجمل، إبراهيم محمد حسن، الفتوة في الإسلام، نهضة مصر، د.م، د.ط، د.ت، ص ص٨١-٩٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الجمل،

السلاجقة على الخلافة وأعاد لها سلطتها[١]، وفيما يتعلق بعلاقته مع رعيته فقد كان " ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بأيامه رخاء وعدلا وطيب عيش فالكبير والصغير منهم داع له "[٢].

وعندما تولى الظاهر لدين الله الخلافة قام أيضا بمحاولات أخرى لبسط هيمنة الخلافة على الجوانب السياسية، كما قام بإصلاحات دينية واجتماعية، فعمل على إظهار السنة، ومنع المظالم، إلا إن قصر مدة خلافته حال بينه وبين ظهور نتائج هذه المحاولات[٣].

ولما تولى المستنصر بالله الخلافة سار على نهج والده في إظهار السنة، ومنع المظالم، ونشر العدل والإنصاف بين الناس، وحمدت سيرته بينهم، إلا أنه لم يكن فيه الكفاية من الناحية السياسية لضبط الأمور، فأخذت الأحوال السياسية في التدهور[٤].

وأما أكبر صور ضعف الخلافة، فتجلت في عهد الخليفة المستعصم بالله، الذي وصف بالضعف، والخور، واللهو، وتبذير الأموال، والانشغال عن مواجهة المغول بتوافه الأمور، على الرغم من

= الفتوة؛ الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٣٣٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الخطيب، معجم؛ الخطيمي، أحمد محمد، الفتوة نشأتها وتطورها، د.ن، عمان، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ص١٥٩-١٧٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الخطيمي، الفتوة؛ دهمان، معجم، ص١١٧؛ القزاز، محمد صالح داود، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير(٥١٢-٦٥٦هـ)، مطبعة القضاء، النجف، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٢٧٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: القزاز، العصر العباسي الأخير؛ هدى خليل أبو نعمه، الفتوة في بغداد في عهد الخليفة العباسي الناصر، بحث تخرج غير منشور، كلية الآداب، جامعة آل البيت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ص٥٧-٦١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: هدى، الفتوة في بغداد.

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم الرفاعي ومحمد العثماني، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٥١٥؛ أحلام ، سياسة الخليفة الناصر الداخلية، ص١٩٩.

(٢) ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي(ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير، تعليق: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٢م،ص ١٧٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن جبير، الرحلة

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ص٧٤٧-٧٤٩، وص ص٧٥٩-٧٦٠؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٦٤٩.

(٤) الذهبي، تاريخ، ج٤٦، ص٤٥٣؛ العمري، شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله(ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ج٦، ص ص٣٠٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العمري، مسالك الأبصار.

علمه باقترابهم من بلاده[1]، وكان مستضعف الرأي، قليل الخبرة بأمر المملكة مطموعا فيه، غير مهيب في النفوس[2]، وكان فيه شح وقلة معرفة وحب للمال وسوء تدبير للأمور[3]، وكل ما فعله لما علم بذلك أنه جمع حاشيته، فأشار إليه بعضهم بضرورة المواجهة تحت قيادته، فلم يقبل هذا الرأي، ورشح ولده ليشترك بدلا منه، ولم تتفق الآراء، فأخذ يسوف حتى هاجم المغول بغداد[4].

ب- تدخل الحاشية ورجال الدولة في شؤون السلطة

تميز هذا العصر بتغلغل نفوذ الخدم والمماليك، حيث كان لهم النفوذ المطلق في الدولة سياسيا، وماليا، وعسكريا، وإداريا، فمنهم أرباب المناصب والولايات، وكبار الأمراء وقادة الجيش؛ مما أدى إلى عدم ممارسة الخلفاء لسلطاتهم، وإلى اعتمادهم على هؤلاء.

فسبق ذكر هيمنة مجد الدين أبو الفضل أستاذ دار الخليفة الناصر على أمور الدولة في بداية تولي الناصر حتى أصبح يدعى له إثر الدعاء للخليفة إلا أن الناصر تمكن من التخلص منه، وبرزت سيطرة الحاشية على سلطة الدولة في عهد المستعصم[5]، حتى إن وصول المستعصم إلى

---

(١) الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٧٤؛ الكتبي، محمد بن شاكر(ت٧٤٩/١٣٧٥م)عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، دار الحرية، بغداد، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٢٠، ص٧٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الكتبي، عيون؛ العمري، مسالك الأبصار، ص ص٣١٠-٣١١.

(٢) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا(ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبدالقادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ص٣١٧-٣١٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الطقطقي، الفخري.

(٣) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٢٥٩؛ ابن حبيب، الحسن بن عمر(٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، درة الأسلاك، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، رقم ٥١٤٦، أحداث سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، مخطوط، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حبيب، درة الأسلاك.

(٤) الخزنداري، الأمير شهاب الدين قرطاي العزي، تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تحقيق: هورست هاين ومحمد الحجيري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٨١-٨٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الخزنداري، تاريخ النوادر.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص١٧٨؛ معروف، ناجي، المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، دار الشعب، القاهرة، ط٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ص٣٥-٤٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: معروف، المدارس الشرابية؛ القزاز، العصر العباسي الأخير، ص٨١ و ص ص ١٠٣-١٠٤.

سدة الخلافة لعب فيه نفوذ الحاشية دورا كبيرا، فيذكر ابن واصل أن الدويدار[(١)] الصغير[(٢)] والشرابي[(٣)]- وكانا غالبين على الأمر - عملا على إيصال المستعصم للخلافة بدلا من أخيه الخفاجي[(٤)]؛ وذلك ليسهل تحكمهما فيه؛ لضعفه من جهة، ولخوفهما من الثاني من جهة أخرى لشدته وحزمه[(٥)]. ويلحق بهذا ما كان حادثا بين رجال الدولة من خلافات كما هو الحال بين الوزير ابن العلقمي[(٦)] والدويدار الصغير اللذين كانا في خلاف مستمر، ففي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) نسب إلى الثاني أنه يعمل على خلع الخليفة وتولية ولده، فاستوحش من الوزير، واضطرب الأمر بين العامة وقتل جماعة وجرح خلق، ثم سكنت الفتنة[(٧)].

---

(١) الدَوادار أو الدويدار هو الذي يحمل دواة الخليفة أو السلطان، وهي وظيفة موضوعها نقل الرسائل عن الخليفة أو السلطان ، وعرض القصص والبريد، وأخذ خطهما على عامة المناشير. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن عبد الله (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صُبح الأعشى في صناعة الإنشاء(١٤ج)، دار الكتب الخديوية، القاهرة، د.ط، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، ج٤، ص١٩؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: القلقشندي، صبح الأعشى؛ دهمان، معجم، ص٧٧.

(٢) هو مجاهد الدين أيبك، مقدم الجيوش العراقية على عهد المستنصر والمستعصم، كان بطلا شجاعا موصوفا بالرأي والإقدام، قتل صبرا في وقعة بغداد. الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص ص٢٨١-٢٨٢.

(٣) شرف الدين إقبال بن عبدالله، كان شيخا شجاعا كريما، شريف النفس له معروف كثير، وفيه دين وخشوع، بذل للعلماء والشعراء، توفي سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م). الذهبي، السير، ج٢٣، ص٣٧٠.

(٤) الخفاجي هو أخو المستعصم، وكان شهما شجاعا، عزم على مجاهدة المغول في حال توليه الخلافة: الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٢٥٩.

(٥) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم(ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب(٥ج)، تحقيق: جمال الدين الشيال، د.ن، د.م، د.ط، د.ت، ج٥، ص٣١٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن واصل، مفرج الكروب.

(٦) مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي، من بني أسد، اشتغل في صباه بالأدب ففاق فيه، تولى وزارة العراق أربع عشرة سنة، وكان فاضلا كريما وقورا محبا للرياسة، خبيرا بأدوات السياسة، يحب أهل العلم والأدب، ولاه المغول وزارة بغداد بعد سيطرتهم عليها، ولم تطل مدته بعدها؛ حيث توفي في جمادى الآخرة سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٢١؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٩٠-٢٩٢؛ الصفدي، الوافي، ج١، ص١٥١؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص ص٢٥٦-٢٥٨؛ ابن كثير، أبوالفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية(٢٠ج)، راجعه: عبدالقادر الأرناؤوط و بشار عواد معروف، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج١٥، ص ص٢٣٥-٢٣٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن كثير، البداية؛ الطهراني، آغا بزرك، الأنوار الساطعة في المائة السابعة، تحقيق: علي تقي منزوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص١٥٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الطهراني، الأنوار الساطعة.

(٧) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٢٤.

وبرزت آثار هذا الخلاف في عدم اتفاق كلمة رجال الدولة في كيفية التعامل مع المغــول أثنــاء قصدهم لبغداد، فالوزير ابن العلقمي أشار على الخليفة ببذل الأموال إلى المغول لثنيهم عن دخــول بغداد، فثناه الدويدار وغيره، فأصغى إليهم، وبعث بهدية قليلــة إلــيهم مــع الشــيخ عبــدالله بــن الجوزي[(١)].[(٢)]

ت- ضعف الجيش

يعتبر الجيش صمام أمان لأي نظام سياسي، ومصدر قوة لأي حاكم، وفي عهد المستعصم ظهــر على الجيش العباسي ضعف ملحوظ، فقد كان سلبيا في قضية إعداد الجيش لمواجهة الأخطار التــي تهدد بلاده، فبالرغم من علمه باقتراب المغول إلا أنه صار ينفق الأموال على أموره الخاصة، ومما يذكر في هذا أن الخليفة قام بتعمير قصر له أتمه سنة (٦٥٤هــ/١٢٥٦م)[(٣)]، وفي مقابل ذلك أهمــل حال الجند، ومنعهم أرزاقهم وقطع أخبازهم[(٤)]؛ فتعثروا وافتقروا، فآلت أحوالهم إلى سؤال النــاس، وبذل وجوههم في الطلب بالأسواق والجوامع[(٥)]، كما أن أعدادا كبيرة منهم سرحت من الخدمــة[(٦)]؛ فاضطر أكثرهم إلى الخروج إلى الشام، أو الالتحاق بالمغول بسبب الحاجــة والفقــر[(٧)]، وصــار بعضهم يعمل في حمل القاذورات، وبعضهم يكاري على فرسه؛ ليتحصلوا على ما يتقوتون بــه[(٨)]؛ فأدى كل ذلك إلى جعل الجيش ضعيفا دون مستوى الحدث الذي يرتقبه، علما بأن جــيش الخلافــة

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٣٤٩؛ الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص٣٢.

(٢) ابن الجوزي، شرف الدين عبدالله بن محي الدين يوسف بن الجوزي، ولي الحسبة ثم تركها تزهدا، ثم اشــتغل بالتدريس، توفي سنة(٦٥٦هــ/١٢٥٨م).ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٤٩٥.

(٣) الكتبي، عيون، ج٢٠، ص٩٣.

(٤) الخبز: أي الراتب والمخصصات، وتجمع على أخباز. دهمان، معجم، ص٤١.

(٥) الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص ص٣١-٣٤؛ الكتبي، عيون، ج٢٠، ص ص١٢٩-١٣٠.

(٦) العيني، بدر الدين محمود(ت٨٥٥هــ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان(٤ج)، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، د.ط، ١٤٠٧هــ-١٩٨٧م، ج١، ص١٧٠، وسيشار إليه لاحقا: العيني، عقد الجمان.

(٧) مجهول، الحوادث، ص٣٠٤؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٨؛ القزاز، العصر العباسي الأخير، ص١٠٣ ، ص ص١٤٤-١٤٩.

(٨) السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن علي(ت٧٧١هــ/١٣٧٠م)، طبقات الشافعية الكبرى(١٠ج)، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو، القاهرة، ط٢، ١٣٤٣هــ/١٩٢٤م، ج٨، ص ٢٦٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: السبكي، الطبقات الكبرى.

تمكن سابقا وفي أكثر من مرة من التصدي لجيش المغول ومنعهم من تحقيق أهدافهم، كما حدث في الأعوام: (٦٢٩هـ/١٢٤١م) و(٦٣٣هـ/١٢٣٥م) و(٦٣٤هـ/١٢٣٦م) و(٦٣٥هـ/١٢٣٧م) و(٦٤٢هـ/١٢٤٤م) و(٦٤٣هـ/١٢٤٥م)(١)، مما يعطي مؤشرا على أنه لو أعدت الخلافة سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) عدتها الصادقة لمجابهة المغول، وآثر أهل السلطة الاجتماع بدل الاختلاف، وتوحدت قوى الشام فيما بينها، وأمدت بغداد بمدد من جيوشها لربما لم يتمكن المغول من بغداد بتلك السهولة التي حصلت.

٢-الأيوبيون في بلاد الشام ومصر

قبل الحديث عن وضع الدولة الأيوبية قبيل الغزو المغولي لابد من الإشارة إلى طبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين دولة الخلافة العباسية والأيوبيين. فالعلاقات بين الطرفين كان يسودها احترام متبادل، منذ عهد صلاح الدين الأيوبي(٥٧٠-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م) الذي كان مواليا للخلافة ومعترفا بسيادتها الدينية(٢)، وبعد وفاة صلاح الدين ظلت العلاقات جيدة بين الطرفين، ذلك أن الناصر اتبع سياسة عدم الانحياز لطرف دون آخر في الخلافات الأيوبية البينية مما أكسبه ودهم واحترامهم(٣).

وبعد وفاة صلاح الدين حدث شرخ عظيم في جسم الدولة الأيوبية، على الرغم من أن صلاح الدين عمل على تلافي ذلك بتقسيم دولته على أفراد أسرته، وكانت السلطنة من نصيب ابنه الملك الأفضل(٤) صاحب دمشق، إلا أن الخلافات البينية سرعان ما دبت بين ورثاء السلطة، وكان أول

---

(١) ينظر في ذلك: مجهول، الحوادث، ص ص١٢٧-١٢٨ و ص ص١٣٧-١٣٩ و ص ص٢٣٣-٢٣٤؛ وص ص٢٤٠-٢٤١؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب(٣٣ج)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ج٢٣، ص١٩٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: النويري، نهاية الأرب؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٥، ص٤٦؛ ج٤٦، ص١٣ و ص ص١٨-١٩؛ ج٤٧، ص ص٢١-٢٢؛ معروف، المدارس الشرابية، ص ص٩٩-١٠١ وص ص ١٠٣-١٠٦.

(٢) هدى إبراهيم أحمد الموسى، العلاقات السياسية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة آل البيت، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص١١٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: هدى، العلاقات السياسية.

(٣) هدى، العلاقات السياسية، ص١٢٢.

(٤) هو نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف، ولد سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م)، كان أكبر إخوانه، كان عنده علم وأدب، يحب العلماء ويحترمهم، توفي سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م). الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص٢١٤.

خلاف ظهر بينهم هو محاولة العزيز بن صلاح الدين[١] صاحب مصر انتـــزاع دمشـــق مـــن يـــد الأفضل؛ بسبب ما كان عليه الثاني من فساد سياسي، وضعف إداري، ولهو، وعبث، وانشغال عـــن أمور السلطة[٢]، مع ما كان عند العزيز أصلا من طموحات للسيطرة على زمام الســـلطنة، إضـــافة إلى الدور الذي لعبه كبار أمراء الدولة الذين أبعدهم الأفضل بتأثير وزيـــره ابـــن الأثيـــر[٣]، فـــي تحريض العزيز على انتزاع دمشق من يد أخيه.

إلا أن هذه الطموحات لم تكن لتتحقق بالسهولة التي كان يؤملها العزيـــز؛ ومـــا ذاك إلا لوجـــود طموحات مماثلة عند غيره من ورثة الدولة، وعلى رأسهم كبير البيت الأيوبي العادل أبو بكـــر بـــن أيوب[٤] أخو صلاح الدين الذي استنجد به الأفضل ضد العزيز، فوجدها العـــادل فرصـــة ســـانحة للدخول في ساحة الصراع المفضية لكسب وضع سياسي أفضل، فأخذ يوجـــه مجريـــات الأحـــداث لصالحه، حتى تمكن في آخر المطاف بعد سلسلة من الصراعات من بسط سيطرته علـــى الســـلطة، وتحصل على تقليد الخليفة العباسي الناصر لدين الله له بذلك سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، فغدا بـــذلك السلطان الشرعي لمصر وبلاد الشام[٥].

---

(١) هو عثمان بن صلاح الدين، ولد سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م)، كان حيبا كريما عفيفا عن الأموال والفروج، محبوبا من قبل أهل مصر، سمع الحديث من الحافظ السلفي وغيره، وحدث بالاسكندرية. الصـــفدي، الـــوافي، ج١٩، ص ص٣٤٠-٣٤١.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١١٠؛ الغامدي، بلاد الشام، ص٤٢.

(٣) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، ثالث أخوين من أسرة ابن الأثير الموصلية، أولهما: عز الدين بن الأثير صاحب الكامل في التاريخ، والثاني: مجد الدين بن الأثير. وزر بدمشق للأفضل فأساء، مـــات= = ببغداد سنة(٦٨٢هـ/١٢٨٣م). ابن واصل، ج٣، ص١١٠؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر(٤ج)، تحقيق: محمـــد السعيد بن زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٣، ص٢٣٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الذهبي، العبر.

(٤) أبو بكر محمد بن أيوب أخو صلاح الدين، ولد سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م)، ولاه أخوه صـــلاح الـــدين الكـــرك والشوبك والبلاد الشرقية، كان خليقا بالملك، حسن التدبير حليما مجاهدا، توفي سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م). الـــذهبي، تاريخ، ج٤٤، ص ص٢٦٩-٢٧٠؛ الصفدي، الوافي، ج٢، ص١٦٨.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ص١٨٠-١٨٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٢٢.

وبعد أن استتب الوضع بيد العادل قام بتقسيم مملكته بين أبنائه فأعطى الكامل[١] مصر، وأعطى المعظم عيسى دمشق[٢]، وأعطى الأشرف موسى[٣] الرها وحران وما يتصل بهما، وأعطى الأوحد[٤] خلاط[٥] وميافارقين[٦]،[٧] وقسم بقية البلاد بين أبنائه الآخرين.

وفي سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) توفي العادل بالتزامن مع قدوم الحملة الصليبية الخامسة القاصدة مصر[٨]، وقد تمكن أبناء العادل بزعامة الملك الكامل من طرد الصليبيين عن دمياط سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م)[٩]. وقد كان هذا الانتصار أحد ثمار العلاقة الحسنة التي كانت بين أبناء

---

(١) الكامل محمد بن العادل، ولد سنة(٥٧٦هـ/١١٨٠م)، ملك الديار المصرية عشرين سنة في حياة والده، وعشرين سنة بعد وفاته، كان صحيح الإسلام معظما للسنة وأهلها، توفي سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م). ابن خلِّكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان(٨ج)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ج٥، ص ص٧٩-٨٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن خلكان، وفيات الأعيان؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠١.

(٢) الملك المعظم عيسى بن العادل، ولد سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م)، حفظ القرآن الكريم، وبرع في مذهب أبي حنيفة، شرح الجامع الكبير عدة مرات، توفي سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٦م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ص٤٩٤-٤٩٦؛ الصفدي، الوافي، ج٢٣، ص١٦٥.

(٣) الأشرف موسى بن العادل، ولد سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م)، كان عفيفا عن المحارم، محبا للصالحين، توفي سنة (٦٣٥هـ/١٣٣٤م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ص٣٣٠-٣٣٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص ص١٤٢-١٤٥.

(٤) الملك الأوحد أيوب بن العادل، ملك خلاط خمس سنين فسفك دماء أمرائها، وظلم وعسف؛ فابتلي بأمراض مزمنة حتى تمنى الموت، توفي سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م). الذهبي، تاريخ، ج٤٣، ص٣٢٧.

(٥) وتسمى أخلاط، وهي بلدة عامرة مشهورة من أجل مدن أرمينية. أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن علي بن أيوب(ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص ص٤٥٠-٤٥١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: أبو الفداء، تقويم؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي(ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان(٥ج)، دار صادر ، بيروت، د.ط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج٢، ص٣٨٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ياقوت، معجم البلدان.

(٦) ميَّافارقين: من بلاد الجزيرة الفراتية مجاورة لآمد وهي قاعدة ديار بكر. أبو الفداء، تقويم، ص ص٣٢١-٣٢٢؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٣٩.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٤٦-١٤٧.

(٨) ابن العميد، المكين جرجس (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ص٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن العميد، أخبار الأيوبيين.

(٩) المصدر نفسه، ص ص١١-١٢.

العادل[١]، والتي يصفها ابن الأثير بقوله: " فلما توفي الملك العادل ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه، واتفقوا اتفاقا حسنا، ولم يجر بينهم من الاختلاف... وكانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق إلى الآخر؛ ولذا زاد ملكهم، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم "[٢].

إلا أن هذه العلاقة الحسنة لم تدم طويلا بين أبناء الملك العادل فبمجرد طرد الصليبيين أخذ داعي الشر يسيطر على قلوب الإخوة[٣] ما أدى إلى حدوث الخلافات بينهم.

وقد تطورت الخلافات البينية بين الأيوبيين إلى نشوب حروب داخلية بينهم، تمكن في نهايتها الملك الكامل من بسط سيطرته على العرش الأيوبي في مصر وبلاد الشام[٤].

وبعد وفاة الملك الكامل سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) ورث عرشه ابنه[٥] الملك العادل[٦] الذي شهد عصره خلافات أيوبية بينية انتهت في آخرها بتولي الملك الصالح نجم الدين أيوب[٧] بن الملك الكامل مقاليد الحكم في مصر، ثم ما لبث أن خضعت له الإمارات الشامية تباعا، فتوحدت بهذا

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢٧٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٨٩ و ص ص١١٨-١١٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٦، ص١٩٦ و ص ص٢٠٣-٢٠٤ و ص ص٢١٠-٢١٦؛ جبران، نعمان محمود، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مكتبة حمادة، إربد، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٥٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: جبران، دراسات.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٧٥.

(٣) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ص١٥-١٨ و ص٢٠.

(٤) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٢١.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٦) العادل بن الكامل ويسمى العادل الصغير تمييزا له عن جده العادل، عمل بعد توليه السلطنة على وضع المكوس، وزيادة الجناد، إلا أنه اشتغل باللهو واللعب والهزل، خلع سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م). النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص ص١٦٧-١٦٨.

(٧) هو الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولد سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، كان عزيز النفس، عفيفا، حييا، لايرى الهزل، ولا العبث، استكثر من الأتراك وأبعد الكرد، مات سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م). الذهبي، تاريخ، ج٢٣، ص ص١٨٧-١٩٣.

مصر وبلاد الشام للمرة الثالثة[١] في العصر الأيوبي وذلك في سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)[٢].

لم ينعم الملك الصالح نجم الدين أيوب كثيرا بما حققه من إنجازات؛ فما لبث أن توفي في نفس هذه السنة، وتولى بعده ابنه توران شاه[٣] بعهد من والده.

ونظرا لسوء سيرة توران شاه مع زوجة أبيه شجر الدر[٤] ومع مماليك أبيه؛ تآمرت عليه شجر الدر مع هؤلاء المماليك، فقتلوه شر قتلة في المحرم من سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، وبهذا زالت دولة بني أيوب في مصر.

---

(١) الجدير بالذكر أن الوحدة بين مصر وبلاد الشام تعرضت بعد موت صلاح الدين للانفراط أكثر من مرة؛ بسبب الخلافات الداخلية، وقد تمكن العادل أخو صلاح الدين من إعادتها أولا سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، ثم أعادها ثانيا الكامل بن العادل سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٨م)، ثم أعادها ثالثا نجم الدين الصالح أيوب سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، ثم أعادها رابعا المماليك على إثر الانتصار في عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م). ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ص١٨٠-١٨٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٢٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٩١وص٢٩٣؛ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن محمد(ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة(٢ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م،ج٢، ص٢٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: السيوطي، حسن المحاضرة؛ جبران، دراسات، ص ص١٦٦-١٦٧؛ الغامدي، بلاد الشام، ص ص١٨٠-١٨٥.

(٢) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ص٢٦-٣١ و ص٣٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٦، ص٢٩١ و ص٢٩٣؛ الغامدي، بلاد الشام، ص ص١٨٠-١٨٥.

(٣) السلطان غياث الدين توران شاه بن الصالح أيوب، كان قوي المشاركة في العلوم، حسن المباحث، ذكيا، لكنه لم يكن يصلح للملك، قتله المماليك البحرية سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م). الذهبي، تاريخ، ج٤٧، ص ص٣٨٦-٣٨٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٤١٧.

(٤) شجر الدر، كانت مملوكة تركية للملك الصالح أيوب، ثم تزوجها، وصفت بأنها ذات شهامة ونفس قوية، ماتت مقتولة سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م). الكتبي، عيون، ج٢٠، ص١١٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٤٦٣-٤٦٤.

وبعد مقتل توران شاه اجتمع أمراء المماليك البحرية(١)، وأعيان الدولة، واتفقوا على إقامة شجر الدر في مملكة مصر، وأن يكون مقدم العسكر(٢) الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي(٣)، وهو من المماليك البحرية(٤).

وبهذا ابتدأ ظهور دولة جديدة في التاريخ الإسلامي، هي دولة المماليك، التي هيأت كثير من الظروف الداخلية والخارجية لظهورها وقيامها.

إلا أن الأمر الذي يجب الانتباه إليه، هو أن تولي شجر الدر لمقاليد السلطة المصرية لن يمر بكل سهولة؛ إذ أنه ولأول مرة في تاريخ مصر والشام الإسلامي، تتولى امرأة مقاليد السلطنة(٥)؛ وعليه فقد ظهر لهذا الأمر نتائج مهمة، منها:

---

(١) المماليك البحرية: هم المماليك الذين استكثر منهم الصالح أيوب، وأقامهم في جزيرة الروضة بنيل مصر، وهم حراس السلطان في الليل والنهار. دهمان، معجم، ص١٤٤؛ شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي(٢٢ج)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ج٧، ص ص٢٢-٢٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: شاكر، التاريخ.

(٢) مقدم بمعنى قائد، واستعمل هذا اللقب في تشكيل الألقاب المركبة، مثل: مقدم الجيوش ومقدم ألف، ومقدم العسكر الوارد في المتن يدل على مرتبة يعد صاحبها من أعظم خدام السلطان وأنفذهم أمرا، وهو الذي يتولى أمر مماليك السلطان. العمري، عرف التعريف في المكاتبات، تحقيق: سمير الدروبي، دار ابن الجوزي، عمان، د.ط، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٥٤، حاشية ٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العمري، عرف التعريف؛ الخطيب، معجم، ص٤٠٤.

(٣) عز الدين أيبك، أول ملوك الأتراك في مصر وبلاد الشام، كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب، وكان صينا، عفيفا، كريما. ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٠٩-٣١٠.

(٤) أبوالفداء، المختصر في اخبار البشر(٢ج)، تعليق: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص ص٢٨٧-٢٨٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: أبو الفداء، المختصر؛ المقريزي، أحمد بن علي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك(٤ج)، تصحيح: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٣، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج١، ق٢، ص ص٣٥٨-٣٦٢، وسيشار إليه عند وروده = لاحقا: المقريزي، السلوك؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص٢٤-٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٣٢.

(٥) تعتبر رضية بنت السلطان شمس الدين ألتمش أول امرأة في التاريخ الإسلامي تتولى مقاليد السلطنة؛ إذ تولت حكم دولة سلاطين المماليك بالهند، بعد موت والدها سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، واستمرت سلطنة رضية أربع سنوات، حيث قتلت سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م). الذهبي، تاريخ، ج٤٦، ص٢١؛ العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ص٣٠-٣١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العبادي، قيام دولة المماليك.

- انفصال الوحدة التي أقامها الصالح أيوب بين مصر وبلاد الشام، إلى أن أعادها قطز بعد نصر عين جالوت.
- مزيد من الانقسامات البينية بين أمراء بلاد الشام من جهة، وبينهم وبين السلطة الجديدة في مصر من جهة أخرى.
- رفض الخليفة العباسي المستعصم لهذا الأمر[١].
- إنكار العلماء ذلك، كما سيأتي في موضعه.

وقد أدت تلك المعارضة لتولي شجر الدر للسلطة المصرية إلى زواجها من الأمير عز الدين أيبك، الذي نزلت له عن الملك[٢]، كما أقام المماليك واحدا من بني أيوب هو الأشرف موسى بن الملك الناصر يوسف وله عشر سنين؛ ليشارك المعز في السلطنة، ولم يكن له من السلطة إلا الاسم وجميع الأمور بيد المعز أيبك، وكان هدفهم من ذلك هو إسكات المعارضين من بني أيوب من ناحية؛ وليضمنوا مشاركتهم للمعز في تدبير شؤون الدولة، وعدم تفرده بذلك من ناحية أخرى[٣].

استمر المعز في السلطة حتى سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، حيث حدث تغير بينه وبين شجر الدر، بسبب ما بدر من كل منهما تجاه الآخر فالمعز أراد الزواج من ابنة صاحب الموصل، وشجر الدر عملت على الاستبداد بأمور المملكة، وألزمته بطلاق أم ابنه علي، وأخفت عنه ذخائر الملك الصالح

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٨.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ص٢٨٩-٢٩٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٦، ص٣٣٣.

(٣) اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي الحنبلي(ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان(٤ ج)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج١، ص ص٥٥-٥٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: اليونيني، ذيل مرآة؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٩؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٣٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٥-٦.

أيوب[١]؛ فعزم كل واحد منهما على التخلص من الآخر، فكانت هي الأسبق لذلك؛ إذ دبرت قتله مع بعض المماليك، فقتلوه في الحمام[٢].

وما لبثت هي أن ذاقت من نفس الكأس التي سقتها زوجها؛ حيث قتلتها جواري أم ابنه المنصور علي، الذي أقيم في السلطة بعد والده وعمره وقتئذ خمس عشرة سنة، وأقيم سيف الدين قطز[٣] نائبا للسلطنة[٤]، وصار مدبر دولة المنصور علي بن أيبك[٥].

بعد ذلك شعر مدبرو أمور الديار المصرية وعلى رأسهم نائب السلطنة أن المنصور علي لم يكن السلطان المناسب للظرف القائم، فعلاوة على صغر سنه وسوء تدبيره، فإن البلاد كانت تتعرض لغزو المغول المدمر؛ مما جعل قطز يفكر جديا في إزاحة المنصور علي عن السلطة والتفرد بها، وهو ما حصل في ذي القعدة من سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) مستغلا ظرف سقوط بغداد، وتهديد المغول لبلاد الشام؛ فعقد مجلسا بالقلعة بحضور الملك المنصور وعدد من الأعيان والأمراء، نوقشت فيه أوضاع البلاد، وضرورة الاستعداد لصد المغول عما تبقى من ديار المسلمين، وكان مما طرح في هذا المجلس التشاوري أهمية وجود سلطان قاهر يقاتل العدو بدلا من الملك المنصور؛ وهو ما حدا بقطز إلى تنحية الملك المنصور، وإعلان نفسه سلطانا على مصر[٦].

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص ص٤٥-٤٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ص٤٠١-٤٠٣؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٤٠ و ص١٤٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٣٣٤-٣٣٥.

(٢) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٤٣؛ مؤلف مجهول، تاريخ الدولة التركية، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، ميكروفلم رقم ١١٣٠، ورقة ٣/أ، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: مجهول، تاريخ الدولة التركية.

(٣) قطز بن عبدالله المعزي، كان من أكبر مماليك المعز أيبك، وصف بأنه صاحب دين وإسلام وخير، ذكر عن نفسه أنه ابن أخت السلطان خوارزم شاه، قتله بيبرس غدرا سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) بعد وقعة عين جالوت. الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٩١؛ الصفدي، الوافي، ج٢٤، ص ص١٨٩-١٩٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٠٧-٥٠٨.

(٤) وظيفة يسمى صاحبها بالنائب الكافل وكافل الممالك الإسلامية، وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان، ويعلم في التواقيع والتقاليد والمناشير وأمثال ذلك مما يقوم به السلطان. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ص١٦-١٧.

(٥) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ص٤٠٤-٤٠٥؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٤٣؛ مجهول، تاريخ الدولة التركية، ورقة ٣/أ.

(٦) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ص٤١٧-٤١٨؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص٢٢٠-٢٢١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٠٢.

وحتى تستقر الأوضاع في مصر وبلاد الشام وتتوحد الصفوف لمواجهة المغول؛ اعتذر قطز للمماليك المعزية[١] بأنه ما فعل الذي فعل إلا لقتال المغول، وبعدها ينظرون في من يولون، كما بعث إلى الملك الناصر[٢] بدمشق كتابا يقسم بالأيمان أنه لا ينازعه الملك ولا يقاومه وأنه نائبه بالديار المصرية، فاطمأن الناصر لذلك، وصلح الوضع بينهما[٣]. وبعد ذلك اجتمعت كلمة أعيان مصر على سلطنة قطز، الأمر الذي دعم سلطته السياسية، كما أن انحياز مجموعة من المماليك بزعامة بيبرس البندقداري[٤] لقطز قوى موقفه في التصدي للمغول[٥].

٣- الصليبيون في الساحل الشامي

كان الوجود الصليبي في الفترة التي أعقبت وفاة صلاح الدين الأيوبي يتركز على طول الساحل الشامي على البحر المتوسط، ويتشكل هذا الوجود من ثلاث كيانات، هما: مملكة بيت المقدس في الجنوب، وعاصمتها عكا، وإمارتا أنطاكيا وطرابلس في الشمال[٦].

ولم يكن الوجود الصليبي في هذه الفترة بتلك القوة التي يؤهلها للقيام بمشاريع عدائية ضد الطرف الإسلامي، فالضعف الداخلي من جهة[٧]، وفتور جذوة الروح الصليبية في الغرب الأوروبي

---

(١) المماليك المعزية: هم أتباع المعز أيبك ولذا صارت نسبتهم إليه.

(٢) هو الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف، ولد سنة (٦٢٧هـ/١٢٢٩م)، كان جوادا، حسن الأخلاق، وفي دولته انحلال لعدم سطوته، اسره المغول أثناء مهاجمتهم لبلاد الشام سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ثم قتله هولاكو بعد خسارة جيشه في عين جالوت. الذهبي، السير، ج٢٣، ص ص٢٠٤-٢٠٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤١٨ و ص ص٤٢٢-٤٢٥.

(٤) هو بيبرس بن عبدالله البندقداري الصالحي النجمي، تنقل به الحال من الرق إلى الملك، اشتراه أولا أيدكين البندقدار، ثم اشتراه منه نجم الدين الصالح أيوب، تسلطن سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) بعد قتله لقطز، يعد بيبرس من أشهر سلاطين المسلمين؛ لتصديه للفرنج والمغول، توفي سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٨م). الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٣١؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص ص٢٠٧-٢١٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٦١٠-٦١١.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٠١؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٥٩؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ص٤١٩-٤٢٠.

(٦) جبران، دراسات ص٢٦٨؛ أبو عليان، عزمي عبد محمد، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، دار النفائس، عمان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ص٢٣-٢٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: أبو عليان، مسيرة الجهاد.

(٧) المرجع نفسه، ص٢٦٩.

الأوروبي من جهة أخرى، ساهم كلاهما في قصر المشـاريع الصـليبية علـى المحافظـة علـى المكتسبات؛ ولذا رحب الصليبيون بالغزو المغولي أملا في تحقيق مكاسب جديـدة وعلـى رأسـها اغتصاب بيت المقدس مرة أخرى.

وعلى الرغم من هذا الضعف الصليبي الداخلي والخارجي، فإن الحملات الصليبية إلى الشرق لم تنقطع، فقد جاءت الحملة الخامسة سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) بقيادة حنًّا دي بـرين، وتوجهـت إلـى مصر[١]، إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها.

ثم تلتها الحملة الصليبية السادسة سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) والتي اسـتدعتها الخلافـات الأيوبيـة البينية، وتمكن من خلالها فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا من عقد اتفاقية مع الملك الكامـل لمـدة عشر سنوات عرفت باسم (صلح يافا) تسلم بموجبه بيت المقدس من قبل الكامل الأيوبي[٢].

ظلت قضية احتلال الصليبيين لبيت المقدس تؤرق عموم المسلمين؛ ولذا فما لبثت معاهـدة يافـا على الانتهاء، حتـى عمـل الملـك الناصـر داود[٣] علـى تحريـره وهـو مـا حـدث سـنة

---

(١) المقريـزي، السـلوك، ج١، ق١، ص ص١٨٨-٢١٢ ؛ ابـن تغـري بـردي، النجـوم الزاهـرة، ج٦، ص١٩٦وص٢٠٢-٢٠٤؛ أبو سعيد، حامد غنيم، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ص٣٤٨-٣٥٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقـا: أبـو سـعيد، الجبهـة الإسلامية.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ص٢٣٠-٢٣٣؛ برجاوي، سعيد أحمد، الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ص٤٩٩-٥١١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: برجاوي، الحروب الصليبية؛ جبران، دراسات، ص ص١٧٨-١٨١؛ ؛ أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص ص٣٦١-٣٦٦؛ أبو عليان، مسيرة الجهاد، ص٢٢.

(٣) هو الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، ولد سنة(٦٠٣هـ/١٢٠٦م) بدمشق، كان حنفيا فاضلا بصيرا بالأدب، بديع النظم، ملك دمشق بعد أبيه ثم أخذها منه عمه الأشرف، فتحول إلى الكرك فملكها إحدى وعشرين سنة، ثم عمل عليه ابنه وسلمها إلى صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين ايوب وزالت مملكته، تـوفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٩٣؛ أبو شامة، شهاب الدين عبد الـرحمن بـن إسماعيل المقدسي(ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الذيل على الروضتين(تراجم رجال القرنيين السادس والسابع)، راجعـه: السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٢٠٠، وسيشار إليه عنـد وروده لاحقا: أبو شامة، الذيل؛ اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي اليمني المكي(ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان(٤ج)، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلميـة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٣، ص١٠٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: اليافعي، مرآة الجنان.

(٦٣٧هـ/١٢٣٩م)[١]، إلا أن الخلافات الأيوبية المستمرة أوقعت بيت المقدس بيد الصليبيين للمرة الثالثة، فقد تحالف الملك الصالح إسماعيل ملك دمشق مع الصليبيين ضد ابن أخيه الصالح أيوب ملك مصر؛ فنتج عن هذا التحالف وصول حملة صليبية فرنسية تسلمت بيت المقدس – ثمن التحالف - من الشاميين سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م).

وعلى الرغم من أن حملة فردريك - الناجحة من ضعف - ، وحملة سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)، تمكنتا من السيطرة على بيت المقدس، فإن ذلك لا يدل على قوة الصليبيين بقدر ما يدل من خلال مجريات الأحداث، على عمق الخلافات الأيوبية البينية، وأثرها في إفراز تلك النتائج الخطيرة التي لم تكن لتحدث لو طرحت جانبا، وغُلِّبت المصالح العامة على المصالح الشخصية، واتبع الشرع والعقل بدل الهوى وحظوظ النفس.

وفي خطة مضادة عمل الملك الصالح أيوب على البحث عن حليف له ضد خصمه الصالح إسماعيل وحلفائه الصليبيين، فعقد تحالفا مع الخوارزميين، أثمر عن تحقيق النصر له على الصليبيين في معركة غزة، واسترداد بيت المقدس سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)[٢]. وتعد هذه السنة آخر عهد للصليبيين ببيت المقدس.

وقد أدت هزيمة الصليبيين في معركة غزة الحاسمة واسترداد بيت المقدس منهم، إلى ردة فعل لدى البابوية؛ فدعت إلى القيام بحملة جديدة إلى الشرق، فاستجاب لتلك الدعوة لويس التاسع - ملك فرنسا - الذي سرعان ما أعد حملة وجهها إلى مصر، وهي الحملة الصليبية السابعة، فوصلت الحملة إلى دمياط سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، إلا أنها مُنيت بخسارة فادحة على يد الأيوبيين وعساكرهم من المماليك[٣].

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٤٢-٢٤٣؛ الغامدي، بلاد الشام، ص ص٢٧٥-٢٧٦.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٢٤٦ و ص ص٣٣٦ -٣٣٩؛ برجاوي، الحروب الصليبية، ص ص٥٢٢-٥٣٩؛ أبو عليان، مسيرة الجهاد، ص٢٢؛ الغامدي، بلاد الشام، ص ص٢٨١-٢٨٣.

(٣) ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي(ت٩٣٠هـ/١٥٤٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور(٥ج)، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج١، ق١، ص ص٢٧٧-٢٨٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن إياس، بدائع الزهور؛ عاشور، سعيد عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص ص١٠٦-١١٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: عاشور، مصر والشام.

يتبين من خلال ما سبق، أن الصراع الأيوبي الصليبي، كان مستمرا في الفترة التي سبقت الغزو المغولي، وهو أمر كان له دور كبير في زيادة بلاد الشام ومصر ضعفا على ضعفها في هذه الفترة، خصوصا أن الصليبيين كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للحصول على توسعات جديدة في بلاد الشام، بدليل أن السلطان قطز قبل خروجه للقاء المغول عمل على تحييدهم(١) خشية - على ما يبدو - من المباغتة الخلفية؛ وهو ما يدل على إدراك قطز لتطلعات الصليبيين في بلاد الشام.

٤- الأرمن في شمال بلاد الشام

الأرمن هم سكان أرمينية النصارى، وأرمينية تاريخيا عرفت بأرمينية الكبرى وأرمينية الصغرى، وشملت كل منهما منطقة جغرافية مختلفة. فأرمينية الكبرى أو أرمينية الأصلية يقصد بها الأراضي التي قطنها الشعب الأرمني النصراني فحملت اسمه، وأصبحت مصطلحا جغرافيا للإقليم الذي شمل الثلث الشرقي من آسيا الصغرى المؤلف حاليا من تركيا وأذربيجان(٢) والجزء الجنوبي من جورجيا(٣) وكانت تطل في أوجها على البحرين الأسود وقزوين، ووصلت في أواخر العصور الوسطى إلى البحر المتوسط(٤).

وأما أرمينية الصغرى أو الدولة الأرمنية الجديدة أو أرمينية في المنفى، فقد قامت في إقليم قيليقية جنوب الأناضول على الزاوية الشمالية الشرقية للبحر المتوسط بعد أن هاجم الروم مملكة أرمينية الكبرى سنة (٤٣٧هـ/١٠٤٥م)، إذ إنه بعد هذا التاريخ أخذ الأرمن في الهجرة من أرمينيا نحو الجنوب إلى الإقليم المذكور الواقع شمال غرب حلب، والذي كان الروم قد هجروا إليه من قبل كثيرا من الأرمن إثر استيلائهم على بلادهم(٥).

---

(١) عاشور، مصر والشام، ص ص١٦٩-١٧٠.

(٢) أذربيجان: تقع أذربيجان في الجزء الشرقي من منطقة القوقاز (القفقاس) بين جبال القوقاز وبحر قزوين، وتحيط بها إيران وجورجيا وروسيا وأرمينيا. الخوند، مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، دار رواد، بيروت، د.ط، د.ت، ج١، ص١٣٦؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الخوند، الموسوعة.

(٣) تقع جمهورية جورجيا في منطقة القوقاز على الحدود الأوروبية الآسيوية في الجهة الأوروبية، وهي التي عرفت في الكتابات الإسلامية باسم بلاد الكرج. الخوند، الموسوعة، ج٨، ص١٧.

(٤) عربش، سمير، أرمينية أرض وشعب، دار الريحاني، د.م، د.ط، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: عربش، أرمينية.

(٥) عربش، أرمينية، ص ص٨٠ -٨١؛ الغامدي، بلاد الشام، ص٦٥.

وقد تمكن هؤلاء المهاجرون من تكوين دولة أرمنية لهم سنة (٤٧٣هـ/١٠٨٠م) عرفت باسم أرمينية الصغرى، كما عرفت لاحقا باسم سيس نسبة إلى عاصمتها[(١)].

ومن هنا تكمن أهمية الإشارة إلى مملكة أرمينية الصغرى؛ فهي إحدى البوابات الرئيسية لبلاد الشام، كما أن معرفة موقفهم من المغول من جهة، وموقفهم من بلاد الشام من جهة أخرى يوضح الصورة كي يتسنى تفسير الأحداث وفق رؤية تحليلية تقترب من الحقيقة.

فالأرمن سعوا إلى التحالف مع المغول منذ قدومهم إلى آسيا الصغرى سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)[(٢)]. ويذكر العريني أن غزو المغول لبلاد الشام سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) قد حصل وفق خطة تعاونية مسبقة، اتفق عليها هيثوم الأول ملك الأرمن وهولاكو القائد المغولي في اجتماع دار بينهما، ولما وصل هذا الأخير إلى حلب انحاز إليه الأرمن، واشتركوا في إسقاط المدينة، كما ساهموا في الإيقاع بدمشق، وكان هيثوم الأول وأمير أنطاكية الصليبي بوهمند السادس في صحبة كتبغا نوين[(٣)] قائد الجيش المغولي الغازي لدمشق[(٤)]، وقد أثبتت الأحداث التاريخية اللاحقة اشتراك الأرمن في غالب الحملات المغولية ضد بلاد الشام[(٥)].

وأما علاقتهم ببلاد الشام فكانت علاقة عدائية؛ بسبب تلك السياسة الصليبية التي اتخذها الأرمن ضد المسلمين، وعلى ضوئها رسموا علاقاتهم مع أطراف الصراع في المنطقة؛ ومن هنا

---

(١) عربش، أرمينية، ص ص٨٠-٨١.

(٢) الغامدي، بلاد الشام، ص ص٣٤٨-٣٥٩.

(٣) هو مقدم المغول، وكان معظما عندهم لشجاعته ورأيه ودهائه، قتل في عين جالوت. الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٩١؛ الصفدي، الوافي، ج٢٤، ص٢٤٠.

(٤) العريني، السيد الباز، المغول، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ص٢٤٢-٢٤٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العريني، المغول.

(٥) حصل ذلك في عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، وفي موقعة حمص سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وفي نوبة غازان سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، وفي وقعة شقحب سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م). الدوادار، بيبرس بن عبد الله (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تقديم: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ص١٦٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الدوادار، التحفة المملوكية؛ الدوادار، بيبرس بن عبدالله المنصوري(ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة(ج٩)، تحقيق: محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الهرم، د.ط، د.ت، ص ٢٠٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الدوادار، زبدة الفكرة؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٤٨ وص ص٣٨٣-٣٨٤؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٢؛ إسماعيل، الحملات المغولية، ص٨٥ وص ٨٨ و ص٩٠ و ص٩١.

فإنهم احتفوا بالحملات الصليبية وتعاونوا معها تعاونا كبيرا جدا، وأسهموا في تحقيق نجاحاتها في بلاد الشام، وخصوصا فيما يتعلق بالحملتين الأولى والثالثة(١)؛ وما ذلك إلا رغبة منهم في القضاء على الإسلام وأهله، والسيطرة على بيت المقدس، فلما لم يتحقق ذلك على أيدي الصليبيين، رجوا أن يحققه المغول؛ فكان منهم ما سبق ذكره من تعاونهم معهم.

من ذلك العرض الموجز للأرمن وعلاقتهم الإيجابية مع أعداء المسلمين من الصليبيين والمغول، يتبين مدى مساهمتهم في تسهيل مهمة الغزاة، وعملهم على إسقاط بلاد المسلمين بأيديهم.

٥- الخوارزميون في خراسان

خرجت الدولة الخوارزمية من رحم دولة السلاجقة؛ حيث كان والد محمد بن أنوشتكين مؤسس الدولة الخوارزمية مملوكا لدى أحد أمراء السلاجقة ويدعى بلكباك، ولما كبر محمد أنوشتكين، ولاه الأمير حبشي قائد بركياروق خوارزم(٢)، ولقبه خوارزم شاه، ولما ملك السلطان السلجوقي سنجر خراسان(٣)، أقر محمد خوارزم شاه على خوارزم وأعمالها.

وبعدها استقرت أقدام هذا البيت في الملك حتى قضوا على دولة السلاجقة نفسها في خراسان سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م)، وسيطروا على بلاد الري والجبل وما وراء النهر، وقد ظلت هذه الدولة القوية قائمة حتى قضى عليها المغول سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)(٤).

وما يهم البحث فيما يتعلق بالدولة الخوارزمية، هو بيان علاقتها بالخلافة العباسية وبالأيوبيين في الفترة التي سبقت الغزو المغولي.

---

(١) الغامدي، بلاد الشام ، ص ص٣٤٨-٣٤٩.

(٢) خوارزم: إقليم يقع على جانبي نهر جيحون يحيط به من الغرب والشمال بلاد الترك، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر. أبو الفداء، تقويم، ص٥٤٢؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٢ ص٣٩٥.

(٣) خراسان: بلاد واسعة تقع بين العراق وإقليم خوارزم. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٠.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص١٨٣؛ ابن سباط، حمزة بن أحمد الغربي(ت بعيد٩٢٦هـ/١٥٢٠م)، صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط(٢ج)، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج١، ص ص٢١١-٢١٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن سباط، تاريخ؛ الخضري، محمد، الدولة العباسية، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ط، د.ت، ص٤٢٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الخضري، الدولة العباسية.

أما علاقتها بالعباسيين فكان يشوبها توتر ملحوظ؛ إذ بعد مساعدة الخوارزميين دولـــة الخلافـــة العباسية في التخلص من السلاجقة سنة (٥٩٠هـــ/١١٩٣م) على عهد عـــلاء الـــدين تكـــش(٥٦٨-٥٩٦هــ/١١٧٢-١١٩٩م)، سعى الناصر في استرجاع سيادة الخلافة على الأراضي التي ســـيطر عليها الخوارزمية بعد قضائهم على السلاجقة(١)، ومن هنا نشأت الخلافات بين الطرفين.

وكان من آثار هذه الخلافات إرسال الخلافة العباسية ســـنة (٥٩١هـــــ/١١٩٣م) عســـكرا إلـــى أصفهان حيث تمكن هذا العسكر من تملكها وطرد الخوارزميين منها بسبب انضمام الأهـــالي إلـــى جيش الخلافة(٢)، وفي سنة (٥٩٢هـــ/١١٥٩م) وقع تصادم عسكري بين عساكر الخلافة العباســـية وعساكر الدولة الخوارزمية عند همذان انهزم فيها عسكر الخلافة، وتملك الخوارزميون على إثرها همذان والري وأصفهان(٣). ثم عمل الخوارزميون على السيطرة على العراق العجمـــي مســـتخدمين القوة والبطش بأهل البلاد وهو ما أدى إلى استعادة سيطرتهم عليها(٤).

حاول الناصر لدين الله بعد ذلك مصالحة علاء الدين تكش ليدفع عن نفسه خطـــر الخـــوارزميين طالبا منه الاكتفاء بما أحرزه في العراق العجمي مقابل التصالح بينهما، إلا أن أطماع تكش لم تقـــف عند ذلك الحد، بل بعث إلى الخليفة الناصر يطلب السلطنة حسب ما كانت عليه ملـــوك الســـلاجقة٥، إلا أن الخلافة رفضت طلب خوارزم شاه تكش(٦) مما أدى إلى حدوث الخلافـــات بينهمـــا مجـــددا. فالخلافة من جانبها عملت على استعداء الغوريين(٧) ضد الخوارزميين الأمـــر الـــذي دفـــع تكـــش

(١) العبود، نافع توفيق، الدولة الخوارزمية، مطبعة الجامعة، بغداد، ط١، ١٣٩٨هـــ/١٩٧٨م، ص٨١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العبود، الدولة الخوارزمية.

(٢) العبود، الدولة الخوارزمية، ص٨٣.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص١٨٤.

(٤) العبود، الدولة الخوارزمية، ص ص٨٤-٨٥.

(٥) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص٤٩؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٢، ص١٢.

(٦) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص٥٠.

(٧) قامت الدولة الغورية في الهند وأفغانستان سنة (٥٤٣هـــ/١١٤٨م)، ويعتبر عز الدين حسين - الذي كان واليا للغزنويين على غزنة - مؤسس الأسرة الغورية، وبعد وفاته تمكن خلفاؤه من القضاء علـــى الغزنـــويين، وتوســـع سلطانهم ليشمل أفغانستان والهند، وفي سنة (٦١٢هـــ/١٢١٥م) تمكن الخوارزميون من القضاء على الدولة الغورية. الذهبي، تاريخ، ج٣٧، ص١٤؛ ج٤٤، ص٩؛ سليمان، أحمد السعيد، معجم الأسر الإسلامية الحاكمة، مكتبة لبنـــان ناشرون، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـــ-٢٠٠٤م، ص ص٤٠٥-٤٠٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: سليمان، معجم =

للتحالف مع الخِطا[١]، إلا أن عرى هذا التحالف ما لبثت أن انفكت بهزيمة الخطا والخــوارزميين[٢] أمام الغوريين، فاضطر بعدها تكش إلى تحسين علاقته مع الخلافة العباسية، لكن هذا السلام لم يــدم طويلا فقد توفي تكش بعد سنة من هذه الحوادث أي سنة (٥٩٦هــ/١١٩٩م)[٣].

بعد وفاة تكش تولى سلطة الدولة الخوارزمية ابنه قطب الدين محمد[٤](٥٩٦-٦١٧هـــ/١١٩٩-١٢٢٠م) وتلقب بلقب أبيه، وكانت علاقته بالخلافة العباسية ابتداء حسنة، إلا أن هذه العلاقة لم تلبث أن تدهورت بسبب طمع علاء الدين في إقامة الخطبة له ببغداد[٥]. فما كــان مــن الناصــر إلا أن حرض أتابكي[٦] فارس وأذربيجان والإسماعيلية على الاستيلاء علــى العــراق العجمــي[٧] مــن الخوارزميين[٨].

= الأسر؛ العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي، د.ن، الدمام، ط٣، ١٤٢٠هــ/١٩٩٩م، ص ص٢٣٧-٢٣٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العسيري، موجز التاريخ.

(١) الخِطا: هم من جنس الترك يدينون بالبوذية وبلادهم متاخمة لبلاد الصين. القلقشندي، صــبح الأعشــى، ج٤، ص٤٨٣.

(٢) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص٤٤؛ العبود، الدولة الخوارزمية، ص ص٨٧-٨٨.

(٣) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص٤٥.

(٤) هو علاء الدين محمد خوارزم شاه بن علاء الدين تكش، ملك مدة إحدى وعشرين سنة، واتسع ملكــه اتســاعا عظيما، كان محبا للعلماء محسنا إليهم، لم يكن مقبلا على الملذات، إنما همه في الملك وتــدبيره وحفظــه وحفــظ رعاياه. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ص٦٨٩-٦٩٠.

(٥) العبود، الدولة الخوارزمية، ص٩٠ وص٩٣.

(٦) كلمة أتابك كلمة تركية، تتألف من لفظين (أتا) وتعني الأب أو الشيخ المحترم لكبر سنه، و(بك) بمعنى أمير، ومعنى الكلمة الوالد أو الأمير، والمراد به أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المتقدمين بعد النائب، وفي الاصــطلاح تعني مربي الأمير، وأتابك مضافة إلى الجيوش من ألقاب نائب السلطان. العمري، عــرف التعريــف، ص٢٥٠، حاشية٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨؛ دهمان، معجم، ص١١.

(٧) العراق العجمي: هي بلاد الجبل، ويحدها من الغرب أذربيجان ومن الجنوب العراق العربي وخوزستان ومــن الشرق خراسان ومن الشمال بلاد الديلم وقزوين والري. أبو الفداء، تقويم، ص٤٦٩.

(٨) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص٤٦.

أثارت تلك المواقف للخلافة العباسية حفيظة الخوارزميين؛ فقرروا مهاجمة دولة الخلافة فغزوها سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) بقيادة علاء الدين الخوارزمي، إلا أن الظروف الجوية ونـزول الأمطار والثلوج حال بينه وبين ذلك[١].

وبعد وفاة علاء الدين الخوارزمي اعتلى عرش الدولة الخوارزمية ابنه جلال الدين منكبرتي[٢] (٦١٧-٦٢٨هـ/١٢٢٠-١٢٣٠م)، الذي استمر في سياسته العدائية للخلافة العباسية، ففي سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) هاجم جلال الدين منكوبرتي العراق وأوقع ببعض المدن العراقية مثل: بعقوبا[٣] بعقوبا[٣] والبت والراذان وتكريت[٤]، كما حاول جلال الدين الإيقاع بين المعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق والخلافة العباسية؛ فحرض المعظم عيسى على غزو أملاك الخلافة[٥].

لكن محاولات جلال الدين تلك لم تجد نفعا في إخضاع الخلافة العباسية، أو تحريض الأيوبيين عليها[٦]؛ ولذا اضطر إلى عقد صلح معها، فعاد السلام بينهما بعد نـزاع طويل[٧]، خصوصا أن الخطر المغولي لم يسمح له باستمرار مشروعه العدائي في جهة الغرب.

وأما علاقة الدولة الخوارزمية بالأيوبيين، فلم تكن أحسن حالا من سابقتها، إذ كانت الخلافات بين الطرفين ظاهرة، ففي سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) التقت عساكر الملك الأشرف بخلاط[٨] مع عسكر جلال الدين منكوبرتي على حدود المدينة[٩]، وفي شتاء سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) هاجم جلال الدين

---

(١) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص٦٤؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٧٩-٨٠؛ شاكر، التاريخ، ص ص٣١٣-٣١٤.

(٢) جلال الدين منكوبرتي ابن السلطان علاء الدين الخوارزمي، تملك البلاد الخوارزمية بعد وفاة والده، كان شجاعا وقورا في ظلم وسفك للدماء. الذهبي، السير، ج٢٢، ص ص٣٢٦-٣٢٩؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٢٢٩-٢٣٠.

(٣) هي مدينة بعقوبة الحالية، تبعد عن بغداد (٥٥) كم. العبود، الدولة الخوارزمية، ص١٠٨، حاشية (١٣٧).

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ص٧٣٤-٧٣٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص١٧١.

(٥) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص١٣٧؛ حمدي، الدولة الخوارزمية، ص٤٦.

(٦) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص١٤٩-١٥٠.

(٧) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص١٧٤-١٧٥؛ حمدي، الدولة الخوارزمية، ص ص٢١٥-٢١٧.

(٨) بلاد عامرة مشهورة من بلاد أرمينية. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ص٣٨٠-٣٨١.

(٩) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ص٧٥٨-٧٥٩؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص١٤٩.

مدينة خلاط، وحاصرها لمدة ثمانية أشهر، تمكن بعدها من السيطرة عليها سنة (٦٢٧هـ/١٢٣٠م)، إلا أن الأشرف تمكن في العام نفسه من استرجاعها[١].

وبعد هزيمة الأشرف لجلال الدين واسترجاعه لخِلاط، ترددت الرسل بينهما؛ لإقامة الصلح ونبذ العداوات، فاستقر الأمر على ذلك، حتى قضى المغول على الدولة الخوارزمية[٢].

ولقد أدى سقوط الدولة الخوارزمية بيد المغول، إلى دخول من بقي من عساكرها إلى منطقة الجزيرة وآسيا الصغرى، حيث أخذوا يشنون غارات مدمرة على بلاد الشام والجزيرة، كان لها آثار سيئة على هذه البلاد قبيل الغزو المغولي[٣]، كما استخدمهم بعض الأمراء الأيوبيين كقوة تحالف ضد منافسيهم في فترة الصراع الأيوبي البيني، كما سبق الإشارة إلى ذلك.

وعليه؛ يتضح من خلال هذه اللمحة الموجزة أن العلاقات بين الدولة الخوارزمية من جهة، وبين الخلافة العباسية وسلاطين بني أيوب من جهة أخرى، عشية الغزو المغولي، كانت في أسوإ حالاتها، وكانت عاملا كبيرا ساهم في إضعاف البلاد الإسلامية؛ وسهل سقوطها السريع بأيدي المغول.

٦- الإسماعيليون في أَلَموت

الإسماعيليون[٤] ينتسبون إلى فرقة الإسماعيلية، وهي من فرق الشيعة التي ساقت الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق(ت١٤٨هـ/٧٦٥م)، وقد تمكنت في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي من إقامة دولة لها في بلاد المغرب عرفت في التاريخ الإسلامي باسم الدولة الفاطمية، وفي سنة (٣٦٢هـ/٩٧٢م) نقل المعز لدين الله الفاطمي(٣٤٢- ٣٦٥هـ/٩٥٣-٩٧٥م)

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ص ٧٨٥-٧٨٦؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٥، ص ص٣٨-٤١؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٢٣٦ و ص٢٣٨ و ص٢٤٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٧٨٩.

(٣) الغامدي، بلاد الشام، ص ٣٣٧.

(٤) عن الإسماعيلية ينظر: البغدادي، عبد القاهر بن طاهر(ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق(٢ج)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ط، د.ت، ص٨٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: البغدادي، الفرق بين الفرق؛ الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم(ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الملل والنحل(٢ج)، تحقيق: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج١، ص ص١٩٦-١٩٧ و ص ص٢٢٦-٢٢٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الشهرستاني، الملل والنحل.

مركز الدولة الفاطمية من المهدية[١] إلى القاهرة بعد احتلالها من قبل قائده جوهر الصقلي[٢] سنة(٣٥٨هـ/٩٦٨م)[٣].

وعندما توفي الإمام الإسماعيلي الفاطمي المستنصر بالله سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، انقسمت الإسماعيلية إلى قسمين: مستعلية، تقول بإمامة المستعلي بن المستنصر، وهو الابن الأصغر للمستنصر، ونزارية، تقول بالإمامة في نزار بن المستنصر وهو الابن الأكبر[٤]، ولما رجحت كفت المستعلية، وسيطروا على مقاليد الحكم في الدولة الفاطمية؛ اضطر النزارية إلى الهرب من القاهرة، فتوجهوا إلى الشرق بزعامة الحسن بن الصباح الفارسي الأصل، حيث تمكن في أواخر القرن الخامس الهجري، من إقامة تنظيم لدعوته في منطقة الديلم بالبلاد الإيرانية، فاستولى على قلعة أَلَموت[٥] الواقعة شمالي مدينة قزوين[٦] سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، واتخذها مقرا له، ثم انطلق من

---

(١) تقع في شمال أفريقية (تونس الحالية)، ابتناها الإمام الإسماعيلي عبيد الله المهدي حوالي سنة (٣٠٣هـ/٩١٥م) لتكون مقرا له ولدعوته. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ص٢٢٩-٢٣١.

(٢) هو أبو الحسن جعفر بن عبد الله الرومي المعروف بالكاتب مولى المعز الفاطمي ومن أكبر قواده، كان عبيدي العقيدة، وبعد احتلال جوهر لمصر صار حاكما لها حتى قدم المعز سنة (٣٦٢هـ/٩٧٢م)، توفي سنة (٣٨١هـ/٩٩١م). الصفدي، الوافي، ج١١، ص ص١٧٢-١٧٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص ص٢٩-٣٤.

(٣) الصفدي، الوافي، ج١١، ص ص١٧٢-١٧٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص ص٢٩-٣٤؛ سرور، محمد جمال الدين، تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ص١٩-٢٩ و ص ص٦٣-٧٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: سرور، الدولة الفاطمية.

(٤) الجهني، مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة(٢ج)، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج١، ص٣٨٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الجهني، الموسوعة الميسرة.

(٥) بنيت قلعة ألموت من قبل أحد ملوك الديلم، وسماها " أله موت "، وتعني بلغة الديلم " تعليم العقاب "، وسماها آخرون " عش العقاب "، وأعيد بناؤها سنة (٢٤٦هـ/٨٦٠م) من قبل رجل علوي، وفي أيام وصول حسن الصباح كانت بيد رجل علوي اسمه مهدي، كان قد أخذها من السلطان السلجوقي. لويس، برنارد، الحشيشية، ترجمة: سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٠٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: لويس، الحشيشية.

(٦) مدينة مشهورة من بلاد الديلم، وهي اليوم تابعة لإيران على نحو مائة ميل شمال غربي طهران. الحميري، محمد ابن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص٤٦٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الحميري، الروض المعطار؛ لسترنج، كي، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٥٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: لسترنج، بلدان الخلافة.

خلالها للسيطرة في السنوات التالية على عدد كبير من البلدات والقــرى والحصــون ذات المواقــع الإستراتيجية في المناطق المجاورة في رودبار، وقوهستان جنوبي خراسان. وخلال سنوات قليلــة لاحقة تمكن الإسماعيلية النزارية من تكوين كيان إسماعيلي مستقل خاص بهم، مؤلف من حصــون كبيرة وصغيرة متبعثرة عبر الأجزاء الشمالية والشرقية من بلاد فارس، وقد ظل هذا الكيان قائمــا حتى قضى عليه المغول سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[1].

وتكمن أهمية الإشارة إلى الإسماعيلية فيما يتعلق بالفترة التي سبقت الغزو المغولي؛ لأمور منها:

- اختلافهم العقدي عن المحيط الإسلامي السني المجاور لهم، فالدولــة العباســية والســلاجقة مــن الغرب، والدولة الخوارزمية من الشرق، ما أدى إلى استمرار التصادم والمناوئة بينهم.

- اعتمادهم في تعاملهم مع القوى المحيطة بهم على سياسة الاغتيالات المنظمة؛ مما اضــطر هــذه القوى إلى الكف عن محاولة القضاء عليهم[2]، وقد كان من أشهر ضحاياهم الوزير السلجوقي نظام الملك صاحب المدارس النظامية الذي تم اغتياله سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)[3]، وصــاحب الموصــل

---

(١) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٤٣؛ سليمان، معجم، ص ص٢١٢-٢١٣؛ جمال، ناديا إيبو، الناجون من الغزو المغولي، ترجمة: سيف الدين القصير، بيروت، دار الساقي، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ص٦٥-٦٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: جمال، الناجون.

(٢) الذهبي، تاريخ، ج٣٤، ص ص٣٤-٣٥؛ الصياد، فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ(٢ج)، دار النهضــة العربية، بيروت، د.ت، ج١، ص ص ٨١-٨٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الصياد، المغول؛ لويس، الحشيشية، ص٢٠٦.

(٣) الحسن بن علي الطوسي، ولد سنة (٤٠٨هـ/١٠١٧م)، وزر للسلطان ألب أرسلان السلجوقي وكان يدبر أمره، ثم وزر لابنه ملكشاه، وكان محبا للعلم والعلماء، بهرت سيرته العقول جودا وكرما وحشمة وإحياء لمعالم الــدين، توفي سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م). ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، المنتظم فــي تاريخ الملوك والأمم(١٩ج)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج١٦، ص ص٣٠٢-٣٠٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الجــوزي، المنــتظم؛ الذهبي، تاريخ، ج٣٣، ص ص٢٣-٢٤؛ الصفدي، الوافي، ج١٢، ص ص٧٧-٧٩.

طغتكين الذي اغتاله أحد الباطنية بجامع دمشق سنة (٥٠٧هـ/١١١٣م)[١]، والخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٤م)[٢].

- محاولتهم الاتصال المبكر بالمغول؛ فقد راسل زعيمهم جلال الدين حسن الثاني(٦٠٧-٦١٨هـ/١٢١٠-١٢٢١م)، جنكيز خان بقصد التقرب إليه، وحثه على مناهضة الدولة الخوارزمية[٣].

ولذلك؛ فإن وجود هذه الجماعة يعتبر عاملا - يضاف إلى العوامل السابقة - ساهم في إضعاف المسلمين في وقت كان خطر العدو المغولي يطرق أبواب العالم الإسلامي[٤].

ثانيا: الحياة الاقتصادية

من المعروف أن الأوضاع الاقتصادية مرتبطة في العادة بالأوضاع السياسية قوة وضعفا، فالعلاقة بينهما طردية في غالب الأحوال؛ وعليه فإن ضعف الأحوال السياسية في العراق وبلاد الشام أثر في ضعف الأحوال الاقتصادية.

كما أن أحداث الغزو المغولي لشرق العالم الإسلامي أدى إلى إصابة الحركة التجارية بالشلل، فقد كان الطريق التجاري المعروف بطريق الحرير يبدأ من الصين ثم إلى التبت وإلى شمال بحر آرال، ثم إلى جنوب بحر قزوين فإلى طهران وبغداد ودمشق، ومنها إلى ثلاث شعب هي الطريق إلى بيروت، والطريق إلى صور، والثالثة إلى أنطاكيا، ومن هذه المدن إلى موانئ البحر المتوسط في أوروبا وأفريقيا[٥]، وعند ملاحظة هذا الطريق يتبين أنه كان متأثرا بغزوات المغول في منطقة

---

(١) هو مودود بن ألتونكين سلطان الموصل كان من خيار الملوك دينا وشجاعا وخيرا. الذهبي، تاريخ، ج ٣٥، ص ص٢٨-٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٠٣.

(٢) هو المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر، ولد سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، وأمه أم ولد، بويع له بالخلافة عند موت أبيه في ربيع الآخر سنة (٥١٢هـ/١١١٨م)، "وكان ذا همة عالية، وشهامة زائدة، وإقدام ورأي، وهيبة شديدة، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها، وباشر الحروب بنفسه". السيوطي، تاريخ، ص ص٤٩١-٤٩٤.

(٣) الصياد، المغول، ج١، ص٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ج١، ص٨٦.

(٥) عمران، محمود سعيد، المغول والأوروبيون والصليبيون وقضية القدس، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٢٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: عمران، المغول.

آسيا الوسطى. وبعد سيطرة المغول على بلاد ما وراء النهر ومناطق الدولة الخوارزمية عملوا على تشجيع التجارة عبر طريق آخر يمر عبر إيران ثم إلى أرمينيا ومنها إلى موانئ البحـــر المتوســط، ولم تعد طريق التوابل بنشاطها إلى مصر وسوريا(١)، مما عمل على حرمان العراق وبلاد الشام من عوائد التجارة مع مناطق الصين وشرقي آسيا.

وعند ملاحظة المدن التي يمر بها هذا الطريق في جهة الشرق يتبين تأثرها بهجمات المغول فـــي بداية توسعاتهم نحو العالم الإسلامي؛ ومن هنا كان لهذا العامل دور كبير في إضـــعاف الاقتصـــاد الإسلامي في العراق وبلاد الشام عشية الغزو المغولي.

ويجب ألا ينسى أثر الحروب الصليبية التي عملت على حرمان العراق وبلاد الشـــام مـــن مـــورد اقتصادي في غاية الأهمية ألا وهو التجارة، وذلك من ناحيتين، الأولى: تأثر طرق التجارة بين بلاد الشام وأوروبا بسبب انعدام الأمن أثناء الحملات. والثانية: تمكن الصليبيون علـــى إثـــر الحمـــلات الصليبية من السيطرة على موانئ الساحل الشامي، حيث تحكم الصليبيون بعد ذلك في تجارة أوروبا القادمة عبر هذه الموانئ وحرم الشاميون من الانتفاع بهذا المورد مما أضر كثيرا باقتصـــاد بـــلاد الشام عشية الغزو المغولي(٢).

ومن العوامل المهمة التي أثرت على اقتصاد العراق وبلاد الشام قبيل الغزو المغولي سيادة نظام الإقطاع. ففي عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي انتشرت الإقطاعات، وكانت تعطى من الأراضـــي الخراجية، وفي بلاد الشام كانت الدولة الأيوبية بحكم أن تكوينها الأساسي قام على أساس عسكري، إضافة إلى أنها ورثت كثيرا من نظم الدولة الزنكية فإن أهم مظهر برز فيها منذ نشأتها هو انتشـــار نظام الإقطاع العسكري، هذا النظام الذي أدى إلى نتائج أضرت باقتصاد العراق وبلاد الشـــام(٣)، إذ

---

(١) الدوري، عبد العزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربيـــة، بيـــروت، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ص٨٦-٨٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي.

(٢) كاهن، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشـــيخ، ســـينا للنشـــر، القـــاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ص٢٤٧-٢٤٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: كاهن، الشرق والغرب.

(٣) إسماعيل، محمود، " الإقطاع في العالم الإسلامي "، حوليات كلية الآداب، جامعـــة الكويـــت، حوليـــة ١١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٥٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: إسماعيل، الإقطاع.

إن كثيرا من موارد الدولة إنما كانت تعود لفئات محددة هم الأمراء والجنود، مع ما يضاف إلى ذلك من تلقيهم الرواتب من الدولة[١].

وقد انتشرت في الدولة الأيوبية نوعان من الإقطاعات هي: الإقطـاع الإداري، الـذي اختـص بأمراء الدولة الأيوبية وغيرهم من كبار أمراء وموظفي الدولة. والإقطاع الحربي الذي يمنح للمقطع مقابل تقديم الخدمات العسكرية[٢].

ويضاف إلى ذلك تأثر العراق في الفترة التي سبقت الغزو المغـولي بالأحـداث الكونيـة التـي أسهمت في إضعاف اقتصاد العراق.

والمتتبع لهذه الحوادث يجدها متنوعة ما بين زلازل، وحرائق، وأوبئة، وجـراد، وخلـل فـي منسوب أنهار العراق بين زيادة مفرطة ونقص حاد، وغلاء في الأسعار.

فابن الأثير يذكر عدة حوادث من هذا النوع وقعت بالعراق في الفترة ما بـين سـنتي (٥٩٠ و ٦٢٤هـ/١١٩٣و١٢٢٦م)[٣]، واستمرت مثل هذه الحوادث فـي السـنوات التاليـة، ففـي سـنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) وقع ببغداد وباء، وتزايدت الأمراض[٤]، وفي السنة التي تلتها زاد نهـر دجلـة زيادة مفرطة، وغرقت بسببه مواضع كثيرة من البلد، وفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) غلت الأسـعار ببغداد[٥]، وفي سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) كثرت الأمطار فيها؛ فزادت دجلة زيادة كبيـرة، وغرقـت الرُصافة[٦].

---

(١) آ.آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ص٣٠١-٣٠٢، وسيشار إليـه عنـد وروده لاحقـا: آشـتور، التـاريخ الاقتصادي.

(٢) حسن، نزار يونس، نظام الإقطاعيات الحربية في مصر المملوكية، د.ن، د.م، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ص٤٠-٤١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: حسن، نظام الإقطاعيات.

(٣) ابن الأثير، الكامـل، ج٩، ص ص٤٨٥-٤٨٦ و ص٤٩٤ و ص٤٩٧ و ص٦٣٠ و ص٦٦٠ و ص ٧٢٥ و ص٧٣٢ و ص٧٥١ و ص٧٦٨ و ص٧٣٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص١٣٨.

(٤) مجهول، الحوادث، ص١٨٤؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٢٣٩؛ ابن تغري بردي، النجـوم الزاهـرة، ج٦، ص٣٠٥.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٢٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

وتكررت هذه الحادثة سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وكان خطرها أكبر، فقد زادت دجلة زيادة لم يسمع بمثلها، وغرق خلق كثير، ووقعت كثير من الدور على أهلها، وأشرف الناس على الهلاك[١]. وينبغي ألا يغفل أن ورود أنباء الغزو المغولي إلى العراق بين الفينة والأخرى أدى إلى انتشار حالة من القلق والذعر بين الناس، وإلى هجر الفلاحين لمزارعهم؛ مما أدى إلى قلة الإنتاج الزراعي فأحدث ذلك مجاعات متجددة من جهة[٢]، وضعفا في الدخل الفردي والعام من جهة أخرى.

وعند الانتقال إلى بلاد الشام ومصر يلاحظ تأثير الحروب والنزاعات الداخلية بين الأيوبيين في وضعها الاقتصادي؛ ذلك أن جزءا ليس محدودا من عائدها الاقتصادي سوف يتجه في الإنفاق على الموارد العسكرية، إضافة إلى أثر هذه الحروب في تدمير الموارد الحيوية، والإخلال بالأمن الاجتماعي.

ويضاف إلى ذلك تعرض بلاد الشام ومصر للعوارض البيئية الضارة من مجاعات وزلازلات وأوبئة وغلاء، فالمصادر تذكر أمثلة عديدة لهذه العوارض في الفترة التي سبقت الغزو المغولي[٣] مما أدى إلى تأثر الوضع الاقتصادي بها.

ثالثا: الحياة الاجتماعية

إن الحديث عن الأوضاع الاجتماعية له جوانب متعددة، وسيركز البحث على بيان ما له علاقة بأحداث الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام.

فمن جوانب الحياة الاجتماعية التي انعكس أثرها على الوضع الداخلي في العراق قبيل الغزو المغولي حدوث الفتن بين أصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية وخصوصا بين السنة والشيعة، ويبدو أن هذه الفتن كانت متجددة وشبه شائعة، ويدل على ذلك قول ابن الأثير في حوادث سنة

---

(١) الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٧١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٤٥٥-٤٥٦.

(٢) القزاز، العصر العباسي الأخير، ص ص١٣٦-١٣٨.

(٣) ينظر في ذلك: ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٥٣٣ و ص٥٥٥ و ص٧٢٥؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٢، ص ص٣٠-٣٥ و ص٤٢ و ص٤٦، ج٤٣، ص٣٤؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص١١٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ٤٥٤ و ص٤٦١-٤٦٢ و ص٤٦٥، ج١٥، ص٤٩ و ص١٢٤ و ص١٣٨ و ص١٧٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ص١٥٦-١٥٧ و ص٢٢٤ و ص٢٥٥ و ص٢٦٠ و ص٣١٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ص٢٥٦-٢٥٩.

(٦٢١هـ/١٢٢٤م) أنه وقعت فتنة بواسط بين السنة والشيعة " على جاري عادتهم "[١]، وهي عبارة توحي بتجدد الفتن بين السنة والشيعة بين الفينة والأخرى.

وفي فترة الخليفة المستعصم كانت الفتن بين السنة والشيعة مستمرة ببغداد، ففي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وقعت فتنة بين الطائفتين[٢]، وفي سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) وقعت بينهما فتنة حتى تجالدوا بالسيوف، ونهبت الكرخ محلة الشيعة[٣].

ومن الفتن التي كانت منتشرة في هذه الفترة ببغداد الصراعات بين المحال الاجتماعية. ففي سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م) حدثت فتنة بين عوام أهل باب الأزج وأهل المأمونية؛ بسبب سبع قتله عوام أهل باب الأزج وأرادوا الطواف به بالمأمونية فمنعهم أهلها فوقعت الفتنة بينهم ثم تدخلت الدولة وأصلحت بينهم. كما وقعت فتنة أخرى للسبب نفسه بين أهل قطفتا والقرية من محال الجانب الغربي ببغداد، وفي نفس السنة وقعت فتنة بين أهل سوق السلطان وبين أهل الجعفرية لخصام وقع بين رجلين[٤]. وفي رجب سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م) حدثت فتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة بسبب حادثة قتل بينهما؛ فوقع تقاتل بين المحلتين وقويت الفتنة ودامت أياما، وقتل بين الفريقين خلق كثير، ثم تدخلت الدولة فقطعت الفتنة[٥].

ومن الفتن التي وقعت ببغداد ما ذكره ابن الساعي في أحداث سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) من حدوث فتنة في محلة المأمونية بسبب مقتلهم لأحد نقباء باب الشحنة؛ فخرج عليهم الشحنة[٦] الأمير فخر الدين أيبك الأنباري في عسكره، فقامت في وجهه العامة فجردت عليهم العساكر السيوف وأوقعوا بهم، فقتل منهم جماعة وجرح آخرون وهاج البلد، حتى تدخلت الدولة وأوقفت الفتنة[٧].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٧٣١.

(٢) ابن خلدون، تاريخ، ج٣، ص٦٥١.

(٣) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٣٠٥؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٥٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٥٥٩؛ ابن الساعي، تاريخ، ص ص١٥٠-١٥٣.

(٥) ابن الساعي، تاريخ، ص٢٠٥.

(٦) الشحنة: لفظ تركي فارسي معناه رئيس الشرطة أو العسس، وقد ظهرت لأول مرة في العهد السلجوقي، حيث أصبح لكل مدينة طائفة تحرسها عرفت باسم الشحنكية، ورئيسهم يسمى الشحنة. الخطيب، معجم المصطلحات، ص ص٢٦٩-٢٧٠.

(٧) ابن الساعي، تاريخ، ص٢٢٧.

وبعد أيام من تلك الفتنة ثار جماعة من العوام على المسالحة بباب النوبي الشريف فجرحوا خلقـا منهم وقتلوا جماعة، فقبضت الدولة على مثيري الفتنة فارتدع الناس عن تكرار ذلك[١].

وفي سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) وقعت فتنة أخرى بين أهل المأمونية وأهل باب الأزج بسبب قتـل سبع، واقتتلوا فتدخلت الدولة لحل النزاع بينهم وسكنت الفتنة[٢]. وفـي سـنة (٦٢٩هـ/١٢٣١م) جرت فتنة بين أهل باب الأزج وبين أهل المختارة، وتجالدوا بالسيوف فقتل من الفـريقين وجـرح جماعة، فخرج عليهم الجند في اليوم التالي وكفوهم عن ذلك[٣].

وتكررت أمثال هذه الفتن أواخر سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) حيث وقعت فتنة بين سكان منطقة باب الأزج ورجال من أهل المأمونية واشتد القتال بينهم وقتل من الفريقين جماعة، ثم تـدخل العسـكر للفض بينهما[٤].

كما وقعت في السنة نفسها فتنة أخرى بين أهل المختارة وسوق السلطان وقتل منهمـا جماعـة، ووقعت فتنة كذلك بين جماعة من محلة القرية وأهل محلة قطفتا وقتل فيها جماعة ثم تدخل شـحنة بغداد وجماعة من العسكر فأصلحوا بينهم[٥]. وفي ذي الحجة من سنة (٦٥٤هـ/١٢٦٥م) وقعـت فتنة بين أهل الكرخ وأهل قطفتا لأن أهل الكرخ قتلوا رجلا من أهل قطفتا، فأمر الخليفة بـردعهم فركب الجند إليهم وتبعهم الغوغاء، وأحرقت عدة مواضع وقتل عدة أشخاص واشتد الخطـب، ثـم أخمدت الفتنة بعد بلاء كبير[٦].

ومن الظواهر الاجتماعية التي برزت في بغداد قبيل الغزو المغولي ظهور العيَّـارين[٧]، حيـث ظهروا في بداية أمرهم على شكل حركات غير منظمة. ففـي سـنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) ظهـر

---

(١) ابن الساعي، تاريخ، ص٢٢٧.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٦٦٠.
(٣) مجهول، الحوادث، ص٥٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ص٢٠٣-٢٠٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٠٥.
(٦) الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص٢٣.
(٧) ينظر عن العيارين ص ص٢٢-٢٣ من هذه الرسالة.

اللصوص ببغداد، فرتب لهم المستنصر بالله شحنة وأطلق يده في المفسدين[١]. وفي سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) كثر شغب العوام ببغداد، وقتل أثناء ذلك جماعة من الناس في عدة أماكن[٢].

وفي سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ظهر العيارون في بغداد بشكل جماعي، وأخذوا بسلب ما يجدونه عند الناس قهرا، وكثر فسادهم[٣]. ويورد صاحب كتاب " الحوادث " إشارة تدل على مدى إفساد العيارين ببغداد في هذه الفترة. فقد ذكر أن محمد بن أبي الفرج رئيس الرؤساء أحضر بنَّاءً وأمره ببناء دار يعجز العيارون عن نقبها، بحيث يكون حائطها في غاية الإحكام والعرض فإذا شرع العيارون في نقبه من آخر الثلث الأول من الليل لا يفرغون منه إلا وقت السحر[٤].

وهي إشارة تبين مدى العبث الذي يقوم به العيارون في البلاد وضعف الرادع لهم، علما بأن صاحب ذلك البناء هو رئيس الرؤساء فكيف إذا بحال غيره ممن هو أقل منه.

كما يذكر المؤلف نفسه فساد العيارين ببغداد سنة(٦٥٣هـ/١٢٥٥م) فيقول: " وفيها كثر فساد العيارين ببغداد، فكانوا يسلبون عمائم الناس ويأخذون ثيابهم من الحمامات ظاهرا، ويقتلون من ظفروا به من أتباع صاحب الشرطة، ونهبوا دكاكين درب زاخل، وصار الناس معهم في ويل عظيم"[٥].

ومن الأوضاع الاجتماعية المتعلقة بموضوع البحث أوضاع أهل الذمة في المجتمع العراقي قبيل الغزو المغولي. فقد كان أهل الذمة من اليهود والنصارى يشكلون أقلية في العراق، ومع هذا فقد كان لهم أثر واضح في المجتمع فاليهود كانوا يعملون في الجوانب المالية والمصرفية كالتجارة والصياغة والجهبذة، أما النصارى فعملوا في مهن الطب والكتابة في الدواوين؛ مما أكسبهم تقدما ومكانة عالية في الدولة[٦].

---

(١) ابن الساعي، تاريخ (الضائع)، ص٣٤٢.
(٢) مجهول، الحوادث، ص١٣١.
(٣) ابن الساعي، تاريخ (الضائع)، ص٣٦١؛ مجهول، الحوادث، ص٢٩٨.
(٤) مجهول، الحوادث، ص٣٠٠.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٢١.
(٦) القدحات، محمد عبد الله، الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير، دار البشير، عمان، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ص٥٤-٥٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: القدحات، الحياة الاجتماعية.

وقد منحت الدولة أهل الذمة حرية ممارسة طقوسهم الدينية والاجتماعية الخاصة بهم، وكانت أماكن عبادتهم منتشرة في العراق، كما استقلوا بتنظيماتهم الدينية والاجتماعية من خلال هيئة خاصة بهم يتم ترشيح رؤسائها عن طريق مرسوم خلافي بعد اختيارهم من قبل أهل ملتهم[١].

وأما بالنسبة للأوضاع الاجتماعية ببلاد الشام قبيل الغزو المغولي فلم تكن بأحسن حالا من العراق، حيث كانت تظهر بين الفينة والأخرى المنكرات كممارسة الخنا وشرب الخمور، كما انتشرت المكوس والرشوة والمظالم، وأحدثت الرسوم الجائرة[٢].

وأما الفتن بين السنة والشيعة فلم تكن أمرا شائعا في بلاد الشام كالعراق؛ بسبب ضعف الوجود الشيعي هناك. ومع ذلك فلم يخلو الحال من صدامات عند تجدد أسبابها، ففي سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) قامت العامة على الشيعة، وأخرجوهم إلى باب الصغير من دمشق[٣].

وبمثل ما كان يحدث في العراق من فتن بين أهالي المحال الاجتماعية، كان يحدث أيضا في الشام، ففي سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) وقعت بدمشق فتنة بين أهل الشاغور وأهل العقيبة، وتقاتلوا فيما بينهم بالسلاح، فتدخل المعظَّم عيسى بنفسه لإطفاء الفتنة[٤].

وبسبب تميز بلاد الشام بقدسية بيت المقدس فيها عند جميع الطوائف السماوية الثلاث، فقد كان لأهل الذمة وجود قديم فيها، وقد اتبع المسلمون معهم عبر فترات الحكم الإسلامي المختلفة سياسة التسامح الديني، وقد انسحبت تلك السياسة على الفترة التي سبقت الغزو المغولي، فقد كان منصب

---

(١) ابن الساعي، تاريخ، ص٢٦٠؛ القدحات، الحياة الاجتماعية، ص٦١ و ص٦٤.

(٢) الذهبي، تاريخ، ج٤٤، ص٢١؛ ج٤٦، ص٢٤؛ ج٤٨، ص٢٩ و ص ص٣١-٣٢؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص٢٤١؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية(٣ج)، تحقيق: محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج١، ص ص٣٠٣-٣٠٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: المقريزي، الخطط.

(٣) الذهبي، تاريخ، ج٤٢، ص٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٤٤، ص ص١٢-١٣.

بطريرك النصارى ورئيس اليهود معترفا به من قبل الدولة، إذ إن مرسوم تولية هذين المنصبين تتم غالبا عن طريق نواب السلطان وأحيانا عن طريق السلطان نفسه[١].

وقد تعددت المواقف التي تبين تسامح المسلمين مع أهل الذمة عشية الغزو المغولي فمن الأمثلة التي توضح ذلك أن الملك المعظم سمح في سنة (٦١٨هـ/١٢١٩م) للقديس فرنسيس وأتباعه من الرهبان الفرنسيسكان[٢] بالإقامة فوق جبل صهيون للانقطاع للعبادة، وبعد أن استرد الملك الصالح أيوب بيت المقدس سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) أظهر تسامحا إزاء طوائف الرهبان، كما أرسل إلى البابا أنوسنت الثالث يعتذر عما لحق بكنيسة القيامة من أضرار على يد الخوارزمية[٣].

ولم تختلف تلك السياسة المتسامحة للمسلمين مع يهود بلاد الشام عشية الغزو المغولي، فالأيوبيون في مصر وبلاد الشام ساروا على نهج صلاح الدين في التسامح مع اليهود، ونشأت بين السلاطين الأيوبيين ورؤساء اليهود بمصر علاقات جيدة انعكس أثرها الإيجابي على أحوال اليهود في بلاد الشام، فعلى سبيل المثال قام الملك العادل بالإحسان إلى اليهود الوافدين إلى الشام عندما فروا من انجلترا سنة (٦٠٨هـ/١٢١٠م) وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية[٤].

وكان لأهل الذمة دور في النشاط الاقتصادي ببلاد الشام وخاصة فيما يتعلق بالجوانب الصناعية، فمن أهم الحرف التي برز فيها اليهود - مثلا - صناعة الزجاج[٥]، كما تميزو بصناعة الحرير[٦]، ومن الصناعات التي تميز بها أهل الذمة عموما الصياغة والتكفيت – أي حفر الزخارف على سطح

---

(١) فايزة، عبد الرحمن حجازي، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٥٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: فايزة، أهل الذمة.

(٢) الرهبان الفرنسيسكان: تنتسب هذه الطائفة النصرانية إلى فرنسيس الأسيزي (١١٨٢-١٢٢٦م)، وهو راهب إيطالي، يعتبر أحد زعماء الإصلاح الكنسي البارزين في القرن الثالث عشر الميلادي، أسس الرهبانية الفرنسيسكانية عام (١٢٠٩م)، عاش عيشة فقر وتعاطف مع البائسين جاعلا ذلك من مبادئ دعوته. البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٣٢١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: البعلبكي، معجم.

(٣) فايزة، أهل الذمة، ص ص٦٥-٦٦.

(٤) المرجع نفسه، ص، ٦٦.

(٥) المرجع نفسه، ص ص١٠٦-١١٠.

(٦) المرجع نفسه، ص١٠٩.

الآنية أو الحلي ثم ملء الحفر بالذهب أو الفضة أو غيرهما وتسمى هذه العملية بالتطعيم[١] – وتميزوا كذلك بصناعة النسيج والبسط[٢].

كما مارس أهل الذمة التجارة بكل حرية طيلة الفترة التي سبقت الغزو المغولي بل قبل ذلك وبعده. ومن أهم أنواع التجارة التي عمل فيها أهل الذمة تجارة المجوهرات والمصوغات والثياب الفاخرة والحرير والصيرفة وبيع الخمور كما مهروا في تجارة الرقيق[٣].

ومن هنا صار لأهل الذمة بحكم هذا التقدم الصناعي والتجاري قوة ومنعة، مكنتهم من تبوء مكانة مرموقة في المجتمع المصري والشامي عشية الغزو المغولي.

وينبغي ألا ينسى أن أهل الذمة كانوا من المتميزين في الجوانب الطبية وخاصة اليهود منهم، فزعامة الطب المصري على أيام الأيوبيين كانت بأيدي اليهود، وممن برع منهم في هذه الفترة إبراهيم بن موسى بن ميمون الذي خدم السلطان الكامل الأيوبي[٤].

ومن الجوانب الاجتماعية التي يمكن الحديث عنها في العراق وبلاد الشام ما يتعلق بالتركيبة الاجتماعية للسكان، ففي الفترة التي سبقت الغزو المغولي كان المجتمع العراقي والشامي يتكون من عناصر متعددة وعلى رأس هذه الأجناس العرب بصنفيهم الحضر والبدو، فالحضر هم سكان المدن، ومنهم – في الغالب – أصحاب الوظائف الإدارية والعلمية، وبيدهم المهن التجارية. وأما البدو فهم سكان البوادي الذين يعتمدون في معيشتهم على تربية الحيوانات ورعيها، وكانوا يشكلون بين فترة وأخرى مصدر قلق للدولة من خلال محاولاتهم للتمرد عليها، إلا أن الملاحظ أنه في الفترة التي سبقت الغزو المغولي لم يكن لهم تلك القوة كما كانت من قبل، ففي الشام كان لهم على بادية الشام رئاسة عليا باسم أمير عرب الشام، وربما أطلق عليه ملك العرب، وكانت هذه الوظيفة

---

(١) فايزة، أهل الذمة، ص ص١٠٧-١٠٨.

(٢) المرجع نفسه، ص١١٠.

(٣) المرجع نفسه ، ص ص١٢٣-١٢٥.

(٤) ابن أبي اصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي(ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت، ص٥٨٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء؛ قاسم، عبد قاسم، أهل الذمة في مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، د.ط، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٥٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: قاسم، أهل الذمة.

توجه بمراسيم شريفة، وكان يطلب من أصحابها أن يقوموا بحفظ السابلة أيام السلم، ويمنعوا أعرابهم من العبث والنهب وأن يتأهبوا للجهاد وألا يفارقوا البلاد[١].

وكان في هذه الفترة آل فضل هم أمراء بادية الشام من حمص إلى الفرات وأطراف العراق، وقد أطلق عليهم آل مهنا بني عيسى، ومما يدل على حرص الدولة لكسب ولاء هذه القبائل أن الظاهر بيبرس فور توليه السلطة المملوكية قام بعقد ما يشبه الاتفاقية معهم لأجل خدمة الدولة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية[٢].

ومن الأجناس التي سكنت العراق وبلاد الشام قبيل الغزو المغولي الأكراد الذين دخلوا المنطقة في بدايات القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ففي سنة (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) قام ملك حلب شبل الدولة نصر بن مرداس بإسكانهم في حصن الأكراد على الساحل الشامي من أجل المحافظة على الطريق الواصل ما بين حمص وطرابلس الشام، وبقوا فيه إلى أن انتزعه منهم الصليبيون سنة (٥٣٠هـ/١٢٣٥م) وبعدها أخذوا ينضمون إلى حركة الجهاد ضد الصليبيين مع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين، وبعد سيطرة صلاح الدين على مقاليد الدولة في مصر والشام جعلهم عماد جيشه، ثم عظم شأنهم عندما شكلوا طبقة عسكرية وإقطاعية، واتجه صلاح الدين إلى توطينهم في المدن الشامية وأقطعهم المدن والأراضي من أجل أن يدافعوا عنها أمام الخطر الصليبي[٣]، فانتشروا في العراق وبلاد الشام، ولولا الخلافات التي حدثت بينهم لربما طالت دولتهم في التاريخ الإسلامي أكثر مما كانت عليه[٤].

وهناك أيضا الأتراك الذين كان وجودهم في العراق مبكرا حيث كان المعتصم محمد بن الرشيد(٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) أول خلفاء بني العباس الذين أكثروا من استجلاب الأتراك

---

(١) زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام(٢ج)، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣، ص ص٨٥-٨٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: زكريا، عشائر الشام.

(٢) زكريا، عشائر الشام، ج٢، ص ص٨٦-٨٧؛ جبران، دراسات، ص٢٨٧.

(٣) الكردي، محمد علي الصويركي، الأكراد الأردنيون ودورهم في بناء الأردن الحديث، دار سندباد، عمان، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٣٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الكردي، الأكراد.

(٤) الغرايبة، قيصر صالح مصطفى، الرقيق العسكري في المجتمع المملوكي(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٨٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الغرايبة، الرقيق العسكري.

لتوظيفهم في الجيش العباسي، وبنى لهم في سنة (٢٢١هـ/٨٣٥م) مدينة سامراء لأن بغداد ضاقت بهم[١]، ثم تمكن نفوذهم في الدولة العباسية حتى سيطروا على الخلفاء ابتداء من عهد جعفر المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) واستمرت سيطرة الأتراك حتى سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م)، حيث بدأ عهد النفوذ البويهي[٢].

وفي بلاد الشام أخذ الأيوبيون يستجلبوهم من بلاد القفجاق عند منطقة بحر قزوين على نهر جيحون عند حوض الفولجا، وممن أكثر منهم نجم الدين الصالح أيوب[٣]، وبسبب كثرتهم وتمكنهم في أواخر عهد الدولة الأيوبية تمكنوا من إقامة دولة لهم هي دولة المماليك.

وقد تنافس الأمراء الأيوبيون المتصارعون في كسب الأتراك والأكراد لصفوفهم؛ مما أدى إلى حدوث المناوشات بين هاتين الفئتين، ففي سنة (٦٣٦هـ/١٢٣٨م) تقاتل الأكراد الموالون للملك العادل الصغير مع الأتراك المناوئين له، وبعد خلع الملك العادل سنة(٦٣٧هـ/١٢٣٩م) قصد الأتراكُ الأكرادَ وقاتلوهم ونهبوهم[٤].

ومن الأجناس التي استقرت ببلاد الشام قبيل الغزو المغولي الجركس أو الشركس، وهم من العنصر القوقازي الأبيض، وموطنهم المنطقة الواقعة شمال شرق البحر الأسود، والتي سماها العرب بلاد القفقاس أو القوقاز، وقد كان دخولهم العراق وبلاد الشام كمستخدمين في جيوش العباسيين ثم السلاجقة فالمماليك الترك إلى أن تمكنوا من إنشاء دولة لهم هي دولة المماليك الشراكسة سنة (٨٧٤هـ/١٤٦٩م)[٥].

وهناك أيضا التركمان، وهم من قبائل الغز التركية التي نزحت من وسط آسيا والمعروفة بمنطقة التركستان[٦]، وممن سكن منهم بلاد الشام الزنكيون الذين كونوا لهم إمارة في حلب بزعامة نور الدين زنكي سنة (٥٤١/١١٤٦م) والتي تفرعت عن الإمارة الأتابكية التركمانية في الموصل

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج١١، ص٢٥ و ص٦٥ و ص١١٨.
(٢) المرجع نفسه، ج١١، ص١٧٨، و ص ص٣٥٣-٣٥٤.
(٣) الذهبي، السير، ج٢٣، ص ص١٩١-١٩٢.
(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص ص١٦٢-١٦٣ و ص١٦٧.
(٥) زكريا، عشائر الشام، ج٢، ص٦٨٦؛ الغرايبة، الرقيق العسكري، ص٧٩.
(٦) الغرايبة، الرقيق العسكري، ص٨١.

بزعامة عماد الدين زنكي(٥٢٢-٥٤١هـ/١١٢٨-١١٤٦م)، كما أقاموا إمارة لهم في أربيل[١] سنة (٥٣٩هـ/١١٤٤م)، وأخرى في كركوك[٢] سنة (٦٢٣هـ/١٢٠٣م) ، وأما أشهر التركمان الذين وفدوا إلى العراق هم السلاجقة الذين دخلوا بغداد سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)[٣].

كما أدى سقوط الدولة الخوارزمية بيد المغول، إلى دخول من بقي من عساكرها إلى منطقة الجزيرة وآسيا الصغرى، حيث أخذوا يشنون غارات مدمرة على بلاد الشام والجزيرة، كان لها آثار سيئة على هذه البلاد قبيل الغزو المغولي[٤]، ففي سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) أغاروا على بعض أعمال أعمال حلب ووضعوا السيف في السكان، قبل أن يتمكن منهم المنصور إبراهيم صاحب حمص[٥]، وفي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) تحالف معهم الصالح أيوب ضد الصالح إسماعيل صاحب دمشق وحلفائه الفرنج، فكان من أثر ذلك أن استرد الصالح أيوب بيت المقدس من الفرنج[٦]، وفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) انقلب الصالح أيوب على الخوارزميين وتقاتلت عساكره معهم بظاهر حمص فانهزموا هزيمة قبيحة وتشتت شملهم وقتل مقدمهم بركة خان ولم تقم لهم بعدها قائمة[٧].

---

(١) تقع في شمال العراق إلى الغرب من سفوح جبال كردستان بين نهر الزاب الأعلى والزاب الأسفل. لسترنج، بلدان الخلافة، ص١٢١؛ آمنة، أبو حجر، موسوعة المدن العربية، دار أسامة، عمان، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٢٢٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: آمنة، موسوعة المدن.

(٢) كركوك من أجل مدن العراق في الشمال منه، وهي مركز لواء كركوك. لسترنج، بلدان الخلافة، ص١٢١، حاشية رقم(١٩).

(٣) الذهبي، تاريخ، ج٣٧، ص ص٦١-٦٤؛ الصمانجي، عزيز قادر، التاريخ السياسي لتركمان العراق، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٠م، ص ص٣٥-٤٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الصمانجي، التاريخ السياسي.

(٤) الغامدي، بلاد الشام، ص٣٣٧.

(٥) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ص٣٠٢-٣٠٤.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٢٤٦ و ص ص٣٣٦-٣٣٩.

(٧) أبو شامة، الذيل، ص١٧٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ص٣٢٣-٣٢٤.

ثالثا: الحياة الفكرية

كان الوضع العلمي والفكري في الفترة التي سبقت الغزو المغولي، مزدهرا في كثير من أنحاء العالم الإسلامي؛ لأمرين اثنين:

أولهما: تأثير العامل الديني في نفوس الناس، فالإسلام يشجع على طلب العلم، مبينا أثر ذلك في الدنيا والآخرة، كما أنه يرفع من شأن أهله، ويحث على احترامهم وتقديرهم؛ مما دفع المسلمين بمختلف فئاتهم، على المشاركة في الحركة العلمية نشرا وطلبا ودعما كل بحسبه.

ثانيهما: أن ازدهار الحركة العلمية في فترة من الفترات يعتبر - غالبا - امتدادا للحركة العلمية في الفترة التي سبقتها.

ففي العراق كانت الحركة العلمية مزدهرة عشية الغزو المغولي؛ بسبب ما سبقها من إرث علمي مزدهر في بغداد باعتبار أنها كانت حاضرة العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

ولما ضعفت سلطة الخلافة قيض الله للدولة العباسية من يطيل أمدها إلى حين، وكان من أهم هؤلاء سلاطين السلاجقة، الذين ساهموا مساهمة كبيرة في دعم الحركة العلمية ببغداد، وممن اشتهر بدعمه للعلم وأهله ببغداد من السلاجقة، الوزير نظام الملك، الذي عمل على نشر المذهب الشافعي، وقرب العلماء، وأكرمهم وأحسن إليهم، كما قام ببناء المساجد والمدارس لهم، حيث عرفت هذه المدارس باسم المدارس النظامية نسبة إليه(١).

وقد سعى نظام الملك في إنشائه للمدارس النظامية إلى نشر الفكر السني لمواجهة تحديات الفكر الشيعي والعمل على تقليص نفوذه، وإيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني بصبغته الأشعرية الشافعية ونشره في أقاليم الدولة السلجوقية، وخلق طائفة من الموظفين السنيين للمشاركة في إدارة مؤسسات الدولة المختلفة(٢).

---

(١) النقر، محمد الحافظ، القوى الفاعلة في المجتمع في العصرين الأيوبي والمملوكي، دار المسار، المفرق، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٢٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: النقر، القوى الفاعلة.

(٢) بدوي، عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء، المنصورة، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٧٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: بدوي، التاريخ السياسي والفكري.

وقد استمرت آثار جهود نظام الملك العلمية في العصور التالية، ففي العصر العباسي الأخير كانت الحركة العلمية بالعراق جيدة يدل على ذلك اهتمام الخلفاء أنفسهم بالعلم وأهله وموارده، فالخليفة الناصر كان مهتما بالعلم والعلماء، حتى أنه وضع كتابا سماه "روح العارفين" جمع فيه أحاديث عن النبي r يرويها بأسانيد عالية، وأجاز للناس أن يرووها عنه[١].

واهتم الظاهر والمستنصر بالعلم وقربا أهله، وقام المستنصر ببناء المدرسة المستنصرية التي افتتحت سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)، وقد وصفت بأنها لم يبن على وجه الأرض مدرسة أحسن منها، ولا أكثر وقفا، وجعل فيها المستنصر المدرسين وفق المذاهب الأربعة، ورتب فيها دار كتب، ضمت من الكتب النفيسة في سائر أنواع العلوم شيئا كثيرا جدا، ورتب فيها الورق والأقلام لمن يريد النسخ، كما جعل فيها بيمارستانا[٢] للمرضى محتويا على جميع صنوف الأدوية والعقاقير، ورتب فيه من الأطباء لمعالجة المدرسين، كما رتب لهم مطبخا يطبخ فيه الطعام، واهتم أيضا بتوفير كل ما يحتاجه المدرسون من حصر وسرج وزيوت وماء بارد وحمامات ورواتب[٣]. وقد ضمت هذه المدرسة إضافة للمذاهب الفقهية الأربعة، علوم القرآن، والسنة النبوية، وعلم الطب، والعربية، والرياضيات، والفرائض؛ ولذا اعتبر ناجي معروف هذه المدرسة أول جامعة كبرى في العالم الإسلامي[٤].

إضافة إلى ذلك فإن المستنصر اهتم بسماع مناظرات العلماء، وكان له صلات وصدقات إلى من يرد عليه من العلماء والزهاد والأدباء وسائر الطبقات[٥].

وقد ساهمت نساء الخلفاء أيضا في دعم الحركة العلمية، فعلى سبيل المثال بنت السيدة زمرد خاتون(ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) – أم الخليفة الناصر - مدرسة الأصحاب، وألحقت بها دورا خاصة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢٢٨؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٣، ص٢٩.

(٢) البيمارستان: لفظ فارسي مركب من لفظين: (بيمار) بمعنى مريض، و (ستان) بمعنى أرض، فهو عبارة عن مبنى لإقامة المرضى وعلاجهم، وهو المستشفى. دهمان، معجم، ص٤١.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ص٣١٦-٣١٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص١٥ و ص ص ١٩٩-٢٠٠.

(٤) معروف، ناجي، تاريخ علماء المستنصرية(٢ج)، بغداد، مطبعة العاني، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م، ج١، ص٢٧-٢٨، و ص٤٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: معروف، علماء المستنصرية.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣١٧.

بالمدرسين والفقهاء والقومة، وأجرت على الجميع الرواتب الحسنة[١]، كما بنت حظية الخليفة المستعصم وأم ولده أبي نصر المدرسة البشيرية بالجانب الغربي من بغداد، وأوقفتها على المذاهب الأربعة، وأوقفت عليها أوقافا كثيرة[٢].

كما ساهم بعض كبار رجال الدولة في دعم الحركة العلمية بالعراق قبيل الغزو المغولي، ومن أمثلة ذلك أنه لما تولى الأمير أبو المظفر باتكين أمر البصرة، جدد مدارسها التي كانت قد دثرت، وأنشأ مدرسة للحنابلة ولم يكن لهم بالبصرة مدرسة، وعمل مدرسة أخرى للطب، ووقف في جميع مدارس البصرة كتبا، وانتشر العلم في زمانه، وكان العلماء يقصدونه من جميع الآفاق فيرفدهم[٣].

وفي سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، افتتحت المدرسة الشرابية ببغداد، والتي بناها إقبال الشرابي[٤]، كما افتتحت مدرسته الأخرى بواسط سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)[٥]، وفي سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، تكامل بناء المدرسة المجاهدية المنسوبة للدويدار الصغير، واحتوت على خزانة كتب كبرى[٦]، وأنشأ الوزير ابن العلقمي دارا للكتب بدار الوزارة افتتحت سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)[٧]، كما بنى التاجر أبو عمرو نصر بن منصور بن العطار مدرسة للفقهاء الحنابلة ببغداد[٨]، كما قام أبو حفص عمر بن إسحاق الدورقي مدبر أمور إقبال الشرابي ببناء مدرسة بواسط[٩] وأوقف عليها الوقوف الجليلة[١٠].

---

(١) ابن الساعي، تاريخ، ص٢١٩؛ مجهول، الحوادث، ص٩١، مع الحاشية رقم(٢).

(٢) مجهول، الحوادث، ص ص٣٢٣-٣٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ص ٢٠٩-٢١٠.

(٤) مجهول، الحوادث، ص ص ٤٤-٤٥؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص١٧٨.

(٥) مجهول، الحوادث، ص١٠٥.

(٦) المصدر نفسه، ص١٥٧.

(٧) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ٢٥٩.

(٨) ابن الساعي، تاريخ، ص١٧.

(٩) واسط: مدينة بالعراق بين البصرة والكوفة، بناها الحجاج سنة (٨٦هـ/٧٠٥م). ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٣٤٨.

(١٠) ابن الساعي، تاريخ (الضائع)، ص ص٣٦٣-٣٦٤.

وكان للعلماء مساهمات في دعم الحركة العلمية بالعراق إضافة إلى قيامهم بواجب التدريس، ومثال ذلك قيام الشيخ يوسف بن الجوزي[١] ببناء دار للقرآن بمحلة الحربية، وأنشأ أيضا مدرسة بمحلة الحلبة لكنها لم تتم[٢].

يتضح إذا من خلال ما سبق بيانه أن الحركة العلمية بالعراق في فترة ما قبل الغزو المغولي كانت مزدهرة، ويؤيد هذا ابن جبير الذي زار بغداد سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م)، إذ يذكر أن عدد المدارس بها نحو ثلاثين مدرسة، ولما سقطت بغداد بيد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، كان عدد المدارس بها ثمانيا وثلاثين مدرسة[٣]، بزيادة ثمان مدارس عما قبل، مما يدل على نشاط الحركة العلمية هناك.

ولم تكن الحركة العلمية ببلاد الشام أقل ازدهارا منها في العراق، فكما كان من أسباب ازدهار الحركة العلمية بالعراق عشية الغزو المغولي، ما سبق ذلك من نهضة علمية في العصور السابقة، كذلك كان في بلاد الشام، فإن ازدهار الحركة العلمية ببلاد الشام عشية الغزو المغولي سبقه ازدهار علمي حمل لوائه سلاطين الدولة الزنكية الناشئة.

ويمكن اعتبار نور الدين محمود بن زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٤م) أول سلاطين الزنكيين الذين اهتموا بدعم الحركة العلمية في بلاد الشام[٤]، وقد كانت جهوده موجهة في البداية على مدينة حلب حيث تغلُب عليها الطائفة الشيعية، فعمل على بناء مدرستين هناك، هما المدرسة الحلاوية سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) وكانت للأحناف، والمدرسة النورية سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م) وكانت للشافعية، وتبع ذلك بإنشاء عدة مدارس أخرى، إضافة إلى اهتمامه بإنشاء الزوايا لمختلف

---

(١) أستاذ الدار يوسف بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن العالم والواعظ المشهور، ولد سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م)، وعظ مكان أبيه بعد وفاته، ولي حسبة بغداد، وتدريس الحنابلة ببغداد، ثم ولي الاستدارية، وهو واقف المدرسة الجوزية بدمشق. الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٦٤-٢٦٥ و ص ص٣٠٦-٣٠٧؛ الصفدي، الوافي، ج١٨، ص٣١٠ و ج٢٩، ص ص١٠٤-١٠٥؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص١٨٤-١٨٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٤٩٥-٤٩٦.

(٢) ابن الساعي، تاريخ (الضائع)، ص٣٨١.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٠؛ معروف، المدارس الشرابية، ص ١٢٣.

(٤) النقر، القوى الفاعلة، ص ص١٢٣-١٢٨.

المذاهب السنية، وأمر آخر اهتم به نور الدين في إطار مشروعه السني، وهو إنشاء خوانق الصوفية[١] التي كانت في ذلك العصر مكانا للعبادة والدرس[٢].

ولم تقف جهود نور الدين في دعم الحركة العلمية السنية على حلب بل امتدت إلى دمشق حيث أنشأ المدارس ودور الحديث الشريف ومكاتب تعليمية للأيتام[٣].

والخطوة الأهم التي قام بها نور الدين لدعم الحركة العلمية السنية هي إيعازه لصلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة العباسي بالديار المصرية بعد أن تمكن من السيطرة عليها وهو ما تحقق عام(٥٦٧هـ/١١٧١م)[٤]، وتنبع أهمية هذه الخطوة من كونها أنها كانت أولى اللبنات للقضاء على النفوذ الشيعي في مصر ومن ثم إعادة الوحدة بين مصر وبلاد الشام، مما أفسح المجال للفكر السني بالانتشار حيث ظهرت آثار ذلك لاحقا على عهد الدولة الأيوبية.

فصلاح الدين – وهو مؤسس الدولة الأيوبية – حرص كل الحرص على دعم الحركة العلمية السنية بمصر من أجل القضاء على جذور الفكر الشيعي بالديار المصرية ومن هنا عمل على إنشاء المدارس السنية، واستقطب لها كبار العلماء في ذلك العصر[٥].

وفي الفترة التي سبقت الغزو المغولي، رعى السلاطين الأيوبيون الحركة العلمية وساهموا في نشاطها مساهمة فاعلة، وقد كان بعضهم من روادها وصناعها، وقد تمثلت عناية سلاطين بني أيوب بالحركة العلمية في مجالات عدة منها: إنشاء المراكز العلمية كالمدارس والمساجد والخوانق.

---

(١) الخانقاه: كلمة فارسية تعني محل التعبد والتزهد والبعد عن الناس، وتدل على رباط الصوفية ومكان تجمعهم وعبادتهم. حلاق، حسان وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٨١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: حلاق، المعجم الجامع؛ دهمان، معجم الألفاظ، ص٦٦.

(٢) بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص ص٢٠٨-٢١١.

(٣) المرجع نفسه، ص ص٢١٥-٢١٧.

(٤) الذهبي، تاريخ، ج٣٩، ص ص٣٤-٣٥.

(٥) بدوي، التاريخ السياسي والفكري، ص ص٢٣٢-٢٣٤.

ومما يذكر في هذا الصدد، قيام الأفضل بن صلاح الدين ببناء المدرسة الأفضلية بالقدس للمذهب المالكي[١]، وبناء الملك المعظم عيسى بالحرم القدسي قبة لتدريس القراءات السبع[٢]، كما أنشأ سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م) بالقدس أيضا قبة؛ لتدريس النحو سميت باسمه، ورتب لها إماما وقيما، كما رتب فيها خمسة وعشرين تلميذا من طلبة النحو، ورتب لهم شيخا، ووقف على ذلك قرية تسمى بيت لقيا من أعمال القدس الشريف[٣]، كما قام سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) بإنشاء المدرسة المعظمية بدمشق[٤].

وأنشأ الملك الكامل أول مدرسة للحديث النبوي بمصر سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) سميت الكاملية[٥]، وبنى الملك الأشرف بن العادل بن الكامل بدمشق دار الحديث النبوي ودرس فيها الإمام الإمام ابن الصلاح[٦] ووقف عليها الأشرف الأوقاف[٧]، وبنى الملك الصالح أيوب المدرسة

---

(١) الغامدي، بلاد الشام، ص٣٨٨.

(٢) المقريزي، أحمد بن علي(ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة(٢ج)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص٣٤٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: المقريزي، درر العقود؛ عبدالمُهدي، عبدالجليل حسن، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٢٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: عبدالمهدي، الحركة الفكرية.

(٣) المقريزي، درر العقود، ج٢، ص٣٤٠؛ عبدالمهدي، الحركة الفكرية، ص١٥١.

(٤) المقريزي، درر العقود، ج٢، ص٣٥١؛ الغامدي، بلاد الشام، ص٣٩٣.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ص١٦٢-١٦٣.

(٦) هو الإمام أبو عمرو تقي الدين عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري، كان إماما حافظا، محدثا حجة، فقيها أصوليا، وافر الجلالة، كثير الهيبة، موقرا عند السلطان والأمراء، ولد سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) بشهرزور التابعة لإربل شمالي العراق، وتوفي بدمشق سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م). ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٢٥٢-٢٥٤؛ العليمي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد الحنبلي(ت٩٢٨هـ/١٥٢٢م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل(٢ج)، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص ص١٠٤-١٠٥؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العليمي، الأنس الجليل؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام(٨ج)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٧، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج٤، ص ص٢٠٧-٢٠٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الزركلي، الأعلام.

(٧) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص١٩٠.

الصالحية للمذاهب الأربعة، وهي من أجل مدارس القاهرة في وقتها[١]، وفي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) افتتح الملك الناصر مدرسته التي أنشأها بدمشق[٢].

وكان لنساء السلاطين وغيرهن مساهمات واضحة في دعم الحركة العلمية بالشام في هذه الفترة، ومن أمثلة تلك المساهمات، قيام ست الشام ابنة نجم الدين أيوب بن شادي أخت الملك الناصر صلاح الدين بإنشاء المدرسة الشامية البرانية، وقد كانت من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأوقافا[٣]، كما أوقفت خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى بن العادل المدرسة المرشدية بصالحية دمشق سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)[٤]، وأنشأت الست عائشة - زوجة شجاع الدين محمود بن بن الدماغ صديق الملك العادل – المدرسة الدماغية سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)[٥].

ومن المجالات التي ساهم فيها السلاطين لدعم الحركة العلمية في هذه الفترة، إكرام العلم وأهله، حيث قاموا بتعظيم العلماء وتقريبهم، فالملك الكامل كان محبا للعلماء، ومجالسهم، وسماع مناظراتهم، وكان مقصد أهل العلم الذين إذا وفدوا عليه، أكرمهم وأحسن إليهم، وكان يبيت عنده جماعة من الفضلاء في بعض الليالي يأنس بهم[٦].

وكان الأشرف بن العادل محبا للعلم وأهله، ولما تملك دمشق سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) حارب علوم الأوائل[٧]، وحث على تعلم التفسير والحديث والفقه[٨]. وكان الملك المعظم عيسى يحب

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٣٠.

(٢) الكتبي، عيون، ج٢٠، ص٨٧.

(٣) النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي(ت٩٧٨هـ/١٥٧٠م)، الدارس في تاريخ المدارس(٢ج)، أعد فهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ج١، ص٢٧٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: النعيمي، الدارس.

(٤) النعيمي، الدارس، ج١، ص٤٤٣.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٧.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص١٥٨ وص ص١٦٠ -١٦٤.

(٧) علوم الأوائل: مصطلح يطلق على العلوم الموروثة عن الأمم السابقة من أهل الهند والصين واليونان والرومان والكلدان والفرس وغيرهم، وتختص بالعلوم الطبيعية والرياضيات والمنطق وأمثالها من العلوم الفلسفية. بطاينة، محمد ضيف الله، علوم الأوائل وأثرها في المجتمع الإسلامي، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: بطاينة، علوم الأوائل.

(٨) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٢١٥-٢١٦.

العلماء ويكرمهم[١]، وكذا كان الملك المنصور ملك حماة محبا للعلم والعلماء، وكان يقيم في بلاطه زهاء مائتي عالم في فروع العلم المختلفة[٢]، كما بنى الملك المنصور المدرسة المنصورية للإمام سيف الدين الآمدي[٣] الذي وفد إليه في حماة[٤].

ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالعلم وأهله كذلك، العناية بطلاب العلم الوافدين من أماكن مختلفة لطلب العلم، فكان الراحل في طلب العلم يلقى رعاية واهتماما، فيوفر له المأكل والمسكن في المدرسة والخانقاه وغيرها، وكانت تصرف لهم مخصصات من الأوقاف المخصصة للمعهد العلمي الذي أقاموا فيه[٥].

وبلغ من إكرام السلاطين لأهل العلم أن أسندوا لهم بعضا من المناصب السياسية العليا في الدولة، فابن شداد[٦] كان مشيرا للأفضل في أموره كلها، ثم صار قاضيا للظاهر غازي صاحب حلب، وأصبح كلامه مقدما على كلام غيره، وبعد وفاة الظاهر غازي صارت له مكانة عند ابنه الملك المنصور، حيث ولاه القضاء في جميع ممالك حلب، وكان يرجع إليه ويستشيره في أمر الملك[٧]. كما ولى العزيز بن الظاهر الوزارة لجمال الدين علي بن يوسف[٨] في حلب سنة (٦١٤هـ/١٢١٨م).

---

(١) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص١٦٥.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات، ج٤، ص١٢؛ الغامدي، بلاد الشام، ص٣٨٩.

(٣) هو الشيخ أبو الحسن علي بن محمد، ولد سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م) بآمد، وأقام ببغداد، ثم انتقل إلى الشام، واشتغل بفنون المعقول وبرز فيها، وصنف كتبا كثيرة في أصول الفقه والفقه والمنطق، وقع على تقدمه وفضله الإجماع، توفي سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م). ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ص٣٥-٤١؛ الصفدي، الوافي، ج٢١، ص ص٢٢٥-٢٢٦؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٢٠١-٢٠٢.

(٤) الغامدي، بلاد الشام ، ص٣٨٩.

(٥) عبدالمهدي، الحركة الفكرية، ص١٠٦.

(٦) القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع المؤرخ الحلبي المشهور، ولد بالموصل سنة (٥٣٩هـ/١١٤٥م)، كان مقربا من صلاح الدين الكبير، وألف له " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية "، توفي سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٥م). الذهبي، تاريخ، ج٤٦، ص ص١٣٣-١٣٧.

(٧) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٨٩؛ الغامدي، بلاد الشام، ص ص٣٩٥-٣٩٦، النقر، القوى الفاعلة، ص١٦١.

(٨) القاضي الأكرم علي بن يوسف القفطي وزير حلب، ولد سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م)، كان صدرا محتشما كامل السؤدد، كان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق، توفي سنة =

ومما يذكر في هذا الصدد أن أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه[١] وهم: فخـــر الـــدين، وعمـــاد الدين، ومعين الدين، وكمال الدين، كانوا من المقربين للكامل؛ فالثلاثة الأخيرون كانت لهم مشـــيخة خانقاه سعيد السعداء، والتدريس في المدرسة المجاورة لقبر الإمام الشـــافعي، وتـــدريس المدرســـة المجاورة لضريح رأس الحسين[٢] - رضي الله عنه -، وكل واحد من هؤلاء تقدم علـــى الجيـــوش وباشر الحروب[٣].

ومما يدل على ازدهار الحركة العلمية في مصر وبلاد الشام قبيـــل الغـــزو المغـــولي حـــرص السلاطين أنفسهم على الاشتغال بالعلم وطلبه، فالملك الأفضل كان فاضـــلا متأدبـــا يـــنظم الشـــعر الجيد[٤]. وكان الملك الكامل مغرما بالحديث النبوي، وله تعليقات على صحيح مسلم، وقـــد أجـــازه الحافظ السلفي[٥][٦].

=(٦٤٦هـ/١٢٤٨م). ياقوت، معجم الأدباء(٧ج)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإســـلامي، بيـــروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٥، ص ص٢٠٢٢-٢٠٣٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ياقوت، معجم الأدباء؛ الذهبي، السير، ج٢٣، ص٢٢٧؛ الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص ص٢١٠-٢١٢.

(١) محمد بن عمر بن علي الجويني، شيخ الشيوخ، برع في المذهب الشافعي، وكانت داره مجمع الفضلاء، توفي سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م). الصفدي، الوافي، ج٤، ص١٨٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص١٣٧.

(٢) الذي عليه أكثر أهل العلم والمشهور عند المؤرخين وأهل السير، أن رأس الحسين بعثه يزيد بن معاوية إلـــى المدينة، حيث دفن عند قبر أمه فاطمة – رضي الله عنها -، وعليه؛ فنسبة ذلك الضريح والمشهد إلى الحسين نسبة غير صحيحة. القرطبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر(ت٦٧١هـ/١٢٧٢م)، التذكرة في أحـــوال الموتى وأمور الآخـــرة(٢ج)، تعليـــق: الـــداني بـــن منيـــر آل زهـــوي، المكتبـــة العصـــرية، بيـــروت، د.ط، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج٢، ص٢٨٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: القرطبي، التذكرة؛ ابن كثيـــر، البدايـــة، ج٨، ص٢٨٥.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ص١٦٩-١٧٠.

(٤) المرجع نفسه، ج٣، ص٣٨.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ص٢٠٠-٢٠٢؛ العز، عبد العزيز بن عبد السلام، فتاوى شـــيخ الإسلام العز بن عبد السلام، تحقيق: محمد جمعة كردي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، مقدمة التحقيق، ص٥٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العز، فتاوى.

(٦) صدر الدين أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصبهاني، حافظ مكثر ولم يكن في آخر عمره فـــي عصـــره مثله، توفي سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٠٥؛ الزركلـــي، الأعـــلام، ج١، ص ص٢١٦-٢١٧.

وكان الملك المعظم عيسى من السلاطين المعدودين في أهل العلم؛ حيث كان أديبا نحويا فقيها[١]. وسار الناصر داود بن المعظم عيسى على نهج والده في الاهتمام بالعلم وأهله لذا اعتبر من شعراء عصره الكبار[٢]. وكان توران شاه بن الملك الصالح أيوب من أهل العلم في الجملة؛ حيث كان فقيها شافعيا، وله مشاركة في الأدب والشعر[٣].

وهكذا يتضح أن الجهود التي قام بها السلاجقة – وخاصة نظام الملك – ومن بعده الزنكيون والأيوبيون في دعم الحركة العلمية السنية عملت على خلق قاعدة علمية رصينة، كان من أهم ثمارها إيجاد جيل من العلماء ساهم مساهمة واضحة في التصدي للغزو المغولي وقبله الغزو الفرنجي.

---

(١) النقر، القوى الفاعلة، ص ١٦٥.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص ص١٤٨-١٦٣ و ص ص١٦٧-١٧١؛ الغامدي، بلاد الشام، ص ص٣٩٤-٣٩٥.

(٣) السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص١٣٤-١٣٦.

المبحث الثاني

الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام

أولا: المغول في التاريخ

المغول اسم لقبائل بدوية عدة، نشأت بمنطقة قليلة الزراعة، تزيد مساحتها طولا وعرضا على مسيرة سبعة أو ثمانية أشهر سيرا بالأقدام(١)، وفي الوقت الحاضر أصبحت تلك المنطقة تقع ضمن أراضي دول مختلفة هي جمهورية منغوليا، وجمهورية الصين، وجمهوريات روسيا الاشتراكية(٢)، والجزء الجنوبي من سيبيريا شمالي صحراء جوبي(٣).

وأما بالنسبة لجغرافية بلاد المغول ومناخها، فهي أراض واسعة قاحلة(٤)، يسودها المناخ القاري المتميز بشدة الحرارة صيفا، وشدة البرودة شتاء، وندرة الأمطار(٥)؛ وقد جعلت تلك الطبيعة الجغرافية لبيئة المغول القبائل المغولية تعيش حياة صراع بيني، فحياتها حروب وغزوات ولا تعرف للاستقرار معنى(٦)، كما أكسبتها جلافة وغلظة في التعامل مع الآخرين.

وفيما يختص بطبيعة حياة هذه القبائل فقد كانت قبائل متفرقة يسودها النزاع والخصام، وتكتنف حياتهم الشدة والقسوة، ويعتبر بعضهم السرقة والفسق والفجور شجاعة وبطولة، وكانوا يعتمدون في لباسهم على جلود الكلاب، وطعامهم من لحومها ولحوم الميتة الأخرى(٧)، وكانت حياتهم تعتمد على على الصيد والقنص(٨).

---

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٦٢.

(٢) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص٥٤.

(٣) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص١٢٦.

(٤) المرجع نفسه، ص١٢٦.

(٥) العريني، المغول، ص٦.

(٦) جبران، نعمان محمود، " الديانة المغولية في عهد جنكيز خان "، اليرموك(مجلة ثقافية فصلية جامعة)، العدد:٩٠، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٩٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: جبران، الديانة المغولية.

(٧) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٦٢.

(٨) لين، الدول الإسلامية، ص٤٩٧.

ومن ناحية الديانة فإنهم كانوا وثنيين يعبدون مظاهر الطبيعة، ويقدسون كل شيء سما عن مداركهم وعجزوا عن فهمه، ونتيجة لهذا فقد تعددت عندهم الآلهة التي انقسمت إلى آلهة سماوية وآلهة أرضية، ومع وجود هذا التعدد في الآلهة كان أهمها وأكبرها وأعظمها في سلسلة الآلهة الأرضية والسماوية هو الإله " تانجري " – ممثلا في الشمس - وهو إله الخلق وإله السماء(١)، وقد عرفت ديانة المغول باسم " الشامانية "، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذي عرف الواحد منهم باسم " الشامان "(٢).

وقد تمكن تموجين بن يسوكاي بهادر من تزعمه لقبيلته التي ينتمي إليها وهي قبيلة " المغول "، ثم عمل على توحيد تلك القبائل المتفرقة، بعد خوضه لصراعات طويلة مع بعضها، وانضمام بعضها الآخر معه تلقائيا، وذلك سنة (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م)، ولقب بعدها تموجين " بالخان "، كما عرفت تلك القبائل المتوحدة باسم " المغول " نسبة إلى قبيلته(٣)، ثم ما لبث أن أطلق على تموجين اسم " جنكيز خان "(٤).

ويمكن إجمال أهم إنجازات جنكيز خان مع تلك القبائل المتفرقة في أنه استطاع توحيدها تحت قيادة واحدة، ومسمى واحد، كما تمكن من إعداد الجيش المغولي وفق أسس منظمة، بالإضافة إلى

---

(١) العمادي، محمد حسن وجبران، نعمان محمود، " المعتقدات الدينية عند المغول حتى نهاية عصر جنكيز خان"، رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ص١٦-١٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العمادي، جبران، المعتقدات الدينية؛ جبران، الديانة المغولية، ص١٠٠.

(٢) ابن الأثير ، الكامل، ج٩، ص٦٨١؛ القزاز، محمد صالح، العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء، بغداد، د.ط، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٢٧٦(الحاشية)، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية؛ جبران، الديانة المغولية، ص٩٩.

(٣) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين، ص١١؛ الصياد، المغول، ج١، ص ص٤٥-٥١؛ ستوف، فلاديمير، حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية، ترجمة: سعد بن محمد بن حذيفة الغامدي، د.م، د.ن، د.ط، د.ت، ص١٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ستوف، حياة جنكيز خان.

(٤) بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٥٤٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: بارتولد، تركستان؛ جبران، الديانة المغولية، ص٩٧.

أنه صاغ قانونا للدولة المغولية عرف باسم " الياسا "، حيث نظم هذا القانون الحياة العامة المغولية المدنية والعسكرية في حياته وبعد موته[١].

وبعد أن شعر جنكيز خان بأنه أتم ضبط الوضع الداخلي لدولته الناشئة، بدأ يتطلع إلى التوسع الخارجي من أجل السيطرة على ما يمكن السيطرة عليه من الأراضي والممتلكات، والاستفادة من مواردها المالية والزراعية والتجارية، التي كان يفتقدها المغول في بلادهم الأصلية، فابتدأ أعماله تلك بالتوجه جهة إمبراطورية كين في الإقليم الشمالي من الصين، حيث تمكن في الفترة من(٦٠٧هـ/١٢١١م) إلى (٦١٢هـ/١٢١٥م) من السيطرة عليها، واتخذ من بكين حاضرة لدولته الجديدة[٢].

وفي أثناء مهاجمة المغول لدولة كين فر ابن حاكمها كوجلك خان إلى بلاد الخطا، حيث تمكن هذا الأخير بخدعة وحيلة من القضاء على سلطان الخطا والسيطرة على بلاده[٣]، وما إن فرغ جنكيز خان من السيطرة على دولة كين، حتى وجه قائده جبه نويان لكوجلك خان، حيث تمكن من القضاء عليه والسيطرة على بلاده؛ وبهذا أصبحت حدود دولة المغول تجاور حدود الدولة الخوارزمية[٤]؛ ولأجل ذلك أرسل السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه بعثة سياسية إلى جنكيز خان؛ من أجل التعرف على حقيقة جنكيز خان وقواته العسكرية[٥].

رد جنكيز خان على تلك البعثة بإرسال بعثتين، إحداهما سياسية والأخرى تجارية، فتوجهت الأولى لمقابلة السلطان الخوارزمي، بينما توجهت الثانية إلى مدينة أترار[٦]. وهناك قام حاكم أترار ينال خان بقتل التجار بحجة أنهم جواسيس للمغول، وهو ما يمكن اعتباره سببا مباشرا لمهاجمة جنكيز خان للدولة الخوارزمية؛ إذ أدت هذه الحادثة إلى غضب جنكيز خان الذي أرسل للسلطان

---

(١) شبولير، بيرتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، د.م، د.ن، د.ط، د.ت، ص ص٢٧-٢٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: شبولير، العالم الإسلامي.

(٢) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص ص١٣٢-١٣٣؛ الصياد، المغول، ص ص٥١-٥٣؛ بارتولد، تركستان، ص٥٦٣؛ ستوف، حياة جنكيز خان، ص ص١٣٤-١٥٤؛.

(٣) الصياد، المغول، ص ص٥٤-٥٦.

(٤) الصياد، المغول، ص ص٥٦-٥٧؛ ستوف، حياة جنكيز خان، ص ص١٥٩-١٦٢.

(٥) ستوف، حياة جنكيز خان، ص ص١٦٥-١٦٦.

(٦) أترار: من مدن ما وراء النهر، تقع عند معبر نهر سيحون. لسترنج، بلدان الخلافة، ص٥٢٨.

الخوارزمي يطلب تسليمه حاكم أترار، وهو ما رفضه علاء الدين بل وقتل رئيس الوفد المغولي وحلق لحى الباقين وردهم إلى بلادهم ليخبروا جنكيز خان بما رأوه؛ فأصبح خيار الحرب بين الطرفين قائما[١].

ودون خوض في التفاصيل فإنه في الفترة ما بين سنة (٦١٦هـ إلى ٦٢٢هـ/ ١٢١٩م إلى ١٢٢٥م)، تمكن جنكيز خان وقواته من مهاجمة الدولة الخوارزمية والقضاء عليها مؤقتا وذلك بالتخلص من علاء الدين تكش الخوارزمي الذي مات سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) في جزيرة بإقليم مازندران[٢] فارا من المغول، وبعد ذلك عاد جنكيز خان إلى منغوليا سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)[٣].

وفي سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) توفي جنكيز خان، وكان قد قسم مملكته بين أولاده الأربعة من زوجته الأولى على عادة المغول كالآتي[٤]:

- جوجي، وله بلاد القفجاق وخوارزم وبلغار وروسيا؛ ولأنه توفي في حياة والده، فقد وهبها جنكيز لابنه باتو.

- جغطاي، وله تركستان وأقاليم ما وراء النهر وبلاد الأويغور وبلخ وغزنة.

- أوكتاي، وهو ولي العهد، وله الأراضي التي يجري فيها نهر" إيميل "، وبعض أراضي دولة الخطا.

- تولوي، وله منغوليا وبها العاصمة المغولية قراقورم، وقد ظل يحكم الإمبراطورية المغولية مدة عامين؛ إلى أن انتخب أوكتاي خانا أعظم للمغول[١].

---

(١) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص ص٨٥-٨٨؛ ابن الأثير ، الكامل، ج٩، ص ص٦٨٢-٦٨٤؛ ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص٦١٥؛ حمدي، الدولة الخوارزمية، ص ص١٣٨-١٣٩؛ ستوف، حياة جنكيز خان، ص ص١٦٦-١٦٩.

(٢) مازندران: هو إقليم طبرستان، ويقع بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل، وقصبة هذا الإقليم آمل. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٣.

(٣) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص ص١٠٤-١٠٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ص٦٨٤-٧٠٩ و ص ص٧٢٧-٧٢٨؛ الجويني، تاريخ، ج١، ص ص١٢٤-١٣٣ و ص ص١٤٠-١٤٥ و ص١٥٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٩٤ و ص ص١٠٢- ١١١ و ص ص١١٧-١١٨ و ص١٣٤؛ ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص٦١٦.

(٤) حمدي، الدولة الخوارزمية، ص١٩٤؛ شاكر، التاريخ، ج٧، ص ص١٣٥-١٣٧؛ الصياد، المغول، ج١، ص ص١٦٤-١٦٦.

بعد رجوع المغول سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) إلى منغوليا، سيطر جلال الدين منكوبرتي الخوارزمي ابن علاء الدين على الوضع في الدولة الخوارزمية، وأعاد ترتيب أوراقها، وظل الأمر كذلك حتى أوائل سنة (٦٢٨هـ/١٢٣١م)، حيث هاجم المغول الدولة الخوارزمية للمرة الثانية، واضعين نصب أعينهم القضاء على جلال الدين؛ فأخذوا يطاردونه من مكان لآخر، وهم في أثناء ذلك يخضعون مدن الدولة الخوارزمية، وأخيرا لجأ السلطان الخوارزمي إلى جبال كردستان حيث قتله أحد الأكراد وذلك سنة (٦٢٩هـ/١٢٣٢م)[٢]، وبعد القضاء النهائي على الدولة الخوارزمية انفتح للمغول ما بعدها من المدن والممالك، فانتشروا في غالب مدن الجزيرة الفراتية[٣].

ثانيا: الغزو المغولي الأول للعراق وبلاد الشام (٦٥٦-٦٩٤هـ/١٢٥٨-١٢٩٤م)

سبق في المقدمة بيان منهجية البحث في تقسيم الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام إلى غزوين، غزو أول وغزو ثان، واتضح هنالك أن الغزو المغولي الأول يقصد به غزو المغول للعراق وبلاد الشام قبل إسلامهم، وأن الغزو المغولي الثاني هو غزو المغول للعراق وبلاد الشام بعد اعتناقهم للدين الإسلامي واعتباره الدين الرسمي للدولة المغولية الإيلخانية.

فبعد أن زالت الدولة الخوارزمية وهي السد الحاجز بين المغول وما تلاها من الدول الإسلامية، أصبحت الظروف مواتية للمغول لإخضاع الخلافة العباسية، فعهد الخان المغولي منكو خان في سنة(٦٥١هـ/١٢٥٣م) لأخيه هولاكو[٤] بإخضاع مناطق الإسماعيلية والقضاء عليها، ومن ثم التوجه نحو العراق وإخضاع الخلافة العباسية.

---

(١) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله (ت٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ(تاريخ خلفاء جنكيز خان)، ترجمة: فؤاد عبدالمعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ص٢٨-٣٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الهمذاني، تاريخ خلفاء جنكيز.

(٢) النسوي، سيرة السلطان منكبرتي، ص٣٨٢؛ ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص ص٦٢٢-٦٢٣؛ حمدي، الدولة الخوارزمية، ص ص٢٢٣-٢٢٥؛ شاكر، التاريخ، ج٦، ص٣٥١؛.

(٣) ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص ص٦٢٢-٦٢٣.

(٤) هولاكو ويقال أيضا هولاو ويقال هولاون قان بن باطوخان بن جنكيزخان، كان جبارا، عنيدا، سفاكا للدماء، توفي سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م). استطاع هولاكو من خلال توسعه أن يكون له دولة سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ضمت: خراسان، وعراق العرب، وعراق العجم، وأذربيجان، وخوزستان، وبلاد فارس، وديار بكر، وبلاد الروم، عرفت باسم الدولة الإيلخانية، وتعني نواب الملك أي ملك المغول في قراقورم، وبعد تولي غازان وإسلامه سنة =

وقد تمكن هولاكو في الفترة من سنة (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) وحتى نهاية سنة(٦٥٤هـ/١٢٥٦م) من القضاء على الإسماعيلية في جميع مناطقهم وقلاعهم[١].

بعد ذلك أضحت بغداد الفريسة السهلة القادمة للمغول بسبب سوء أحوالها السياسية والعسكرية والاقتصادية. ففي مستهل شهر المحرم سنة(٦٥٦هـ)، يناير/ كانون الثاني سنة(١٢٥٨م)، كانت جيوش المغول تحاصر بغداد، وفي السابع من صفر من السنة نفسها، كانت نهاية الخليفة المستعصم بالله وكثير من أعيان دولته على يد هولاكو وجنده.

وبعدها استباح المغول بغداد وأهلها صغارا وكبارا، رجالا ونساء، قتلا وأسرا ونهبا وفتكا مدة أربعين يوما، وقيل أربعة وثلاثين يوما، وقيل أقل من ذلك[٢]. وقد كان لسقوط بغداد نتائج عديدة مهمة في الجوانب السياسية، والاقتصادية، والفكرية، والاجتماعية[٣]، فمن النتائج السياسة التي أفرزها سقوط بغداد، التمهيد لقيام دولة المماليك، وتحول مركز الدولة الإسلامية إلى القاهرة، ومن النتائج الاقتصادية سيطرة المغول على طرق التجارة البرية القادمة من الصين وشرقي آسيا والهند، ومن النتائج الاجتماعية لسقوط بغداد، تخلخل التركيبة الديمغرافية لسكان العراق بعد أن أصبحت جزءا من دولة المغول الإيلخانيين، ومن النتائج الفكرية تعريف المغول الإيلخانيين بالإسلام ومن ثم

=(٦٩٤هـ/١٢٩٤م) انفصل الإيلخانيون عن قراقورم، وظلت دولتهم قائمة حتى سنة (٧٤٤هـ/١٣٤٤م)، حيث قامت بعدها الدولة الجلائرية. الذهبي، تاريخ،ج٤٩، ص ص١٨٠-١٨٣؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٣١٢؛ الصفدي، الوافي، ج٢٧، ص ص٢٣٣-٢٣٤؛ ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص ص٦٤٣-٦٤٤؛ سليمان، معجم الأسر، ص ص٣٢٦-٣٢٧.

(١) مجهول، الحوادث، ص٣١١؛ ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص٦٤١؛ الصياد، المغول، ج١، ص ص٢٣٢-٢٣٣ و ص ص٢٣٦-٢٤٥.

(٢) ينظر لتفاصيل أوفى عن سقوط بغداد في: ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ص٤٤-٤٥؛ الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٣٧٠؛ مجهول، الحوادث، ص ص٣٥٤-٣٦١؛ الهمذاني، جامع التواريخ (تاريخ هولاكو)، ترجمة: محمد صادق نشأت وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، د.م، د.ط، د.ت، ج١، ق٢، ص ص٢٨٦-٢٩٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الهمذاني، تاريخ هولاكو؛ اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٨٩؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢،ص٣٠٢؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٣٦-٣٩؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٥٦هـ)؛ ابن كثير، البداية، ص ص٣١٢-٣١٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص١٧٢-١٧٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٤٦- ٤٧، ابن سباط، تاريخ، ج١، ص٣٧٥؛ الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ص٢٨٩-٣١٢؛ القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية، ص ص٩٧-١٠٧.

(٣) القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية، ص ص١٠٩-١١٨.

اعتناقه فيما بعد، كما أدى سقوط بغداد بيد المغول إلى فقدان جانب كبيـــر مـــن التـــراث الفكـــري والثقافي الإسلامي بسبب ما أتلفه المغول من كتب إسلامية عظيمة.

وبعد سيطرة المغول على بغداد أخضعوا الحلة[(١)] والكوفة[(٢)] وواسط[(٣)] والبصرة[(٤)] [(٥)]، كما جـــدد لهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل خضوعه فأقروه على ملكه[(٦)].

ثم أخضعوا إربل[(٧)] بعد أن حاصروها ستة أشهر، وقتلوا صاحبها ابن صلايا بناء على مشـــورة بدر الدين لؤلؤ؛ لما كان بينهما من خلاف[(٨)].

وقبل خروج هولاكو من بغداد عمل على تنظيم إدارتها، فعين علي بهادر شحنة عليهـــا، ومؤيـــد الدين بن العلقمي في الوزارة، وفخر الدين الدامغاني صاحبا للـــديوان، ونظـــام الـــدين عبـــدالمنعم البندنيجي في القضاء[(٩)].

---

(١) الحلة: تقع إلى الجنوب من بغداد بينها وبين كربلاء. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٢٩٤.

(٢) الكوفة: تقع إلى جنوب غرب بغداد على شاطئ الفرات، وهي في معجم البلدان مصر مشهور بأرض بابـــل. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٩٠؛ آمنة، موسوعة المدن، ص٢٥٧.

(٣) مدينة بالعراق بين البصرة والكوفة، انتهى من عمارتها الحجاج بن يوسف سنة (٨٦هـ/٧٠٥م)، ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٣٤٨.

(٤) البصرة: تقع على الطرف الشمالي من شط العرب (ملتقى دجلة والفرات في جنوب العراق)، وهي الآن ثاني أكبر المدن العراقية بعد بغداد. آمنة، موسوعة المدن، ص٢٣٣.

(٥) مجهول، الحوادث، ص٣٦٠؛ القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية، ص٥١٧.

(٦) ابن العبري، أبوالفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي(ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، د.ن، د.م، د.ط، د.ت، ص ص٢٧٦-٢٧٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن العبري، تاريخ.

(٧) إربل: مدينة كبيرة من أعمال الموصل بينهما مسيرة يومين، وتسمى اليوم أربيل وتقع في شمال العراق إلـــى الغرب من سفوح جبال كردستان. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١٣٨؛ آمنة، موسوعة المدن، ص٢٢٩.

(٨) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٩١؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤١٠؛ العيني، عقد الجمـــان، ج١، ص ص١٨٠-١٨١.

(٩) مجهول، الحوادث، ص٣٦١؛ القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية، ص ص١٤٢-١٤٣.

بعد ذلك تطلع المغول لإخضاع مدن الجزيرة الفراتية، فتوجهوا نحو ميَّافارقين وحاصروها لمدة سنتين، حتى عم القحط والجوع والوباء فيها؛ مما اضطرها إلى الاستسلام سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م)، وقبضوا على حاكمها الملك الكامل[١] ثم قتلوه وقطعوا رأسه[٢].

أما هولاكو فسار إلى حران[٣] في جمادى الأولى سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) واستولى عليها، وتمكن بعدها من تملك البيرة[٤]، ثم سير ولده أشموط أو يشموط إلى الشام فوصل حلب في أواخر هذه السنة، ورفض صاحبها توران شاه الاستسلام، وبعد حصار دام شهرا استسلمت المدينة واستباحوها سبعة أيام بين قتل ونهب ومصادرة وحرق وتخريب[٥].

وفي سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) تمكن المغول من إخضاع ماردين[٦] بعد أن حاصروها حصارا شديدا، فمات كثير من أهلها بسبب الوباء والفناء ومنهم صاحبها الملك السعيد، فلما رأى ذلك الملك المظفر بن الملك السعيد نزل في طاعتهم وسلم البلاد إليهم فأقروه عليها[٧].

كان لهذه الأحداث التي أصابت بغداد ومدن الجزيرة وحلب أثر سلبي على المسلمين في بلاد الشام؛ حيث أخذ أمراء المسلمين يتسابقون في خطب ود هولاكو، فخضع له الأشرف موسى صاحب تل باشر[٨]، فرد عليه هولاكو حمص التي أخذها منه الناصر يوسف، وبعد تملك هولاكو

---

(١) هو الملك الكامل بن الشهاب غازي الأيوبي صاحب ميافارقين، تملكها بعد وفاة والده سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م)، كان عاقلا شجاعا مهيبا تقيا غازيا، قتله المغول ثم طافوا برأسه دمشق بالطبول وعلقوه على باب الفراديس. الذهبي، السير، ج٢٣، ص ص٢٠١-٢٠٢.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٠٥ و ص٣١٣؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص١٧٧-١٧٨.

(٣) حرَّان: مدينة مشهورة تعد من ديار مضر على طريق الموصل والشام والروم. أبو الفداء، تقويم، ص٣١٨؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٣٩.

(٤) البيرة: تقع على الفرات بين حلب والثغور الرومية. أبو الفداء، تقويم، ص٣١٠؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٥٢٦.

(٥) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٤٩؛ أبو الفداء، المختصر،ج٢، ص٣٠٨؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٤٨-٣٤٩؛ الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص٣٠٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص٢٣٠-٢٣١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٦٩-٧٠؛ إسماعيل، الحملات، ص٤٢.

(٦) ماردين: من بلاد الجزيرة الفراتية. أبو الفداء، تقويم، ص٣٢١.

(٧) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٥٣.

(٨) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينهما يومان. أبو الفداء، تقويم، ص٢٦١؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٤٠.

لدمشق عينه نائبا للسلطنة بدمشق والشام[١]، كما خضع له الملك السعيد بـن العزيـز بـن العـادل صاحب الصُبَيْبَة[٢]، وخضع له المغيث عمر صاحب الكرك[٣] الذي راسله في الباطن[٤]، وخضـعت وخضعت له أيضا حماة[٥]، وبعدها عاد هولاكو إلى بلاده للمشاركة في اختيار خان أعظم للمغـول بعد وفاة منكو خان وترك القيادة لكتبغا نوين أحد كبار قادته[٦].

بعد ذلك أصبحت دمشق الهدف الرئيسي والمهم للمغول؛ كونها حاضـرة بـلاد الشـام، فقـرر صاحبها الناصر يوسف الهرب منها وتركها تواجه ما قدر لها[٧]؛ وهو ما جعلها تستسلم سـريعا إلا القلعة، التي قاومت بعض الشيء قبل سقوطها بأيدي الغزاة[٨].

وفي هذه الأثناء كانت مصر تلتهب استعدادا للتصدي للزحف المغولي الجـارف؛ فقـام قطـز - سلطان الظرف القائم - بإعداد ما يمكن إعداده لهذه المواجهة المحتمة، فخرج بجيشه إلـى الشـام، حيث التقى بالمغول تحت قيادة كتبغا نوين في عين جالوت[٩] يوم الجمعـة الخـامس عشـر مـن

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ص٤٢٢-٤٢٥؛ أبوالفداء، المختصر، ج٢، ص٣١٢.

(٢) الصبيبة: اسم لقلعة بانياس، وبانياس مدينة سورية تقع إلى الجنوب من اللاذقية وجبلة على الساحل السـوري. أبو الفداء، تقويم، ص٢٨٢؛ آمنة، موسوعة المدن، ص١٧٨.

(٣) الكرك: مدينة أردنية تبعد عن عمَّان العاصمة ١٣٠كم جنوبا. الذيب، منير، معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية، دار العراب، دمشق، د.ط، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٢٦٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الـذيب، معجم.

(٤) أبوالفداء، المختصر، ج٢، ص٣١٤؛ إسماعيل، الحملات، ص٤٣.

(٥) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ٣٤٩؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص٢٣٢-٢٣٤.

(٦) مجهول، الحوادث، ص ص٣٧٢-٣٧٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٦٤-٣٦٥؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٩١.

(٧) لم يكن خور الناصر وجبنه من مواجهة المغول وليد الساعة؛ إذ إنـه ذل نفسـه جبنـا أمـامهم منـذ سـنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) عندما أرسل الزين الحافظي إلى منكو قآن الخان المغولي محملا بهدايا كثيرة، وتحف جليلة؛ فأمنه خان المغول، وأعطى الزين كتاب أمان للناصر، ثم ظل في كل سنة يحمل إلى بايجو نائب الخان ببلاد العجم الهدايا والتحف السنية، كما أنه أرسل ابنه وهو صبي مع الأمير الزين الحافظي فـي سـنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، محملين بالهدايا والتحف إلى هولاكو. الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٢٨.

(٨) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص ص٣٤٩-٣٥٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٤٩-٣٥١؛ العيني، عقـد الجمان، ج١، ص ص٢٤١-٢٤٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٧٠-٧١.

(٩) عين جالوت: بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٧٧.

رمضان سنة(٦٥٨هـ/ أيلول - سبتمبر ١٢٦٠م)، وأسفر اللقاء عن انتصار عظيم للمماليك[١]، وكان وكان من أبرز نتائجه:

- إيقاف المد المغولي في البلاد العربية، وقصره على العراق، حيث تم تحرير بلاد الشام بعد هذه المعركة من المغول.
- رفع الروح المعنوية للمسلمين بعد أن أيست القلوب من النصر على المغول؛ إذ إنهم " ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه "[٢]. كما أنعش هذا الانتصار آمال المسلمين في الانتصار والتحرير من أعدائهم، وهو ما حدث لاحقا مع المغول أنفسهم ومع الصليبيين.
- إرساء قواعد السلطة للمماليك في مصر وبلاد الشام، وفي المقابل قطع آمال الأيوبيين في ذلك[٣].
- إعادة الوحدة بين مصر وبلاد الشام[٤]، والتي انفصمت عراها بعد تولي شجر الدر لمقاليد السلطة في مصر.
- التأكيد على القاعدة التاريخية الهامة، وهي أهمية الوحدة بين مصر وبلاد الشام في تحقيق النصر على أعداء المنطقة[٥].
- إنقاذ العالم الأوروبي والنهضة الأوروبية من شر لم تكن أوروبا قادرة وقتئذ على دفعه[٦].

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٦٠-٢٦؛ الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص ص٣١٣-٣١٦؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٥٨هـ)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٧٣-٧٥؛ مجهول، تاريخ الدولة التركية، ورقة ٥/ أ-ب.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧١.

(٣) جبران، دراسات، ص٢٧٩؛ إسماعيل، الحملات، ص٤٨.

(٤) جبران، دراسات، ص٢٧٨.

(٥) العلبي، أكرم حسن، معارك المغول الكبرى في بلاد الشام، دار المأمون للتراث، دمشق، د.ط، د.ت، ص٨٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العلبي، معارك المغول.

(٦) العبادي، أحمد مختار، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، ١٤١٣هـ/١٩٩٥م، ص١٤٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العبادي، في تاريخ الأيوبيين.

وبعد هزيمة المغول في عين جالوت تراجعوا عن بلاد الشام، واستقر تواجدهم في كيانهم الجديد الذي عرف باسم الدولة الإيلخانية، واتخذوا من تبريز[١] عاصمة له، وغدا العراق العربي أحد مكونات هذا الكيان.

وقد اتسمت العلاقة بين الجانبين المملوكي والمغولي – الإيلخاني - بالعدائية في غالب أحوالها، وسوف تتضح صورة هذه العلاقة بين الجانبين من خلال بيان أهم المواجهات العسكرية بينهما:

١- معركة الرستن (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)

من المسلم به أن المغول لن يمرروا هزيمتهم غير المتوقعة في عين جالوت دون ردة فعل يستردون من خلالها هيبتهم وغطرستهم؛ ولذا أرادوا اهتبال فرصة مقتل قاهرهم المظفر قطز؛ ظنا منهم أن مقتله سيضعف من شأن المسلمين؛ فقاموا بالهجوم على حلب بقيادة بيدرا، وأخرجوا أهلها منها وقتلوهم في قرنبيا، ثم توجهوا نحو حمص في المحرم من سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، فتصدى لهم المسلمون، وجرت بين الطرفين معركة دامية قرب الرستن[٢] انتصر فيها المسلمون على المغول الذين حاولوا بعدها مهاجمة بعض المدن الإسلامية كحماة وأفامية[٣]، فلم يتمكنوا من ذلك.

ثم توجهوا نحو حلب فأعملوا في أهلها السيف وسيطروا عليها مدة أربعة أشهر؛ مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وانتشار الجوع؛ فأرسل لهم بيبرس - سلطان المسلمين الجديد - جيشا كبيرا أوعز إليه مسؤولية مجابهة المغول وطردهم من حلب؛ مما اضطرهم إلى الهرب نحو الشرق من بلاد الشام[٤].

---

(١) تبريز: وتسمى توريز، وهي أجل مدينة بأذربيجان. أبو الفداء، تقويم، ص٤٥٩.

(٢) الرستن: تقع بين حمص وحماة جنوبي نهر العاصي. أبو الفداء، تقويم، ص٢٦٠.

(٣) أفامية: وتسمى أيضا فامية، مدينة حصينة من سواحل الشام وهي من كور حمص. أبو الفداء، تقويم، ص٣٠١؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٢٢٧.

(٤) ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن نشوان المصري(ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، د.ن، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٩٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر؛ اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص ص٤٣٤-٤٣٥؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٢٠؛ الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك(ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، كنز الدرر وجامع الغرر(الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ج٨)، تحقيق: أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، د.ط، ١٣٩١هـ/١٩٧١م،=

٢- تحرير البيرة من المغول سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م)

كان المغول قد تمكنوا من احتلال البيرة، فجهز السلطان بيبرس عسكرا كثيفا لطردهم منها في سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م)؛ فلما سمعوا بذلك فروا هاربين، فعمرت وأمنت، وقد كانت قبل لا تسكن من كثرة الفساد والخوف[١].

٣- معركة البيرة (٦٧١هـ/١٢٧٢م)

في سنة (٦٧١هـ/١٢٧٢م) هاجم جيش من المغول البيرة ومعهم عساكر سلاجقة الروم وعسكر ماردين وعسكر ميافارقين وعسكر الموصل وعسكر الشهرزور[٢]، وكان عددهم ثلاثين ألفا، وحاصروا المدينة أشد حصار، وقد تمكنت حامية المدينة من الصمود أمام هذا الجيش والتصدي لهم؛ حيث كان أفراد الحامية يخرجون في غارات ليلية، فيهاجمون القوات المحاصرة، ويحرقون مجانيقهم؛ فاضطرت هذه المقاومة - إضافة إلى شدة البرد ونزول الثلج - المغول إلى فك الحصار عن المدينة[٣].

وفي هذه الأثناء خرج بيبرس بعساكره إلى البيرة، فوجد المغول قد وصلوا الفرات، فخاضه وعسكره واقتتلوا مع المغول داخل النهر حتى هزموهم، وبعدها دخل بيبرس البيرة فأخلع على نائبها وأكرم أهلها[٤].

=ج٨، ص ص٦٨-٧٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الدواداري، كنز الدرر؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٤٢؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص٢٦٨-٢٧٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩٦.

(١) اليونيني، ذيل مرآة، ج٢، ص٣١٨؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص١٠٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٤٠٢.

(٢) الشهرزور: من العراق العجمي تقع بين الموصل وهمذان وأهلها أكراد. أبو الفداء، تقويم، ص٤٧٤؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٣٧٥.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٠٥؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص١٦٩؛ الخزنداري، تاريخ، ص ص ١٥٧-١٥٨.

(٤) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي الحلبي(٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، تاريخ الملك الظاهر، اعتناء: أحمد حطيط، مركز الطباعة الحديثة، بيروت، د.ط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ص٥٥-٥٧؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ص ٤٠٥-٤٠٨؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص ص١٦٩-١٧٠؛ اليونيني، ذيل، ج٢، ص ص٢-٣؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٧١هـ)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٣.

٤ - معركة الإبلستين - البستان - (٦٧٥هـ/١٢٧٧م)

في إطار الصراع المملوكي المغولي، سعى المماليك لتوسيع مشروعهم السياسي بضم بلاد الروم المتحالفة مع المغول، والتي من خلالها يمكن الاتصال بمغول القفجاق المسلمين للتعاون معهم ضد مغول إيران[١]؛ ولذا قرر بيبرس مهاجمة بلاد سلاجقة الروم، فسار بجيشه في سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٧م).

ولما علم المغول بتحركات الجيش المملوكي استعدوا لمواجهة الموقف، وتحركت قواتهم وقوات السلاجقة مباشرة نحو الإبلستين[٢] بقيادة القائدين " تودان نوين " و" توغو آغا "، يصحبهما البرواناه " معين الدين سليمان " سلطان سلاجقة الروم، حيث دارت هناك رحى معركة عظيمة في يوم الجمعة العاشر من ذي القعدة سنة(٦٧٥هـ/١٢٧٧م)، أسفرت عن انتصار للمسلمين وعن قتل قائدي المغول[٣].

وبالرغم من انتصار بيبرس فإنه لم يحقق هدفه بضم بلاد الروم والاتصال بمغول القفجاق؛ ويبدو أن الظروف السياسية والعسكرية والجغرافية كانت أقوى من إمكانياته؛ فعاد إلى بلاده قانعا بما أحرزه[٤].

٥- معركة حمص (٦٨٠هـ/١٢٨١م)

شجعت الخلافات المملوكية الداخلية التي أعقبت وفاة الظاهر بيبرس سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) المغول على غزو بلاد الشام، فقاد منكوتمر بن هولاكو جيشا مغوليا عدته ثمانون ألفا بينهم كرج

---

(١) طقوش، محمد سهيل، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٢١١ و ص ص٢١٦-٢١٧، ، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: طقوش، تاريخ المغول.

(٢) الإبلستين: سميت لاحقا البستان، تقع في آسيا الصغرى، بين جبال طوروس والقسم الأعلى من نهر جيحان، وهي من مدن الثغور. طقوش، تاريخ المغول، ص ص٢١٦-٢١٧؛ لسترنج، بلدان الخلافة، ص ص١٧٨-١٧٩.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ص١٦٩-١٧٢؛ أبو الفداء، المختصر،ج٢، ص٣٤١؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ص٤٥٣-٤٦٢؛ اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص ص١٧٥-١٧٨؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٧٥هـ)؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ص ١٥٧-١٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص١٤٩-١٥٢.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ص٤٦٦-٤٦٨؛ اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص١٨٢؛ طقوش، تاريخ المغول، ص٢٢٠.

وأرمن وروم وإفرنج، واتجه به نحو بلاد الشام حتى وصل إلى حمص؛ الأمر الذي دفع المماليك لتوحيد كلمتهم تحت راية سلطانهم الجديد المنصور قلاوون، الذي حرك بدوره عساكره جهة بلاد الشام قاصدا دمشق ومنها إلى حمص، حيث وقعت هناك قرب ضريح خالد بن الوليد - رضي الله عنه - معركة حمص بين المسلمين المماليك والمغول في الرابع عشر من رجب سنة (٦٨٠هـ/تشرين الأول- أكتوبر ١٢٨١م) انتهت بانتصار المسلمين، وأخذ المغول في الفرار، وساق المسلمون خلفهم يأسرون ويقتلون، حتى أن من قتل منهم في الفرار كان أكثر ممن قتل في أرض المعركة(١).

ثالثا: المغول والإسلام

مر فيما سبق بيان توسع الإمبراطورية المغولية وسيطرتها على كثير من البلدان على عهد مؤسسها جنكيز خان وعهد خلفائه من بعده، وقد شملت هذه التوسعات بلادا عدة مثل: الصين وبلاد ما وراء النهر وبلاد الأفغان وإيران وبلاد القفجاق والبلغار والروس(٢)، كما مر بيان ما آلت إليه هذه الإمبراطورية من تقسيمات إقليمية بعد وفاة جنكيز خان.

وعند تتبع خريطة هذه الدول التي سيطر عليها المغول يظهر أن كثيرا منها كان دولا إسلامية قد عرف بعضها الإسلام منذ فترات مبكرة من التاريخ الإسلامي(٣).

---

(١) أبو الفداء، المختصر،ج٢، ص ص٢٤٧-٢٤٨؛ الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص ص٩٣-٩٦؛ اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص ص٩٣-٩٦؛ العسقلاني، شافع بن علي الزنباعي(ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ص٧١-٧٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العسقلاني، الفضل المأثور؛ الدويداري، كنز الدرر، ج٨، ص ص٢٤١-٢٤٤؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم(ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات(٩ج)، تحقيق: قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، د.ط، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ج٧، ص ص٢١٢-٢٢٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الفرات، تاريخ؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٦٩٣-٦٩٥؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ص٢٧٠-٢٨٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٢٥٨-٢٥٩؛ مجهول، تاريخ الدولة التركية، ورقة ١٤/ب.

(٢) لين، الدول الإسلامية، ص٥٠٠.

(٣) البار، محمد علي، كيف أسلم المغول، دار الفتح، عمان، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ص٣٢-٣٨؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: البار، كيف أسلم المغول.

فالأقاليم التي كونت دولة مغول جغطاي وهي خراسان وما وراء النهر وغزنة قد عرفت الإسلام قديما، فإقليم خراسان عرف الإسلام منذ عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حيث تمكن المسلمون من فتح هذا الإقليم في حدود سنة (٣٢هـ/٦٥٢م)[١]، وفي العهد الأموي تم فتح إقليم ما وراء النهر[٢] كاملا في أواخر القرن الأول الهجري[٣]، وفي العصر العباسي الثاني حكمت هذه الأقاليم بعض الدول التي قامت في عهد الدولة العباسية مثل: الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ/٨٢٠-٨٧٢م)[٤]، والدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٦هـ/ ٨٦٨-٩٠٨م)[٥]، والدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ/٨٧٤-٩٩٩م)[٦]، والدولة الغزنوية (٣٦٦-٥٨٢هـ/٩٧٦-١١٨٦م)[٧]، والدولة السلجوقية (٤٣٢-٥٥٢هـ/١١١٧-١١٥٧م)[٨]، والدولة الخوارزمية (٤٧٠-٦٢٨هـ/١٠٧٧-١٢٣٠م)[٩].

---

(١) الطبري، محمد بن جرير(ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري(١٠ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت، ج٤، ص٣٠٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الطبري، تاريخ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ص١٠٢-١٠٦؛ مؤنس، حسين، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٣٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: مؤنس، أطلس.

(٢) بلاد ما وراء النهر: هو الاسم الذي أطلقه المسلمون العرب على المنطقة الواقعة في حوض نهري جيحون (أموداريا) وسيحون (سرديريا). بارتولد ، تركستان، ص١٤٥.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٦، ص٤٤٢ و ص٤٤٧ و ص٤٧٢ و ص ص٥٠٠-٥٠١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص ص١٩٧-١٩٨ و ص ص٢٢١-٢٢٣؛ بارتولد، تركستان، ص ص٣٠٠-٣١٢؛ مؤنس، أطلس، ص١٣١.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٥٧٧ وص ص٥٩٤-٥٩٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ص٣٦٨-٣٦٩ و ص ص٣٨١-٣٨٢؛ سليمان، معجم الأسر، ص ص١٩١-١٩٢.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٩، ص ص٣٨٢-٣٨٦ وص٤٧٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ص٦٣٣-٦٣٥ و ص٦٧٠ و ص٦٨١ و ص٦٨٥، ج٦، ص ص٢٧-٢٨؛ سليمان، معجم الأسر، ص١٩٤؛ بارتولد، تركستان، ص ص٣٤٢-٣٤٣.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص٧-٩ و ص١٣٧ و ص ص٢٤٧-٢٤٨ و ص ص٢٥٥-٢٥٦ و ص ص٢٦٢-٢٦٣ و ص٣٢٢ و ص٣٩٤، ج٧، ص ص٢٣٧-٢٣٨؛ سليمان، معجم الأسر، ص١٩٧؛ بارتولد، تركستان، ص٣٣٤.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٠٨ و ص ص٢٠١-٢٠٢ و ص٤٢٥؛ سليمان، معجم الأسر، ص ص٤٠٠-٤٠١.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٧؛ سليمان، معجم الأسر، ص ص٢١٨-٢٢١.

(٩) ابن سباط، تاريخ، ج١، ص ص٢١١-٢١٢؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٢٢٨؛ الخضري، الدولة العباسية، ص٤٢٠؛ سليمان، معجم الأسر، ص ص٢٥٧-٢٥٨.

وأما بلاد القفجاق والبلغار والتي قامت فيها دولة مغول القبيلة الذهبية فتوجد إشارات تدل على اعتناق أهلها للإسلام منذ فترة مبكرة[(١)]، فملك البلغار[(٢)] ألمش بن يلطوار أرسل سنة (٣٠٩هـ/٩٢١م) إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/٨٧٤-٨٩٩م) يطلب إرسال بعض الفقهاء والعلماء ليفقهوه في الدين وليعلموا قومه شعائر الإسلام، وليساعدوه في إنشاء المساجد، وفي تعيين جهة القبلة، فأرسل إليه المقتدر الشيخ أحمد بن فضلان بن العباس ومعه جماعة من الفقهاء والمعلمين[(٣)].

فمن هنا يتبين أن تعرف المغول على الإسلام سيكون أمرا طبيعيا ومتوقعا في البلاد الإسلامية التي سقطت بأيديهم في بداية توسعاتهم صوب العالم الإسلامي، ومن الطبيعي والمتوقع أيضا انبهار المغول بالإسلام وحضارته؛ ذلك أنهم قوم ليسوا أصحاب حضارة يمكنها أن تصمد طويلا أمام الحضارة الإسلامية التي لها من الكمال العقدي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي ما يؤهلها لتأثر المغول بها واعتناقهم لها، وهو ما حدث في فترة لاحقة.

وقد برزت آثار هذا التأثر منذ زمن جنكيز خان، فحسب رواية بارتولد نقلا عن المصادر الصينية فإن هناك دلائل على أن بعض المغول دخلوا الإسلام منذ أيام جنكيز خان، وأن أخا زوجة جنكيز خان قد اسلم وتسمى بجمال خواجه[(٤)].

كما أن بعض المسلمين كان لهم حضور قوي في البلاط الجنكيزي حيث استعان بهم جنكيز كوزراء وسفراء ونواب، ولا شك أن هؤلاء كانوا من أهل البلاد الإسلامية التي وقعت بيد المغول، ومن الطبيعي جدا أن يكون لهؤلاء دور كبير في تعريف المغول بالإسلام ومن ثم نشره بينهم.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦٣.

(٢) بلاد البلغار: هي بلاد الصقالبة ذات البرودة الشديدة، تقع في شمال القارة الأوروبية على أطراف نهر الفولغا، وتقع عاصمتهم بلغار بالقرب من مدينة قازان اليوم. ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس (ت بعد ٣١٠هـ/٩٢٢م)، رحلة ابن فضلان، حررها: شاكر لعيبي، دار السويدي، أبوظبي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٣٧، حاشية رقم (٢)، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن فضلان، الرحلة؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٤٨٥.

(٣) ابن فضلان، الرحلة، ص٣٧؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٤٨٦.

(٤) العمادي، جبران، المعتقدات الدينية، ص١١.

وأبرز مثال لذلك ما يذكر عن التاجر محمود يلواج الخوارزمي الذي كانت له مكانته عند الزعيم المغولي جنكيز خان، حيث وثق به جنكيز وجعله سفيرا له عدة مرات، ومنها سفارته إلى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م)، ثم عينه واليا على خان باليق (بكين)، ثم جعله نائبا عنه في حكم بلاد ما وراء النهر، وفي عهد كيوك خان (٦٤٤-٦٤٧هـ/١٢٤٧-١٢٤٩م) نصب حاكما عاما على مملكة الخطا، وفي عهد منكو خان (٦٤٩-٦٥٨هـ/١٢٥١-١٢٥٩م) عين حاكما على بلاد الصين، كما عين ابنه مسعود وزيرا في تركستان وما وراء النهر وبلاد الأويغور وفرغانة وخوارزم، ثم تعاقب على حكم هذه البلاد أبناء محمود يلواج(١).

وقد قام محمود يلواج وأبنائه من بعده بدور إيجابي تجاه الإسلام وثقافته، فنهضوا بالبلاد التي حكموا فيها، وعملوا على إزالة آثار الغزو المغولي في بلاد ما وراء النهر، فأعادوا بناء مدن بخارى وسمرقند وخوارزم، وانتشرت فيها المدارس العلمية والتي سميت باسم المدارس المسعودية نسبة إلى مسعود يلواج، وقد قامت هذه المدارس بدور كبير في نشر الثقافة والعقيدة الإسلامية بين المغول، كما ساهمت في الحفاظ على التراث والفكر الإسلامي بين المسلمين(٢).

ومن جانب آخر اهتم محمود يلواج وأبنائه بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية فعم الرخاء، وساد الأمن، وعادت البلاد إلى رخائها قريبا مما كانت عليه قبل الغزو المغولي(٣).

ولم يكن محمود يلواج وأبناؤه هم المسلمين الوحيدين الذين برزت أسماؤهم في البلاط المغولي مبكرا، فهناك التاجر الثري قطب الدين حبش عميد الذي صار وزيرا لجغتاي (٦٢٤-٦٤٠هـ/١٢٢٧-١٢٤٢م) وكان له نفوذ ومكانة بارزة عند المغول(٤).

---

(١) الهمذاني، تاريخ خلفاء جنكيز، ج٢، ق٢، ص١٥ و ص ص٢٢-٢٣؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٤، ص ص٢٢-٢٣؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص٧٦-٧٧؛ البار، كيف أسلم المغول، ص٨٢؛ بارتولد، تركستان، ص ص٦٥٤-٦٥٥، حاشية ١٨أ؛ شبولير، بيرتولد، المغول في التاريخ، ترجمة: يوسف شلب الشام، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٩٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: شبولير، المغول؛ العمادي، جبران، المعتقدات الدينية، ص ص١٠-١١.

(٢) عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٧٧؛ بارتولد، تركستان، ص٦٦٥ وص٦٧٠.

(٣) البار، كيف أسلم المغول، ص٨٢؛ بارتولد، تركستان، ص٦٦٥.

(٤) عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٧٥؛ البار، كيف أسلم المغول، ص١٣٣؛ بارتولد، تركستان، ص ص٦٦١-٦٦٢.

وممن تولى الوزارة للمغول قبل إسلامهم بهاء الدين المرغلاني أو المارغيناي، وكان عالما فاضلا، حيث تولى الوزارة في عهد ييسو بن مونكا بن جغتاي (٦٤٥-٦٥٠هـ/١٢٤٧-١٢٥٢م)، وجعله نائبا عنه في حكم بلاد ما وراء النهر، وصار بيته مقصدا لكل العلماء المبرزين المعاصرين، فاستعادت العلوم الإسلامية مكانتها، كما تأثر بنشاطه عدد كبير من المغول فاعتنقوا الإسلام[١].

ومن أشهر من تولى الوزارة للمغول السيد الأجل البخاري الذي استعان به المغول ووثقوا به منذ عهد جنكيز خان وحتى عهد قوبيلاي خان، وبعد وفاة السيد الأجل تولى الوزارة رجل مسلم آخر يسمى أحمد البناتكي[٢].

وبالإضافة إلى دور الوزراء المسلمين في بلاط المغول في التعريف بالإسلام، لعب التجار المسلمون دورا بارزا في ذلك التعريف، ذلك أن التجار المسلمين كانوا يجوبون البلاد التي سيطر عليها المغول في آسيا، خاصة أن المغول كانوا يعتبرون النشاط التجاري العمود الفقري للحياة الاقتصادية في بلادهم؛ نظرا لقلة الموارد الأخرى بها؛ ولذلك نشطت التجارة في عهد المغول وتقدم التجار المسلمون إلى عاصمة الإمبراطورية المغولية؛ مما ساهم في تعريف المغول بالإسلام ومن ثم الدعوة لاعتناقه[٣].

من خلال تلك اللمحة الموجزة يتبين أن المغول تعرفوا على الإسلام منذ فترة مبكرة واكبت توسعاتهم الأولى في البلاد الإسلامية زمن مؤسس دولتهم جنكيز خان، الأمر الذي أدى إلى تأثر المغول فرديا بالإسلام فاعتنقوه، ثم في الفترة اللاحقة التي انقسمت فيها إمبراطورية المغول إلى دول عدة أدى هذا التعرف المبكر إلى إعلان غالب هذه الدول إسلامها كما سيأتي.

وأول دولة من دول المغول انتشر فيها هي دولة مغول القفجاق، والتي تعرف أيضا باسم دولة مغول القبيلة الذهبية، بعد أن اعتلى بركة خان[٤] (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) مقاليد الحكم فيها، وبركة هذا

---

(١) عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٧٦؛ بارتولد، تركستان، ص٦٧٨.

(٢) البار، كيف أسلم المغول، ص١٣٤-١٣٥.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص ص٥٧٤-٥٧٥؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٩٧-٩٩؛ بارتولد، تركستان، ص ص٦٥٤-٦٥٥، حاشية ١٨أ وص ص٦٦١-٦٦٢.

(٤) بركة خان: هو بركة بن توشي (تولي/ جوجي) بن جنكيز خان، أسلم وكان يعظم العلماء والصالحين، من أكبر حسناته كسره لابن عمه هولاكو وتفريق جنوده. ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٤١١؛ ابن تغري بردي، المنهل

كان قد أسلم على يد الشيخ سيف الدين الباخرزي[١] حوالي سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)، فكان بذلك أول خواقين المغول اعتناقا للإسلام[٢].

وقد عمل بركة خان على نشر الإسلام في بلاده، وبنى المساجد والمدارس واستقدم العلماء والفقهاء لتعميق الثقافة الإسلامية في بلاده، وقد ساهمت تلك الجهود في نشر الإسلام بين سكان البلاد عامة وفي العاصمة سراي خاصة[٣].

ولم يُؤَثِّر تولي خواقين غير مسلمين الحكم من بعد بركة على إسلام أهل البلاد، إذ ظلوا على إسلامهم حتى تولى الحكم أوزبك بن طغرلشاه[٤] سنة (٧١٢هـ/١٣١٣م)، الذي أعلن إسلامه وفق معتقد أهل السنة - كما صرح بذلك ابن بطوطة الذي زار البلاد على عهده[٥] - فمكن للإسلام أيما تمكين وأعاد اعتباره دين الدولة، واجتهد في القضاء على نفوذ المسيحية والشامانية والبوذية[٦].

= الصافي والمستوفي بعد الوافي(١٢ج)، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج٣، ص ص٣٤٩-٣٥٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن تغري بردي، المنهل الصافي.

(١) الشيخ سيف الدين أبو المعالي سعيد بن المطهر الباخرزي، شيخ زاهد عارف كبير القدر إمام في السنة والتصوف عني بالحديث وكتب الأجزاء. الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٨٧.

(٢) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٨٧؛ العيني، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠٩؛ عقد الجمان، ج١، ص٩٠؛ الرمزي م.م، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار(٢ج)، قدم له وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج١، ص٣٩٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الرمزي، تلفيق الأخبار؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص١١١-١١٢.

(٣) العيني، عقد الجمان، ج١، ص٩٠؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص ص٣٤٣-٣٤٤؛ الرمزي، تلفيق الأخبار، ص٤٠٤؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص١١٣-١١٤؛ بارتولد، تركستان، ص٦٩٣.

(٢) أوزبك بن طقطاي (وقيل ابن طغرلجا) بن منكوتمر بن طغان بن باتو بن دوشي بن جنكيز خان، تولى الحكم سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م)، أسلم وحسن إسلامه وحرض رعيته على الإسلام، كان شجاعا كريما ذا هيبة وحرمة، توفي سنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م). ابن حجر، الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ابن حجر(٤ج)، دار الجيل، بيروت، د.ط، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج١، ص٣٥٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حجر، الدرر الكامنة (دار الجيل)؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص ص٣٤٣-٣٤٤.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٣٢٧.

(٥) ابن بطوطة؛ الرحلة، ج١، ص ص٣٢٣-٣٢٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧٤؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ١٢٣ وص١٣٠.

وقد وصف ابن بطوطة المظاهر الإسلامية المنتشرة هناك على عهد أوزبك خان، وأشـار إلـى انتشار المذهب الشافعي والحنفي في بلاد القفجاق[١].

ويعد اعتناق أوزبك للإسلام " تدشينا لسلسلة لم تنقطع للخانات المسلمين، وهذا الاعتناق يدل على المسافة التي قامت بينهم وبين الروس، وأدى إلى امتناع اندماج الشعب التتاري بالجنسية الروسـية، وكان هذا الاعتناق ممهدا لإنشاء أمة " تتار الفولغا "، وبهذا المعنى يمكن اعتبـار أوزبـك الخـالق الحقيقي لأمة التتر ولا يزال قسم من القبائل التركية في آسيا الوسطى يحمل اسم الأوزبك حتى هـذا اليوم "[٢]، كما أن معظم الحضارة التترية الموروثة على الفولغا والتي كشفتها التنقيبات الحديثة تعود إلى ذلك العصر[٣].

وأما المملكة الثانية التي دخلها الإسلام دخولا رسميا فهي مملكة المغول الإيلخانيين والتي أنشأها هولاكو سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م).

وكان السلطان أحمد تكودار[٤](٦٨١-٦٨٣هـ/١٢٨٢-١٢٨٤م) هـو أول سـلاطين المغـول الإيلخانيين إسلاما، وكان هذا السلطان قد أسلم صغيرا على يد الشيخ كمال الدين عبد الـرحمن[٥] - أحد شيوخ الموصل - وبتولي السلطان أحمد عرش إيلخانية إيران أخذ في إضفاء الطابع الإسلامي على الدولة، فبنى الجوامع والمساجد والمدارس، ورتب القضاة، وحكم الشريعة الإسلامية، وقـرب العلماء، وحاول التصالح مع المماليك[٦].

---

(١) ابن بطوطة؛ الرحلة، ج١، ص٢٩٣ وص ٢٩٥.

(٢) شبولير، المغول، ص١١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص١١٧.

(٤) أحمد تكودار بن هولاكو بن تولي خان بن جنكيز خان، جلس على كرسي الملك بعد موت أخيه أبغا، كان ملكا شهما خبيرا بأمور الرعية، انقلب عليه ابن أخيه أرغون وقتله سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) وقام بالحكم مكانه. الصفدي، الوافي، ج٨، ص ص١٤٧-١٤٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص ص٢٥٤-٢٥٥.

(٥) لم يكن الشيخ عبد الرحمن من العلماء، وقد أسره المغول في وقعة بغداد، فأظهر التزهـد، واتصـل بالخـان المغولي أبغا، فأخذ يظهر له الشعبذة حتى عظم عنده، ويذكر أنه كان سبب إسلام تكودار، فلما تسلطن قربه وعظمه ثم أرسله إلى المماليك، فلما عرفوا حاله حبسوه عندهم. مجهول، الحوادث، ص ص٤٦٧-٤٦٨؛ الذهبي، تـاريخ، ج٥١، ص ص١٤٦-١٤٩؛ الصفدي، الوافي، ج١٨، ص ص١٨٨-١٩٠.

(٦) ابن العبري، تاريخ، ص٥٠٨؛ شافع، الفضل المـأثور، ص٩٣؛ المقريـزي، السـلوك، ج١، ق٣، ص٧٠٧؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٩٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص ص٢٥٤-٢٥٥؛ إقبال، عباس،=

لم ترض تلك الإجراءات المغول الوثنيين في الدولة الإيلخانية فثار عليه ابن أخيه أرغون بن أبغا فقتله سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) واستولى على العرش مكانه، وأعاد الدولة إلى صبغتها الوثنية السابقة[(١)].

وقد ظلت الدولة على وثنيتها بعد ذلك حتى تولى حكمها غازان بن أرغون[(٢)](٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٥-١٣٠٤م) الذي كان قد أسلم في شعبان من سنة(٦٩٤هـ/١٢٩٥م) قبيل توليه الحكم وكان حينها أميرا على خراسان، وكان ذلك بتأثير قائد جيشه المسلم نوروز الذي وعده بنصرته على بايدو خان مغول إيران. وقد أعلن غازان إسلامه على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين حمويه الجويني[(٣)]، وتسمى باسم محمود، وكان يوم إسلامه مشهودا، وانتشر بإسلامه الإسلام في المغول الإيلخانيين، وأعلن غالبية جنده وأمرائه اعتناقهم للإسلام[(٤)].

=تاريخ المغول، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المركز الثقافي، أبوظبي، د.ط، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ص٢٣٥-٢٣٦ و ص ص٢٤٢-٢٤٣ و ص ص٢٦٧-٢٦٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: إقبال، تاريخ المغول؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص١٨١.

(١) مجهول، الحوادث، ص٤٧٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٥١٠ وص٥٥٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٢٢؛ إقبال، تاريخ المغول، ص ص٢٤٢-٢٤٣.

(٢) غازان ويقال قازان، محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، جلس على تخت الملك سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٥م)، كان شابا شجاعا مهيبا، مات بقزوين سنة (٧٠٣هـ/٧١٦م). الهمذاني، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص١٢٣ وص ص٤١٤-٤١٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الهمذاني، تاريخ غازان؛ الكتبي، فوات، ج٢، ص٤٨٢؛ الشوكاني، محمد بن علي(ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع(٢ج)، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج٢، ص ص٥٥٩-٥٦٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الشوكاني، البدر الطالع.

(٣) هو الشيخ إبراهيم بن الشيخ محمد بن حمويه الجويني الشافعي، ولد سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) بطبرستان، تتلمذ على أكثر علماء عصره، رحل في طلب العلم إلى العديد من البلاد الإسلامية، توفي بخراسان سنة (٧٢٢هـ/١٣٢٢م). الهمذاني، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص١٢٣، حاشية رقم (٢)؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة(٦ج)، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ج١، ص٧٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حجر، الدرر الكامنة؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص ص١٥٥-١٥٧.

(٤) الهمذاني، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص١٢٣ و ص ص٤١٤-٤١٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٤٩؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٤٨؛ إقبال، تاريخ المغول، ص ص٢٦٤-٢٦٧؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص١٨٨-١٨٩.

بعد ذلك تمكن غازان من الانتصار على بايدو واعتلى عرش الإيلخانية في ذي الحجة سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٥م)، ومنذ ذلك الحين لم يحكم هذه البلاد حاكم مغولي غير مسلم[١].

وقد عمل غازان بعد ذلك على صبغ الدولة بالصبغة الإسلامية، فجعل الإسلام دينا رسميا للدولة، وأعلن استقلال بلاده عن التبعية المركزية للإمبراطورية المغولية في قراقورم، وقام بتطبيق الشريعة الإسلامية في أحكام الدولة، واهتم بتعمير المساجد والمدارس والخوانق، واتخذ أعوانه من المسلمين[٢].

وقد كانت هذه الدولة متبعة لعقيدة أهل السنة، حيث كان السلطان غازان متبعا لمذهب الإمام أبي حنيفة، كما أن ذكر الخلفاء الراشدين كان شائعا على منابر بلادهم في خطبة الجمعة، و كانوا ينقشون على عملتهم أسماء هؤلاء الخلفاء[٣].

وأما ما ذكر عن تشيع السلطان محمد خدا بنده[٤] (٧٠٣-٧١٦هـ/١٣٠٣-١٣١٦م) فإنه لا يدل على تشيع عموم الدولة، فعلى الرغم من محاولته لفرض العقيدة الشيعية الإثنى عشرية على الناس؛ إلا أن علماء البلاد وأهلها لم يستجيبوا لمحاولات السلطان لدفعهم نحو التشيع، بل وعملوا على التصدي لتلك المحاولات مما أدى إلى عودة السلطان خدا بنده إلى عقيدة السنة في أواخر حياته[٥].

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٥٢٣؛ الهمذاني، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص١٢٨؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص ص٢٧٩-٢٨٠؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص١٨٩.

(٢) الهمذاني، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص١٢٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص ص٢٤٩-٢٥٠؛ العيني، عقد الجمان، ج٣، ص ص٢٨٠-٢٨١؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص١٩٥-١٩٦؛ حتاملة، عبد الكريم عبده، " دور السلطان محمود غازان في نشر الإسلام بين المغول "، مجلة دراسات(العلوم الإنسانية والاجتماعية)، المجلد ٣٠، العدد ٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٣٠٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: حتاملة، دور السلطان غازان.

(٣) الهمذاني، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص٢٢٧؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص١٨٧؛ إقبال، تاريخ المغول، ص٢٦٨ و ص٣١٦؛ حتاملة، دور السلطان غازان، ص٣٠٧؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٢١١؛ طقوش، تاريخ المغول العظام، ص٢٦٥؛.

(٤) هو السلطان محمد بن أرغون المعروف بخدا بنده أي عبد الله، تولى ملك إيلخانية المغول بعد أخيه غازان، تشيع فترة، ثم عاد إلى السنة في أواخر حياته، مات في رمضان سنة (٧١٦هـ/١٣١٦م). ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص١١٤؛ ابن بطوطة، ج١، ص ص١٨٦-١٨٨.

(٥) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ص١٨٦-١٨٨؛ ابن حجر، الدرر، ج٣، ص ص٣٧٨-٣٧٩؛ إقبال، تاريخ المغول، ص ص٣١٦-٣١٨.

وأما المملكة المغولية الثالثة التي أعلنت إسلامها فهي مملكة مغول جغطاي، وكان السلطان مبارك شاه بن قرا هولاكو حفيد جغطاي الذي تولى السلطة سنة(٦٦٤هـ/١٢٦٥م) هو أول سلاطين هذه المملكة إسلاما، إلا أن مبارك شاه لم يستمر في عرش المملكة طويلا إذ سرعان ما أسقطه ابن عمه براق خان في السنة نفسها[١].

وبعد فترة من الصراع الإسلامي الوثني على عرش المملكة الجغطائية تمكن السلطان المسلم طرما شيرين من تولي عرش البلاد (٧٢٦-٧٣٤هـ/١٣٢٦-١٣٣٤م)، حيث حدث تحول كبير نحو الإسلام، فألغى العمل بأحكام الياسا المغولية واستبدلها بتطبيق الشريعة الإسلامية، وعم الإسلام في عهده أنحاء دولته[٢]، إلا أن أعمال طرما شيرين المتحمسة للإسلام أثارت أعداءه من البوذيين والشامانيين، فقامت عليه ثورة انتهت بخلعه وتولي ابن أخيه البوذي جنكشي مقاليد الحكم سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٤م)[٣].

لم يطل عهد جنكشي إذ سرعان ما أُسقط حكمه، وتولى بعده ابن أخ آخر لطرما شيرين هو بوزن أغلي الذي لم يكن متحمسا للإسلام كثيرا بالرغم من أنه كان مسلما بل على العكس من ذلك، فقد كان " فاسد الدين سيء السيرة "[٤]، وقد " ضيق على المسلمين وظلم الرعية، وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم "[٥]؛ مما أدى إلى ثورة المسلمين عليه ومساندة السلطان خليل بن أليسور بن دوا بن براق ضده، الأمر الذي أدى إلى اعتلاء السلطان خليل عرش مملكة جغطاي سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) حيث ارتفع شأن الإسلام في عهده[٦].

وبعد وفاة السلطان خليل سنة (٧٤٤هـ/١٣٤٣م) ضعفت المملكة وانقسمت إلى إمارات صغيرة حتى وحدها من جديد تغلق تيمور حفيد دوا بن براق (٧٤٨-٧٦٥هـ/١٣٤٧-١٣٦٣م)، وبعد ذلك

---

(١) الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ق٢، ص١٨؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٢٣٣؛ بارتولد، تركستان، ص ٧٠٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٠؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ص٣٣٥-٣٣٩؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص٢٣٦-٢٣٩؛ شبولير، المغول، ص٩٦.

(٣) عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص٢٣٦-٢٣٩.

(٤) ابن بطوطة، ج١، الرحلة، ص٣٣٩.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٤١.

(٦) ابن بطوطة، ج١، الرحلة، ص ص٣٤١-٣٤٢؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٢٤١.

اعتنق تغلق تيمور الإسلام على يد الشيخ رشيد الدين بن جمال الدين، ثم أخذ في نشر الإسلام في بلاده[١].

والجدير بالذكر هنا أن تغلق تيمور هذا كان هو سبب ظهور شخصية تيمورلنك[٢] على مسرح الأحداث، فقد عينه وزيرا له وبعد وفاته تمكن تيمورلنك من أن يستولي على عرش جغطاي متخذا من سمرقند[٣] عاصمة له، ومنها انطلق للاستيلاء على معظم ممالك المغول في آسيا الوسطى وبلاد الهند والأفغان وإيران وخوارزم والعراق وآسيا الصغرى وبلاد القفجاق مكونا إمبراطورية مغولية كبيرة[٤].

وقد كان تيمور هذا مسلما سنيا، ويؤكد ذلك ما ذكره عنه ابن خلدون الذي قابله في دمشق، إذ يقول عنه: " وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراعنتهم، والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى

---

(١) عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص٢٤٢-٢٤٣.

(٢) هو تيمورلنك بن طرغاي بن الغاي، ولد سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٦م)، في مدينة كش جنوب سمرقند، بإقليم ما وراء النهر، ومعنى تيمور: الحديد، ومعنى لنك: الأعرج وصف بذلك لعرج كان في رجله. يتصل نسب تيمور بجنكيز خان من جهة النساء، كما أن أباه ينتسب إلى أصل مغولي تركي ينتهي به إلى طائفة جغطاي بن جنكيز خان، تزوج تيمور بنت الأمير حسين - من خانات ما وراء النهر- إذ كان أبو تيمور أمير مائة عند هذا الأمير؛ فلقب كوركان، بمعنى: صهر الملوك، وقد تنقلت به الأحوال إلى أن تملك بلاد ما وراء النهر سنة (٧٧١هـ/١٣٧٠م)، واتخذ من سمرقند عاصمة لدولته. كان تيمور لنك مهابا، مقداما، شجاعا، ظلوما، سفاكا للدماء، توفي سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م). ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر(٩ج)، مراقبة: محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية(عن دائرة المعارف العثمانية)، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ج١، ص ص١٥-٢٠ و ج٥، ص ص٢٣١-٢٣٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حجر، إنباء الغمر؛ ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص ص٣٩-٤٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٩٦-١٠١؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ص٢٠٧-٢١٣؛ سليمان، معجم الأسر، ص ص٣٨٠-٣٨١؛ العلبي، أكرم حسن، تيمور لنك وحكايته مع دمشق، دار المأمون للتراث، دمشق، د.ط، د.ت، ص ص٢٨-٣٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العلبي، تيمورلنك؛ لين، الدول الإسلامية، ج٢، ص ص٥٨٨-٥٨٩.

(٣) سمرقند: إحدى مدن بلاد ما وراء النهر. أبو الفداء، تقويم، ص٥٥٨.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص ص١٥-٢٠ و ج٥، ص ص٢٣١-٢٣٧؛ ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص ص٣٩-٤٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٩٦-١٠١؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ص٢٠٧-٢١٣؛ الرمزي، تلفيق الأخبار، ص٥٨٠؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص٢٤٣.

اعتقاد الرفض، لما يرونه من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء، إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم "[١].

كما أن مصاحبة القاضي عبد الجبار الحنفي المعتزلي لتيمور وإمامته له في الصلاة مـن الأدلـة على سنية تيمورلنك، وعندما انتسب أمامه القاضي ناصر الدين أبو الطيب لعمر وعثمـان، وصـفه بأنه " طاهر الأسلاف "[٢]، وهو خلاف ما يعتقده الشيعة في عمر وعثمان.

وبعد وفاة تيمورلنك سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ضعفت دولته وتعرضـت للصـراعات الداخليـة والمهاجمات الخارجية؛ مما عرضها للزوال فوقعت بلاد ما وراء النهـر بأيـدي الشـيبانيين سـنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)، وإيران بأيدي الصفويين سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م)[٣]، ولـم يبـق مـن إرث التيموريين بعد ذلك إلا دولتهم في الهند والتي أسسها أحد أحفاد تيمور لنك ويدعى بابر شـاه، وقـد أطلق الأوروبيون على هذه الدولة اسم " إمبراطورية المغول الكبرى " وقد ظلت قائمة حتـى سـنة (١٢٧٩هـ/١٨٦٢م) حيث بدأ الحكم البريطاني المباشر بعد الاحتلال التدريجي للبلاد[٤].

من خلال ما سبق يتبين أن جميع ممالك المغول قد غلب عليها الإسلام وأصبح الدين السائد فيها، باستثناء مملكة مغول الصين والخطا التي كانت مقرا للخوانين العظام، مع الأخذ بعين الاعتبـار أن ذلك لا يعني عدم وصول الإسلام إليها البتة، إذ إن الإسلام كان حاضرا في هـذه المملكـة[٥]، فقـد أورد ابن الأثير إشارة في أحداث سنة (٢٦٤هـ/٨٧٧م) تـدل علـى الوجـود الإسـلامي بـبلاد الصين[٦]، كما وصف ابن بطوطة الذي زار بلاد الصين والخطـا فـي منتصـف القـرن الثـامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي الوجود الإسلامي هناك وذكر ما عليه المسلمون مـن تميـز فـي

---

(١) ابن خلدون، الرحلة، ص٢٩٩.

(٢) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٦٣.

(٣) سليمان، معجم الأسر، ص٣٨١ و ص٣٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٨١ و ص٤٤٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ص٤٨٥-٤٨٦.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص٣٥-٣٦.

محلاتهم وأطعمتهم ولباسهم، وأشار إلى وجود المساجد والزوايا والأوقاف والعلماء والفقهاء والقضاة في المناطق الإسلامية التي زارها بالصين[(١)].

وقد مر بيان اعتماد جنكيز خان على مجموعة من المسلمين في أعماله الإدارية والاقتصادية من مثل محمود يلواج والسيد الأجل الذي ارتقى شأنه في عهد جنكيز خان وتولى المناصب العالية، وعينه أوكتاي خان (٦٢٦-٦٣٩هـ/١٢٢٩-١٢٤١م) حاكما لثلاث ولايات في الصين، وفي عهد منكو خان (٦٤٩-٦٥٨هـ/١٢٥١-١٢٥٩م) عهد إلى السيد الأجل بإدارة ست ولايات في الصين مع صيني آخر، وفي عهد قوبيلاي خان (٦٥٨-٦٩٣هـ/١٢٦٠-١٢٩٤م) تولى إدارة ولاية يونان التي تقع في جنوبي الصين، فعمرها السيد الأجل وبنى فيها المساجد والمدارس للمسلمين وأقام الطرق والجسور والسدود، وقد انتشر الإسلام في عهده وعهد ابنه نصير الدين في إقليم يونان بجنوب الصين. وقد تعاقب أبناء السيد الأجل وأحفاده على إدارة إقليم يونان، مما ساهم في نشر الإسلام في هذا الإقليم وفي أقاليم أخرى من الصين مثل إقليم هينكانج في الغرب، وإقليم كانسو في الشمال[(٢)].

وقد أثمر هذا الوجود الإسلامي هناك في اعتناق أحد ملوك الخطا الإسلام في فترة لاحقة، ففي سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) قدمت رسل ملك الخطا[(٣)] إلى السلطان الناصر محمد قلاوون يخبرونه بإسلام ملكهم بواسطة أحد الدعاة المسلمين، وكان طلب الرسل أن يبعث لهم الملك الناصر كتبا إسلامية، وعالما مسلما يعلمهم شرائع الإسلام، فلبى الناصر طلبهم[(٤)].

ورغم هذا القبول للإسلام في خانية المغول الكبرى وانتشاره في بعض مناطق الخانية، إلا أن خواقينها لم يقدموا على اعتناقه - باستثناء ما ورد من إسلام الملك سندمر - ولكنهم في الوقت نفسه لم يقوموا بمحاربته، بل أعطوا أهله حرية ممارسة شعائرهم الدينية وإقامة مراكزهم الثقافية[(٥)].

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ص٥٦٥-٥٧٥.
(٢) عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص٢٦٠-٢٦٣ و ص٢٦٥.
(٣) ورد في حاشية " ٥ " بالسلوك، ج٢، ق٣، ص٦٢٩، أن اسم هذا الملك " سندمر ".
(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٢٩.
(٥) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص ص٥٦٥-٥٧٥ وص٥٧٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ص٤٨٥-٤٨٦؛ عبد الحليم، انتشار الإسلام، ص ص٢٦٧-٢٦٨.

رابعا: الغزو المغولي الثاني لــبلاد الشـــام والعــراق (٦٩٤-٨٠٣هـــ/١٢٩٤-١٤٠١م)

لم يتوقف المغول – رغم إسلامهم – عن مهاجمة بلاد الشام، ولا عن مهاجمة العراق بعــد زوال الدولة الإيلخانية، وسوف يشار هنا إلى أهم المصـــادمات العســكرية التــي دارت بــين الطــرفين المملوكي والمغولي في هذه الفترة.

١- معركة مجمع المروج أو الخزندار (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)

وقعت هذه المعركة في عهد الخان المغولي المسلم غازان أو قازان، وكان سلطان المماليك وقتها الناصر محمد قلاوون في سلطنته الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م).

وتعتبر معركة مجمع المروج أو الخزندار[١] أول معركة يقودها خان مغولي مسلم ضد إخوانــه في العقيدة من المماليك؛ وهو أمر أوقع البلاد والعباد في حيرة وتردد في قتالهم، لولا تدخل العلمــاء في بيان الحق، وكشف الشبهات حول هذه القضية كما سيرد لاحقا عند الحديث عن مواقف العلماء.

كما تعتبر أول معركة ينهزم فيها المماليك أمام المغول؛ بسبب ما كانت تمر بــه مصــر و بــلاد الشام عشية اجتياح غازان لها من ظروف بالغة السوء. فالسلطان لم يتجاوز الخامسة عشــرة مــن عمره، وهو أمر جعله خاضعا لسلطة الأمراء الطامعين في السلطة، مع ما كان بين هؤلاء الأمــراء من صراعات بينية أدت إلى عدم الاستعداد الجاد لمواجهة المغول[٢].

ومما ينبغي أن يلاحظ أن غزو غازان لبلاد الشام - رغم إســلامه - يــدل علــى اســتمرارية المشروع السياسي التوسعي المغولي في بلاد الشام، وأن ما فعله المغول بدمشــق ونواحيهــا بعــد سيطرتهم عليها يوضح أن العقيدة الدينية عند المغول بعد إسلامهم تســير بمنــأى عــن الأهــداف السياسية، التي تسقط كل الاعتبارات العقدية والخلقية، في سبيل تحقيق الغايات المادية والنفعية.

---

(١) يقع وادي الخزندار شمال شرق حمص على نحو فرسخين أو ثلاثة منها. الذهبي، ج٥١، ص٧٠.

(٢) أبو الفداء، المختصر،ج٢، ص٣٨١؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٨٢؛ العلبــي، معــارك المغــول، ص١٠١.

فبدخول سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) غادر غازان تبريز في جيش يزيد على مائة ألف مقاتل، وفي ربيع الأول من السنة نفسها، وصل السلطان الناصر قلاوون دمشق في جيش يصل عدده إلى أربعين ألف مقاتل، ثم تقدم بهم نحو مجمع المروج – شرقي حمص- حيث التقى هناك الجيش المملوكي بالجيش المغولي في الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول لسنة (٦٩٩هـ/كانون الأول-ديسمبر ١٢٩٩م)، في معركة أسفرت عن انتصار المغول على المماليك، وبعد المعركة انسحب السلطان الناصر قلاوون إلى مصر[١].

وبهذا الانتصار بسط غازان نفوذه على شمال بلاد الشام، ثم توجه نحو دمشق واستولى عليها خلا قلعتها التي أصر نائبها علم الدين أرجواش[٢] على عدم تسليمها[٣]، وهو ما ساهم - على ما يبدو - في عدم بقاء المغول بدمشق طويلا.

ثم أخذ المغول في نهب قرى دمشق والفساد بها، كما أفسدوا بجبل الصالحية فسادا كبيرا، ثم قرروا على أهل دمشق الأموال التي تضاعفت غير مرة، وحصل لهم من الذل والهوان والقتل والنهب الشيء العظيم، وانتهكوا أعراض النساء، وأهانوا حرمات المساجد، واتخذوا الجامع الأموي مكانا لشرب الخمر واللواط والزنا وأشعلوا النار بدمشق؛ فاحترقت كثير من المساجد والمدارس والبيوت، لدرجة أن دمشق أصابها من الويلات والعذاب والغم ما لم يصبها في زمن هولاكو[٤].

---

(١) أبو الفداء، المختصر،ج٢، ص٣٨١؛ الدوادار، التحفة الملوكية، ص١٥٧؛ الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك(ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، كنز الدرر وجامع الغرر (ج٩، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق: هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، د.ط، د.ت، ص ص١٦-١٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الدوادار، كنز الدرر؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ص٢٤١-٢٤٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٨٨٦-٨٨٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ص٩٧-٩٨؛ العلبي، معارك المغول، ص١٠٦.

(٢) هو علم الدين سنجر المنصوري، نائب قلعة دمشق من أيام أستاذه المنصور قلاوون، كان شهما شجاعا مهيبا، توفي سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م). الصفدي، الوافي، ج٨، ص٢٢٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص١٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص ص٢٩٤-٢٩٦.

(٣) البداية، ابن كثير، ج١٥، ص ص٦٢٠-٦٢١.

(٤) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ص٢٨-٣٣ و ص٤٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٨٩٣-٨٩٤؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٣٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ص١٠٢-١٠٣، إسماعيل، الحملات، ص ص٦٠-٦١.

وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خطب لغازان على منبر دمشق، حيث استمرت الخطبة قائمة له لمدة مائة يوم، إذ عادت بعدها للسلطان الناصر في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب بعد رحيل المغول عن المدينة(١).

غادر غازان دمشق في الثاني عشر من جمادى الأولى للسنة ذاتها، وأناب عنه قطلوشاه – أحد قادة المغول - وجعله قائدا عسكريا عاما على بلاد الشام، كما عين الأمير سيف الدين قبجق نائبا لدمشق، وعين بكتمر السلحدار(٢) نائبا لحلب وحماة وحمص، وعين الأمير الألبكي نائبا لصفد(٣) وطرابُلُس والساحل(٤).

وفي الثالث والعشرين من جمادى الأولى رحل قطلو شاه عن دمشق بمن معه من المغول، وأقام في حلب استجابة لطلب قبجق(٥) وبكتمر السلحدار، وترك مكانه نائبه بولاي، وفي مقابل ذلك كان السلطان الناصر قلاوون بمصر قد أعاد تجهيز عساكره، وخرج بها قاصدا دمشق، فلما علم بذلك بولاي ومن معه من المغول؛ اشتد خوفهم وغادروا دمشق(٦).

ويذكر صاحب كتاب " الحوادث " أن قبجق هو الذي أشار على بولاي بالرحيل إلى العراق؛ لعدم قدرته على مواجهة عساكر السلطان، وبعدها كاتب أهل مصر يعرفهم بذلك(٧).

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص ص٣٠-٣١ وص٧٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٦٢٦-٦٢٧؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٤؛ العلبي، معارك المغول، ص١٢١.

(٢) السلحدار لقب للذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير، ومعناه ممسك السلاح. دهمان، معجم، ص٩١.

(٣) صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص وهي من جبال لبنان. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٤١٢.

(٤) الصفدي، الوافي، ج٢٤، ص١٣٧؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٤؛ مجهول، تاريخ الدولة التركية، ورقة ٢٣/أ؛ دهمان، محمد أحمد، ولاة دمشق في عهد المماليك، دار الفكر، دمشق ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ص١٠٦-١٠٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: دهمان، ولاة دمشق؛ العلبي، معارك المغول، ص١١٦.

(٥) هو الأمير الكبير سيف الدين قبجق المنصوري، أحد أمراء المماليك، كان رجلا كريما بطلا شجاعا، غاية في العقل وجودة الرأي، توفي بحلب سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م) أثناء نيابته عليها. الوافي، الصفدي، ج٢٤، ص ص١٣٣-١٣٨.

(٦) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٤.

(٧) مجهول، الحوادث، ص٥٤٤.

بعد خروج المغول من دمشق استولى أرجواش على المدينة مع القلعة، أما قبجق فأعلن الطاعة للسلطان، وتوجه للقاء العساكر المصرية القادمة إلى دمشق، والتي كان يقودها نائب مصر سيف الدين سلار نيابة عن السلطان الذي خرج مع الجيش إلى الصالحية ثم عاد إلى مصر[١].

٢- غزوة غازان الثانية لبلاد الشام (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)

في مستهل سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) أرسل غازان قائده قطلو شاه لغزو بلاد الشام، ثم تبعه في منتصف محرم، فتقدم أولا نحو حلب وقام بنهبها فاضطر أهلها لمغادرتها، وفر نائبها قرا سنقر إلى حماة، ثم هاجم المعرة[٢] وشيزر[٣] والعمق[٤] وجبال أنطاكية[٥]، وأسر عددا كبيرا من المسلمين، ووصل بهم الحال إلى بيعهم كالعبيد في بلاد الأرمن، وسير بعضهم إلى بلاد الفرنج.

وأما دمشق فقد جفل غالب أهلها إلى مصر، ونائب الشام يحسن لهم ذلك حتى أنه نودي في دمشق: " من قعد فدمه في رقبته، ومن لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة "[٦].

وفي غمرة هذه الاضطرابات الشامية تداركت رحمة الله تعالى أهل دمشق؛ فقد أرسل سبحانه على بلاد الشام ثلوجا وأمطارا وبردا شديدا، حالت بين غازان وبين مواصلة تقدمه نحو دمشق؛ ووقع في خيول عساكره وجمالهم الموت، وهلك من جيشه عدد كبير، فاضطره ذلك إلى الرجوع جهة بلاده في جمادى الآخرة من العام نفسه[٧].

---

(١) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٧؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص٧٦-٧٧.

(٣) المعرة: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٥٦.

(٤) شيزر، كورة بالشام قرب المعرة، يمر في وسطها نهر الأردن، وبها قلعة حصينة. أبو الفداء، تقويم، ٣٠١؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٣٨٣.

(٥) العمق: كورة من نواحي حلب. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٥٦.

(٦) أنطاكية: مدينة عظيمة بالشام على ساحل البحر المتوسط، وهي الآن تابعة لتركيا. الحميري، الروض المعطار، ص٣٨.

(٦) الدوادار، التحفة الملوكية، ص١٦٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٥٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٩٠٧-٩٠٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٧؛ العلبي، معارك المغول، ص١٢٨.

(٧) الدوادار، التحفة الملوكية، ص١٦٠؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ص٤٦-٤٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٥٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٩٠٧-٩٠٨؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٢٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٧.

٣- معركة مرج الصُفّر أو شقحب[١](٧٠٢هـ/١٣٠٣م)

بقيت آمال السيطرة على بلاد الشام تلوح أمام ناظري غازان؛ حيث تحرك بجيوشه الجــرارة صوب بلاد الشام في شهر رجب سنة (٧٠٢هـ/ فبراير١٣٠٣م)، وقبيل وصــوله حلــب، حــدثت مناوشات على حدود بلاده، أجبرته على العودة وترك القيادة لقطلو شاه ومعه مائة ألف من المغــول والكرج والأرمن.

وبعد ورود تلك الأخبار إلى الديار المصرية، تحرك السلطان الناصر قلاوون وجيشه من القاهرة في شعبان للسنة نفسها، وحسب اتفاق مسبق بين عساكر الشام وعساكر مصر التقى العسكران فــي شقحب حيث موقع المعركة.

ومن الأحداث العسكرية التي سبقت وقعة شقحب، قيام طائفة من المغول بأسر التركمان الفارين من هجومهم في القريتين[٢]، حيث استولوا على ممتلكاتهم وأسروا الرجال والنساء؛ فتوجهت إلــيهم مجموعة من جيش المماليك، فالتقوا بهم في عرض[٣] في الحادي عشر من شعبان، وقاتلوهم حتــى انتصروا عليهم، وأنقذوا التركمان بحريمهم وأولادهم[٤].

أما بالنسبة لطرفي الصراع الرئيسيين فقد اكتمل استعداد كل منهما بشقحب؛ للموقعــة المرتقبــة الذي قدر لها أن تكون في الثاني من رمضان لسنة (٧٠٢هـ/ ٢٠ نيسان ١٣٠٣م)، والتي انتهــت بانتصار المماليك على المغول انتصارا عظيما حاسما[٥].

---

(١) مرج الصفَّر: مرج يبعد عن دمشق ٢١ كم إلى الشمال منها، وشقحب من قرى ريف دمشق تتبع ناحية الكسوة، وهما في معجم البلدان. الذيب، معجم، ص١٦٦؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٤١٢، ج٥، ص١٠١.

(٢) القريتين: قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٣٦.

(٣) عرض: بليد في برية الشام يدخل في أعمال حلب بين تدمر والرصافة الهاشمية. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٠٣.

(٤) أبو الفداء، المختصر،ج٢، ص ص٣٨٨-٣٨٩ ؛ الدوادار، التحفة الملوكية، ص ص١٦٥-١٦٨؛ النــويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ص١٦-٢٠؛ البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢١٧؛ المقريــزي، الســلوك، ج١، ق٣، ص ص٩٣١-٩٣٧؛ العيني، عقد الجمان،ج٤، ص٢٣١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ص١٢٤-١٢٥.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ص٣٩-٥٨؛ الدوادار، التحفة الملوكية، ص١٦٤؛ الــدواداري، كنــز الدرر، ج٩، ص ص٨٢-٨٨؛ النويري، نهايــة الأرب، ج٣٢، ص ص١٥-١٦؛ البرزالــي، المقتفــي، ج٣، ص ص٢١٨-٢٢٣؛ ابن حبيب، الحسن بن عمر بن حسن(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تذكرة النبيه فــي ايــام المنصــور=

وقد عدت هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي لأنها قطعت آمال المغول في السيطرة على بلاد الشام، فالسلاطين المغول الإيلخانيين الذين جاءوا بعد غازان لم يكن عندهم مـــن الحماس لغزو بلاد الشام مثل الذي كان عند أسلافهم، ولأنها حالت بين الصليبيين وبين اســـتردادهم لبيت المقدس خاصة؛ لأن غازان كان قد وعدهم بتسليم الأراضي المقدسة لهم في حـــال انتصـــاره على المماليك[١].

٤- هجوم المغول على الرحبة (٧١٢هـ/١٣١٢م)

هاجم المغول الشام سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م) بقيادة السلطان المغولي محمد خدا بنده أولجـــايتو (٧٠٣-٧١٦هـ/١٣٠٣-١٣١٦م)، فجفل أهل حلب وبلادها، ووصل المغول إلى بـــلاد ســـيس[٢] والفرات، ثم نازلوا الرحبة[٣] في آخر شعبان/ كانون الأول، وحاصروها مدة شهر كامـــل، وقاتلـــه أهلها أشد قتال، وحفظ نائبها بدر الدين بن أركش الكردي قلعتها، وصبر ومن معه على الحصار.

ولما طال مقام خدا بنده وقع في عسكره الغلاء والفناء وتعذرت عليه الأقوات؛ مما أجبره علـــى الرحيل إلى بلاده في السادس والعشرين من رمضان للسنة نفسها[٤].

وكان السلطان الناصر لما بلغه قدوم المغول خرج بعساكره لجهادهم، ولما وصل دمشـــق بلغـــه رجوعهم؛ فتوجه إلى الحجاز لأداء فرض الحج[٥].

=وبنيه(٢ج)، تحقيق: محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، د.ط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ج١، ص ص٢٤٥-٢٤٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حبيب، تذكرة النبيه؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ٩٣١؛ العيني، عقد الجمان،ج٤، ص ص٢١٨-٢٢٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ص١٢٦-١٣٠.

(١) العلبي، معارك المغول، ص ص١٣٠-١٣١؛ عمران، المغول والأوروبيون، ص ص٣٦٤-٣٦٥، وقـــد أورد عمران المراسلات التي تمت بين غازان وبين ملك أرغون الفرنجي، والبابا بونيفاس الثامن والملـــك الانجليـــزي إدوارد، والتي دارت حول الاتفاق على تسليم غازان القدس للصليبيين في حال انتصار المماليك عليهم.

(٢) سيس: بلدة كبيرة تعتبر قاعدة ملك الأرمن. أبو الفداء، تقويم، ص٢٩٢.

(٣) من مدن الجزيرة الفراتية في الجانب الغربي من الفرات، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ص١٣٦-١٣٧.

(٤) أبو الفداء، المختصر،ج٢، ص٤١٣؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ص٢٥١-٢٦٢؛ البرزالي، المقتفـــي، ج٤، ص٨٣.

(٥) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٩٩-١٠٠.

٥- غزو تيمورلنك للعراق وبلاد الشام (٧٩٥-٨٠٣هـ/١٣٩٢-١٤٠١م)

زحف تيمورلنك نحو العراق سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٢م)، بعد أن استولى على الإمارات التركمانية في أرمينيا، التي كانت خاضعة اسميا لأحمد بن أويس الجلائري سلطان العراق(١)؛ فأراد ابن أويس ملاطفته بإرسال الهدايا له إلا أن تيمور طلب منه أن يدعى له في خطبة الجمعة بمساجد بغداد وسك العملة باسمه، بما يعني خضوع أحمد بن أويس له خضوعا فعليا.

وقد استجاب ابن أويس لكل ذلك، إضافة إلى أنه أرسل إليه الشيخ نور الدين الخراساني(٢) ليقنعه بالرجوع فوعده ظاهريا بذلك، وأضمر مهاجمة بغداد معتمدا على مكاتبة أهل بغداد له بالسير إليهم؛ نظرا لسوء سيرة ابن أويس معهم.

فسار تيمور من ناحية أخرى فلم يشعر السلطان أحمد إلا وعدوه قد نزل ببغداد؛ فهرب منها إلى جهة الشام، ولما وصل الرحبة أكرمه نائبها، وطالع السلطان بخبره، فأذن له بالتوجه إلى القاهرة(٣).

وبعد سيطرة تيمور على بغداد " لم يعامل أهلها كما توقعوا وأرادوا، بل سطا عليهم، واستصفى أموالهم، وهتك عسكره حريمهم، وخلا عنها كثير من أهلها "(٤)، وتفنن في معاقبة أهلها، وسقاهم الملح والماء، وشواهم على النار، وقتل من رؤساء بغداد وأعيانها وأمرائها وعلمائها سبعمائة نفس صبرا(٥).

---

(١) الجدير بالذكر أنه عندما زالت دولة إيلخانية فارس بموت الخان بوسعيد سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، قامت على أنقاضها أربع دول هي: الدولة الجلائرية، وحكمت مناطق بغداد وتبريز في أذربيجان وعاصمتها تبريز. والدولة المظفرية – وهم من العرب- وحكمت فارس، وعراق العجم، وكرمان، وعاصمتها يزد. ودولة الكرت، وحكمت المناطق الشمالية من فارس والأقاليم المجاورة لها، وعاصمتها هراة. والدولة السربدارية، وحكمت سبزاور في خراسان، وعاصمتها سبزاور. سليمان، أحمد عبد الكريم، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، دار النهضة العربية، د.م، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: سليمان، تيمور؛ سليمان، معجم الأسر، ص ص٣٥٣-٣٦١.

(٢) لم أعثر له على ترجمة في المصادر التي بين يدي.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص ص١٥٦-١٥٧؛ ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص ص٦٥٥-٦٥٦.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص ص١٥٦-١٥٧؛ ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص ص٦٥٥-٦٥٦.

(٥) ابن الفرات، تاريخ، ج٩، ص٣٦٢.

وبعدها زحفت جيوش تيمور نحو تكريت[١]، فحاصرتها أربعين يوما؛ حتى استسلمت، ثم انتشرت عساكر تيمور، في ديار بكر[٢]، ووصلت إلى الرُّها[٣] فملكوها[٤].

وفي الوقت ذاته أرسل تيمور أستاذه محمود شاه ومعه ولده إلى البصرة، وكان عليها صالح بن جيلان، فلم يتمكن جيش تيمور منها حيث قتل محمود شاه وأسر ابن تيمور، وخسر جيش تيمور خسارة فادحة، فأرسل لهم جيشا ثانيا فهزمهم صالح أيضا، ثم دخل الشتاء فرجع تيمور إلى بلاده[٥].

بلاده[٥].

وأما السلطان أحمد بن أويس فبعد أن وصل إلى القاهرة أكرمه السلطان برقوق[٦]، وفي سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) اصطحبه إلى بلاد الشام عندما خرج للتصدي للمغول، وفي دمشق خلع السلطان برقوق على ابن أويس، وجهزه بشعار الملك، فتوجه إلى بغداد وأخذها بعد أن انتصر على الحامية المغولية ببغداد، وضرب السكة باسم السلطان برقوق[٧]، وهي إشارة تدل على تبعية بغداد

---

(١) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣٨.

(٢) ديار بكر: أحد الأقاليم بالجزيرة الفراتية. أبو الفداء، تقويم، ص٣١٣.

(٣) الرها: مدينة بالجزيرة الفراتية بين الموصل والشام. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٠٦.

(٤) ابن خلدون، التاريخ، ج٥، ص٦٥٦.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص ص٧٩٠-٧٩١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص ص١٥٩-١٦٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٤٦٠-٤٦١.

(٦) السلطان الظاهر برقوق بن أنس بن عبد الله الجركسي، أول سلاطين المماليك الجراكسة، سمي برقوقا لنتوء في عينيه، كان من جملة المماليك الكتابية عند يلبغا الكبير، ثم ترقت به الحال إلى أن تسلطن سنة (٧٨٤هـ/١٣٩٢م)، كان شهما، شجاعا، ذكيا، خبيرا بالأمور، محبا لأهل التصوف متواضعا لهم، توفي سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م). ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص١٦-١٧.

(٧) ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد العلائي(ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين(٢ج)، تحقيق: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٢، ص ص٢٩١-٢٩٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن دقماق، الجوهر الثمين؛ ابن الشحنة، أبو الوليد محمد بن محمد(ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق: سيد محمد مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٢٩٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الشحنة، روض المناظر؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٨١٧؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين.

لسلطان المماليك في هذه الفترة، ويؤكد هذه الإشارة ما ذكره ابن دقماق: " أنه في سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) خطب للسلطان الظاهر برقوق في بغداد وماردين والموصل "[١].

ظل الوضع كذلك حتى أواخر سنة (٨٠٢هـ/١٣٩٩م)، حيث ساءت الأحوال الداخلية في بغداد، فقد أساء أحمد بن أويس السيرة في أهل بغداد، وقتل جماعة من الأمراء، وعسف على جماعة أخرى، فقامت في وجهه العساكر البغدادية وأخرجوه من بغداد، وكاتبوا نائب تيمورلنك بشيراز ليتسلمها.

وأما ابن أويس فقد التجأ إلى قرا يوسف التركماني صاحب الموصل، فسار معه لاسترجاع بغداد، فكسرهم البغاددة، فانهزما إلى حلب، وكاتبا نائبها دمرداش المحمدي؛ لأجل إجارتهما وإعلام السلطان بحالهما، إلا أن دمرداش خشي أمرهما فقاتلهما ومعه نائب حماة، فكانت الغلبة لقرا يوسف وابن أويس، فكاتبا السلطان فرج بن برقوق: " أنا لم نأت محاربين، بل أتينا مستجيرين، فقاتلنا هؤلاء فدافعنا عن أنفسنا "، فلم يلتفت السلطان إلى كلامهما، وكتب إلى نائب الشام بقتالهما والقبض عليهما[٢].

في هذه الأثناء كان تيمورلنك يزحف بعساكره نحو بلاد الشام، ففي أوائل سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) تملكوا سيواس[٣]، وقتلوا وسبوا النساء ونهبوا الأموال، حتى ذكر أنه دفن من أهلها ثلاثة آلاف وهم على قيد الحياة، ثم نازلوا بهسنا[٤] في صفر، وبعدها واصلوا هجومهم نحو المدن الأخرى فوصلوا إلى ملطية[٥]، فأبادوا أهلها، وواصلوا سيرهم حتى وصلوا عينتاب[٦]، فخربوا دورها وأحرقوا أسواقها، ثم قصدوا حلب، وكان قد قدم إليها بالعساكر للدفاع عنها سودون

---

(٨) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٩٥.

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص١٣٣-١٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٧٣.

(٢) سيواس: بلدة كبيرة مشهورة من بلاد الروم، وإلى شرقيها تقع مدينة أرزن الروم. أبو الفداء، تقويم، ص٤٣٩.

(٣) بهسنا: بلدة من أعمال حلب واسعة الخير والخصب، وهي من الحصون المنيعة. أبو الفداء، تقويم، ص٣٠٤؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٥١٦.

(٤) ملطية: بلدة كبيرة مشهورة من بلاد الروم وهي للمسلمين. أبو الفداء، تقويم، ص٢٦٣؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٩٢.

(٥) عينتاب: بلدة من أعمال حلب تقع في الشمال منها. أبو الفداء، تقويم، ص٣٠٩؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٧٦.

نائب دمشق، وشيخ المحمودي نائب طرابلس، ودقماق نائب حماة، وألطنبغا نائب صفد، وعمر بن الطحان نائب غزة[١].

نزل تيمورلنك على حلب، وأحاط بها في العاشر من ربيع الأول، واستعدت عساكر حلب ومن معها من عساكر الشام للقتال، وبعد أن تنازل الطرفان مدة يسيرة، انهزمت العساكر الشامية، وولت أدبارها جهة المدينة، وتبعهم جنود تيمور، فهلك تحت حوافر الخيل من الناس عدد لا يحصى؛ لأن أهل حلب تركوا مدينتهم وخرجوا خارجها، حتى النساء والصبيان، كما هلك آخرون بسبب الزحام على أبواب المدينة عند دخولها[٢].

وبعد تمكن تيمور من حلب أخذ جنوده ينهبون ويقتلون ويأسرون، وانتهكوا حرمة المساجد فهجموا على من التجأ فيها؛ حتى صارت كالمجزرة من القتلى، وأخذوا النساء فاغتصبوهن داخلها أمام الناس، حتى أن المرأة يراها أبوها وأخوها وزوجها فلا يستطيع أن يفعل لها شيئا[٣].

أقام تيمور بحلب شهرا يعيث فيها فسادا، وعمل من رؤوس القتلى منائر مرتفعة، حرز ما فيها من الرؤوس فكانت زيادة على عشرين ألفا، وجعلوا الوجوه بارزة يراها من يمر بها[٤].

---

(٦) ابن الشحنة، روض المناظر، ص ص٢٩٧-٢٩٨؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ص١٠٣١-١٠٣٢؛ ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبوبكر بن أحمد الأسدي الدمشقي(ت٨٥١هـ/١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبة(٤ج)، = = تحقيق: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، د.ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٤، ص١٥٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن قاشي شهبة، تاريخ؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص١٨٩-١٩٧؛ ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص ص١٩٣-١٩٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ص١٧٧-١٧٨؛ ابن الصيرفي، علي بن داود الخطيب الجوهري(ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان(٤ج)، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، د.م، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج٢، ص ص٧١-٧٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الصيرفي، نزهة النفوس.

(١) ابن الشحنة، روض المناظر، ص ص٢٩٨-٢٩٩؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ص١٠٣٢-١٠٣٣؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص١٥١-١٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ص١٧٨-١٧٩؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ص١٥١-١٥٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٥٦٩-٥٩٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ١٠٣٣؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص١٥٣-١٥٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص١٩٣-١٩٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٩٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ١٠٣٤؛ ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص ص٢٠٤-٢١٠؛ بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٩٨.

ثم رحل عنها تاركا إياها خرابا، يبابا، محرقة، موحشة، معطلة من الأذان والصلوات[١]، وقد اصطحب معه كبار أسراه من أمراء البلاد الشامية الذين مر ذكرهم، وفي أثناء الطريق تمكن الأميران شيخ المحمودي ودمرداش من الهرب إلى دمشق، بينما توفي سودون قريبا من دمشق[٢].

وفي أثناء سيطرة تيمور على حلب أرسل ابنه ميرزا شاه للسيطرة على حماة، فلما أظهر أهلها المقاومة استباح المدينة وأحرقها[٣].

ثم توجه تيمور نحو حمص فتركها إكراما لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - كما ينقل عنه، ثم غادرها إلى بعلبك[٤]، فأعمل في أهلها السيف وسلب ونهب، ثم واصل طريقه إلى دمشق[٥]، التي كانت هذه الأخبار تصلها بين الفينة والأخرى. وليس هذا فحسب بل كانت تصلها أيضا فلول الفارين من وجه الغزاة من أصحاب تلك المناطق المنكوبة؛ الأمر الذي أدى إلى اضطراب الأحوال في دمشق، وانقسام آراء أهلها إلى راغب في الاستسلام، وآخر داع إلى المقاومة، مستأنس بنصرة السلطان المملوكي، وهو الرأي الذي اجتمعت عليه الآراء الدمشقية أخيرا[٦].

وفي هذه الأثناء كان السلطان المملوكي قد غادر الديار المصرية، ووصل دمشق في السادس من جمادى الأولى سنة (٨٠٣هـ/٢٤ كانون الأول- ديسمبر ١٤٠٠م)، وبعد يومين من وصول الجيش المملوكي، بدأت المناوشات العسكرية بين جند مصر وجند تيمور، والتي استمرت قرابة الشهر دون نتيجة حاسمة.

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ١٠٣٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٨٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٩٩؛ مجهول، تاريخ الدولة التركية، ورقة ٨٤/أ.

(٢) ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص٢٠٩ و ص٢٣١.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٣٦؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٥٥؛ ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص٢٢٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ص١٨٠-١٨١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٦٠٠-٦٠١.

(٤) بعلبك: مدينة قديمة من أعمال دمشق بينهما ثلاثة أيام. أبو الفداء، تقويم، ص٢٨٨؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٤٥٣.

(٥) ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص ص٢٢٩-٢٣٢.

(٦) المصدر نفسه، الهامش، ص ص٢٣٢-٢٣٤.

وفجأة وبدون مقدمات حدث أمر لم يكن بالحسبان، ألا وهو انسحاب السلطان من ميدان المواجهة بسبب ما أشيع من أن لاجين الجركسي، وهو من أمراء الجراكسة بمصر، قد تسلطن بمصر خلفا للسلطان فرج مما دفع السلطان والأمراء المتحكمة فيه إلى تغليب مصلحة البقاء في السلطنة على مصلحة الدفاع عن ديار الإسلام، علما بأن ما ذكر عن تسلطن لاجين لم يكن إلا مجرد إشاعة. وعلى فرض صحته، فإنه وكما يقول ابن تغري بردي: " لم يكن أمر لاجين يستحق ذلك، بل كان تمراز نائب الغيبة بمصر يكفي السلطان أمرهم "[١].

وأما بقية أمراء مصر وأعيانها لما علموا بخروج السلطان خرجوا في الحال على أثره للحاق به، فقطع طريقهم العشير وسلبوهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا[٢].

ولما علم أهل دمشق بأمر السلطان وأمرائه غلقوا أبواب دمشق ونادوا بالجهاد، وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتله الدمشقيون أشد قتال، وقتلوا من عسكره قرابة الألف فأعياه أمرهم؛ مما ألجأه إلى استخدم الحيلة والخدعة حيث أرسل لهم يطلب الصلح، فاتفق أهل دمشق على إرسال قاضي القضاة تقي الدين ابن مفلح[٣] للتفاوض معه[٤].

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت٨٠٨هـ/١٤٠٣م)، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٤٠٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن خلدون، الرحلة؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٤٥؛ ابن حجر؛ إنباء الغمر، ج٤، ص ص١٩٩-٢٠٠؛ ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص ص٢٤٥-٢٤٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ص١٨٨-١٨٩؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص٨٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٠٩.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٨٩.

(٣) الشيخ تقي الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، ولد سنة (٧٥١هـ/١٣٥٠م) اشتغل بالفقه حتى مهر وكان بارعا عالما بمذهبه وأفتى وشاع اسمه واشتهر ذكره وكان شيخ الحنابلة بدمشق في زمانه، توفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٢٤٧-٢٤٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص ص١٦٤-١٦٥.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ص١٠٤٦-١٠٤٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ص١٩٠-١٩١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٦١٠-٦١١؛ مجهول، تاريخ الدولة التركية، ورقة ٨٦/ب.

ولما وصل الشيخ ابن مفلح إلى تيمور تلطف معه، مكرا وخديعة وكان مما قاله له: " هـذه بلـدة الأنبياء والصحابة، وقد أعتقتها لرسول الله r صدقة عني وعن أولادي"، ووعده بالعودة مقابل أخذ عادته من الطقزات[١]، وأن يجمع له ألف ألف دينار من أهل دمشق[٢].

وبعد رجوع الشيخ ابن مفلح، أخذ يخذل الناس عن القتال لحسن ظنه في تيمور، فمال معه طائفة من الناس، وخالفه طائفة أخرى وأبوا إلا مواصلة القتال، ثم غلب رأي مسالمة تيمور ومصـالحته؛ وكف الناس عن القتال[٣].

وقد وفّى الشيخ ابن مفلح بشروط تيمور، وقدم له الطقزات التيمورية، ثم قدم لـه مليـون دينـار جمعها من أهل دمشق، إلا أن تيمور تظاهر بالغضب لقلة المال المجمـوع كمـا يـزعم، فشـكل مجموعة من الجباة برئاسة نائبه شاه ملك لجمع ألف تومـان، أي عشـرة ملايـين دينـار مـن الذهب[٤]، وبعد أربعين يوما من الجمع الذي صاحبه التعذيب والإذلال جمع له المبلغ المطلوب، فلما رآها تيمور قال لابن مفلح: "هذا المال بحسابنا إنما هو ثلاثة آلاف، وقد بقـي علـيكم سـبعة آلاف ألف"[٥].

وبعدها أخذ تيمور يتفنن في طلباته الواحد تلو الآخر، فطلب أولا إحضار جميع مخلفات الجـيش المصري الهارب، ثم طلب إخراج جميع أموال التجار الذين هربوا من المدينة قبل قدومه، ثم طلـب من أهل دمشق إخراج كل ما لديهم من الخيل والبغال والجمال والحمير، ثم طلـب تسـليم جميـع الأسلحة التي يحوزها السكان، ثم طلب أن تكتب له أسماء حارات دمشق وخططها، حيث قام تيمور بتقسيمها تلك الحارات على أمرائه، فتقاسموها، ودخل كل أمير في حارته، وطلب من سكانها المال

---

(١) الطقزات: جمع طقز وهي كلمة تركية تعني تسعة، وهي من عادات تيمورلنك، التي يطبقها على كـل مدينـة يأخذها صلحا، غايتها أن يجمع له تسعة من كل نوع من أنواع المأكول، والمشروب، والدواب، والملابس، والتحف. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٩١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦١١.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ص١٠٤٦-١٠٤٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٠٧؛ ابـن تغـري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٩١؛ ابن إياس، بـدائع الزهـور، ج١، ق٢، ص ص٦١٠-٦١١؛ العلبـي، تيمورلنك، ص١٦١.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٩١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٦١٠-٦١١.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٠٧.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٠٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٩٢؛ ابن إياس، بـدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦١٣.

حتى عجزوا عن الدفع[١]. ومن المساوئ التي صاحبت هذا الجمع، أن الرجل كان يـؤمر بـإخراج أولاده ونسائه، فتوطأ نساؤه وبناته، ويلاط بأولاده بين يديه، من غير احتشام ولا تستر، ثم أفاضوا عليهم أنواع العقوبات ما بين ضرب وكسر وحرق وخنق وقتل[٢]. ولم يراع جند المغـول حرمـة المساجد فالمسجد الأموي مثلا لعبوا فيه النرد وضربوا فيه الطنابير، وفجروا فيه بالنساء، ومنعـت منه الجمعة والجماعة، كما تعطلت معظم الجوامع الأخرى من إقامة الصلاة فيها[٣].

وبعد ذلك أنعم تيمور بمدينة دمشق لأتباع الأمراء من عساكره، فدخلوها في آخر رجب، فنهبـوا ما قدروا عليه، وسبوا نساء دمشق، وساقوا الرجال والأولاد، وتركوا من عمره خمس سنوات فما دونها، ثم أشعلوا النار في البلد، فعملت النار فيها ثلاثة أيام بلياليها؛ حيث أتت على غالب المدينـة، واحترق الجامع الأموي عدا جدرانه ومئذنة العروس، ومات بسبب النار خلق من الناس. ومما ذكر عن تيمور أنه أمر قبل رحيله بجمع أطفال دمشق الذين أسر أهلهـم أو قتلـوا، فـأمر عسـكره أن يسوقوا عليهم بالخيل فماتوا أجمعون، وكانوا نحو عشرة آلاف، وأمر برمي بعضهم في الآبار، ثـم سدت عليهم بالأحجار. ويعبر ابن عربشاه عن تلك المآسي بعد أن حكاها بأسلوبه الأدبي، بقولـه: " أقسم بالله لقد كانت تلك الأيام، علامة من علامات يوم القيامة، وأسفرت تلك الساعة عـن أشـراط الساعة"[٤].

وفي الثالث من شعبان سنة (٨٠٣هـ/ آذار – مارس١٤٠١م) غادر تيمور لنك مدينة دمشق، و" ترك أهلها حفاة عراة، وأعيانها عليهم العبي والجلود، وهم يبيعون الجراد، وينادون عليه، ويتتبعون ما بقي من خلق المتاع، ويبيعونه؛ ليشتروا به الجراد"[٥].

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ٢٠٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ص١٩١-١٩٤؛ ابـن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٦١٣-٦١٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٥٠؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص١٧١-١٧٧؛ ابن حجـر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٠٨ و ص٢٠٩؛ ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ١٩٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٦١٥؛ العلبي، تيمور لنك، ص١٧٤-١٧٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٨٢؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٢٠٧-٢٠٨.

(٤) ابن عرب شاه، عجائب المقـدور، ص ص٢٨٠-٢٨٢؛ المقريـزي، السـلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٥١؛ ابـن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ص٨٩-٩٢؛ ابن سباط، تاريخ، ج٢، ص ص٧٦٥-٧٦٨؛ ابن إياس، بـدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٦١٥-٦١٦.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٠٩؛ العلبي، تيمور لنك، ص١٨٩.

وبعد أن خرج تيمور من دمشق، توجه وجنوده نحو حمص فلم يتعرضوا لها بشيء، وواصلوا سيرهم نحو حماة فنهبوها، وأسروا من تمكنوا من أهلها، ثم توجهوا إلى حلب ودمروها ثانية، ومنها عبروا الفرات متوجهين إلى الرها، حيث قاموا بنهبها، وبعدها قاموا بمحاصرة ماردين التي استعصت عليهم، فتركوها وساروا نحو بغداد[١].

فلما علم السلطان أحمد بن أويس بقدوم تيمورلنك، فر من بغداد إلى بلاد الروم، وأناب عنه أحد أمرائه ويسمى فرج، وأوصاه بعدم المقاومة، فأصر ومن معه على مقاومة الغزاة، إلا أن مقاومتهم لم تجد شيئا أمام الجحافل التيمورية، التي ما لبثت أن سيطرت على بغداد فسامت أهلها سوء العذاب، وسالت دماؤهم أنهارا.

وأمر تيمور جنوده بأن يأتيه كل واحد منهم برأسين من رؤوس أهل بغداد، حتى بنى منها مائة وعشرين مئذنة، ثم خاطب تيمور هذه الرؤوس بقوله: " السلام عليكم معاشر الشهداء، نحن كنا السبب في نيلكم الشهادة، فلا تنسونا من الشفاعة يوم القيامة "، ثم أمر بتخريب بغداد، بعد أن أخذ أموالها وأفقر أهلها ومنازلها[٢].

---

(١) ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص ص٢٩٦-٣٠٠.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص١٩٠-١٩١؛ ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص ص٣٠٢-٣٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٠٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٣٣.

الفصل الثاني

موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الأول

(٦٥٦-٦٩٤هـ / ١٢٥٨-١٢٩٤م)

ظهر للعلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام عدة مواقف تجاه الغزو المغولي الأول، كان لها أهميتها في التصدي لهذا الغزو ومقاومته، وقد برز بعضها قبل الغزو وبعضها في أثنائه، وسوف يتم بيان هذه المواقف عبر المباحث الآتية:

المبحث الأول

المواقف السياسية لعلماء العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الأول

برز لعلماء العراق وبلاد الشام عدة مواقف من الغزو المغولي الأول يمكن تصنيفها ضمن المواقف السياسية، وقد حاول الباحث تنظيم هذه المواقف حسب نوعها؛ حتى تتضح الصورة الحقيقية لحجم الدور الذي لعبه العلماء على مختلف الأصعدة في التصدي للغزو المغولي.

أولا: السفارات والمراسلات

قام العلماء في فترة الغزو المغولي الأول للعراق وبلاد الشام بدور السفراء والرسل بين السلاطين المسلمين وقادة المغول من جهة، وبين أهل السلطة في البلاد الإسلامية من جهة أخرى.

ومن هذه السفارات والمراسلات التي قام بها العلماء بين السلاطين المسلمين وقادة المغول:

١- توجه الفقيه شرف الدين عبدالله بن الجوزي[١] سفيرا من قبل الخليفة العباسي المستعصم بالله إلى هولاكو للتفاوض معه حول قدومه إلى العراق، ولمحاولة ثنيه عن دخول بغداد إلا أن محاولات ابن الجوزي لم تجد شيئا في رد هولاكو عما أراد[٢].

---

(١) ابن الجوزي: عبدالله بن محي الدين يوسف بن الجوزي، درَّس وولي الحسبة ثم تركها تزهدا، توفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٤٩٥.

(٢) ابن العبري، تاريخ، ص٤٧٢؛ مجهول، الحوادث، ص٣٤٩.

وعندما طلب هولاكو من الخليفة تسليمه بعض رجال دولته، أرسل إليـــه الخليفـــة الشـــيخ ابـــن الجوزي مرة أخرى يعتذر عن ذلك(١).

٢- بعث الملك الناصر صاحب دمشق المؤرخ عز الدين بن شداد(٢) رسولا إلـــى المغـــول النازلين على ميَّافارقين في مستهل المحرم من سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) صحبة الملـــك المفضل صلاح الدين يوسف بن المفضل موسى للتفاوض معهم(٣).

وقد كان لابن شداد مواقف مهمة مع المغول في هذه السفارة تجلت في عـــدة جوانـــب، فعنـــدما وصلت هذه السفارة إلى حماة، تعرض رسل المغول لصاحبها وانتهكـــوا حرمتـــه، وأخـــذوا مقـــدم عسكره شجاع الدين مرشد الخادم وشيخ الشيوخ(٤) شرف الدين عبد العزيز، وطلبوا الملك المظفـــر ليأخذوه معهم؛ بسبب الرسل الذين قتلوا في بلاده، فقام ابن شداد بالتوسط بينه وبيـــنهم علـــى ألفـــي درهم وضيافة، فقبلوها وأطلقوا من أخذوه من المسلمين(٥). كما كان ابن شداد قويـــا وجريئـــا فـــي طلبات أخرى لم يكلف بها في الرسالة، حيث طلب منهم ما كانوا أخذوه من بلد حران أو العـــوض عنه؛ فأغاظهم ذلك وهددوه بالقتل(٦). وعندما أمره المغول بالتوجه إلـــى الملـــك الكامـــل صـــاحب ميافارقين؛ ليحتال عليه في الخروج إليهم رفض الانصياع لأمرهم - رغم تهديـــدهم لـــه بالقتـــل - معللا ذلك بقوله: "هؤلاء يريدون أن يعملوا بي حيلة حتى أخرج صاحبها فيقتلـــوه، ويملكـــوا البلـــد فيقتلوا من فيه، وأكون أنا السبب "(٧).

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٣٤٩.

(٢) ابن شداد: الصاحب عـــز الـــدين أبوعبـــدالله محمـــد بـــن علـــي بـــن شـــداد الأنصـــاري الحلبـــي، ولـــد سنة(٦١٣هـ/١٢١٦م)، كان رئيسا حسن المحاضرة، وكان من خواص الملك الناصر، وبعد أخذ حلب اســـتوطن الديار المصرية، وصارت له مكانة عند بيبرس والمنصور قلاوون، توفي سنة (٦٨٤هـــ/١٢٨٥م). الصـــفدي، الوافي، ج٢، ص٦.

(٣) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي الأنصاري الحلبي(ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة(٣ج)، تحقيق: يحي عبارة، وزارة الثقافـــة والإرشـــاد القـــومي، دمشـــق، د.ط، د.ت، ج٣، ق٢، ص٤٩١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن شداد، الأعلاق.

(٤) شيخ الشيوخ: هو رئيس خوانق الصوفية جميعا، وكان لهذه الوظيفة قيمة سياسية كبيـــرة. دهمـــان، معجـــم، ص٩٩.

(٥) ابن شداد، الأعلاق، ج٣، ق٢، ص٤٩١.

(٦) المصدر نفسه، ج٣، ق٢، ص ص٤٩٣-٤٩٤.

(٧) المصدر نفسه، ج٣، ق٢، ص٤٩٦.

ولما رأوا إصراره على الرفض بالذهاب هددوه بالقتل، وأخرجوه إلى واد مملوء قتلى، وقالوا: " أنت إلى ساعة أخرى من هؤلاء "، فقال ابن شداد: " لا يدفع قضاء الله بحيلة "(١)، فكان مصرا على عدم الذهاب إلى الملك الكامل لإخراجه للمغول، ولو كان ذلك على حساب قتله، مراعيا تحقيق مصالح المسلمين. وبعد إلحاح منهم على اجتماع ابن شداد به اشترط عليهم عدم خروج الملك الكامل إليهم، وأنهم يرحلون في حال إتمام الصلح بينهما(٢). وقد اجتهد الشيخ ابن شداد في محاولة الصلح بين الطرفين إلا أن المغول عدلوا عن ذلك في آخر الأمر(٣).

ومن المواقف التي قام بها ابن شداد أثناء هذه السفارة، حرصه على تحذير المسلمين من اعتداء المغول، ففي أثناء توجهه للقاء يشموط أو يشموت – ابن هولاكو ونائبه على ميافارقين - التقى هو ومن معه بطائفة من المغول في صور قاصدين الإغارة على الجزيرة، فأرسلوا إلى ماردين وحران وحلب؛ يحذروهم من العدو(٤).

٣- من السفارات التي قام بها العلماء، توجه قاضي القضاة(٥) مهذب الدين محمد بن علي إلى هولاكو الذي كان نازلا بآمد(٦) في أواخر سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م).

حيث أن هولاكو بعث رسله إلى الملك السعيد نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين يستدعيه إليه، فسير إليه الملك السعيد سفارة تتكون من ولده الملك المظفر وقاضي القضاة مهذب الدين محمد بن

---

(١) ابن شداد، الأعلاق، ج٣، ق٢، ص٤٩٥

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ق٢، ص٤٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ق٢، ص ص٤٩٦-٤٩٧.

(٤) المصدر نفسه،ج٣، ق٢، ص٤٩٢.

(٥) منصب قاضي القضاة: يعتبر منصب القاضي هو الأساس الذي خرج منه منصب قاضي القضاة، حيث يختاره الخليفة عادة من بين القضاة، وحدث ذلك بعد أن كثرت أعباء القاضي وتعددت أعماله، وهو من مستحدثات الدولة العباسية على عهد هارون الرشيد، ويعد أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة والمتوفى سنة (١٨٢هـ/٧٩٨م) أول من تولى هذا المنصب، وعندما تسلطن الظاهر بيبرس استحدث بالقاهرة منصب قاضي القضاة لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة وذلك سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م). ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٤٠٣؛ شبارو، عصام محمد، قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ص١٧-٢٠؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: شبارو، قاضي القضاة.

(٦) آمد: من أجل وأشهر وأعظم مدن ديار بكر بالجزيرة الفراتية. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٥٦.

علي[١] والأمير سابق الدين بلبان، فلما وصلوا إليه غضب لعدم قدوم الملك السعيد بنفسه؛ فرد القاضي وحده وأبقى الباقين عنده[٢].

٤- إرسال بيبرس مفتي المسلمين عماد الدين عبد الرحيم الهاشمي العباسي لبركة خان.

في إطار سعي السلطة المملوكية للتصدي للمغول الإيلخانيين وتضييق الخناق عليهم، أرسل السلطان الظاهر بيبرس رسلا إلى بركة خان سلطان المغول القفجاق سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) صحبة رسل بركة الذين أرسلهم إلى مصر، وكان على رأس الوفد المصري العالم مفتي المسلمين عماد الدين عبد الرحيم الهاشمي العباسي[٣] ومعه الأمير فارس الدين آقوش المسعودي، وأرسل معهما هدية سنية؛ لتوثيق العلاقة بينهما وطلب المعاضدة على هولاكو[٤].

كما بعثهما إليه مرة أخرى سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) بكتاب يصف له فيه أحوال المسلمين ويدعوه لمبايعة الخليفة ويحثه على الجهاد، وكان مقصود بيبرس من هذا الكتاب حثه على قتال هولاكو وتهوين أمره، كما حملهما نسخة نسبة الخليفة العباسي الجديد إلى رسول الله r[٥].

---

(١) لم أعثر له على ترجمة في المصادر التي بين يدي.

(٢) ابن شداد، الأعلاق،ج٣، ق٢، ص٥٥٩؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٤٣-٤٤.

(٣) لم أعثر له على ترجمة في المصادر التي بين يدي.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٥٣٧؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٥. وفيه أن الرسولين هما الفقيه مجد الدين، ومعه الأمير سيف الدين كشتك.

(٥) يجدر بالذكر أن الظاهر بيبرس أحيا الخلافة العباسية بعد ثلاث سنوات من مقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله على يد المغول؛ حيث تمكن أحمد بن الظاهر عم المستعصم من الهرب من بغداد، واختفى عند عرب العراق، ثم وفد على بيبرس ففرح به، وبعد أن أثبت نسبه بايعه قاضي القضاة والشيخ ابن عبد السلام وبيبرس وغيرهم من الأكابر وذلك سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، ولقب المستنصر بالله، إلا أن خلافته وخلافة من بعده من بني العباس غدت صورية؛ لا أمر بيدها ولا نهي، ثم إن الخليفة الجديد عزم على العودة إلى بغداد، فجهزه بيبرس لذلك، فسار إلى بغداد بعد أن صحبه بيبرس إلى دمشق، ولما وصل هيت- مدينة قرب بغداد- قابلته عساكر المغول، فاصطدم بهم فقاتلهم بمن معه، لكنه قتل في الوقعة سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، وبويع بعده بالخلافة أحمد بن أبي علي القبي العباسي بعد أن أثبت نسبه، وذلك سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، ولقب الحاكم بأمر الله، وقد ظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر حتى قضى العثمانيون على دولة المماليك سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م) على إثر معركة الريدانية. اليونيني، ذيل مرآة، ج٢، ص ص١٢٣-١٢٤وص ص١٦٣-١٦٤؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٨٠-٨١ وص ص٤٠٦-٤٠٩؛ الصفدي، الوافي، ج٧، ص ص١٩٦-١٩٧ و ص ص٢٥١-٢٥٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٧٢-٣٧٩؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٨٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥١٣-٥١٤.

٥- إرسال الظاهر بيبرس القاضي جمال الدين بن واصل[١] لملك صقلية ونابولي.

كان الظاهر بيبرس حريصا على تأمين حدوده مع الجبهات الخارجية غير المعادية؛ ليتفرغ لمجابهة المغول من جهة ومقارعة الصليبيين في بلاد الشام من جهة أخرى؛ ولذا قام بإرسال وفد برئاسة القاضي جمال الدين بن واصل لملك صقلية ونابولي للتحالف معه، كما تحالف مع إمبراطور الدولة البيزنطية، وإمبراطور الدولة الرومانية الغربية[٢].

ويبدو من هذه التحالفات أن بيبرس قَصَدَ منها الحيلولة دون دعم الصليبيين الموجودين ببلاد الشام حتى لا تقوى شوكتهم؛ الأمر الذي سيؤدي إلى وقوع المماليك بين خطري المغول من جهة وخطر الصليبيين من جهة أخرى.

٦- توسط العالم نجم الدين البادرائي[٣] للصلح بين الملك الناصر صاحب الشام والمعز أيبك صاحب مصر.

شكلت الخلافات بين الأمراء المسلمين في مصر وبلاد الشام عشية الغزو المغولي قلقا كبيرا للوضع العام في هذه المنطقة التي كانت أحد أهداف التوسعات المغولية.

ومن هنا تدخل الخليفة العباسي المستعصم لإزالة مثل هذه الخلافات، فأرسل في سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) العالم نجم الدين البادرائي للصلح بين الملك الناصر صاحب الشام والمعز أيبك صاحب مصر، وقد تمكن البادرائي من الصلح بينهما على أن تكون الشام جملة للناصر وديار مصر للمعز[٤].

---

(١) الشيخ جمال الدين بن واصل بن سالم الشافعي الحموي، أحد الأئمة الأعلام، ولد بحماة سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، برع في العلوم الشرعية والعقلية والأخبار وأيام الناس، وصنف ودرس وأفتى وبعد صيته، ولي القضاء مدة طويلة، وتخرج به جماعة، توفي سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٧م). الذهبي، تاريخ، ج٥٢، ص ص٣٣٧-٣٣٨؛ الصفدي، الوافي، ج٣، ص ص٧١-٧٢.

(٢) شاكر، التاريخ، ج٧، ص٤٧.

(٣) الشيخ نجم الدين عبدالله بن محمد البادرائي، ولد سنة (٥٩٤هـ/١١٩٧م)، كان فاضلا بارعا وقورا متواضعا، ترسل للخلافة عدة مرات، حدث وأفتى ودرس بنظامية بغداد، توفي سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م). الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٢٠١؛ الصفدي، الوافي، ج١٧، ص٣١٣؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص١٥٩.

(٤) الذهبي، تاريخ، ج٤٧، ص٦٧؛ الكتبي، عيون، ج٢٠ ص٦٦؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص٦٩-٧٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص١١-١٢.

وفي سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) قدم الفرنج لمساعدة المصريين على الشاميين مقابل تسليم بيت المقدس لهم في حال نصرهم على أهل الشام، فتدخل البادرائي مرة أخرى وأصلح بين الطرفين المصري والشامي[1].

وفي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) توجه البادرائي مرة ثالثة من قبل الخليفة إلى الملك الناصر يوسف، وجدد الصلح بينه وبين أهل مصر، فقرر الناصر الصلح وأعاد العسكر الذي كان متوجها به إلى مصر لقتال المعز[2].

وهكذا يبرز دور أهل العلم كسعاة لإزالة الخلافات بين ولاة أمور المسلمين والعمل على جمع كلمتهم؛ لتتفق على مواجهة العدو المغولي الذي كان وقتها قريبا جدا من حاضرة العالم الإسلامي.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أمرا مهما نتج عن الصلح الذي توسط فيه البادرائي سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، يحسب له وللخليفة العباسي، وهو أنه في أثناء هذا الخلاف سعى كل من الناصر وأيبك إلى التحالف مع لويس التاسع ملك فرنسا الصليبي المقيم في عكا، وكان من أغرى وأقوى عروض أيبك للويس تسليمه بيت المقدس إن أخذها من الناصر، فكانت صفقة قدمت له على طبق من ذهب؛ فسار بعساكره واحتل يافا، وتقدم المماليك نحو غزة للقاء الناصر يوسف، إلا أن الله سلم بتدخل البادرائي فأصلح بين الطرفين فخاب أمل لويس التاسع وعاد إلى فرنسا سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)[3].

٧- توجه القاضي كمال الدين بن العديم رسولا من عند الملك الناصر يوسف الأيوبي إلى أهل مصر يطلب النجدة لحرب المغول.

من المراسلات التي قام بها العلماء بين الأطراف المسلمة توجه القاضي كمال الدين بن العديم[4] رسولا من عند الناصر إلى أهل مصر يطلب النجدة لحرب المغول، وكان ذلك بعد أن استشعر

---

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٩٣؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٧٥؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٢٨٣-٢٨٤؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٨٠

(٢) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٢٦؛ الكتبي، عيون، ج٢٠ ص٨٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٢٢.

(٣) شاكر، التاريخ، ج٧، ص ص٢٥-٢٦.

(٤) القاضي كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة المعروف بابن العديم، ولد سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م)، كان إماما عالما فاضلا متقننا في علوم كثيرة، ترسل إلى الخلفاء والملوك، توفي سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م). الذهبي، العبر، ج١، ص٣٠٠؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٣٤٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٢٥-٥٢٦.

الناصر خطرهم مما دفعه إلى الاستنجاد بالمصريين، وقد شارك الشيخ ابن العديم أهل السلطة بالديار المصرية في مشاوراتهم واجتماعاتهم لوضع الخطط اللازمة للتصدي للعدو المغولي[١].

٨- إرسال الناصر الأيوبي القاضي برهان الدين السنجاري إلى قطز.

عندما هرب الناصر من دمشق أرسل من العريش[٢] القاضي برهان الدين السنجاري[٣] رسولا إلى قطز يطلب المعاضدة[٤]، فلما استقرت الأمور بمصر أرسل قطز جوابا للملك الناصر مع القاضي السنجاري واعدا إياه بالنصرة واجتماع الكلمة على المغول[٥].

٩- توجه القاضي تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير رسولا من قبل الملك المنصور قلاوون إلى سنقر الأشقر الخارج عن الطاعة.

بعث الملك المنصور قلاوون القاضي تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير[٦] إلى الأمير سنقر الأشقر[٧] سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) محملا إياه برسالة له يلومه فيها على مكاتبة المغول والاستنجاد بهم، فلما وصل إليه القاضي تاج الدين وبخه ولامه حتى أناب ووعد بإرسال ولده[٨].

فكان لابن الأثير دور إيجابي في الإصلاح بين الطرفين المسلمين، ومن ثم توحيد صفيهما ضد المغول.

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٤٥-٤٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٦٧.

(٢) العريش: مدينة من أول أعمال مصر من ناحية الشام في وسط الرمل على ساحل البحر المتوسط. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١١٣.

(٣) السنجاري: قاضي القضاة برهان الدين الخضر بن الحسن بن علي السنجاري، ولي القضاء والوزارة بمصر، وكان رئيسا وقورا مهيبا، توفي سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م). ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٥٢٦.

(٤) العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٣٢.

(٥) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٤٥-٤٦؛ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي(٢ج)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج٢، ص١٩٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الوردي، تاريخ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٦٨.

(٦) هو الشيخ تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير الحلبي، كان كبير القدر معظما في الدول، ولي كتابة السر بدمشق ثم بمصر لبيبرس ثم للمنصور قلاوون، كان بارعا فاضلا، توفي بغزة سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م). الصفدي، الوافي، ج٦، ص ص٢٤١-٢٤٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص ص٣٠٠-٣٠٢.

(٧) سنقر الأشقر: الأمير الكبير شمس الدين الصالحي، كان من أعيان المماليك البحرية، توفي سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م). الصفدي، الوافي، ج١٥، ص ص٢٩٨-٣٠٠.

(٨) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٢٨.

ثانيا: مناصحة الحكام والأمراء المسلمين

من المواقف السياسية التي قام بها العلماء المسلمون تجاه الغـزو المغـولي الأول، مناصـحتهم للسلاطين المسلمين في كل ما من شأنه التصدي لأعداء المسلمين من المغول.

وقد تنوعت مناصحات العلماء للسلاطين المسلمين ما بين مناصحات شفهية وكتابية، ومـن تلـك المناصحات:

١- مناصحة الشيخ عز الدين بن شداد للملك الناصر يوسف صاحب دمشق.

ففي سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) وصلت إلى دمشق رسل من عند بايجو نوين أحد قـادة المغـول، ومعهم يرالغ[(١)] تتضمن دفع مبالغ مقابل المصالحة مع المغول، تدفع من قبل الملك الناصـر وبـدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والملك السعيد صاحب ماردين والملـك الكامـل صـاحب ميافـارقين وصاحب الجزيرة وصاحب حصن كيفا[(٢)]، وكان هؤلاء الرسل قد سـاروا إلـى جميـع الملـوك، فأحالوهم إلى الملك الناصر؛ بحجة أنه كبيرهم والخطبة له، فجاءوا الملك الناصر وطـالبوه فأشـار عليه الزين الحافظي[(٣)] وجماعة أن يصالحهم، فكان لابن شداد حول هذه المصالحة موقف مشـرف؛ حيث رفض مصالحتهم؛ معللا ذلك الرفض بأنهم في سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)ـ كتبـوا يرالـغ مضمونها أنهم لا يقبلون حوالة ولا ينجدون بعسكر، فلما سمع بذلك الناصر أحضر اليرالغ من حلب وتأكد منها فوجدها كما قال ابن شداد ووافقه على عدم المصالحة، وأرسله إلى الملـوك المـذكورين ليبين لهم ما يجب فعله[(٤)]، فاجتمع هو والرسل ببدر الدين لؤلؤ وبين له مقولة المغول السـابقة، ثـم

---

(١) يرالغ: أو يرليغ أو يراليغ، بمعنى الأمر الملكي أو الفرمان الصادر من السلطان أو الملك. الخطيـب، معجـم المصطلحات، ص٤٤٦.

(٢) حصن كيفا: من مدن ديار بكر واقعة على نهر دجلة. أبو الفداء، تقويم، ص٣٢٤.

(٣) هو سليمان بن عبد المؤيد بن عامر العقرباني الطبيب، خدم الملك الناصر فعظم عنده وبعثه رسولا إلى المغول فباطنهم ونصح لهم فأمَّره هولاكو، ثم قتله لما ظهر له مكاتبته للظاهر بيبرس. الذهبي، تاريخ، ج٤٩، ص ص٩٨-١٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٣٥.

(٤) ابن شداد، الأعلاق، ج٣، ق١، ص ص٢٣٧-٢٣٨.

قال للرسل: " نحن ما نزن لكم شيئا، ولا نقبل حوالة حسب ما تقتضيه البوايز[١] التي بأيدينا، وهؤلاء الملوك جميعهم تابعون لنا لا يعطونكم شيئا "[٢].

فكان لموقف ابن شداد ذلك دور في عدم خضوع مدن دمشق وماردين وميافارقين والموصل وحصن كيفا والجزيرة للمغول وتقديم الأموال لهم.

٢- مناصحة الإمام العز بن عبد السلام[٣] للملك الأشرف موسى صاحب دمشق

فقد كان بين الملك الأشرف وبين أخيه الملك الكامل صاحب مصر خلاف أدى إلى أن يوجه الأشرف عساكره لقتال الكامل، فلما زار الشيخ العز الأشرف وكان في مرض وفاته، نصحه بأن يوجه دهليزه[٤] نحو المغول بدلا من توجيهه نحو أخيه وكان مما قاله له: " أخوك الكبير ورحمك، وأنت مشهور بالفتوحات والنصر على الأعداء، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين، تترك ضرب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء المسلمين، وتضربه إلى جهة أخيك! فينقل السلطان دهليزه إلى جهة التتار، ولا تقطع رحمك في هذه الحالة، وتنوي مع الله نصر دينه وإعزاز كلمته، فإن منَّ الله بعافية السلطان، رجونا من الله إدالته على الكفار، وكان في ميزانه هذه الحسنة العظيمة، وإن قضى الله تعالى بانتقاله إليه كان السلطان في خفارة نيته ". فاستمع الأشرف لنصيحته وأمر بنقل دهليزه إلى جهة الشرق من يومه[٥].

---

(١) البوايز: جمع بايزة، وهي لفظ مغولي يطلق على لوح صغير مصنوع من الذهب على أحد وجهيه رأس سبع، يمنح كوسام في الدولة المغولية لكبار الضباط ورجال الدولة، ويأتي بمعنى الأمر السلطاني. الخطيب، معجم المصطلحات، ص٦٨.

(٢) ابن شداد، الأعلاق، ج٣، ق٢، ص ص٢٤١-٢٤٢.

(٣) هو الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، الإمام العلامة ولد سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م)، برع في الفقه والأصول والعربية، ودرس وأفتى وصنف وبلغ رتبة الاجتهاد، كان لايخشى في الله لومة لائم؛ حتى لقبه ابن دقيق العيد سلطان العلماء، توفي سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م). الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص ص٤١٦-٤١٩، السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ص٢٠٩-٢٥٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٢٢-٥٢٤.

(٤) الدهليز: خيمة السلطان ترافقه في الحروب أو في الصيد أو التنزه. دهمان، معجم، ص٧٧.

(٥) السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ص٢٤٠-٢٤١.

كما نصحه الشيخ في نفس الوقت بإبطال المنكرات التي يرتكبها نوابه من الزنا وشرب الخمور وتمكيس المسلمين وظلم الناس، فأمر الأشرف بإبطالها، كما باشر الشيخ العز بنفسه تبطيل بعضها[١].

ويلاحظ في نصيحة الشيخ للملك الأشرف أنها تضمنت ثلاثة أمور مهمة تتعلق بمجابهة المغول:

الأول: إصلاح ذات البين بين الملكين الأشرف والكامل، وهو أمر له أهميته في توحيد الصف الداخلي لمواجهة الأعداء.

الثاني: التحريض على قتال العدو المغولي والتصدي له بدلا من صرف القوى للقتال الداخلي وترك جبهة المغول مفتوحة.

الثالث: إزالة المنكرات الجالبة للهزيمة الماحقة للبركة الرافعة للنصرة والمعية الإلهية.

٣- مناصحة العلماء للأمير قطز

ومما يذكر في باب المناصحة لأولي الأمر، قيام الإمام ابن عبد السلام بتحريض قطز - نائب السلطنة - على ضرورة تولي السلطة بدلا من المنصور علي؛ لصغر سنه وانشغاله عن مهمات الأمور بالسفاسف، إذ يذكر المقريزي عنه أنه: "كان مهتما بمناقرة الديوك ومناطحة الكباش وتربية الحمام، وركوب الحمير الفره في القلعة ومعاشرة الأراذل والسوقة "[٢].

وكان قطز قبل معركة عين جالوت يختلف سرا إلى بيت شيخ الإسلام ابن عبدالسلام؛ يستشيره في أمور كثيرة، وكان الشيخ يسأله عما أنجز من أعمال استعدادا لملاقاة المغول، فلما علم ما عليه السلطان من مفاسد؛ شجع قطز على الاستقلال بالسلطنة بل وأوجب عليه ذلك؛ إذ ليس في البلاد كما يرى الشيخ أصلح منه لجمع كلمة المسلمين لدفع غائلة المغول[٣].

وهنا أمران مهمان ينبغي التوقف عندهما:

---

(١) السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص٢٤١.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٠٦.

(٣) باكثير، علي أحمد، وا إسلاماه، مكتبة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت، ص١٦٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: باكثير، وا إسلاماه؛ شلبي، محمود، حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٢٣٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: شلبي، حياة سلطان العلماء.

الأمر الأول: كيف يقوم الإمام ابن عبد السلام بالتحريض على إزاحة السلطان الأمر الذي قد يؤدي إلى فتنة داخلية قد يعود ضررها على الاستعداد لمواجهة المغول؟!

الحقيقة إن توضيح هذا الإشكال هو الذي يفسر الدور الفاعل الذي قام به الإمام ابن عبد السلام في تهيئة الأرضية الصلبة التي من خلالها يمكن درء العدو عن البلاد.

فالشيخ وهو العالم المعتني بالنظر في مقاصد الشريعة والاهتمام بغاياتها، إنما نظر إلى الغاية من هذا التحريض، مستندا لقوله تعالى: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة "[١]، ولا شك أن من أولويات هذه القوة وجود قائد له ثقله الإداري والعسكري، خصوصا أن العدو المرتقب من القوة والجبروت ما مكنه من قطع نصف الأرض دون أن يقهر؛ ولذا فإن الشيخ وبفقه العالم المقاصدي أوجب على قطز تولي السلطة وانتزاعها من المنصور علي؛ مراعاة للمصلحة العليا للبلاد والعباد.

والأمر الثاني: أن تحريض الإمام ابن عبد السلام لقطز بالخروج على السلطان يصطدم مع النظرية السياسية السنية القائلة بطاعة ولي الأمر وعدم الخروج عليه، وهو أمر يمكن أن يفهم منه أن الخروج على السلطان بدافع المصلحة العليا للأمة جائز شرعا، وسيأتي لاحقا موقف مشابه لهذا الموقف عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

ولم يقف دور ابن عبد السلام على إبداء رأيه سرا بينه وبين قطز، بل ولما عقد قطز مجلسا تشاوريا عشية الهجوم المغولي، ودعا إليه الوزراء والأمراء والعلماء والقضاة وأهل الحل والعقد، وحضره أيضا ابن العديم رسول السلطان الناصر إلى القاهرة، وتذاكروا أمر المغول وضرورة حفظ البلاد، قام الشيخ العز بن عبد السلام وأبدى رأيه في حضور السلطان بكل جرأة، وبدون ممالأة أو مواربة أو مجاملة أو خوف، فأشار بضرورة خلع الملك المنصور وتولية قطز السلطنة؛ فاضطرب المجلس؛ لأن فيه من لا يعجبه هذا الرأي، فاضطر قطز إلى فض المجلس مراعاة للوضع العام وعدم افتراق الكلمة[٢].

ومما يلاحظ في هذا المجلس التشاوري علاوة على موقف الشيخ العز السابق، حضور العلماء والقضاة فيه، مما يدل على اهتمام السلطة بإشراك أهل العلم في قضايا البلاد السياسية الداخلية

---

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٢) باكثير، وا إسلاماه، ص١٦٩؛ شلبي، حياة سلطان العلماء، ص٢٣٧.

والخارجية، وهو أمر يحمل في بعض معانيه وجود الوعي السياسي عند علماء الأمة، وحرص أهل السلطة على الاستفادة من رأيهم في النوازل السياسية الواقعة بالبلاد.

كما يمكن استفادة أمر آخر من خلال حضور أولئك العلماء ذلك المجلس وهو أن خلع الملك المنصور لم يكن رأيا استبداديا من الإمام ابن عبد السلام، بل شاركه فيه أيضا أهل الحل والعقد.

والحقيقة أن رأي الإمام ابن عبد السلام السابق ذكره كان له أثره السياسي فيما بعد؛ إذ أن قطز انتهز فرصة خروج كبار الأمراء ذات يوم للصيد فقبض على المنصور وأمه وابنيه وإخوته واعتقلهم، ثم نفاهم إلى بيزنطة، وأعلن نفسه سلطانا على مصر[١].

ويستمر الإمام ابن عبد السلام في مناصحته للسلطان والعساكر الإسلامية في موقف آخر، حيث أخذ الشيخ يحرض الجيش على الخروج رافعا من معنوياتهم، وشاحذا من هممهم، وزارعا الثقة في نفوسهم بقدرتهم على الانتصار، ومطمئنا إياهم بمعية الله لهم، فكان مما قاله لهم: " اخرجوا وأنا ضامن لكم على الله النصر "[٢].

فقويت عزيمة القوم وهمتهم وقرروا الخروج حتى كان لهم من الله النصر والتوفيق.

٤- مناصحة العلماء المسلمين للسلطان الظاهر بيبرس[٣]

أراد الظاهر بيبرس سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، إيقاع الحوطة على بساتين دمشق وقراها وضياعها باعتبار أنها انتزعت من أيدي المغول؛ فلا تعود إلى أصحابها، وعقد مجلسا حضره

---

(١) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٤٢-٣٤٣.

(٢) السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص٢١٥.

(٣) اختلفت المصادر التاريخية في بيان تفاصيل مواقف العلماء هذه من الظاهر بيبرس وزمنها، وما في المتن إنما هو محاولة من الباحث للجمع بين هذه الروايات؛ حتى تنتظم هذه التفاصيل بشكل أكثر وضوحا.

السلطان والقضاة والفقهاء، فقال قاضي القضاة ابن عطاء الأذرعي(١): " هذا لا يحل، ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه "، وحكم بأحقية أصحابها لها وقام من المجلس مغضبا(٢).

كما عارضه في ذلك القاضي علي الشهرزوري(٣)، قائلا له: " المال والكلأ والمرعى لله، لا يملك، وكل من بيده ملك فهو له "(٤). وقد أدت هذه المعارضة إلى تراجع الظاهر بيبرس عما أراد القيام به(٥).

وفي سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) عاد الظاهر بيبرس وقرر انتزاع ملكية بساتين دمشق من أصحابها، مستندا إلى فتوى الحنفية باستحقاقها، وطلب من الناس إحضار كتب تثبت أحقيتهم وإلا أخذها، ثم قرر عليهم ألف ألف درهم، فسألوه تقسيطها، فعجلوا له منها أربع مائة ألف درهم، ثم أسقط عنهم الباقي(٦).

---

(١) هو الشيخ شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعي، ولد سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) من العلماء الأعيان كثير التواضع، ناب في القضاء مدة بدمشق ثم تولاه مستقلا لما صار القضاة من المذاهب الأربعة. البرزالي، المقتفي، ج١، ص ص٣١٩-٣٢٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٤٤٤-٤٤٥.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة، ج٢، ص٣٨٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٨؛ ابن شاكر، عيون، ج٢٠، ص٣٦٢؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٢١٦.

(٣) هو الشيخ العلامة علي بن محمود الشافعي، كان بارعا فاضلا دينا عارفا بالمذهب له مشاركة في العلوم، توفي في شوال سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٦م). ابن كثير، طبقات الشافعية(٢ج)، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٢، ص٨٢١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن كثير، طبقات، ج٢، ص٨٢١؛ الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص١١٥.

(٤) ابن كثير، طبقات، ج٢، ص٨٢١.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٨؛ ابن كثير، طبقات، ج٢، ص٨٢١.

(٦) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٩٨؛ ابن شاكر، عيون، ج٢٠، ص٣٦٣؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٢١٦؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٤١٦-٤١٧.(يشير ابن كثير في البداية والنهاية إلى خلاف العلماء في هذه المسألة، فيقول: " أن الكفار إذا أخذوا شيئا من أموال المسلمين ملكوه، فإذا استرجعت لم ترد إلى أصحابها، وهذه المسألة مشهورة وللناس فيها قولان: (أصحهما) قول الجمهور: أنه يجب ردها إلى أصحابها؛ لحديث العضباء ناقة رسول الله r ، حين استرجعها رسول الله r ، وقد كان أخذها المشركون، استدلوا بهذا وأمثاله على أبي حنيفة ". ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٤١٦-٤١٧.

وكان من العلماء الذين عارضوا بيبرس هذه المرة الإمام النووي الشافعي[١]، ومعه مجموعة من العلماء، وقد كتب الإمام النووي للسلطان كتابا يحثه فيه على الرفق بالرعية وإزالة الضـــرر الـــذي حدث للناس بسبب الحيطة على أملاكهم، وبين له حرمة ذلك الفعل، داعيا فيه إيـــاه إلـــى مراعـــاة الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة والصالحين الذين بهم ينصر الله السلطان ويغيثه ويرزقه[٢].

والملاحظ في كتاب الإمام النووي، حرصه على توجيه الســـلطان لرفـــع الظلـــم عـــن النـــاس وضرورة الرفق بهم، رابطا ذلك بحصول النصر على الأعداء، وهي رسالة تنبيه للسلطان، الـــذي كان يجاهد على جبهتي المغول والصليبيين، بأن نصره على أعدائه مربـــوط بعدلـــه مـــع رعيتـــه، ويتضح ذلك في قوله له: " وإذا رفق السلطان بهم؛ حصل له دعاء رسول الله **r** لمن رفق بأمتـــه، ونصره على أعدائه، فقد قال الله تعالى: " إن تنصروا الله ينصركم "[٣]، ويتوفر لـــه مـــن رعيتـــه الدعوات، وتظهر في مملكته البركات، ويبارك له في ما يقصده من الخيرات"[٤].

والعلاقة التي تبدو في المناصحات السابقة التي قدمها العلماء للظاهر بيبرس إضافة إلى ما ذكره الإمام النووي، هي أهمية إغلاق كل الثغرات التي من شأنها التأثير على المجتمـــع فـــي مواجهـــة المغول، ذلك أن فساد العلاقة بين السلطة والرعية ثغرة كبيرة داخل المجتمع قد يستغلها العدو إلـــى توجيه دفة الصراع لصالحه.

ومن مواقف مناصحة العلماء لبيبرس، أنه لما خرج لقتال المغول سنة (٦٧٥هـــ/١٢٧٦م)، عقد مجلسا بدمشق للعلماء والأمراء؛ وبين لهم حاجة الدولة لأخذ أموال من الرعية؛ للاستعانة بهـــا فـــي قتال المغول، فأفتاه علماء الشام بجواز ذلك، فلما علم الإمام النووي بذلك، توجه لمقابلة السلطان في مجلسه، فسأله السلطان عن سبب مجيئه فقال: " جئتك ناصحا لما بلغني أنـــك طلبـــت مـــن النـــاس المساعدة، وفرضت عليهم ما لا يجوز لك أن تفرضه عليهم، وأنت تشتري المملوك بعشرين ألـــف

---

(١) هو الإمام الشيخ العلامة يحي بن شرف الشافعي، ولد سنة (٦٣١هـــ/١٢٣٣م)، اشتغل بالعلم حتى فاق أقرانه وتقدم على جميع الطلبة، وحاز قصب السبق في العلم والعمل وغدا محرر المذهب الشافعي، توفي في نوى سنة (٦٧٦هـــ/١٢٦٦م). الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٣٤؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ص٣٩٥-٣٩٧؛ ابن كثير، ج٢، ص ص٨٢٤-٨٢٧.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ص٨٩-٩٠.

(٣) جزء من الآية السابعة من سورة محمد.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٩٠.

درهم، وتمنطقه الحياصة المجوهرة، وتركبه السرج المذهب، وإن أفتاك أحد من القضاة بما فرضته، فقد افترى على الله ورسوله ". فقال له السلطان: " ألك دار أو بستان فنأمر بمسامحتك، وإعفائك؟ " فقال: " ما جئت في شأن نفسي، وإنما جئت في الله، ورسوله، وحق المسلمين "، ثم قام وخرج[١].

وفي روايات أخرى، أن بيبرس غضب من الإمام النووي، وأمر بخروجه من الشام، فامتثل الإمام لأمر الظاهر، وتوجه إلى بلده نوى[٢]؛ فوقف العلماء والفقهاء إلى السلطان، وقالوا: " إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا، وممن يقتدى به "، فرسم السلطان برجوعه إلى دمشق، فامتنع الشيخ من العود، وقال: " لا أدخلها والظاهر في قيد الحياة ". فمات الظاهر بعد ثلاثة أشهر ونصف، حيث مات بعد معركة الأبلستين[٣].

ومهما يكن من أمر، فإن كلام الإمام النووي كان سببا في تنقيص ما فرضه بيبرس على الناس[٤].

وتذكر بعض الروايات التاريخية[٥] أن الإمام النووي كتب في ذلك كتابا لبيبرس، مبينا فيه موقفه في تلك القضية، داعيا السلطان إلى العدل في الرعية وإزالة المكوس، وكتب فيه معه جماعة من العلماء.

فلما وقف بيبرس على الكتاب رد بجواب عنيف مؤلم، تكدرت منه خواطر العلماء؛ فكتب الإمام النووي جوابا على رد السلطان فند فيه شبهاته وادعاءاته على العلماء[٦].

ويمكن تلخيص رد الإمام النووي في النقاط الآتية:

- أن العلماء لا يتركون الجهاد عندما يتعين عليهم، بل إنهم يقومون بذلك كل بحسبه ومقدرته، وبما أنه عُيِّن للجهاد أجناد مخصوصون بأرزاق معلومة، فإن حكم الجهاد

---

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٨٦.
(٢) نوى: بلدة كبيرة في هضبة حوران السورية، أصبحت مركز ناحية. الذيب، معجم، ص١٨١.
(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ص٩١-٩٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ص٣٣٥-٣٣٧.
(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٨٦.
(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ص٨٥-٨٨.
(٦) ينظر نص الجواب: المصدر السابق، ج٢، ص ص٨٦-٨٨.

على غيرهم من الرعية يصبح فرضا كفائيا لا عينيا، وعلى الرعية أن يتفرغوا لمصالحهم التي تحقق مصلحة البلاد كلها.

- أن كلمة العلماء متفقة على عدم جواز أخذ شيء من أموال الناس لا للجهاد ولا لغيره؛ طالما أن في بيت المال كفاية.
- ضرورة الاستعانة للجهاد بالتضرع إلى الله تبارك وتعالى والافتقار إليه واتباع السنة النبوية، والتزام أحكام الشرع.
- أجاب الإمام النووي عن شبهة بيبرس بأن العلماء لم يقوموا بالإنكار على الكفار، عندما تملكوا البلاد، بقوله: " أن ملوك الإسلام لا يقاسون بملوك الكفار؛ لأن الكفار ليس لهم شرع يرجعون إليه، ويذكرون به ".
- بين الإمام النووي لبيبرس أن ما قدمه للإسلام والمسلمين، من فتح للبلاد وطرد للأعداء، لا يسوغ له فعل ما يريد، وأن ثواب ذلك مدخر له عند ربه تبارك وتعالى، كما لا يعني ذلك ترك العلماء لمناصحة السلطان عند توجبها عليهم.

ثالثا: تهيئة الأوضاع الداخلية لملاقاة المغول

لا شك أن انتظام الأوضاع الداخلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية يعتبر عاملا مهما في تهيئة المجتمع؛ ليكون قادرا على مواجهة الأعداء، وتحقيق النصر عليهم.

وقد ساهم العلماء من خلال عمق تحليلهم للأحداث، وبعد نظرتهم لمآلاتها، في تهيئة هذه الأوضاع لتكون قادرة على مواجهة المغول.

ومن المواقف التي برزت في هذا الجانب:

١- إنكار تولي شجر الدر سلطة الدولة الإسلامية

فلما تولت شجر الدر مقاليد السلطة في مصر، وجدت معارضة من قبل أهل العلم، فقاضي القضاة ابن بنت الأعز[١] أنكر سلطنتها وبايعها مكرها، والشيخ العز قال في ذلك: " لما تولت شجر

---

(١) هو الشيخ عبد الوهاب بن خلف بن بدر الشافعي، ولد سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، كان إماما فاضلا عالما متبحرا في المذهب الشافعي، وكان أحد القضاة الأجواد القائمين بحدود الله ولا تأخذه في الله لومة لائم، توفي سنة =

الدر على الديار المصرية، عملت في ذلك مقامة، وذكرت فيها بم ابتلى الله بـــه المســـلمين بولايـــة امرأة عليهم "[١].

وقد لا يبدو ظاهرا الارتباط بين إنكار العلماء على تولي شجر الدر وبين الغزو المغولي، إلا أن نظرة متعمقة في هذا الموقف يمكن أن تجلي هذا الارتباط.

فمتولي السلطة في هذه الفترة عليه أن يستعد للطوفان المغولي القادم من الشـــرق، مـــن خـــلال النزول إلى ساحة الإعداد المباشر، ومن ثم المواجهة الميدانية بقيادة العساكر، ووجود امـــرأة قـــد لا يهيئ الوضع الصالح للمواجهة الطويلة مع المغول؛ فإنكار الشيخ العز ساهم في جعل الســـلطة بيـــد رجل يمكنه تهيئة الأوضاع المناسبة لمواجهة المغول.

٢- إشارة القاضي ابن بنت الأعز على شجر الدر بالزواج من الأمير أيبك التركماني

وجدت شجرة الدر نفسها مضطرة للتنازل عن السلطنة بعد اعتراض الخليفة العباســـي والعلمـــاء وعدم تقبل الرأي العام لذلك الوضع، فخلعت نفسها من السلطنة، فأشار إليها القاضي ابن بنت الأعز أن تتزوج بالأمير أيبك التركماني، ولا زال يتلطف بها ويحثها على ذلك حتى وافقت[٢].

وقد يكون القاضي أراد ذلك من أجل حقن دماء المسلمين؛ حتى يستتب الأمن في البلد ولا يتنازع الأمراء السلطة، فأيبك وقتها كان من أكبر الأمراء ومدبر المملكة، وشجر الدر زوجة أستاذهم نجـــم الدين أيوب، فتنازلها له عن السلطة بعد زواجها منه يعمل على دعم استقرار الأمن الداخلي بخلاف ما إذا تنازلت له دون الزواج منه؛ وعليه فإن اقتراح القاضي كان له غرض سياسي بعيـــد، وهـــو استتباب الأمن الداخلي المهيء للمواجهة القادرة على التصدي للمغول.

=(٦٦٥هـ/١٢٦٦م). ابن كثير، طبقات، ج٢، ص ص٨١٤-٨١٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص ص٣٨٠-٣٨٢.

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٣١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٨٦.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٨٧.

٣- حرص العلماء على تنقية قادة الأمة من كل ما يمكن أن يؤثر على هيبتهم ومكانتهم والسمع والطاعة لهم.

ومن ذلك ما قام به الشيخ العز من رفضه لمبايعة بيبرس بالسلطنة؛ حتى يثبت لديه عتقه وحريته، فاستحضر بيبرس شهودا، شهدوا بخروجه من ملك سيده البندقدار، وأنه صار في ملك الملك الصالح الذي أعتقه فيما بعد؛ فبايعه الشيخ[١].

وكذلك إنكاره لإمرة أمراء المماليك، فإمرتهم باطلة حسب نظرته الفقهية لأنهم لا يزالون عبيدا؛ مما حدا به إلى الإصرار على عتقهم أولا؛ ولذلك أبطل جميع تصرفاتهم من بيع وشراء ونكاح؛ فتعطلت مصالحهم.

ولم يبال الشيخ ابن عبد السلام بغضب السلطان ونائبه، بل إن نائب السلطنة لما خرج يريد قتله ما زاده إلا أن قال له: " ما أرجع حتى أبيعكم في السوق " فقال له النائب: " ومن يقبض ثمننا إذا بعتنا؟ " قال: " أنا "، قال: " وما تصنع به؟ " قال:" أصرفه في مصالح المسلمين ". فوكلوا جماعة في مشتراهم، وباعهم الشيخ عليهم، وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين[٢].

والمتأمل في هذه القضية يجد أنها كانت لصالح المسلمين عموما أمراء وعامة؛ إذ كان لها أثرها في تقوية سلطان هؤلاء الأمراء، وخضوع الناس لهم، ووقوفهم تحت رايتهم في حروب المغول المتلاحقة.

٤- تأييد العلماء والفقهاء للسلطان الجديد المظفر قطز في مواقفه التي يتخذها للإعداد للجهاد.

ومن ذلك إجازتهم للسطان قطز أن يأخذ من كل إنسان دينارا لأجل دفع العدو[٣]، ومساندتهم له في إجبار الأمراء على إنفاق مجوهراتهم وحلي زوجاتهم؛ للإنفاق على متطلبات الغزو، وإلزام

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٣٥٢؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٢٨٩.
(٢) السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ص٢١٦-٢١٧؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ص١٤٠-١٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٧٤.
(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٤٣٧ و ج١، ق٢، ص٨٩٨.

الجند بالخروج للجهاد في سبيل الله، وتحذيرهم من تركه[١]؛ ذلك أن قطز لم يكن بعد قد تحصل على المكانة التي تؤهله لإملاء قراراته على الأمراء من جهة وعامة الناس من جهة أخرى، - ولا سيما - أنه وصل إلى السلطة بطريقة انقلابية لم يوافقه عليها بعض الأمراء، إضافة إلى الحسابات الثأرية بينه وبين المماليك البحرية والتي ظهر أثرها في قتله على أيديهم بعد وقعة عين جالوت مباشرة في طريق عودته إلى مصر[٢]؛ ومن هنا احتاج إلى وقوف الشريعة الإسلامية - ممثلة في علمائها وفقهائها - إلى جانبه[٣].

٥- قيام العلماء بإنكار مواطن الفساد داخل المجتمع المسلم.

حرص العلماء على تطهير المجتمع من مواطن الفساد الأخلاقية التي كانت منتشرة في المجتمع حرصا منهم على تهيئة المجتمع من الناحية المعنوية للتصدي للمغول.

ومن الصور التي يستشف منها إنكار العلماء لمواطن الفساد، قيام الظاهر بيبرس سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) بإبطال ضمان المزر – نوع من الشراب المسكر – في مصر والشام، وقد عزى بيبرس ذلك المنع لتوجيه أحد الصالحين له بترك ذلك[٤]، وتم في سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) إبطال ضمان الحشيش من ديار مصر كلها، وأُمر بإراقة الخمور وإبطال المنكرات، وتعفية بيوت المسكرات، ومنع الحانات والخواطئ بجميع أقطار مملكة مصر والشام[٥]، وفي سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) أمر الظاهر بيبرس بإراقة الخمور، وإبطال الفساد، ومنع النساء الخواطي من ممارسة البغا[٦]، وفي سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) قام الشيخ خضر الكردي الصوفي[٧]، شيخ الظاهر بيبرس، بالتخلص من الخمور من دمشق بالكلية، كما هاجم بيوت النصارى واليهود، وألزمهم

---

(١) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص ص٦١-٦٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٤٢٩.

(٢) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٥٦-٣٥٧.

(٣) عاشور، فايد حماد، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص١٠٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: عاشور، الجهاد الإسلامي.

(٤) المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٠٤.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠٥.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠٥.

(٧) الشيخ خضر الكردي، نشأ بالقاهرة، واشتهر بالصلاح، كان للظاهر بيبرس فيه اعتقاد كبير، وكان يتردد إليه ولا يخرج عن رأيه، ثم تغير عليه بسبب اتهامه ببعض الأمور؛ فحبسه بيبرس إلى أن مات سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥، ص ص٢١٨-٢٢٠.

بإخراج ما فيها من الخمور[1]، وفي ذي الحجة من سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م) أمر بإراقة الخمور وكتب توقيع بذلك قرأ على المنابر، واستهلت السنة التالية بالتشدد في إراقة الخمور وإبطال المنكرات[2].

ويمكن أن يستدل من قول بيبرس بأن أحد الشيوخ نصحه بإراقة المزر ما يدل على أن العلماء كان لهم الدور الأكبر في المناصحة المستمرة للسلاطين لإبطال هذه المنكرات من المجتمع.

ومن صور هذا الإنكار، ما حدث سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، حيث ضُمنت أماكن بيع الخمر، وممارسة الزنا بدمشق، وجعل على ذلك ديوان ومشد، فقام في إبطال ذلك جماعة من العلماء والصلحاء والعباد فأبطل بعد عشرين يوما، وأريقت الخمور وأقيمت الحدود[3].

وقد حدث مثل هذا الأمر قبيل غزو تيمور لنك لبلاد الشام؛ حيث طلب من القضاة في منتصف صفر سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، القيام بتتبع المنكرات، ورفع من ارتكبها إلى ولاة الأمر[4].

والعلاقة لا شك أنها واضحة بين هذا الأمر والغزو المغولي، فمثل هذه الشهوات لها أثر سلبي على المجتمع، وأفراده من ناحيتين:

الأولى: أنها تحرف الفرد المسلم عن التفكير السليم، وتفقده معاني الجهاد، والتنبه لمخططات الأعداء؛ إذ إن ذلك يتطلب سلامة عقل الإنسان وفكره، من كل ما يمكن أن يعطله، أو يغيبه، أو يحرفه عن تدبر ما يجري حوله، ومن المعلوم شرعا وعقلا واستقراء أن الانغماس في الملهيات، من أمثال الخمر والزنا، من أعظم الأمور التي تصرف الإنسان عن مهمات الأمور.

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج٤٩، ص ص٥٠-٥١.

(٢) الذهبي، تاريخ، ج٤٩، ص ص٥٩-٦٠؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٠٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ص٥٩٥-٥٩٧.

(٣) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٤٩١؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٦٩.

(٤) ابن حجي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي الحسباني(ت٨١٦ه-١٤١٣م)، الذيل على تاريخ ابن كثير(تاريخ ابن حجي)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك الأردنية، تحقيق: عمر علي ذياب الشامي، ١٤١٩ه-١٩٩٩م، ص٢٠٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حجي، تاريخ (رسالة)؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٤٩.

الثانية: أن هذه الموبقات كشرب الخمر والزنا من الأسباب الجالبة لسخط الله تعالى، ورفع نصرته عن العباد، في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى نصرة الله ومعونته؛ إذ إن البلاد تتعرض لتهديد المغول بين الفينة والأخرى.

ومن هنا أدرك العلماء خطورة مثل هذه المنكرات؛ فعملوا على إنكارها وإزالتها؛ من أجل تهيئة المجتمع روحيا ومعنويا وماديا للتصدي لخطر العدو المغولي.

رابعا: العمل على درء وتقليل مفاسد الغزو المغولي

اهتم العلماء بعد تمكن المغول من السيطرة على بلادهم، بقضية تقليل مفاسد الغزو ما أمكن ذلك، وجلب مصالح البلاد ما أمكن أيضا.

وقد عملوا في هذا الإطار على صعد مختلفة، اتخذت طابعا جماعيا أحيانا، وطابعا فرديا أحيانا أخرى، مدركين لواجبهم المناط بهم، خصوصا في ظل الفراغ السياسي الذي خلفه غياب السلطة الحاكمة في البلاد الإسلامية.

ومن المواقف التي يجدر الإشارة إليها فيما يتعلق بتقليل مفاسد الغزو:

١- تولي الأعمال للمغول سعيا لتقليل مفاسد غزوهم

لما سيطر المغول على بلاد الشام، عين هولاكو الفقيه ابن بندار التفليسي[(١)] قاضيا على الشام والجزيرة والموصل، وباشر مدة يسيرة فكان عادلا، حسن السيرة، مدافعا عن الرعية، ساعيا في حقن الدماء، وأحسن إلى الناس بكل ممكن، وذب عن الرعية، وحصل للناس به راحة عظيمة، ولم يتدنس بشيء في مدة ولايته، مع أنه كان قليل المال، كثير العيال[(٢)].

---

(١) هو كمال الدين عمر بن بندار التفليسي، أحد فقهاء الشافعية، ولد سنة(٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م)، وكان بارعا، فاضلا، أصوليا، خيرا، أفتى ودرس بالقاهرة، توفي سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م). البرزالي، المقتفي، ج١، ص ص٢٨٨-٢٨٩؛ الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص ص٢٧٢-٢٧٣؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص ص٣٠٩-٣١٠؛ ابن كثير، طبقات، ج٢، ص٨٢١؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٣٥٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٥٨٩.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص ص٦٤-٦٥؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٤٤١؛ الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص ص٢٧٢-٢٧٣؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ص٣٠٩-٣١٠.

ومما يمكن استفادته من موقف الشيخ كمال الدين التفليسي أن التعامل مع العدو بعـد سـيطرتهم على البلاد إنما يخضع لجانب النظر في المصالح والمفاسد، والذي يبدو أنه ترجح لـدى الشـيخ أن توليه للقضاء في فترة الاحتلال إنما يحقق مصالح للمسلمين عامة، كما يدرأ عنهم مفاسـد كثيـرة؛ فتولاه بنية القيام بمصالح المسلمين ودفع المفاسد عنهم، وهو ما حصل منـه، ولـيس فـي موقـف التفليسي هذا ما يدل على ترحيبه بالاحتلال أو عدم إنكاره له، بل إن ما قام به الشيخ مـن أعمـال إيجابية للمجتمع وأهله يدل على خلاف ذلك، ويؤكد هذا أن الشيخ لم تطل مدة عمله مع المغـول إذ أقصوه بابن الزكي كما سيأتي في موضعه.

ومن الضروري الأخذ بعين الاعتبار أن قضية العمل مع المحتل قد تختلف فيها وجهات النظـر بحسب الاختلاف في قراءة الأحداث ونتائجها؛ ولذا فإن وزير حلب مؤيد الدين إبراهيم القفطي[١] - وهو من أهل العلم - لما تملك المغول حلب سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) أمـروه بالاسـتمرار فـي الوزارة، فباشرها على كره منه متعللا بمرضه[٢]؛ مما يدل على إنكاره للاحتلال وعدم رغبته فـي العمل مع المحتل؛ منطلقا من رؤية أن تولي الوزارة في ظلهم لا يحقق كبير فائدة للمجتمع.

ومما يجدر ذكره هنا أن عدة إشكالات وردت حول قضية تولي الشيخ التفليسي القضاء لهولاكو، فالإشكال الأول أورده الباحث عبد المعز بني عيسى حيث نسب أمر تولي القضاء لهولاكو إلى ابـن العديم مستندا إلى رواية اليونيني في " ذيل مرآة الزمان "، معتبرا موقف ابن العـديم هـذا موقفـا متعاونا مع المغول[٣]، إلا أن ما ذهب إليه الباحث الفاضل عري عن الحقيقـة، ذلـك أن التحقيـق العلمي للرواية التي اعتمد عليها يقتضي ردها بالأدلة الآتية:

---

(١) القفطي: مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف، ولد في القدس سنة (٥٩٤هـ/١١٩٧م)، وزر بحلب بعد أخيه القاضي الأكرم، وكان من الصدور الرؤساء الأعيان، روى عنه الحافظ الدمياطي. الذهبي، تـاريخ، ج٤٨، ص ص٣٣٥-٣٣٦؛ ابن شاكر، عيون، ج٢٠، ص٢٣٢.

(٢) ابن شاكر، عيون، ج٢٠، ص٢٣٢.

(٣) بني عيسى، عبد المعز عصري محمد، الغزو المغولي لدمشق وآثاره السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية والثقافية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٥٦، وسيشار إليه عنـد وروده لاحقا: بني عيسى، الغزو المغولي.

أولا: أن اليونيني انفرد بهذه الرواية دون غيره من المؤرخين الذين رووا أن الذي جاءه كتاب هولاكو بتولي القضاء هو كمال الدين عمر بن بندار[١] وليس كمال الدين عمر بن العديم[٢]، ويكفي للتمثيل على مخالفة رواية اليونيني لروايات المؤرخين الإشارة إلى رواية أبي شامة في " الذيل على الروضتين " – وهو المؤرخ الأقرب إلى ذلك الحدث والذي ينقل عنه اليونيني – ومقارنتها برواية اليونيني. فنص رواية أبي شامة يقول: " في السادس والعشرين ربيع الأول(٦٥٨هـ) جاء منشور هولاكو ملك التتار للقاضي كمال الدين عمر بن بندار التفليسي بتفويض قضاء القضاة إليه بمدائن الشام والموصل وماردين وميافارقين والأكراد وغيره ... وفيه تفويض جميع الوقف إلى نظره وخاصة وقف الجامع المعمور بدمشق المحروسة "[٣]، ونص رواية اليونيني يقول: " في السادس والعشرين ربيع الأول (٦٥٨هـ) جاء منشور من هولاكو للقاضي كمال الدين عمر بن العديم بتفويض قضاء القضاة إليه بمدائن الشام والموصل وماردين وميافارقين والأكراد وغير ذلك، وتفويض جميع الأوقاف إلى نظره ووقف الجامع وغيره "[٤].

فمن خلال هاتين الروايتين يتبين أن وقت وصول منشور هولاكو كان متفقا، مما يعني أن المنشور الذي تتحدث عنه الروايتان واحد، مما يحتم ترجيح إحداهما للوصول إلى الحقيقة.

---

(١) ينظر عن ابن بندار التفليسي: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٩١؛ البرزالي، المقتفي، ج١، ص ص٢٨٨-٢٨٩؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٥١ و ج٥٠، ص ص١٠٣-١٠٤؛ الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص ص٢٧٢-٢٧٣؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٨، ص ص٣٠٩-٣١٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٣٥٤؛ ابن كثير، طبقات، ج٢، ص٨٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧١؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٣٥٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٥٨٩؛ شوكت، حجة، مواقف أئمة المسلمين من الغزو الإيلخاني(مغول فارس) لبلاد الشام ومصر، مجلة الجامعة الإسلامية(سلسلة الدراسات الإنسانية)، مجلد: ١٥، العدد: ٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: حجة، مواقف أئمة المسلمين.

(٢) ينظر عن ابن العديم: ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص ص٢٠٦٨-٢٠٩١؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٤٢١-٤٢٤؛ العبر، ج١، ص٣٠٠؛ ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٢٠٨؛ الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص ص= = ٢٥٩-٢٦٠؛ ابن شاكر، فوات، ج٣، ص ص١٢٦-١٢٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٨٤-٣٨٥؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٣٤٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص١٨٣-١٨٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٢٥-٥٢٦؛ الطباخ، محمد راغب بن محمود هاشم، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء(٢ج)، المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، ج٢، ص ص٤٨٠-٤٩٩، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الطباخ، إعلام النبلاء.

(٣) أبو شامة، الذيل، ص٢٠٤.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٣٥٠.

والذي يترجح أن رواية أبي شامة وأمثالها من روايات المؤرخين هي الأصح، وأن رواية اليونيني تعرضت للتصحيف بسبب النُسَّاخ - على الأغلب -، وهو أمر لم يتفطن إليه الباحث السابق فوقع في الخطأ المذكور.

ثانيا: أن اليونيني نفسه لما ترجم للقاضي التفليسي نسب إليه ورود كتاب هولاكو لتولي القضاء، فقال: " لما تملك التتر الشام في سنة (٦٥٨هـ) سيَّر – أي هولاكو – له – أي التفليسي - تقليدا بقضاء الشام بأسره والجزيرة والموصل وغير ذلك من البلاد المجاورة لها "[١].

والإشكال الثاني الذي أورده عبد المعز بني عيسى في قضية تولي التفليسي القضاء لهولاكو أنه اعتبر الشيخ التفليسي أحد العلماء المتعاونين مع المغول بدخوله في طاعتهم دون أن يبرر أوجه هذا التعاون سوى استدلاله بأن أهل دمشق رحلوه منها كرها بعد نصر عين جالوت[٢].

وقد مر سابقا أثناء مناقشة موقف الشيخ التفليسي ما يثبت عدم تعاونه مع المغول، وأن توليه القضاء للمغول كان دافعه المصلحة العليا للإسلام والمسلمين، وأما ترحيله من دمشق فقد كان ظلما وجورا كما ذكر ذلك من ترجم له ومنهم اليونيني الذي استدل بني عيسى - خطأً - بروايته على تعاونه مع المغول، إذ يقول: " ونسب إليه أشياء برأه الله منها ونزهه عنها فعصمه الله ممن أراد ضرره "[٣].

وأما الإشكال الثالث في هذه القضيه فقد أورده سهيل زكار محقق كتابي ابن العديم " بغية الطلب " و " زبدة الحلب " حيث ذكر أن ابن العديم بعد معركة عين جالوت رجع من القاهرة إلى دمشق ومنها توجه إلى حلب، وذكر - غير جازم - أن هولاكو عرض عليه القضاء في تلك الأثناء لكنه رفض ذلك وعاد إلى القاهرة[٤] دون أن يذكر المصدر الذي استند إليه في ذلك.

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص٦٤.

(٢) بني عيسى، الغزو المغولي، ص٥٦.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص٦٤-٦٥؛ وينظر أيضا: ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٤٤١؛ الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص ص٢٧٢-٢٧٣؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص ص٣٠٩-٣١٠.

(٤) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب(١١ج)، تحقيق: سهيل زكار، د.ن، دمشق، د.ط، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج١، ص١٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن العديم، بغية =

والحقيقة أن ما ذكره المؤرخ زكار يستوجب التأمل؛ لأنه من المعلوم أن هولاكو رجع إلى بلاده قبل معركة عين جالوت، فكيف يستقيم أمر عرضه القضاء على الشيخ ابن العديم بعد عين جالوت؟!! ومع الاتفاق معه على عودة الشيخ ابن العديم إلى دمشق ثم إلى حلب بعد عين جالوت، إلا أن هذه العودة كانت بعد خروج المغول من بلاد الشام، حيث عاد ابن العديم إلى حلب ورأى ما حل بها من دمار فساءه ذلك ورجع إلى القاهرة(١)، مما يعني أن الصواب جانب الدكتور زكار فيما ذكره من عرض هولاكو قضاء الشام على ابن العديم.

وممن وقع في هذا الخطأ أيضا محقق كتاب " السلوك " للمقريزي محمد مصطفى زيادة إذ يذكر ناقلا من " الموسوعة الإسلامية "(٢) عن برنارد لويس الذي أخطأ هو الآخر، أن هولاكو استدعى ابن العديم المقيم بالقاهرة ليوليه قضاء القضاة بالشام غير أنه ظل مقيما بالقاهرة حتى مات(٣).

٢- سعي العلماء مع السلطة المغولية لتقليل مفاسد الغزو

من الأعمال التي قام بها العلماء لتقليل مفاسد الغزو المغولي لدمشق سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) مفاوضتهم لنائب المغول.

فعندما سيطر المغول على دمشق في السنة المذكورة ، شمخ النصارى وآذوا المسلمين واعتدوا عليهم ونظموا مواكب عامة تسير في شوارع دمشق يغنون ويرقصون، ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: " ظهر الدين الصحيح، دين المسيح "، ويذمون دين الإسلام وأهله، وأخذوا يرشون الخمر على أبواب المساجد وعلى وجوه المسلمين وثيابهم، وأمروا من يمروا به من المسلمين أن يقوم لصليبهم، ودخلوا الجامع الأموي بالخمر، فساءت المسلمين أفعالهم تلك؛ فاجتمع القضاة والشهود والفقهاء وصعدوا القلعة وبها إيل سبان نائب

=الطلب؛ ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب(٢ج)، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١، ص١٩؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن العديم، زبدة الحلب.

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٢٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص٣٤١-٣٤٢.

(٢) B.lewis "Ibn AL-Adim", The Encyclopaedia of Islam, vol.III, Leiden-London, ١٩٨٦, P.٦٩٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٦(الحاشية رقم٤).

المغول بدمشق؛ ليردع النصارى عن أفعالهم، فما كان منه إلا أن أهانهم، ورفع قسيس النصارى عليهم، وأخرجوهم من القلعة بالضرب والإهانة[١].

والملاحظ من هذه الحادثة أن أهل العلم حاولوا إزالة أذى وقع بالمسلمين في فترة الاحتلال، فمع كون البلاد واقعة بأيدي المغول فإن ذلك لا يعني عدم القيام بما يمكن القيام به للتخفيف من أثر الاحتلال ومفاسده؛ ولذا توجهوا إلى نائب المغول بدمشق نيابة عن أفراد المجتمع المسلم رافعين شكواهم ضد أفعال النصارى.

وبالرغم من أن شكوى العلماء لم تجد استجابة من النائب المغولي، إلا أنها تعبر عن موقف إيجابي للعلماء فيما يتعلق بتقليل مفاسد الاحتلال وآثاره.

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٣٦٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٣٥١؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٤٣؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص٥٢.

المبحث الثاني

المواقف الفكرية لعلماء العراق والشام من الغزو المغولي الأول

من المواقف التي قام بها العلماء في العراق وبلاد الشام تجاه الغزو المغولي، المواقف الفكرية التي من خلالها سعوا لإيصال فكرة الجهاد، ومقاومة الغزاة، وتصوير طبيعة الغزو لعامة أفراد المجتمع وطبقاته، بل وللأجيال القادمة بعدهم.

وقد تجلت مواقف العلماء الفكرية تجاه الغزو المغولي الأول في صور عدة، هي:

أولا: الدعاء والقنوت

حرص العلماء على استخدام سلاح الدعاء ضد المغول بخذلانهم ليحق عليهم خذلان الله في مرادهم من العراق وبلاد الشام، مستشعرين ضرورة ذلك؛ لاستمداد نصرة الله على عباده، مدركين أن النصر من الله وحده، وأن الإعداد المادي - مع أهميته - يحتاج إلى توفيق رباني؛ لذا اهتم العلماء بالدعاء الفردي والجماعي - من خلال القنوت في الصلوات - عند حلول نازلة العدوان المغولي على ديار المسلمين.

وقد أوردت المصادر عدة شواهد تدل على حرص العلماء لاستجلاب نصرة الله تعالى للجيوش الإسلامية، منها:

١- لما جاءت الأخبار إلى الديار المصرية بأن بغداد محاصرة من قبل المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، أمر الإمام ابن عبد السلام الأئمة، بأن يقنتوا في الصلوات الخمس، ويدعوا للمسلمين بالصبر[(١)].

وفي هذا الخبر دلالة على أهمية استشعار مصاب المسلمين ولو بعدوا، وإيصال هذه الفكرة لعامة الناس عن طريق شعيرة الصلاة، التي يقصدها غالب أفراد المجتمع المسلم، فيقوموا – ولا سيما - عند عجزهم، بما يمكنهم القيام به كالدعاء الذي لا يعذر أحد عن تأديته سرا أو جهرا، كما في قنوت الصلوات.

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٨٩؛ الكتبي، عيون، ج٢٠، ص١٢٥.

٢- قنوت الأئمة سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م).

عندما اقترب المغول من بلاد الشام سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وكثرت الأراجيف بدمشق، وخرج السلطان المنصور قلاوون للقائهم، قنت الخطيب بجامع دمشق، وتبعه سائر الخطباء والأئمة بالقنوت في الجوامع والمساجد الأخرى في الصلوات[١].

ولما احتدم اللقاء بين المسلمين والمغول بحمص، خرج خطيب الجامع الأموي والقراء والمؤذنون بالناس إلى المصلى ظاهر دمشق، يسألون الله تعالى النصر والظفر على المغول[٢].

ويتضح من هذا الموقف دعوة العلماء عامة المسلمين للتضامن مع العساكر الإسلامية[٣].

ثانيا: الخطابة والوعظ

تعد الخطابة والوعظ، من أهم الوسائل الاتصالية مع الجماهير، وثمرتهما عظيمة ونافعة، إذا أحسنت إدارتهما ووجهت غاياتهما وأهدافهما، وتوافقا مع نوازل الأمة ومتطلبات ظرفها القائم.

وقد أدرك علماء الأمة هذه الضرورة؛ فوجهوا الخطابة عند حلول نازلة الغزو المغولي إلى ما يحقق للمجتمع سلامته ونصرته، ومما يذكر في هذا المقام أن السلطان قطز أوكل إلى الإمام ابن عبد السلام إنشاء ديوان كبير للدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، يضم إليه من يراه مناسبا من خطباء الجوامع، فيعلمهم ما ينبغي لهم أن يخطبوا به للناس على المنابر، فيما يتعلق بالجهاد وبيان فضائله، ويستثيروا عامة المسلمين للجهاد ببيان ما فعله المغول ببغداد من تخريب وتدمير وقتل ونهب وانتهاك للأعراض والحرمات واعتداء على المساجد والجوامع وقتل للأطفال والشيوخ والعجائز وبقر لبطون الحوامل، كما يقوم ببعث الوعاظ من ذلك الديوان للطواف بالقرى؛ لدعوة أهلها إلى الجهاد وترغيبهم وتشجيعهم لذلك، وكان الشيخ لا يجيز أحدا من هؤلاء الخطباء والوعاظ، إلا بعد أن يحفظ سورتي الأنفال والتوبة غيبا؛ فكان من جراء ذلك أن صارت المنابر والجوامع والأندية ومجالس القرى تعج بآيات القتال، حتى كاد الرجال والنساء والأطفال يحفظوها جميعهم[٤].

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص٩١؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٤٩٢.
(٢) اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص ص٩٢-٩٣؛ ابن الفرات، تاريخ، ج٧، ص٢١٤.
(٣) حجة، مواقف أئمة المسلمين، ص١٢.
(٤) باكثير، وا إسلاماه، ص١٧٨-١٧٩؛ شلبي، حياة سلطان العلماء، ص٢٤٦.

وقد عملت جهود الإمام ابن عبد السلام هذه على التعبئة العامة للمجتمع الإسلامي، وبث الشعور العام بأهمية الجهاد في سبيل الله، وضرورة المقاومة المشروعة، مما أثمر تفاعلا إيجابيا من قبل أفراد المجتمع بجميع أطيافه في قضية مقاومة الغزو المغولي كل بحسب إمكانياته؛ وهو أمر ظهر أثره في عين جالوت لاحقا.

وعليه يمكن القول أن النصر في موقعة عين جالوت سبقه حشد في ميدان الإعداد الداخلي على المستويين الرسمي والشعبي، قاده أهل العلم بتنظيرهم الصحيح وإرشادهم الواعي وتوجيهاتهم السديدة وفقههم للأولويات، وعلى رأس هؤلاء العلماء الإمام ابن عبد السلام الذي حق له أن يكون من المساهمين في النصر في معركة عين جالوت.

ثالثا: التأليف

لم يغفل العلماء بيان موقفهم من الغزو المغولي من خلال أقلامهم السيالة المتمثلة في مؤلفاتهم وكتبهم، فقد أعطوا جانب الجهاد والمقاومة والتحذير من العدو المغولي نصيبا من ثمرات عقولهم.

كما حرص العلماء على تدوين أحداث الغزو المغولي؛ ليأخذ المسلمون في مستقبل أيامهم العظة والعبرة، وليعرف أهل الإسلام على مرور أيامهم وعصورهم، ما مر بالإسلام وأهله ودياره من أحداث ووقائع.

وقد تنوعت مواضيع التأليف التي ظهرت في فترة الغزو المغولي الأول للعراق وبلاد الشام، ومن هذه المواضيع:

١- مؤلفات متعلقة ببيان فضل الجهاد والمجاهدين

فقد ظهرت للعلماء الذين عاصروا الغزو المغولي الأول للبلاد الإسلامية مؤلفات تخصصية في موضوع الجهاد وفضله وبيان آلاته.

والذي يظهر أن العلماء كانوا يهدفون من هذه المؤلفات إلى تشجيع الجنود وعامة الناس على الجهاد في سبيل الله تعالى، وتعريفهم بآلات الجهاد وكيفية استخدامها.

ومن أمثلة هذه المؤلفات، مؤلف في الجهاد للإمام ابن عبد السلام. فقد ألف كتابا بعنوان " أحكام الجهاد وفضائله "، وهو كتاب مختصر صغير ألفه الشيخ تحفيزا للعباد نحو الجهاد والترغيب في أجره وثوابه، والترهيب من تركه وإهماله[١].

ويبدو أن تأليف هذا الكتاب كان الغرض منه سهولة الحمل ليكون في رفقة المجاهد والغازي والمرابط على ثغور المسلمين؛ حتى يكون له دافعا نفسيا ومددا روحيا، يتقوى به على طاعة ربه ونصرة دينه وإعلاء كلمته[٢].

كما جعل منهجه مبسطا مفهوما من قبل العامة، وهو ما يدل على أن الشيخ استهدف به - إضافة لما ذكر - عامة أفراد المجتمع؛ ليرفع من هممهم لجهاد العدو المغولي.

٢- مؤلفات خاصة متعلقة بالغزو المغولي الأول

أ- عمل الشيخ جمال الدين عمر بن إبراهيم الرسعني[٣] مقامة في سقوط حلب بيد المغول سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م).

ومما جاء في هذه المقامة: " هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام، وهملت عيون العناء كالغمام... وحلبت العيون ماءها على حلب، وسكبت الجفون دماءها من الصبب، والتف عليها الختل والاختلال، واحتف بها القتل والوبال... وسما العدوان في عش بيضة الإسلام، ورفعت الصلبان على المساجد، ووضعت الأديان والمعابد، حتى بكى على الوجود الجلمد، وشكى إلى المعبود السرمد"[٤].

---

(١) العز، عبد العزيز بن عبد السلام السلمي(ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)، أحكام الجهاد وفضائله، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، مقدمة التحقيق، ص٢٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العز، أحكام الجهاد؛ الشهري، عبدالله بن فراج، دور العلماء المسلمين في حركة الجهاد ضد المغول، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ص١٣٢-١٣٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الشهري، دور العلماء.

(٢) العز، أحكام الجهاد، ص٢١.

(٣) الشيخ جمال الدين عمر بن إبراهيم بن الحسين الرسعني، شيخ الأدباء، ولد سنة (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، أجاز له طائفة من أهل العلم، وبرع في النظم والنثر. الذهبي، العبر، ج٣، ص٤٠١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٨٦.

(٤) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٢٠٩.

فالشيخ في هذه المقامة يرثي سقوط حلب بأيدي المغول، مبينا بعضا مما فعله المحتلون بالمدينة، من قتل وتدمير، كما يشير إلى تعاون النصارى مع المغول في احتلال المدينة، موضحا الثمرة التي جناها النصارى من هذا التعاون. فكانت مقامة الشيخ – وهو شاهد عيان- معبرة عن آلام المسلمين في حلب، وما عانوه من جرائم الاحتلال المغولي، موضحة صورة من صور التحالفات بين المغول والنصارى.

ثم يسجل نصر المسلمين في عين جالوت كاشفا عن موقفه من المغول من خلال التعبير عن فرحه بهذا النصر واصفا المغول بالعداوة والكفر والفجور، فيقول: " ولما تعظم العدو وتكبر، وتقدم بالعتو وتجبر، وبسط سيفه على الخافقين، وهبط خوفه على المشرقين، أطلع الله طلائع اللواء المظفر، وأبدع مطالع السناء الأنور، وخفقت الرايات والبنود، وشرقت الآيات والسعود، بانجذاب الكفار إلى كنعان، وانسحاب الفجار إلى الهوان"[١].

ب- أفرد الشيخ شافع بن علي[٢] لوقعة حمص جزءا مستقلا برسم الخزانة العالية للسلطان المنصور قلاوون[٣]، إلا أن هذا الجزء لم يصل.

ت- عبَّر المولى بهاء الدين أبو الحسن علي بن علي بن أبي سوادة الحلبي كاتب السر بحلب بعد وقعة حمص (٦٨٠هـ/١٢٨١م) عن ابتهاجه بنصر المسلمين على المغول بما يدل على موقفه المناوئ للغزو المغولي لبلاد الشام فقال في ذلك نثرا جاء فيه:

" ... فحل بهم البلاء من كل جانب، وخسرت صفقة المخذولين، وانقلبوا على أعقابهم خائبين مغلوبين، ونكست أعلامهم، وبطل إقدامهم، وارتعدت فرائصهم، وزلزلت أقدامهم، واشتد بهم الخوف والوجل ... فلما تحقق المخذولون الهلاك، وتيقن كل منهم وتحقق أن لا معدل له عن الموت ولا فكاك، ألقوا أنفسهم إلى العطب ... "[٤].

---

(١) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٢٠٩.

(٢) هو شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني، سبط الشيخ ابن عبد الظاهر، ولد سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)، اشتغل وسمع الحديث، وتعانى الآداب، وأتقن الخط والنظم والإنشاء، كتب في الديوان زمانا، مات سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م). الكتبي، فوات، ج١، ص ص٤٧٤-٤٧٦.

(٣) العسقلاني، الفضل المأثور، ص٨٥.

(٤) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج١، ص ص٢٤٨-٢٥٠.

٣- مؤلفات تاريخية تضمنت بيان أحداث الغزو المغولي الأول للبلاد الإسلامية

اعتنى العلماء المسلمون بالتدوين التاريخي، واعتبروه أحد المعارف الإسلامية التي يجب التصدي للكتابة فيها، وقد حرص العلماء المعاصرون للغزو المغولي الأول والثاني، على تضمين مؤلفاتهم التاريخية، أخبار هذين الغزوين وتسجيل ما سمعوه أو شاهدوه حولهما؛ لكشف حقائقهما وأحداثهما لمن يأتي بعدهم من أهل الإسلام؛ ليسجلوا بذلك نوعا من المقاومة الفكرية لهذا الغزو.

ومن العلماء المسلمين الذين كتبوا حول الغزو المغولي الأول:

أ- المؤرخ محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر[١] المتوفى سنة (٦٩٢هـ/١٣٩٢م)

قام المؤرخ ابن عبد الظاهر بتسجيل أحداث الغزو المغولي، من خلال كتابته لسيرة بعض السلاطين الذين واجهوا الغزو المغولي لبلاد الشام، فقد كتب ابن عبد الظاهر سيرة للسلطان الظاهر بيبرس عنونها بـ " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر "، وسيرة للسلطان المنصور قلاوون - لم تصل كاملة - حملت عنوان " تشريف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور "، كما كتب سيرة للسلطان الأشرف خليل قلاوون – غالبها مفقود – عنوانها: " الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية ".

وقد عبر المؤرخ ابن عبد الظاهر عن موقفه المناوئ للغزو المغولي الأول حيث يتضح ذلك من الأوصاف التي يطلقها عليهم مثل: " العدو "[٢]، " خذلهم الله "[٣]، " المخذولين "[٤]، " الكفار "[٥].

---

(١) هو الشيخ محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان السعدي، ولد سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، كان أوحد عصره بل أوحد كل عصر في الإنشاء والتصرف، كتب للظاهر بيبرس وابنيه والمنصور قلاوون، توفي سنة (٦٩٢هـ/١٢٩٣م). ابن شاكر، فوات، ج١، ص٥٣٨؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص ص٩٨-٩٩؛ الروض الزاهر، مقدمة التحقيق، ص ص٩-١٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٦٤، و ص٤٠٦، و ص٤٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٠٥ و ص٤٠٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٦٠.

كما كتب المؤرخ ابن عبد الظاهر رسالة إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا وزير الملـــك الظـــاهر يمتدح ويعظم فيها نصر المسلمين على المغول في بلاد الروم سنة (٦٧٥هــ/١٢٧٥م)(١)، بما يـــدل على مشاركته في الموقعة.

ب- المؤرخ شهاب الدين أبو شامة(٢) المتوفى سنة (٦٦٥هــ/١٢٦٦م)

ألف الشيخ أبو شامة كتاب " الذيل على الروضتين "، وقد تعرض الشيخ في كتابه إلى بيان الغـــزو المغولي للعراق وقتلهم للخليفة العباسي، مشيرا إلى عظم جرائمهم التي ارتكبوها بحق أهل بغداد(٣).

كما تحدث في كتابه عن غزو المغول لبلاد الشام واحتلالهم لدمشق، مبينا أعمالهم الســـيئة التـــي فعلوها داخل المدينة(٤)، وأهمية كتاب الشيخ تكمن في أنه كان معاصرا ومشاهدا للأحداث، مما يـــدل على حرص العلماء على تسجيل أحداث الغزو المغولي لبلادهم؛ وأخذ الشيخ في كتابه يدعو علـــى المغول باللعن والخذلان، وفي المقابل كان يتوجه إلى الله بالشكر بعد الانتصار علـــيهم فـــي عـــين جالوت، فيقول على سبيل المثال:

"... استولى التتار – خذلهم الله تعالى – على بغداد..."(٥) .

ويقول في هزيمتهم بعين جالوت: "... فانهزم تلك الليلة من كان بدمشق من التتار إيل سبان نائب الملك وأتباعه... فلله الحمد والشكر"(٦).

"... وجاء الخبر إلى دمشق بالتقاء التتار لعنهم الله..." (٧).

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٤٥٣.

(٢) هو الإمام العلامة شهاب الدين عبـــد الـــرحمن بـــن إســـماعيل بـــن إبـــراهيم المقدســـي الشـــافعي، ولـــد سنة(٥٩٩هــ/١٢٠٢م)، أتقن الفقه ودرَّس وأفتى، له مؤلفات نفيسة منها: شرح الشاطبية ومختصر تاريخ دمشـــق، توفي سنة (٦٦٥هــ/١٢٦٦م). الذهبي، تاريخ، ج٤٩، ص ص١٤٩-١٩٧؛ ابن كثير، طبقات، ج٢، ص ص٨١٠-٨١٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٥٣-٥٥٥.

(٣) أبو شامة، الذيل، ص ص١٩٨-١٩٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ص٢٠٣-٢٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص١٩٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

(٧) المصدر نفسه، ص٢١٨ و ص٢١٩ و ص٢٢٠ و ص٢٣٣.

ت- المؤرخ عز الدين بن شدَّاد[١] المتوفى سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)

ساهم المؤرخ ابن شداد في بيان أحداث الغزو المغولي من خلال تأليفه لكتابين تاريخيين:

أما الكتاب الأول فهو: " الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة "

وقد قصد ابن شدَّاد من كتابه هذا تخليد ذكر جهود السلطان الظاهر بيبرس في مقاومة العدوين الصليبي والمغولي؛ بسبب ما لاقاه منه من ضيافة وإكرام وترحيب، حيث يقول في مقدمة كتابه: " رأيت انتهاز الفرصة في شكر إنعامه العميم، وإدراك البغية في وصف إكرامه الجسيم، أن أضع كتابا أذكر فيه ما سنّى الله له من الفتوحات التي لم تكن تتوهمها الأطماع، وملكه ما كان بأيدي الكفرة من منيعات الحصون والقلاع، وما وطئته سنابك خيوله، واسترجعته مواضي لهاذمه ونصوله، من البلاد التي يئست الأطماع من ردها، وألزمت العيون مداومة سهدها، وجرعت النفوس الصبر بعد شهدها "[٢].

كما أن ابن شداد حرص في كتابه هذا على ذكر ما يتعلق بالغزو المغولي لبلاد الشام والجزيرة سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، فيذكر البلاد التي وقعت بأيدي المغول، وتلك التي دخلت في طاعتهم سلما، وكان يشير أحيانا إلى أفعال المغول في البلاد التي استولوا عليها[٣].

وأما الكتاب الثاني الذي وضعه ابن شدَّاد فهو كتاب " تاريخ الملك الظاهر ".

وهذا الكتاب يتكون من جزأين، الأول منهما في عداد المفقودات التاريخية، والجزء الثاني مطبوع ومتداول، وتناول هذا الجزء سيرة السلطان بيبرس في الفترة الواقعة ما بين (٦٧٠-٦٧٦هـ/ ١٢٧٢-١٢٧٨م)[٤]، وقد اشتمل هذا الجزء على كثير من الأحداث المتعلقة بغزو المغول

---

(١) هو الصاحب عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الأنصاري الحلبي، ولد بحلب سنة(٦١٣هـ/١٢١٦م)، كان رئيسا حسن المحاضرة، له فضل وجلالة وحرمة وافرة قوية، قدم القاهرة بعد أخذ المغول لحلب فحدَّث بها، توفي سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م). الذهبي، تاريخ، ج٥١، ص ص١٩٤-١٩٥ و ص٢٠١؛ الصفدي، الوافي، ج٢، ص٦؛ المقريزي، المقفى الكبير(٨ج)، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٦، ص ص٢٣٣-٢٣٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: المقريزي، المقفى.

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص٢.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ق١، ينظر مثلا: ص٣٦، وص٤٠، وص٥٠، و ص٥٢ وغيرها.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، مقدمة التحقيق، ص١٩.

المغول وأفعالهم ببلاد الشام والتي سجلها ابن شداد ليساهم بذلك في بيان موقف العلماء المسلمين تجاه الغزو المغولي الأول.

ث- المؤرخ شافع بن علي[1] كاتب السر المتوفى سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م).

ألف ابن علي كتابا في سيرة السلطان الظاهر بيبرس بعنوان: " حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " كما ألف كتابا في سيرة المنصور قلاوون بعنوان " الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور ".

والكتاب يعتبر مصدرا أساسيا لفترة الصراع المملوكي ضد المغول والصليبيين من خلال التأريخ لسيرة السلطان المنصور قلاوون، كون مؤلفه كان معاصرا لهذه الفترة، كما كان مشاركا في مجريات بعض الأحداث[2]، إضافة إلى طبيعة وظيفته التي أتاحت له الإطلاع على تفاصيل دقيقة للأحداث إذ أنه كان كاتب السر للمنصور قلاوون.

ويتضح موقف شافع بن علي المناوئ للغزو المغولي الأول من خلال الصورة التي وصف بها الغزاة المغول، مثل وصفهم بـ " التتار المخذولين "[3] و " العدو "[4]، ومن خلال تعظيمه للسلطان الذي خرج " للجهاد في أعداء الله التتار ... "[5].

---

(١) الشيخ شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني، سبط الشيخ ابن عبد الظاهر، ولد سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)، اشتغل وسمع الحديث وتعانى الآداب وأتقن الخط والنظم والإنشاء، وكتب في الديوان زمانا، توفي سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م). ابن شاكر، فوات، ج١، ص ص٤٧٤-٤٧٦، العسقلاني، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، مطابع القوات المسلحة، الرياض، د.ط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، مقدمة التحقيق، ص١٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العسقلاني، حسن المناقب.

(٢) العسقلاني، الفضل المأثور، مقدمة التحقيق، ص١١.

(٣) العسقلاني، حسن المناقب، ص٣٠ و ص٣٣ و ص٥٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٠.

(٥) العسقلاني، الفضل المأثور، ص٦٥.

ج- المؤرخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني[١] المتوفى سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م)

ألف اليونيني كتاب " ذيل مرآة الزمان " مذيلا به تاريخ مرآة الزمان لسبط بن الجوزي المتوفى سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وقد ضمن اليونيني تاريخه أحداث الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام ودور المسلمين عامة في مقاومته والتصدي له.

وقد كان اليونيني مشاهدا لأحداث الغزو المغولي ومشاركا في بعضها، ومن هنا اكتسبت الأخبار التي دونها عن هذا الغزو أهمية خاصة وكانت محل تقدير من بعض كبار المؤرخين كالذهبي[٢].

رابعا: الفتوى

يعد إصدار الفتاوى من أهم وأكبر المسؤوليات الشرعية المناطة بالعلماء، سواء أكانت فتاوى نوازل، أم فتاوى نظرية في مختلف جوانب الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وعندما حلت نازلة الغزو المغولي على العالم الإسلامي، تطلبت بعض مراحله ومواقفه صدور فتاوى من العلماء المسلمين؛ لتبيين وجه الصواب فيها لخاصة المسلمين وعامتهم.

ومن الفتاوى التي صدرت في فترة الغزو المغولي الأول للعراق وبلاد الشام:

١- فتوى الشيخ الإمام ابن عبد السلام بعدم جواز أخذ أموال من الرعية بحجة الاستعداد لمعركة عين جالوت.

ففي إطار استعدادات قطز للقاء المغول سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) عقد مجلسا تحضيريا لمناقشة ما يتعلق بأمر الجهاد، فاستشار العلماء والفقهاء والقضاة الحاضرين بالمجلس وكان من بينهم الشيخ

---

(١) الصدر الكبير قطب الدين موسى ابن الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله اليونيني الحنبلي، ولد بدمشق سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، سمع من أبيه وغيره، كان عالما فاضلا مليح المحاضرة، معظما جليلا، وافر الحرمة، صار شيخ بعلبك بعد أخيه أبي الحسين وروى الكثير بدمشق وبعلبك. الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر(٦ج)، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٥، ص٤٨٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الصفدي، أعيان العصر؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص١٣١-١٣٢.

(٢) مصطفى، شاكر، التاريخ والمؤرخون(٥ج)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٤، ص٣٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: مصطفى، التاريخ.

العز وابن العديم وقاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري[١]، فاستشارهم قطز في الاقتراض من أموال التجار للاستعانة بها في القتال؛ بسبب قلة المال في خزانة الدولة، فاعترض الشيخ العز على ذلك، وقال: " إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على الإمام قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل جندي على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا "[٢].

فنفذ الجميع فتوى الشيخ، وقد اتخذ قطز هذه الفتوى سندا له في إجبار بعض الأمراء المعارضين لدفع أموالهم لتجهيز الجيش الإسلامي[٣].

فكان لفتوى الشيخ أثر كبير في الإعداد الشرعي الصحيح للجيش الإسلامي.

٢- فتوى قاضي حماة بقتل حامي قلعة حماة.

عندما استولى المغول على بلاد الشام سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) سيطر على حماة أحد الذين كانوا يحمون القلعة ويسمى عثمان السبيتاري، وحكم في البلد والقلعة، واستباح حريم أهل حماة وأموالهم، وقتل جماعة منهم، فحكم قاضي حماة بسفك دمه، وبعد أن خرج المغول من الشام قبض عليه، فنفذ فيه الملك المؤيد صاحب حماة حكم القاضي[٤].

ويتبين من الفتوى السابقة حرص العلماء على معاقبة كل من تسول له نفسه استغلال فرصة الفراغ السياسي الناجم عن سقوط السلطة بسبب الغزو المغولي، وتوجيه ذلك الفراغ لتحقيق المآرب الخاصة.

٣- فتوى علماء الديار المصرية بقتل المغيث عمر صاحب الكرك.

صدرت في سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) فتوى من علماء الديار المصرية بقتل المغيث عمر صاحب الكرك؛ لمكاتبته المغول وتحريضه لهم على غزو بلاد الشام بعد أن ثبت ذلك عليه من خلال كتبه

---

(١) هو بدر الدين يوسف بن الحسن بن علي السنجاري، باشر القضاء بمصر مرارا، توفي سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م). ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٤٠٥.

(٢) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٣٤٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ص٤١٦-٤١٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢١٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٠٢.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٤٢٩؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص ص٦١-٦٢.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٨٣.

التي كتبها لهم[١]، وقد صادق على هذه الفتوى قاضي القضاة شمس الدين ابن خَلِّكان[٢] الذي استدعاه بيبرس من دمشق لهذا الغرض[٣].

ومن خلال هذه الفتوى يتبين حرص العلماء على تخليص الصف الإسلامي ممن يعملون على إضعافه والإضرار به، ولو كانوا من رؤوسه وكباره.

كما أن في هذه الفتوى الجريئة عبرة لجميع الأمراء ومن دونهم، ممن تسول لهم نفوسهم التعاون مع أعداء المسلمين.

خامسا: الشعر

سجل الشعراء بشعرهم ما جادت به قرائحهم وسالت به أذهانهم، واصفين الغزو المغولي وغزاته، ووقائعه ونتائجه، مادحين الانتصارات وثمراتها، نادبين الهزيمة وآثارها.

وقد تعددت الأغراض الشعرية التي واكبت الغزو المغولي، وليس من أهداف البحث تسجيل كل هذه الأغراض أو التعرض لكل من قال شعرا في غزو المغول، وإنما المقصود الإشارة لأشعار العلماء التي تبين موقفهم من الغزو المغولي.

ومن أشعار العلماء التي ظهرت في فترة الغزو المغولي الأول مبينة موقفهم من الغزو قصيدة للصدر تقي الدين إسماعيل بن أبي اليسر[٤] من ستة وستين بيتا[٥] نظمها في سقوط بغداد، تعددت تعددت فيها الألوان الشعرية، فندب سقوط بغداد في عدة أبيات منها:

---

(١) بيبرس، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق٢، ص٧٧؛ اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص ص١٩٣-١٩٤؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص٩٦؛ الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص٢٨٩.

(٢) هو قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، ولد بإربل سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م)، كان إماما فاضلا بارعا متفننا عارفا بالمذهب الشافعي، بصيرا بالفتاوى، توفي سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م). الذهبي، تاريخ، ج٥١، ص ص٦٥-٦٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٦٤٧-٦٥٠.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٨٢.

(٤) ابن أبي اليسر، ولد سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)، كان صدرا كبيرا، متميزا في كتابة الإنشاء، ولي نظارة البيمارستان النوري بدمشق، ومشيخة الرواية بدار الحديث الأشرفية، توفي سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م). الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص١٧٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٤٤١-٤٤٢.

(٥) فقد أكثر هذه القصيدة، والموجود منها اثنان وعشرون بيتا. ينظر: الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٣٧-٣٩.

لِسائلِ الدمعِ عن بغداد أخبـــــــارُ فما وقوفك والأحبابُ قد ســـاروا
يا زائرين إلى الزوْراءِ لا تفـــــِدوا فما بذاك الحِمى والدارُ ديـــارُ(١)

ويندب زوال الخلافة الإسلامية بقوله:

تاجُ الخلافـــةِ والرَّبْعُ الذي شَرُفَــتْ به المعـــالمُ قــــد عاهْ إقْفـــارُ(٢)

وقال مشيرا إلى تعاون النصارى مع المغول في إسقاط بغداد وفرحهم بذلك:

علا الصلـــيب علـــى أعلى منابـــرها وقـــام بالأمر من يحويه زنار(٣)

ويعدد الفواجع التي ارتكبها المغول في بغداد وأهلها في عدة مواضع من قصـــيدته، واصـــفا إيـــاهم بالكفر والعداوة، فيقول:

وكم حـــريم سبتـــه الترك غاصبـــــة وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم بـــدور على البـــــدرية انخسفــت ولم يعد لبدور الحي إبـــــدار
وكـــم ذخـــائر أضحت وهي شـــائعـــة من النهاب وقد حازته كفار(٤)

ولا يغفل الشيخ ابن أبي اليسر بيان بعض الأسباب التي أدت إلى نكبة بغداد على يـــد المغـــول، كالانغماس في شهوات الترف المنسية لأداء حقوق الله وشكره، وكأنه ينبه الأجيـــال القادمـــة علـــى ضرورة الاستفاقة من الغفلة؛ لأجل التحرير من ناحية، ولأجل تجنب أسباب الهـــلاك مـــن ناحيـــة أخرى، حيث يقول في ذلك:

والله يعـــــــلم أن الـــقـــــــوم أغفلـــــهم ما كـــان من نعـــم فيـــــهن إكثـــار
فأهملـــــوا جانـــــــب الجبـــــار إذ غفلوا فجاءهم من جنود الكفر جبـــــــار

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٧؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٥٦هـ)؛ ابن تغري بردي، النجـــوم الزاهرة، ج٧، ص٤٨.
(٢) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٨؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٥٦هـ).
(٣) الذهبي تاريخ، ج٤٨، ص٣٨.
(٤) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٨.

يا للرجال لأحـــــداث تحــــــدثـــنـــا ... بـــما غـــدا فيه إعذار وإنـــذار[١]

كما نظم الشيخ شمس الدين الكوفي الواعظ[٢] عدة قصائد يندب فيها سقوط بغداد، ويرثي أهلهـــا، أهلها، ويسجل موقفه من المغول في مواضع من قصائده، معتبرا إياهم قوما أعادي، خربوا الإسلام ومعالمه، ونكبوا بالمسلمين كبارا وصغارا، ذكورا وإناثا، حكاما ومحكومين، فمما قاله فـــي قصـــيدة له:

يا نكبـــة ما نجـــا من صرفـــها أحـــد ... من الورى فاستـــوى المملوك والملـــك

تمكنـــــت بعد عـــز فـــي أحبتنـــا ... أيدي الأعـــادي فما أبقوا ولا تركـــوا

لو أن مـــا نالـــهم يفدى فديتهـــم ... بمـــهجـــتـــي وبما أصبحت أمتـــلك

ربـــــع الهدايـــة أضحى بعد بعدهم ... معطـــلا ودم الإســـلام منـــــسفـــك[٣]

ومن أشعار العلماء في الغزو المغولي الأول، ما قاله أبو شامة في سقوط بغداد:

ثم أخـــذ التتـــــار بغداد فـــي أول ... عـــام من بـــعـــد ذاك بـــعـــــام

لم يعـــن أهلها وللكفـــــر أعوان ... عليهم يا ضيـــعة الإســــــلام

وانقضـــت دولـــــة الخلافة فيـــها ... صـــار مستعصـــــم بغير اعتصـــام

رب سلم وصـــن وعاف بقايـــــا ... المـــدن يـــا ذا الجلال والإكـــرام

فحنانا على الحجـــاز ومصـــــر ... وسلام على بـــــلاد الشــــــام[٤]

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٨.

(٢) هو محمد أو محمود بن أحمد الكوفي، ولد سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م)، كان عالما، شاعرا، أديبا، خطب في جامع السلطان، ودرس في المدرسة التتشية، توفي سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٦م). مجهول، الحوادث، ص٣٩٠؛ الكتبي، فوات، ج٤، ص٢.

(٣) مجهول، الحوادث، ص٣٦٣.

(٤) أبو شامة، الذيل، ص١٩٤.

يبين أبو شامة في هذه الأبيات ألمه وتحسره على واقع المسلمين؛ حين لم يمدوا يد العون لأهـل بغداد؛ ليدفعوا عنهم البلاء، في مقابل أن المغول وجدوا من أحلافهم كل العون والمساعدة، ويظهـر فيها كذلك الخوف من امتداد الغزو المغولي إلى بلاد الشام والحجاز ومصر، ولا ينس الشيخ أن يتوجه بالدعاء إلى الله أن يحفظ البلاد من هذا الشر الداهم[١].

ومن العلماء الذين سجلوا بشعرهم بعض مآسي بلاد المسلمين من جراء الغزو المغولي، ابن العديم، الذي رثى سقوط حلب بأيدي المغول سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، في قصيدة من خمسة وثلاثين بيتا، فقال فيها مبينا شيئا مما فعلوه بالمدينة:

وعن حلب ما شئت قل من عجائب ... أحل بها يا صاح إن كنت تعلم
غداة أتاها للمنية بغتة ... من المغل جيش كالسحاب عرمرم
فيا لك من يوم شديد لغامه ... وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم[٢]

وفي مقابل الرثاء، امتدح العلماء المسلمون انتصارات المسلمين على المغول في المعارك التي دارت بين الطرفين، فالشيخ محي الدين بن عبد الظاهر امتدح انتصار المسلمين في معركة البيرة سنة (٦٧١هـ/١٢٧٢م) واصفا المغول بالشرك، فقال:

تجمع جيش الشرك من كل فرقة ... وظنوا بأنا لا نطيق لهم غَلَبا

ثم قال:

وجاءوا إلى شاطئ الفرات وما دروا ... بأن جياد الخيل تقطعها وثبا
وجاءت جنود الله في العُدد التي ... تميس بهاالأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد سباحة ... إليهم فما اسطاع العدو له نقبا[١]

نقبا[١]

---

(١) جرار، مأمون فريز، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٥٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: جرار، أصداء.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٢٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص٣٤١-٣٤٢.

وقال الشاعر ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني[٢]، في معركة البيرة وكان مشتركا فيها:

ولما تـــرامينا الفــرات بخيلنـــــا سكناه منا بالقـــــوى والقوائـــــم

فأوقـــفت التيـــار عن جـــــريانه إلى حيث عـــدنا بالغنى والغنائـــم[٣]

وقال العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود[٤] قصيدة يمتدح فيها بيبرس:

سر حيث شئت لك المهيمـــن جـــــار واحكم فطوع مـــرادك الأقـــــــدار

لم يبـــق للدين الـــــــذي أظهـــرته يـــا ركنـــه عند الأعادي ثـــــــار[٥]

وبعد انتصار المسلمين على المغول في معركة الأبلستين سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٦م)، قـــال الشـــيخ شهاب الدين محمود قصيدة وصف فيها المغول بالكفر وأنهم أعوان للشيطان الذي أحزنـــه مـــا آل بأوليائه فقال في مطلع قصيدته:

كذا فلتكن في الله تمضي العزائـــــم وإلا فـــلا تجفو الجفـــون الصــــوارم

ومما قاله فيها أيضا:

فلا زلت منصور اللواء مؤيـــــــدا على الكفر ما ناحت وأبكت حمـــائم[٦]

---

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٥٤؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٢٠٩.

(١) الشيخ ناصر الدين الحسن بن شاور بن النقيب الكناني الملقب بالفقيسي، كان ذكيا ماهرا بارعا في النظم والنثر، من أعيان الشعراء في الديار المصرية، توفي سنة (٦٨٧هـ/١٢٨٨م). الذهبي، تـــاريخ، ج٥١، ص ص٢٩٩-٣٠٢؛ الكتبي، فوات، ج١، ص٣٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٣١٧-٣١٨.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص٤٤؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٧١هـ)؛ ابن تغري بردي، النجـــوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٤.

(٣) العلامة أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي، ولد بدمشق سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، كان كاتبا بليغا، من تصانيفه: " حسن التوسل في صناعة الترسل ". الكتبي، فوات، ج٤، ص٨٢.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٧.

(٥) اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص١٧٨؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص ص٢١٦-٢١٧؛ ابن تغري بردي، النجـــوم الزاهرة، ج٧، ص١٥٣.

كما أحدث انتصار المسلمين على المغول في معركة حمص سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) ابتهاجا في نفوس أهل الإسلام خاصتهم وعامتهم، وكان الشعر أحد وسائل التعبير عن ذلك الابتهاج، وقد حرص العلماء على تخليد ذلك النصر من خلال أشعارهم التي نظموها.

ومما نظمه العلماء في وقعة حمص، قصيدة للقاضي ناصر الدين حسن بن النقيب ابتهج فيها بالنصر العظيم[١]، قال في مطلعها:

هي النعمة العظمى هي النصرة الكبرى	هي اللفظ والمعنى هي البشر والبشرى
هي المطلب الأسنى هي المنحة التي	قد شرفت قدرا وقد عظمت ذكرا
هي الوقعة الصماء والحطمة التي	بها انكسر الكفر الذي لم يجد جبرا
هي الفتك بالأعداء والظفر الذي	شفى الصدر من أبغا وقد أثلج الصدرا[٢]

الصدرا[٢]

كما كشف القاضي عن العلاقات التآمرية بين المغول والأرمن، داعيا أهل الإسلام للانتقام من الأرمن، فقال:

أغركم من صاحب السيس قوله	فكم غر بالقول المحال وكم أغرى
وقد وعدته الترك أن ستزوره	ولو أن أرض السيس مفروشة جمرا
وأنتم فأدرى بالوعود وصدقهم	فما أخلفوا قولا ولا اختلقوا عذرا[٣]

ولا يسع الشيخ أن يخفي شماتته بالمغول بعد هزيمتهم في تلك الموقعة فيقول:

---

(١) ينظر القصيدة كاملة: الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص ص٢١٢-٢١٥؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ص٢٨٦-٢٨٨.

(٢) الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص٢١٢؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٨٠هـ)؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٨٦.

(٣) الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص٢١٤؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٨٨.

فمن مبلغ تحت التـــراب هـــــلاونا   وقائع ترك تقطع القلب والظـــهرا[١]

فهو يعتبر الكسرة على جيش منكو تمر كسرة على جيش هولاكو، فكانت بمثابة الثأر علـى مـا فعله هذا الأخير ببغداد وبلاد الشام.

ونظم القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر[٢] أبياتا في انتصار المسلمين على المغول فـي وقعـة حمص، يمتدح فيها المنصور قلاوون، ويشير إلى أهمية هذا النصر، ومما قاله القاضي فتح الدين:

الله أعـــطاك لا زيــد ولا عمــرو   هـــذا العطاء وهـــذا الفتح والنصــر

هذا المقـــام الذي لو لم تحـــل به   لم يـــبق والله لا شـــام ولا مصـــر

من ذا الذي كان يلقى ذا العدو كـــذا   أو يـــدرع لأمـــة ما لامهـــا الصبـــر

يا أيـــها الملك المنصـــور قد كسرت   جنودك المغـــل كســـرا ماله جبـــر

واستأصلوا شأفة الأعـــداء وانتصـــروا   لمـــا ثـــبتَّ وزال الخوف والذعـــر

لـــما بغـــا جيش أبغا في تجـــاسره   ولـــم يمـــد له إلا الـــقنا جـــســـر[٣]

وأشار القاضي فتح الدين إلى التحالفات المغولية الأرمينية الفرنجية ضد أهل الإسلام، فقال:

وأجمـــع المغل والنكفور واتفقـــوا   مـــع الفرنج ومن أردى به الكـــفر[٤]

---

(٤) الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص٢١٤.

(١) هو الصاحب أبو عبد الله محمد بن محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كاتب السر في الدولة المنصورية، ولد سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، ساد في الدولة المنصورية بعقله ورأيه وهمته، توفي سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م). الصفدي، الوافي، ج٣، ص ص٢٩٠-٢٩٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٥٦٦.

(٢) العسقلاني، الفضل المأثور، ص ص٨٢-٨٣؛ الصفدي، الوافي، ج٣، ص٢٩١.

(٣) العسقلاني، الفضل المأثور، ص٨٣؛ الصفدي، الوافي، ج٣، ص٢٩٢.

ولما تمكن الأشرف خليل من فتح عكا سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م)، اهتبل العلامة شهاب الدين محمود هذا الموقف، ودعا السلطان الأشرف إلى مبادرة المغول وغزوهم في عقر دارهم، قائلا له:

من كان مبدؤه عكا وصور معـــا فالصين أدنى إلى كفــيه من حلـــب[١]

حلـــب[١]

(١) الكتبي، فوات، ج١، ص٤١٣.

المبحث الثالث

المواقف العسكرية لعلماء العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الأول

برزت في الغزو المغولي الأول عدة مواقف للعلماء المسلمين في العراق وبـــلاد الشـــام يمكـــن تصنيفها ضمن المواقف العسكرية. ومن بين هذه المواقف:

أولا: المشاركة في القتال

حرص العلماء على المشاركة بالنفس في مواجهة أعدائهم المغول، ومما يذكر في هذا الجانب:

١- خروج العلماء والوعاظ مع الجيش الإسلامي لقتال المغول بعين جالوت

فقد خرج عدد من أهل العلم مع العسكر الإسلامي المتوجه لقتال المغول بعـــين جـــالوت، حيـــث أخذوا يلهبون حماسة الجند ويحرضونهم على الثبات والصدق في القتال وتوحيـــد الصـــف وطلـــب الشهادة، وهم يقرؤون عليهم آيات الجهاد والصبر، ويوردون لهم الأحاديث النبوية التي ترفع الروح المعنوية للمقاتلين وتثير حمية الإسلام في نفوسهم؛ مما دفع المقاتلين لاستحضار نية الجهـــاد طلبـــا للنصر أو الشهادة(١)، وممن شارك في وقعة عين جالوت من العلماء أيضا، الخطيب أصيل الـــدين محمد بن إبراهيم العوفي(٢)(٣).

٢- مشاركة العلماء في قتال المغول مع الخليفة العباسي

بعد أن بويع الخليفة العباسي المستنصر بالخلافة في مصر، خرج إلـــى العـــراق فـــي محاولـــة لاسترجاع كرسي الخلافة ببغداد وذلك سنة (٦٥٩هـــ/١٢٦١م)، فاصطدم بفرقة من المغـــول فـــي

---

(١) عاشور، الجهاد الإسلامي، ص١١١.

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن عمر العوفي، تولى خطابة الجامع بدمشق عدة مرات، وانتقل إلى القاهرة وخطب هناك في مسجد الصالح طلائع بن زريك، وناب في الحكم عن القاضي السنجاري، تـــوفي ســـنة (٦٦٨هــــ/١٢٦٩م). الصفدي، الوافي، ج٢، ص٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٥.

الفلوجة[١]، ودارت بين الطرفين معركة قتل فيها الخليفة، وقتل معه من العلماء الشيخ كمال الدين عبد اللطيف بن محمد السنجاري مدرس المدرسة البلخية بدمشق[٢]، والشيخ شرف الدين محمد بن علي بن أبي جرادة[٣].

٣- مشاركة العلماء في الحملات العسكرية زمن السلطان الظاهر بيبرس

كان السلطان بيبرس حريصا على إخراج طائفة من أهل العلم في حملاته العسكرية ضد المغول، فعندما خرج سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) لملاقاة المغول ببلاد الروم، اصطحب معه غالب كتاب الإنشاء، والقاضي الأجل عز الدين بن شكر حيث فوض إليه النظر في ديوان الجيش، والقاضي شمس الدين الأرمني حيث جعله شاهدا في الديوان[٤]، وشارك أيضا ابن عبد الظاهر صاحب " الروض الزاهر "[٥].

٤- مشاركة العلماء في موقعة حمص سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)

شارك عدد من العلماء في موقعة حمص بين المسلمين والمغول، حيث حضر شيخ الإسلام عبدالله بن محمد بن عبد الله اليونيني[٦] مصاف حمص، وقاتل قتالا شديدا حتى استشهد[٧].

---

(١) الفلوجة: مدينة تقع إلى الغرب من بغداد على نهر دجلة، وتتبع محافظة الأنبار. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٢٧٥؛ الذيب، معجم، ص٢٥٣.

(٢) أبو شامة، الذيل، ص٢٠٥؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق١، ص٢٠٢ و ص٢٠٦؛ اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٥٠٠؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٦٩ و ص٣٩٢.

(٣) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٩٨؛ المقريزي، المقفى، ج٦، ص٢٧٣.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص١٧٠.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٤٥٣.

(٦) الشيخ عبدالله بن محمد بن عبد الله اليونيني أسد الشام، ولد سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، كان رجلا كثير التعبد، سليم الصدر، متواضعا خيرا كريم الأخلاق. البرزالي، المقتفي، ج١، ص٥٢٣.

(٧) اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص ص١١١- ١١٢؛ البرزالي، المقتفي، ج١، ص٥٢٣.

كما شارك الفقيه محمد بن أحمد بن مكتوم[١] في وقعة حمص، واستشهد في الوقعة[٢]، واليونيني صاحب كتاب " ذيل مرآة الزمان "، إذ يقول عن نفسه: " فلما كان المصاف ظاهر حمص ... توجهت لحضوره "[٣]، و كاتب السر شافع بن علي، وقد أصيب بسهم في صدغه عمي على أثره[٤]، والقاضي شمس الدين بن قريش كاتب الدَّرْج[٥]، حيث استشهد في الوقعة وقد نيف على السبعين سنة[٦]، والقاضي يحي الكردي[٧]، حيث قتل في المعركة وقد نيف على الستين سنة[٨]، والصفدي صاحب " الوافي "، ويبدو ذلك من قوله عن البعلبكي السابق ذكره: " فلما كانت وقعة حمص توجه معي واستشهد "[٩].

ومن المواقف التي تحسب للعلماء تجاه الغزو المغولي الأول، والتي يمكن عدها ضمن مواقف المشاركة العسكرية، قيام القاضي جمال الدين بن العجمية بقتل منكو تمر قائد المغول في معركة حمص. فبعد الوقعة التي انكسر فيها المغول رجع منكو تمر إلى أبغا الخان المغولي وكان نازلا بالرحبة، فغضب عليه أبغا؛ مما دفعه إلى التوجه إلى بلاد الجزيرة حيث كانت أمه تقيم هناك، فلما علم به القاضي جمال الدين حرص على التخلص منه، فسقاه سما مات على أثره، فلما علم بذلك

---

(١) الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد البعلبكي ويعرف بأبي الحسن، كان فاضلا مشاركا في علوم كثيرة، حفظ القرآن، اشتغل بالفقه على مذهب الإمام الشافعي، وحفظ التنبيه والمقامات. اليونيني، ذيل مرآة، ج٣، ص١٢١؛ المقتفي، البرزالي، ج١، ص٥٢٤.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص١٢١؛ البرزالي، المقتفي، ج١، ص٥٢٤؛ الصفدي، الوافي، ج٢، ص ص٩١-٩٢.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص١٢١.

(٤) الكتبي، فوات، ج١، ص٤٧٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٣٥.

(٥) كاتب الدرج: هو الذي يكتب الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن الأبواب الشريفة، وفي العهد المملوكي كان يطلق على رئيس الكتبة في ديوان الإنشاء. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠؛ حلاق، المعجم الجامع، ص١٨٥.

(٦) اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص ص١٣٣-١٣٤؛ البرزالي، المقتفي، ج١، ص ص٥٢٤-٥٢٥؛ الذهبي، تاريخ، ج٥١، ص٣٧٧؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٦.

(٧) الشيخ أبو زكريا تاج الدين يحي بن محمد الكردي الشافعي، كان فقيها فاضلا دينا، باشر القضاء في بلاطنس وحمص وبعلبك، وناب في القضاء بدمشق مدة، ثم ولي قضاء حلب. اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص١٣٣؛ الذهبي، تاريخ، ج٥٠، ص ص٣٧٦-٣٧٧.

(٨) اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص١٣٣؛ البرزالي، المقتفي، ج١، ص٥٢٤.

(٩) الصفدي، الوافي، ج٢، ص٩٢.

ضامن الجزيرة ابن القرقوي عرف والدته بذلك؛ فما كان منها إلا أن قبضت على القاضي وجميع أولاده وذبحتهم جميعا بيدها وأخذت جميع مالهم، ثم قدر الله أن قتل المغول ابن القرقوي وجميع أهله وأولاده[١].

ثانيا: الوقوع في الأسر

تعرض بعض العلماء للوقوع في أسر المغول إما في أثناء القتال، أو في أثناء دخول العدو للمدن الإسلامية.

ومن أمثلة العلماء الذين وقعوا في أسر المغول في فترة الغزو الأول:

- الزاهد الفقيه جلال الدين عبد الجبار بن نصر[٢]، حيث أسره المغول في وقعة بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، ثم اشتراه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فحمله إلى الموصل ثم رده إلى بغداد[٣].
- أسر المغول في وقعة حلب الشرف عبد الرحيم بن محمد بن العجمي[٤]، وبعد خمسين سنة رجع إلى حلب؛ وعرف بعدها بالتتري[٥].

ثالثا: التعرض للتعذيب والقتل نتيجة لمعارضة الغزو

بعد أن تمكن المغول من السيطرة على البلدان الإسلامية في العراق وبلاد الشام، استهدفوا علماء هذه البلدان بالتعذيب والقتل نتيجة لمعارضة الغزو، وفقدت الأمة بسبب ذلك ثلة من خيار علمائها.

---

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص٢٤٨.

(٢) هو عبد الجبار بن عبد الخالق بن نصر الحنبلي، الزاهد، الفقيه، المفسر، الأصولي، الواعظ، ولد سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م) ببغداد، وتوفي سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م). ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٦٥٢.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٦٥٢.

(٤) هو الشرف عبد الرحيم بن محمد بن الشيخ العجمي، ولد سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) حدَّث، وكان منقطعا عن الناس، مات بحلب سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م). الذهبي، العبر، ج٤، ص٥١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص١٥٦ وص٤٠٦.

(٥) الذهبي، العبر، ج٤، ص٥٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص ص١٥٥-١٥٦.

فبعد دخول المغول بغداد قتلوا عددا كبيرا من علمائها، وممن ذكرت المصادر استشـــهادهم علـــى أيدي المغول في وقعة بغداد:

- أستاذ دار الخلافة الصاحب محي الدين يوسف بن الجوزي[١]، وقتل معه أولاده الثلاثـــة جمال الدين، وشرف الدين ، وتاج الدين المحتسب [٢].
- العلامة يحيى بن يوسف الصرصري الضرير[٣]، فإنه لما دخل المغول بغداد، دعي إلى فرمان من هولاكو، فأبى أن يجيب إليه، وأعد في داره أحجارا، فحين دخل عليه جنـــود المغول رماهم بتلك الأحجار، فهشم منهم جماعة، فلما خلصوا إليه قتل بعكازه أحـــدهم، ثم قتلوه شهيدا، حيث قطعوه بالسوق قطعا[٤].
- شيخ الشيوخ ببغداد علي بن النيَّار[٥]، فقد ذبحه المغول بدار الخلافة كما تذبح الشاة[٦]. الشاة[٦].
- الشيخ العابد الزاهد علي الخباز[٧]، قتله المغول وألقي على مزبلة بباب زاويته ثلاثة أيام أيام حتى أكلت الكلاب من لحمه[٨].

---

(١) الشيخ يوسف بن الجوزي مر التعريف بـــه ص٦٣، وأولاده الثلاثـــة هـــم: جمـــال الـــدين عبـــدالرحمن، ولـــد ســـنة (٦٠٦هـــ/١٢٠٩م)، تولى الحسبة والوعظ بعد انتقال والده للاستادارية، وعظ وحدث وكان من كبراء بغداد وأعيانها. وشرف الدين عبدالله، ولي الحسبة أيضا ثم تركها تزهدا، وعمل بالتدريس. وتاج الدين عبدالكريم، ولي الحسبة لما تركهـــا أخـــوه، ودرس، وقتل ولم يبلغ العشرين عاما. الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٦٤-٢٦٥وص ص٣٠٦-٣٠٧؛ الصفدي، الـــوافي، ج١٨، ص٣١٠ و ج٢٩، ص ص١٠٤-١٠٥؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص١٨٤-١٨٥؛ ابن العماد، شذرات الـــذهب، ج٧، ص ص٤٩٥-٤٩٦.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٣٥٨؛ ؛ الذهبي، السير، ج٢٣؛ ص٣٢٣؛ الكتبي، فوات، ج٢، ص٦٦٠.

(٣) الشيخ العلامة الزاهد جمال الدين يحي بن يوسف يحي الصرصري، ولد سنة (٥٨٨هـــ/١١٩٢م)، صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق، سمع الحديث، وحفظ الفقه واللغة، نظم الكافي للموفق بن قدامة، ومختصر الخرقي. الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص ص٣٠٣-٣٠٤؛ الصفدي، الوافي، ج٢، ص ص٦١٨-٦١٩؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٤٩٣-٤٩٤.

(٤) الذهبي، السير، ج٢٣؛ ص٣٢٣؛ ابن شاكر، عيون، ج٢٠، ص١٤٤؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٨٥.

(٥) هو صدر الدين علي بن محمد بن الحسين بن النيار، لقن المستعصم بالله القرآن؛ فنال في خلافتـــه الحشـــمة، والجـــاه، والحرمة الزائدة، كان كثير المحاسن، كبير القدر، ندب للوزارة فأباها. الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٧٦-٢٧٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٣٧-٣٣٨.

(٦) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٧٦-٢٧٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص١٩١-١٩٢.

(٧) الشيخ الحنبلي الصوفي علي بن سليمان الخباز، كان عابدا، زاهدا، كبير القدر، له زاوية ومريدون. الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٨٢؛ ؛ الصفدي، الوافي، ج١٨، ص٢٢٢؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٩٢.

(٨) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٦ وص ٢٧٨؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٩٢.

- رئيس الشافعية ببغداد أبو المناقب محمود بن أحمد الزنجاني[١]، قتله المغول شهيدا[٢].
- المقرىء المحدث أبو منصور محمد بن علي بن الهني، استشهد على يد المغول[٣].
- القاضي برهان الدين القزويني[٤].
- القاضي إبراهيم النهرفصلي[٥].
- الخطيب عبدالله بن عباس الرشيدي[٦].
- شيخ التجويد علي بن الكتبي[٧].
- الشيخ عبد الرحمن بن رزين بن عبد الله الحوراني الحنبلي[٨].
- المحدث عمر بن دهمان[٩].
- التاجر الصدر العالم صدر الدين نبهان بن محمود بن عثمان بن نبهان الإربلي[١٠].
- المحدث حسين بن داود الواسطي[١١].
- المحدث تقي الدين عبد العزيز بن محمد القحيطي[١٢].
- الإمام شرف الدين محمد بن محمد بن الشيخ عبدالوهاب بن سكينة، قاتل المغول حتى قتلوه[١٣].

---

(١) العلامة شيخ الشافعية محمود بن أحمد الزنجاني، كان من بحور العلم، وولي قضاء العراق مدة، وصنف تفسيرا في القرآن، ومختصر الصحاح للجوهري. السبكي، الطبقات الكبرى، ج٨، ص٣٦٨؛ ابن كثير، طبقات، ج٢، ص٨٠٣.

(٢) الذهبي، السير، ج٢٣؛ ص٣٢٣؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٩٧.

(٣) الذهبي، السير، ج٢٣؛ ص ص ٣٤١-٣٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٢٣؛ ص٣٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٢٣، ص٣٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ج٢٣، ص٣٢٣.

(٧) المصدر نفسه، ج٢٣، ص٣٢٣.

(٨) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٢٦٣.

(٩) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٦.

(١٠) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٠٠.

(١١) المصدر نفسه، ج٤٨، ص ٣٦.

(١٢) المصدر نفسه ، ج٤٨، ص٢٦٨.

(١٣) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٢٩٥.

- الفقيه الإمام أبو الثناء محمود بن أحمد بن بختيار[١].
- القاضي برهان الدين التبريري[٢].
- القاضي برهان الدين فضلي[٣].
- المدرس صدر الدين أبو معشر الشافعي[٤].
- القاضي تقي الدين علي بن النعماني كاتب الجيش[٥].
- شيخ الأدب عبد القاهر بن محمد بن علي الفوطي كاتب ديوان العرض[٦].
- الأديب نحوي النظامية جمال الدين عبد الله بن خنقز[٧].
- العدل[٨] عبد الله بن عساكر البعقوبي[٩].
- العدل عبد الوهاب بن الصدر عبد الرحيم بن عبد الوهاب بن سكينة[١٠].
- العدل يحي بن سعد البردي[١١].
- العدل علي بن أبي البدر[١٢].
- العدل يحي بن سعد التبريزي شيخ رباط الخلاطية[١٣].
- القاضي برهان الدين التبريزي[١].

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٩٧-٢٩٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٠٩.
(٥) المصدر نفسه، ج ٤٨، ص٣١٠.
(٦) ابن الساعي، تاريخ، ص٣٨٢؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٦ وص٣١٠.
(٧) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٦.
(٨) العدل هو شاهد العدل ويقصد بالشهود العدول من يعينهم القاضي للشهادة، وتكون أمانتهم مشهودا بها في مفهوم العدالة، وهم وحدهم لهم الحق بأداء الشهادة وتزويد القاضي بالمواد التي يبني عليها قراره. شبارو، قاضي القضاة، ص١٩، حاشية رقم (١).
(٩)الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٦.
(١٠) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٦.
(١١) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٦.
(١٢) المصدر نفسه، تاريخ، ج٤٨، ص٣٧.
(١٣) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٠٩.

- المدرس صدر الدين أبو معشر الشافعي[٢].
- الشيخ عبد الله بن العباس الرشيدي خطيب جامع الخليفة[٣].
- المجود الكاتب شمس الدين علي بن يوسف الكتبي خازن كتب المستنصرية[٤].
- الشيخ جمال الدين الفرضي الناسخ[٥].
- الشيخ الجمال القزويني مشرف وقف المستنصرية[٦].
- نقيب مشهد الكاظم تقي الدين الموسوي[٧].
- شرف الدين محمد بن طاووس العلوي[٨].
- القاضي تقي الدين علي بن النعماني كاتب الجيش[٩].
- أبو علي محمد بن عبد الرحمن العكبري الكاتب[١٠].
- كمال الدين أبو الحسن بن علي بن عسكر البغدادي ناظر المستنصرية ثم عارض الجيوش[١١].

ومن العلماء الذين استشهدوا وفقدوا في وقعة حلب سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م):

- عماد الدين أبو بكر بن محمد بن الحسن الكوراني مدرس المدرسة الرواحية بحلب[١٢].
- محي الدين محمد بن الإمام شرف الدين عبدالرحمن المعروف بابن العجمي، مدرس المدرسة الشرفية بحلب[١].

---

(١٤) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٠٩.
(١) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٠٩.
(٢) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣١٠.
(٥) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣١٠.
(٦) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣١٠.
(٧) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣١٠.
(٨) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣١٠.
(٩) ابن الساعي، تاريخ (الضائع)، ص٣٨٦.
(١٠) ابن الساعي، تاريخ (الضائع)، ص٣٨٦؛ معروف، علماء المستنصرية، ج١، ص٧٨.
(١١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص١٠٥.

- افتخار الدين أبو المفاخر محمد بن يحي بن أبي جرادة المعروف بابن العـــديم، مـــدرس المدرسة المقدمية[٢].
- نجم الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن خشنام الهكاري المعروف بـــالحلبي، مـــدرس المدرسة الجاولية[٣].
- الفقيه الفرضي الشيخ مجد الدين أبو محمد الحسن بن أحمد بن هبة الله بن أمين الدولة، مدرس المدرسة الأسدية[٤].
- تقي الدين أحمد بن محمد بن عثمان البلخي، مدرس المدرسة الأتابكية[٥].
- الفقيه المحدث ابن الغنائم عبد الواحد بن عبد الصمد بن أبي جرادة بن العـــديم الحلبـــي المنعوت بالبدر[٦].
- أمين الدولة الحسن بن أحمد بن هبة الله الحلبي الحنفي الفقيه الفرضي المعـــروف بـــابن أمين الدولة[٧].
- الفقيه عمر بن عبد المنعم بن أمين الدولة الحلبي الحنفي[٨].
- الشيخ أبو الفتح بن أبي المكارم الطرسوسي[٩].
- الشيخ نجيب الدين أبو إسحاق إبراهيم بن خليل الدمشقي الأدمي[١٠].
- الفقيه أبو الفضل عماد الدين محمد بن حامد بن أبي العميد القزويني[١١].
- الشيخ شمس الدين أبو إسحاق إبراهيم بن هبة بن باطيس[١٢].

---

(١٢) المصدر نفسه، ج١، ق١، ص١٠٦.
(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص١١٦؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٦٨.
(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص١١٧؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٣٥٠.
(٣) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص ص٤٣٣-٤٣٤؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص١١٨.
(٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص١٢١.
(٥) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٤٣٢.
(٦) المصدر نفسه، ج١، ص ص٤٣٣-٤٣٤.
(٧) العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٧٥.
(٨) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٥.
(٩) الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص ص٣٣٤-٣٣٥.
(١٠) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٦٢.
(١١) المصدر نفسه، ج ٤٨، ص٣٣٥.

- الشيخ أبو الفضل جعفر بن حمَّود التنوخي الحلبي[١].
- الشيخ الصالح الزاهد علي بن فايد بن ماجد الخزرجي[٢].
- الشيخ أبو المعالي محمد بن محمد الطرسوسي الشافعي[٣].
- الفقيه الحنفي فخر الدين أبو الفضل يوسف بن الإمام أحمد الأنصاري الحلبي مدرس المدرسة الحدادية[٤].
- الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي[٥].
- الشيخ إبراهيم بن خليل الأدمي أحد شيوخ الرواية بدمشق[٦].
- القاضي أمين الدين مسلم بن منير[٧].
- أمين الدولة أبو العز بن تاج الدين إسحاق المعروف بابن الحموي[٨].
- الفقيه المسند محمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي قتله المغول بساوية من عمل نابلس[٩].

كما تعرض بعض العلماء للتعذيب من قبل غزاة المغول نتيجة لمعارضتهم للغزو، مثل:

- المفتي عبد الرحمن المعروف بابن العجمي[١٠]، أحد المفتين بدمشق، عذبه المغول لما

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص٣٣٩.
(٢) المصدر نفسه، ج ٤٨، ص٣٥١.
(٣) المصدر نفسه، ج٤٨، ص٣٦٨.
(٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص١١٥؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٣٧١-٣٧٢.
(٥) الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٩٢.
(٦) البرزالي، مشيخة قاضي القضاة ابن جماعة(٢ج)، تحقيق: موفق بن عبد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م ، ج١، ص١٠٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: البرزالي، مشيخة.
(٧) اليونيني، ذيل مرآة، ج٢، ص ص٤٣٥-٤٣٦؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٨، ص٦٩.
(٨) اليونيني، ذيل مرآة، ج٢، ص ص٤٣٥-٤٣٦.
(٩) اليونيني، ذيل مرآة، ج٢، ص٧٣؛ الذهبي، السير، ج٢٣، ص ص٣٤٢-٣٤٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٥١٠.
(١٠) الشيخ الإمام شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم، ولد سنة(٥٦٩هـ/١١٧٣م)، كان رئيسا محتشما، ومفتيا محترما، أنشأ المدرسة الشرفية بحلب، ووقف عليها أوقافا جليلة، توفي سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م). اليونيني، ذيل مرآة، ج٢، ص١٩؛ الذهبي، السير، ج٢٣، ص ص٣٤٨-٣٤٩؛ الصفدي، الوافي، ج١٨، ص٩٣.

دخلوا حلب بأن صبوا عليه الماء البارد؛ ليدفع لهم المال فتشنج، وأقام أياما ثم مات[١].

- المؤرخ أبو شامة، فإنهم لما دخلوا دمشق سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، قبض عليه نـائبهم إيل سبان، فأهانه وهدده بضرب رقبته، إلا أنه افتدى نفسه منهم بمبلغ كبير من المـال، وبعد مضي عشرة أيام، كسر المغول بعين جالوت، وعد أهل دمشق ذلك كرامة لأبـي شامة لما له من محبة عندهم[٢].
- الشيخ علي بن الحسن بن الجابي خطيب جامع الجراح، أخذ المغول ثيابه وفرسه، كمـا أخذوا عنه ثلاثمائة دينار ذهب وعذبوه، ثم هرب عنهم[٣].
- قاضي حلب كمال الدين أحمد بن قاضي القضاة عبدالله المعـروف بـابن الأسـتاذ[٤]، أصيب في أهله وماله سنة عندما دخل المغول حلب سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)[٥].

وفي سنة (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) هاجم المغول الموصل، وتمكنوا من تملكها، وكان ممن قتل فيهـا الصدر العالم محي الدين أبو المحاسن يوسف بن سلامة الهاشمي المعروف بـابن زبـلاق كاتـب الإنشاء بالموصل[٦].

وبعد هذا السرد الذي مر بيانه لجملة العلماء الذين آذاهم المغول أو قتلـوهم أثنـاء غـزوهم الأول للعراق وبلاد الشام يرد تساؤل وهو: ألا يمكن أن يعطي ذلك دلالات معينة تتعلق بموقـف العلمـاء من الغزو المغولي؟!

---

(١) الكتبي، عيون، ج٢٠، ص٢٣٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٣٦١؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٧٤.

(٢) أبو شامة، الذيل، ص٢٠٩.

(٣) الصفدي، الوافي، ج٢٠، ص١٢٩.

(٤) كمال الدين أحمد بن عبدالله الأسدي الشافعي، ولد سنة (٦١١هـ/١٢١٤م)، برع في العلوم والحديث، وأفتـى ودرس، ولي قضاء حلب في الدولتين النورية والصلاحية، وكان صدرا معظما، وافر الحرمة، مجموع الفضـائل، توفي سنة(٦٦٢هـ/١٢٦٣م). الكتبي، عيون، ج٢٠، ص ص٢٩٦-٢٩٧؛ ابن العماد: شذرات الـذهب، ج٧، ص ص٥٣٤-٥٣٥.

(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٣٤-٥٣٥.

(٦) اليونيني، ذيل مرآة، ج٢، ص٤٤٠؛ الصفدي، الوافي، ج٢٩، ص ص١٦٨-١٧١؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٦٠هـ).

لا ريب أن هذا الأمر له دلالات مهمة منها:

- التأكيد على الموقف الإيجابي للعلماء تجاه الغزو المغـولي الأول والـذي يتمثـل فـي إنكارهم للغزو، والعمل على مقاومته، ورفض التعاون معه؛ مما أدى إلى إيذائهم ومقتل الكثير منهم على يد العدو، وقد كان ذلك جزاء كل من حاول مقاومتهم أو عمـل لغيـر صالحهم.
- عدم التسليم بما جاء في ياسا المغول من التأكيد على التسامح الديني[١]، واحترام العلـم والعلماء[٢]؛ إذ إن ما فعله المغول بالعلم وأهله وموارده ومحاضنه أثناء احتلالهم للـبلاد الإسلامية يجعل من نقد تلك المادة في القانون المغولي أمرا لازما، ويحتم على دارسـي التاريخ المغولي التنبيه على التباين بين النظرية والتطبيق في ذلك القانون.

---

(١) نقل المقريزي نص الياسا في ذلك بقوله: " وشرط – أي جنكيز خان – تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى... وألزمهم ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب ". المقريزي، الخطط، ج٣، ص٨٤؛ ينظر أيضا: الجويني، تاريخ، ج١، ص٥٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣١٢.

(٢) نصت الياسا على أن لا يكون على أحد من الفقراء – الصوفية – ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا مـن عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة. المقريزي، الخطـط، ج٣، ص٨٣؛ ينظر أيضا: الجويني، تاريخ، ج١، ص٥٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣١١.

المبحث الرابع

موقف علماء العراق من السيطرة المغولية على بلادهم بعد الغزو الأول

من المواقف المعبرة التي برزت تجاه الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام موقف علماء العراق الذين يعيشون تحت مظلة الحكم الإيلخاني هناك، حيث ظهرت من بعض أولئك العلماء مواقف يمكن أن يستشف منها إنكارهم لذلك الغزو، ومن تلك المواقف:

- قيام العدل نجم الدين يحي بن عبد العزيز الناسخ بمكاتبة ملوك المماليك بالشام سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، فقُبِض عليه فاعترف بذلك فكان جزاؤه القتل(١).

ومع أن المصادر لم توضح حيثيات هذه المكاتبة، إلا أن هذه الحيثيات تتضح من خلال نتائجها التي أدت إلى قتل صاحبها، بما يدل على أن هذه المكاتبة كانت من النوع السياسي الذي خلاصته إنكار الاحتلال المغولي للعراق وإنكار غزوهم لبلاد الشام.

ويعلق المؤرخ العراقي مصطفى جواد على هذا الموقف بقوله: " فهذا رجل بغدادي حنبلي المذهب قتل على مكاتبة ملوك الشام ... والظاهر أن الحنابلة كان لهم الجهد المشكور وأن منهم الضحايا الكريمة في ذلك المنحى السياسي الخطير "(٢).

وما ورد في آخر كلامه السابق يؤيد ما ذهب إليه الباحث من أن مكاتبة الشيخ العدل نجم الدين كانت في سياق إنكار الوجود المغولي بالعراق.

- من المواقف التي يمكن الاستدلال من خلالها على معارضة علماء العراق للغزو المغولي الأول ما قام به خطيب بغداد من الدعاء لعساكر المسلمين بالنصر وذلك عندما كان المغول يحاصرون البيرة سنة (٦٧١هـ/١٢٧٢م).

---

(١) مجهول، الحوادث، ص٤٠٢؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٩، ص٢٩٨.

(٢) مجهول، الحوادث، ص ص٤٠٢-٤٠٣، حاشية رقم (٥).

فلما بلغ ذلك أبغا غضب غضبا شديدا، وطلب الخطيب فاستفسر عن سبب ذلك فقال له الخطيب: " لأننا نحن المسلمون وأنتم عساكرنا "، فأعجب ذلك أبغا وقال له: " افعل ما تختار "[١].

والذي يبدو أن الخطيب ورَّى في إجابته لأبغا ليتقي سخطه؛ لأنه من المعلوم أن عساكر المسلمين في جملتها ليست في صفوف المغول، إذ إن غالبهم من الوثنيين، ومن هنا فإن هذا الموقف يمكن أن يعكس تعاطف أهل بغداد مع إخوانهم أهل الشام ومصر، وكراهيتهم للحكم المغولي لبلادهم.

ومن الإشارات التي يمكن الاستئناس بها لتأكيد كراهية مسلمي العراق لحكم المغول لهم وتعاطفهم مع أهل الشام، أن المغول أثناء حصارهم للبيرة في السنة المذكورة كان عندهم منجنيقي مسلم، وكان منجنيقي أهل البيرة قليل الخبرة باستخدام المنجنيق، فتقدم المنجنيقي الذي مع المغول إلى سور قلعة البيرة وقال لأهل البيرة: " قولوا للمنجينقي الذي عندكم، لو قطع الله من ذراعيه طول شبر استراح المسلمون منه "، ففهم المنجنيقي الذي بالبيرة ما أراد فقطع من سهم منجنيقه طول شبر واحد ورمى فكسر منجنيق المغول[٢].

- من المواقف التي قام بها المسلمون - ومن بينهم العلماء - أثناء الحكم المغولي للعراق القيام بالمحافظة على ثقافة وهوية الدولة الإسلامية.

ومن ذلك مثلا أن المسلمين في العراق على عهد أرغون شعروا بمعاداة الوزير اليهودي سعد الدولة لهم ومحاولته القضاء على الإسلام من خلال تشكيك المسلمين في دينهم، وبث فكرة عبادة الفرد بينهم وذلك عندما زين لأرغون فكرة نبوة جنكيز خان، وأن أرغون وارثه في هذه النبوة، الأمر الذي يلزم الناس بطاعة أوامره بل وبعبادته كذلك، وبرر هذا العمل بأنه ضروري لفصل المسلمين عن إخوانهم في خارج البلاد وتوجيههم نحو الإخلاص للإيلخانية[٣].

---

(١) الخزنداري، مجموع النوادر، ص١٥٨.

(٢) الخزنداري، مجموع النوادر، ص ص١٥٨-١٥٩؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص١٢٥.

(٣) القزاز، العراق في العهد المغولي، ص ص٢٨٩-٢٩٠.

فتنبه المسلمون لذلك وتصدوا له تارة بالإضرابات والمظاهرات ومهاجمة أهـل الذمـة، وتـارة بالتأليف والرد عليهم، فكان لذلك اكبر الأثر في كف الوزير اليهودي عن أفعالـه وتوقـف أمـراء المغول عن التعاون معه[١].

ولا شك أن أمر التصدي لمثل هذه الشبهة العظيمة وكشفها ودحضها بالمنطق العلمي من خـلال التأليف والكتابة سيكون من قبل العلماء الذين سيساهم موقفهم هذا - دون مرية - فـي المحافظـة على هوية وأصالة المسلمين في مجتمعهم.

والتبرير الذي برر به سعد الدولة عمله لفصل المسلمين في العراق عن إخوانهم في خارج البلاد يؤيد ما ذهب إليه الباحث من أن أهل العراق – بما فيهم العلماء – كانوا كارهين للحكـم المغـولي للعراق، ومن هنا حرص سعد الدولة على فصل المسلمين في العراق عن غيرهم من المسلمين فـي خارجها.

- حرص علماء العراق على الإصلاح بين سلاطين المسلمين في بلاد الشام والعراق.

بادر أحمد تكودار بعد توليه لمقاليد السلطة في دولة المغول الإيلخانيين سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، إلى إعلان إسلامه، وعمل على التقارب مع المماليك، فقام بإرسال الرسل إليهم.

وكان لأهل العلم دور في القيام بهذه السفارات؛ طمعا في إحداث الصلح بين الأطراف المسـلمة من ناحية ورغبة في تعميق الروح الإسلامية في نفوس المغول من ناحية أخرى.

فمن العلماء المسلمين الذين قاموا بالسفارة بين المماليك والمغول، الشيخ قطـب الـدين محمـود الشيرازي قاضي سيواس[٢] الذي أرسله الخان المغولي أحمد تكودار برسالة إلى السلطان المنصور

---

(١) القزاز، العراق في العهد المغولي، ص٢٩٠.

(٢) هو محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي الشافعي المتكلم، ولد بشيراز سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، تتلمذ علـى نصير الدين الطوسي في العقليات، كان من أذكياء العصر، وله مكانة عند غازان، ولع معـه شـفاعات كثيـرة. الصفدي، الوافي، ج٢٥، ص ص٢٠١-٢٠٢.

قلاوون سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) يعلمه فيها بإسلامه وتتضمن الرغبة في المصالحة وحقن الدماء، إلا أن هذه المصالحة لم تتم بينهما[١].

وفي السنة التالية أرسل السلطان أحمد الشيخ كمال الدين عبدالرحمن[٢] الذي وصفه السلطان تكودار بأنه " شيخ الإسلام قدوة العارفين "، وهو كالعنوان والمشير له في دولته وكان بصحبته أقضى القضاة قطب الدين الشيرازي والأتابك بهاء الدين[٣].

وبعد وصول الشيخ وجماعته إلى السلطان قلاوون، جاءتهم الأخبار بمقتل أحمد تكودار، فما لبث الشيخ قطب الدين أن توفي بدمشق ودفن فيها[٤]. وأما الشيخ عبد الرحمن فظل معتقلا بقلعة دمشق حتى توفي في رمضان من سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)[٥].

والشيخ عبد الرحمن هذا كانت له مكانة عظيمة عند الخان المغولي أحمد تكودار، وقد عمل الشيخ على الاستفادة من مكانته هذه، فيما يعود بالنفع على الإسلام والمسلمين، فأشار عليه بأن يتصالح مع السلطان المملوكي المنصور قلاوون، فوافقه على ذلك وبدأ بمراسلة السلطان المملوكي للتحدث في أمور الصلح، إلا أن هذا الأمر لم يقدر له النجاح؛ بسبب مقتل أحمد تكودار، وتولي أرغون الوثني سلطة المغول[٦]. وقد كانت " مقاصد الشيخ عبد الرحمن جميلة، وظاهره وباطنه منصرف إلى نصرة الإسلام واجتماع الكلمة على أعداء الدين "[٧].

---

(١) العسقلاني، الفضل المأثور، ص ص٩٣-٩٤؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٤٩؛ مجهول، الحوادث، ص٤٦٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٠٧-٧٠٨.

(٢) مرت ترجمته ص٨٩، حاشية رقم (١).

(٣) الخزنداري، تاريخ النوادر، ص١٨٦؛ ابن العبري، تاريخ، ص٥٠٧؛ مجهول، الحوادث، ص٤٦٧؛ البرزالي، المقتفي، ج٢، ص٥٤.

(٤) العسقلاني، الفضل المأثور، ص ص١١٣-١١٧.

(٥) البرزالي، المقتفي، ج٢، ص٥٤؛ الذهبي، تاريخ، ج٥١، ص ص١٤٦-١٤٩؛ الصفدي، الوافي، ج١٨، ص ص١٨٨-١٩٠.

(٦) الصفدي، الوافي، ج١٨، ص ص١٨٨-١٨٩.

(٧) اليونيني، ذيل مرآة، ج٤، ص ص٢١٧-٢١٨؛ الصفدي، الوافي، ج١٨، ص١٨٩.

ومن العلماء الذين أرسلهم السلطان أحمد تكودار للسعي في أمر الصلح مـــع المماليــك، الأميــر الكبير العالم المحدث شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين الشيباني[١]، وبعد وصـــوله إلـــى القاهرة حبسه المنصور وظل في حبسه مدة سبع سنين حتى أخرجه الأشرف خليل قلاوون، ولمـــا تسلطن حسام الدين لاجين ولاه نيابة دار العدل[٢].

وعلى الرغم من أن تلك السفارات لم تحقق المقصود منها بسبب وفاة الســلطان أحمـــد إلا أنهـــا تكشف عن الدور الذي قام به العلماء للإصلاح بين المسلمين في العراق وبلاد الشام.

---

(١) الشيخ شمس الدين محمد الشيباني، ولد بمصر سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، كان رجلا فاضلا، وأميرا محترمـــا، خالط الملوك والدول، وله شعر جيد، ومعرفة باللغة والنحو والحديث، سمع منه ابن تيميـــة والمـــزي والبرزالـــي والذهبي، توفي سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م). البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢٧٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص٢١-٢٢.

(٢) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢٧٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص٢١-٢٢.

الفصل الثالث

موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الثاني

(٦٩٤-٨٠٣هـ/١٢٩٤-١٤٠١م)

المبحث الأول

المواقف السياسية لعلماء العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الثاني

أولا: السفارات والمراسلات

قام علماء العراق وبلاد الشام في فترة الغزو المغولي الثاني بعدة أدوار كسفراء ورسل بين طرفي الصراع المملوكي والمغولي من جانب، وبين الأمراء المسلمين المختلفين من جانب آخر.

ومن بين هذه الأدوار:

١- إرسال غازان سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) رسلا إلى الناصر قلاوون من أجل الصلح.

وخرج على رأس الوفد قاضي الموصل وخطيبها، كمال الدين موسى بن بهاء الدين يونس الشافعي[1]، ولما وصل إلى الديار المصرية طلب منه المماليك أن يبين لهم حقيقة نية غازان من هذا الصلح، فكان جواب الشيخ في غاية الحكمة، وفيه تقدير للمصلحة العامة بين الطرفين، دافعه في ذلك اهتمامه بحقن دماء المسلمين، فأقسم للمماليك أن غازان ما يريد إلا الصلح وتأمين التجار والمسافرين.

وكان مما قاله لهم ناصحا: " والمصلحة أنكم تتفقون، وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، ومن عادتكم في كل سنة أنكم تخرجون إلى أطراف بلادكم؛ لأجل حفظها، فتخرجون على

---

(١) الشيخ موسى بن يونس الشافعي، قاضي الموصل وخطيبها، كان فاضلا إماما علامة، توفي سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م). الصفدي، أعيان العصر، ج٥، ص٤٨٥.

عادتكم، فإن كان هذا الأمر خديعة؛ فيظهر لكم فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحا، فتكونون قريبا منهم؛ فينتظم الصلح، وتحقن الدماء فيما بينكم "[١].

وقد أحدث كلام الشيخ أحسن الأثر في نفوس المماليك، وأيقنوا إخلاص القاضي في مناصحته؛ فتشجعوا لمصالحة المغول حيث أرسل الناصر ردا جوابيا إيجابيا لغازان، حمله الأمير حسام الدين أزدمر والقاضي عماد الدين بن السكري[٢] خطيب جامع الحاكم والأمير شمس الدين محمد بن التيتي[٣].

وفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) أرسل غازان القاضي كمال الدين مرة أخرى ومعه القاضي نصر الدين التبريزي، فأعاد الناصر رسله الثلاثة السابقين بالجواب واجتمعوا بغازان؛ إلا أن وصولهم إليه وافق تجدد الصراع بين الطرفين المملوكي والمغولي فحبسهم غازان، وظلوا هناك حتى حكم خدا بنده فأعادهم إلى بلادهم[٤].

وفي سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م)، أرسل السلطان الناصر الشيخ صدر الدين المالكي رسولا إلى خدا بنده؛ للسعي في تحقيق ما يخدم مصالح الطرفين[٥].

وعلى الرغم من أن هذه السفارات بين المماليك والمغول لم تحقق الهدف المراد منها، إلا أنها تكشف عن تقدير دور العلماء كوسطاء للصلح بين الأطراف الإسلامية المتصارعة، كما تبين حرصهم على حقن دماء المسلمين، وحفظ أموالهم وأعراضهم من خلال حثهم للسلاطين المسلمين على التصالح مع بعضهم.

---

(١) الدوادار، التحفة الملوكية، ص١٦١؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٥٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٦٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ص١١٠-١١٣.

(٢) عماد الدين علي بن عبد العزيز بن السكري، ولد سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، اشتغل بالعلم، ودرس بمشهد الحسين، كان مشهورا بين رؤساء المصريين بالعقل والديانة، مات سنة (٧١٣هـ/١٣١٣م). الصفدي، الوافي، ج٢١، ص١٦٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٧٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٦٠.

(٣) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٦٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ص٩-١٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٩١٥-٩١٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١١٣

(٤) الهمذاني، جامع التواريخ(تاريخ غازان)، ص١٧٩؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٢٧.

(٥) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢٨٣.

٢- تفاوض الشيخ القاضي نجم الدين إسحاق مع خدا بنده أثناء محاصرته للرحبة.

في رمضان من سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م) حاصر المغول الرحبة بقيادة الخان المغولي محمد خدا بنده، واستمر حصارهم لها قرابة عشرين يوما، فأشار رشيد الدولة مشير دولة المغول إلى أهل القلعة أن يقدموا للسلطان خدا بنده هدية ويطلبوا منه العفو، فنزل القاضي نجم الدين إسحاق وفاوضه وأهدى له ما حمله له من هدايا فرجع إلى بلاده[(١)].

٣- إرسال الشيخ القاضي زين الدين علي العبايقي[(٢)] قاضي بغداد وتبريز إلى الشام.

بعد أن بدأت أخبار تيمور لنك ترد إلى العراق وبلاد الشام، أرسل جلال الدين حسين بن أويس الجلائري سلطان العراق وتبريز رسلا إلى الشام برئاسة القاضي زين الدين علي بن جلال الدين عبدالله العبايقي الشافعي، قاضي بغداد وتبريز، ومعه وزير السلطان الصاحب شرف الدين الواسطي وغيرهما[(٣)]. ولم يذكر ابن عربشاه سبب هذه السفارة، ولكنها - على ما يظهر - كانت من أجل التفاهم مع السلطان المملوكي حول ما يمكن فعله حيال خطر تيمور لنك القادم.

٤- إرسال الشيخ نور الدين الخراساني[(٤)] إلى تيمور لنك سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٣م)

عندما عزم تيمور لنك على مهاجمة بغداد سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٣م)، أرسل له السلطان أحمد بن أويس الشيخ نور الدين الخراساني من أجل ثنيه عن دخول بغداد، فلما وصل إليه - وكان بتبريز حيث سيطر عليها من الجلائريين - أكرمه تيمور وقال له: " أنا أتركها لأجلك ". وكانت هذه خدعة من تيمور، فكتب الشيخ إلى السلطان أحمد يبشره بذلك، في الوقت الذي كان تيمور قد سار من

---

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢٦٢؛ البرزالي، الوفيات، تعليق: عبدالله الكندري، غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٨٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: البرزالي، الوفيات، ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٩٩.

(٢) لم أعثر له على ترجمة في المصادر التي بين يدي.

(٣) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص١٢٣.

(٤) لم أعثر له على ترجمة في المصادر التي بين يدي.

ناحية أخرى صوب بغداد، فلم يشعر أحمد إلا وتيمور قد نزل بغداد من الجانب الغربي؛ فهرب إلـــى الشام[(١)].

والمرجح أن إصرار تيمورلنك على دخول بغداد ومخادعته للشيخ نور الدين، كان من أهم أسبابه مكاتبة أهل بغداد له يستحثونه على القدوم إلى بغداد؛ بسبب ما كان عليه سلطانهم من فســـاد وســـوء معاملة لهم[(٢)].

٥- سفارة الشيخ المناوي[(٣)] للإصلاح بين الأطراف المسلمة المتنازعة

بعد وفاة السلطان برقوق سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) تمت البيعة لابنه فرج بوصية منه، وفي أوائل سنة (٨٠٢هـ/١٤٠٠م)، أعلن تنم نائب الشام الخروج على السلطان فرج، فآل الأمر بينهمـــا إلـــى التصادم العسكري[(٤)].

وفي غمرة هذا الصراع كان للعلماء موقف في العمل على الإصلاح بين الطـــرفين مـــن أجـــل توحيد الصف الداخلي؛ استعدادا لمواجهة المغول الزاحفين نحو بلاد الشام، حيث أرســـل الســـلطان فرج قاضي القضاة صدر الدين المناوي؛ للتفاوض مع نائب الشام تنم من أجل الصلح بينهما، فكلـــم الشيخ صدر الدين تنم في الصلح، وأخذ يعظه ويحذره من الشقاق والخروج عن طاعـــة الســـلطان، فأظهر تنم الإجابة وبالغ في إكرام الشيخ ورده بالجميل[(٥)].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٧٨٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص١٥٧؛ ابن تغري بـــردي، النجـــوم الزاهرة، ج١٢، ص ص٣٩-٤٠.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص١٥٧.

(٣) قاضي القضاة الشيخ صدر الدين محمد بن إبراهيم السلمي المناوي، ولد سنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م)، نشأ في بيت علم، درس وأفتى، وكان مهابا، شهما، معظما عند الخاص والعام، توفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١هـ). ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٣٣-٢٣٥؛ ابن حجر؛ إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣١٥-٣١٦؛ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت٩٠٣هـ/١٤٩٧م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع(١٢ج)، صححه: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٦، ص٢٤٩؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: السخاوي، الضوء اللامع؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٥٥-٥٦.

(٤) ابن حجر؛ إنباء الغمر، ج٤، ص٢٦ و ص٩٧ و ص ص١١٥-١٢٣.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٠٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٦٤؛ ابن حجر؛ إنباء الغمر، ج٤، ص ص١١٧-١٢٣.

فرجع الشيخ القاضي إلى السلطان فأخبره بما دار بينهما، ثم وصل كتاب تنم إلى السلطان يبين فيه الاستمرار على الطاعة، إلا أنه اشترط شروطا، دفعت السلطان إلى إعلان مقاتلته، فالتقيا في معركة قرب غزة أسر فيها تنم، ثم قتل فيما بعد[١].

ثانيا: مناصحة الحكام والأمراء المسلمين

حرص العلماء في فترة الغزو المغولي الثاني على توجيه النصح لأهل السلطة في الدولة المملوكية بما يحقق المصلحة العامة للدولة من خلال التصدي للمغول ومواجهتهم العسكرية.

ومن أهم مواقف المناصحة التي برزت في هذه الفترة:

١- مناصحة شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] لنائب قلعة دمشق علم الدين أرجواش.

فقد نصح الشيخ نائب القلعة بعدم تسليم القلعة للمغول الذين استولوا على دمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، حيث أن شيخ الإسلام أرسل إلى نائب القلعة يحثه على عدم تسليمها، قائلا له: " لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم إن استطعت "[٣].

وقد كان في هذا الامتناع كما يقول ابن كثير " مصلحة لأهل الشام؛ فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل، الذي جعله الله حرزا لأهل الشام "؛ ذلك أن غازان لم يتمكن من فتح شيء من القلاع الشامية، بل امتنعت بجملتها، اقتداء بقلعة دمشق، وتمسك نواب القلاع بعدم تسليمها؛ واعتذروا أنهم لا يمكنهم ذلك إلا بعد تسليم قلعة دمشق، فسلمت قلاع الشام جميعها[٤].

وقد كان لوصية الشيخ ابن تيمية أثر في ثبات أرجواش، وعدم تسليمه لقلعة دمشق، ومن ثم ثبات بقية نواب قلاع البلاد الشامية التي غزاها المغول.

---

(١) ابن حجر؛ إنباء الغمر، ج٤، ص ص١١٧-١٢٣.

(٢) شيخ الإسلام الإمام العلامة الفقيه المجتهد الحافظ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، ولد بحران سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م)، برع في فنون مختلفة مثل: التفسير والحديث والاختلاف والأصلين، وكان رأسا في الكرم والشجاعة والعلم، مات معتقلا بقلعة دمشق سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م). الذهبي، ذيل العبر، ج٤، ص٨٤؛ الكتبي، فوات، ج١، ص ص١٢٤-١٢٩؛ الصفدي، الوافي، ج٧، ص ص١١-١٢.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ص٢٥٠-٢٥١؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢١.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ص٢٥٠-٢٥١؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢١.

٢- مناصحة العلماء لأهل السلطة إبان غزو غازان لبلاد الشام سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)

ظهرت للعلماء إبان غزوة غازان لبلاد الشام سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) عدة مواقف ناصحوا فيها السلاطين والأمراء، منها:

- مناصحة الشيخ علي بن مخلوف المالكي[١] لأهل السلطة في الديار المصرية

لما تواردت الأخبار بقدوم المغول لغزو الشام في السنة المذكورة؛ أمر السلطان الناصر قلاوون بأخذ الأموال من أرباب العقارات والأغنياء وشهود القاهرة ومصر والفلاحين؛ فلحق بهم ضرر عظيم؛ فتدخل قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي حتى أعفوا من ذلك[٢].

- مناصحة شيخ الإسلام ابن تيمية لأهل السلطة في الشام والديار المصرية

فقد خرج شيخ الإسلام في مستهل جمادى الأولى إلى نائب الشام - وكان معسكرا بالجيش في المرج[٣] - فثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، تاليا عليهم قول الله تعالى: "ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور"[٤]، وبات عند العسكر ليلة الأحد، وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر؛ يستحث السلطان على المجيء، فلبى طلبهم، وتوجه نحو مصر[٥].

وكان السلطان قلاوون قد خرج ووصل الساحل إلا أنه رجع، فلحقه الشيخ ابن تيمية وهو بالقاهرة، فاستحثه على تجهيز العساكر إلى الشام، وقال لهم فيما قال: " إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن ". وكان مما قاله للسلطان وأمرائه: " لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله، وجب عليكم النصر فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم، وأنتم مسئولون عنهم". وقوى جأشهم وحثهم على الجهاد،

---

(١) الشيخ أبو الحسن زين الدين علي بن مخلوف المالكي، تولى قضاء الديار المصرية مدة ثلاث وثلاثين سنة، كان فيه مروءة واحتمال ورفق بالفقهاء، وله دربة بالقضاء والأحكام الشرعية، توفي سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م). الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص ص١١٨-١١٩؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٨٩.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ص٢٥٦-٢٥٧؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٩٠٦-٩٠٧.

(٣) المرج: يقصد به مرج راهط، وهو موضع في الغوطة من دمشق. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٢١.

(٤) سورة الحج، آية ٦٠.

(٥) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص١٣٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٣٤.

مبينا لهم ثواب المجاهدين وما أعده الله لهم؛ فكان أثر ذلـك خـروج العساكر المصـرية لجهـاد المغول[١].

وتحمل نصيحة الشيخ رسالة قوية للسلطان، مفادها أن أهل الشام سيعلنون استقلالهم السياسي عن البلاد المصرية إذا لم تقم الدولة بواجبها في الدفاع عن بلادهم؛ مما يعطي تساؤلا مهما وهو: هـل الشيخ - وهو أحد العلماء الذين نظروا للفكر السياسي الإسلامي[٢] - يرى أن تخلي السـلطة عـن واجب الدفاع عن إقليم من أقاليمها في حال الاعتداء عليه، يعد أحد الأسباب التي تسـوغ الخـروج عن الطاعة؟

- خروج مجموعة من العلماء إلى نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم المخيم بالمرج

في إطار الاستعداد لمواجهة المغول عسكر نائب السلطنة بدمشق جمال الدين الأفـرم بالعسـكر الشامي في المرج، وفي تلك الأثناء حرص العلماء على أن يكون لهم دور يساهمون من خلاله فـي المشاركة في حركة الجهاد ضد المغول، ولذا فقد قام مجموعة من العلماء بالتوجه إلى نائب السلطنة المخيم بالمرج خارج دمشق؛ لتقوية عزمه وعزم الجيش المعسكر معه لمواجهـة المغـول، ومـن هؤلاء العلماء: الشيخ إبراهيم الرقي[٣]، والشيخ زين الدين الفارقي[٤]، والشيخ ابن قوام[٥]، والشـيخ

---

(١) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٣٤-٦٣٥؛ الكرمي، مرعي بن يوسف الحنبلي(١٠٣٣هـ/١٦٢٣م)، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلـف، دار الغـرب الإسـلامي، بيـروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٩٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الكرمي، الكواكب الدرية.

(٢) لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب في الفكر السياسي الإسلامي يحمل عنوان " السياسة الشرعية "، وهـو كتـاب مطبوع ومتداول.

(٣) الشيخ إبراهيم بن أحمد بن محمد، نزيل دمشق، ولد سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، كان إماما زاهدا عارفا قدوة سيد أهل زمانه، وله التصانيف الكثيرة، تلا بالروايات، وبرع في الفقه، توفي سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م). الصفدي، الوافي، ج٥، ص ص٢٠٦-٢٠٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص١٥-١٦.

(٤) الشيخ عبد الله بن مروان الفارقي الشافعي، ولد سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، خطيب دمشق وشـيخ دار الحـديث ومدرس الشامية البرانية، اشتغل وأفتى وتولى مشيخة دار الحديث بعد النووي. ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٣٤؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج١٠، ص ص٤٤-٤٥.

(٥) الشيخ محمد بن محمد بن عمر الدمشقي الصالحي المعروف بابن قوام، ولد سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م) كان خيرا فاضلا من بيت كبير، توفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٣٣٩؛ السخاوي، الضـوء اللامع، ج٩، ص ص٢٦٢-٢٦٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٦٢.

شرف الدين بن تيمية[١]، والشيخ ابن جبارة[٢]، وخرجوا أيضا للاجتماع بمهنا بـن عيسـى أميـر العرب المعسكر بضمير[٣]، فوجدوه قد رحل عنها فساروا خلفه حتى أدركوه بالبرية، فاجتمعوا بـه وقووا عزمه على الرجوع ومواجهة المغول مع نائب السلطنة، فأجابهم بالسمع والطاعـة، واسـتعد الجميع للقتال بنيات صادقة[٤].

ويلاحظ من الموقف السابق للعلماء وقبله موقف شيخ الإسلام ابن تيمية استشعارهم أهمية الـدعم المعنوي للعساكر المرابطة في سبيل حماية البلاد والعباد، وهو أمر دفعهم إلى التوجه نحو العسـاكر الإسلامية؛ لرفع معنوياتهم وتهيئة نفسياتهم وشحذ هممهم الإيمانية للتصدي لعدوهم المرتقب.

٣- كتب الشيخ ابن تيمية بعد رجوع المغول سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، كتابـا مطـولا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون موجها له فيه النصح من خلال إثارة كثيـر مـن القضايا المتعلقة بجهاد المغول، ومن أهم هذه القضايا:

- أثنى فيه على نعمة الله تعالى بصرف العدو المغولي عن بلاد الشام، مذكرا السلطان أنه بسبب ثبات قلوب المسلمين وعزمهم على الجهاد صرف الله عنهم العدو، كما بين له أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل وإن تباعدت الديار.[٥]
- حث الشيخ في كتابه هذا السلطان على المبادرة لجهاد المغول قبل مهاجمتهم للشام.

وقد بين في كتابه فضل أهل الشام، كما ذكر له حديثا في قتال المسلمين للترك أخرجـه الإمـام البخاري وغيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله r قال: " لا تقوم الساعة حتـى

---

(١) شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام أخو الشيخ أحمد بن تيمية، ولد سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، تفقه في المذهب الحنبلي حتى أفتى، وبرع أيضا في الفرائض والحساب والعربية، كان شجاعا مجاهدا عابدا ورعا، توفي سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٤٢؛ ابن العماد، شذرات، ج٨، ص ص١٣٦-١٣٧.

(٢) الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن جبارة الحنبلي الصالحي، ولد سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)، كان إماما بارعا فقيها نحويا، تفقه وشارك في الفضائل، وصنف شرحا كبيرا للشاطبية والرائية، وأقرأ بدمشق وحلب وبيت المقدس، توفي بالقدس سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م). الذهبي، ذيل تاريخ، ج٥٣، ص ص٣١٤-٣١٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص١٥١-١٥٢.

(٣) موضع قرب دمشق، وقيل هو قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٤٦٣.

(٤) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص١٣٦؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٣٥؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٣٠.

(٥) الكرمي، الكواكب الدرية، ص٩٥.

تقاتلوا الترك، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر "(١).

وفي رواية عند الإمام أحمد: " ... حتى يربطوا خيولهم بالنخل "، قال شارحه حمزة أحمد الزين: " والحديث في اعتقادي هو وصف للتتار؛ لأنه حدث أن ربطوا خيولهم بنخل العراق "(٢).

وقد تكلم الإمام ابن حجر في فتح الباري على هذا الحديث بعد أن جمع طرقه فقال: " ... ثم جاءت الطامة الكبرى بالططر – أي المغول – فكان خروج جنكيز خان بعد الستمائة، فأسعرت بهم الدنيا نارا خصوصا المشرق بأسره، حتى لم يبق بلد منه حتى دخله شرهم، ثم كان خراب بغداد وقتل الخليفة المستعصم على أيديهم سنة (٦٥٦هـ)، ثم لم تزل بقاياهم يخربون إلى أن كان آخرهم اللنك، فطرق الديار الشامية وعاث فيها، وحرق دمشق حتى صارت خاوية على عروشها "(٣).

وذكر الإمام القرطبي في كتابه " التذكرة "، أن الترك الوارد ذكرهم في الحديث هم المغول الذين ظهروا سنة(٦١٧هـ/١٢٢٠م) فقتلوا المسلمين في بلاد ما وراء النهر وما تلاها من البلدان حتى وصلوا العراق واقتحموا بغداد، واتجهوا نحو بلاد الشام وتمكنوا منها قبل أن ينتصر عليهم قطز في عين جالوت(٤).

- أخذ الشيخ يخفف من الآثار النفسية والمعنوية جراء هزيمتهم أمام المغول سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، حيث اعتبر الشيخ أن تلك الهزيمة فيها رحمة وعبرة؛ وذلك

---

(١) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري(١٣ج)، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت، ج٦، ص١٠٤، وص ٦٠٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حجر، فتح الباري.

(٢) ابن حنبل، أحمد بن محمد(ت٢٤١هـ/٨٥٥م)، المسند(٢٠ج)، شرحه: أحمد شاكر وحمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١٠، ص١٠٠، رقم الحديث(١١٢٠٠)، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حنبل، المسند.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، ج٦، ص٦٠٩.

(٤) القرطبي، التذكرة، ج٢، ص ص٣٠٧-٣١٠..

بتكفير خطاياهم وإقبالهم على ربهم واجتماع كلمتهم على ولي أمرهم، وتحريك عزائمهم على الجهاد ومعرفة حقيقة عدوهم(١).

- حذر الشيخ من كنز الأموال عند الحاجة إلى إنفاقها، مذكرا بقوله تعالى: " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم"(٢). كما حذر من ترك الجهاد بلا عذر حيث قال: " من ترك الجهاد عذبه الله عذابا أليما بالذل وغيره، ونزع الأمر منه فأعطاه غيره؛ فإن هذا الدين لمن ذب عنه "(٣).
- كشف الشيخ للسلطان عن عدم اتفاق كلمة المغول على قتال أهل الشام، وأن كثيرا من أمرائهم وعامتهم في نيتهم نصرة أهل الشام(٤).
- دعا الشيخ السلطان إلى المبادرة لجهاد المغول؛ حيث ذكر أن بنتا لبيدرا – أحد ملوك المغول – كانت مسجونة عند غازان ففرت إلى الشام، وذكرت نية غازان وأخيه خدا بندا لغزو بلاد الشام؛ ومن هنا حث الشيخ السلطان على أن يبادر لقتالهم، مبينا له ما في تلك المبادرة من فوائد كطمأنينة قلوب أهل الشام، واستفادة العساكر من أرزاق البلاد الشمالية كحلب ونحوها، وكسب ود وتعاون أهل تلك البلاد، والتمكن من بلاد الجزيرة وانضمام جنودها لجنود الشام(٥).
- كما أخذ الشيخ يرفع من معنويات السلطان لقتال المغول بسبب خور عزائمهم؛ حيث نقل له ما سمعه من أحد وزراء المغول ويسمى يحي إذ قال له: " واحد منكم يغلب ستة من هؤلاء "(٦).

---

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم(ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار، تقديم: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، د.ط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ص١٢-١٤؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن تيمية، رسالة إلى الملك الناصر.

(٢) الآية من سورة التوبة رقم ٣٤.

(٣) ابن تيمية، رسالة إلى الملك الناصر، ص ص١٣-١٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ص١٨-١٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٩.

- ختم الشيخ كتابه هذا بتحريض السلطان على قصد العدو للجهاد، وعدم تمكينهم من عبور ديار المسلمين في حال مبادرتهم لغزوها[(١)].

٤- مناصحة شيخ الإسلام ابن تيمية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) قبيل موقعة شقحب يستحثه على السير إلى دمشق

حيث سار الشيخ إلى السلطان وحرضه على جهاد العدو، فجاء هو وإياه بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فسأله السلطان أن يقف معه في القتال، فقال له الشيخ: " السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام، لا نقف إلا معهم"[(٢)].

واستمر الشيخ في تحريض السلطان على القتال، وبشره بالنصر، وجعل يحلف " بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون في هذه المرة "، فيقول له الأمراء: " قل إن شاء الله "، فيقول: " إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا "[(٣)].

وقبيل الوقعة رأى السلطان كثرة المغول، فقال: " يا خالد بن الوليد، فقال له شيخ الإسلام: " لا تقل هذا، بل قل: يا الله، واستعن بالله ربك، ووحِّدْه وحْدَه تنصر، وقل: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين "[(٤)].

٥- في سنة (٧١١هـ/١٣١١م) قوي الإرجاف بحركة المغول نحو بلاد الشام؛ فرسم السلطان الناصر باستخراج ضريبة الخيالة من أهل دمشق؛ فتضايق الناس من ذلك واجتمعوا بالقضاة والخطيب واتفقوا على الاجتماع بنائب السلطنة.

فخرج الخطيب جلال الدين القزويني[(٥)] رافعا المصحف وصحبه العلماء والفقهاء والمؤذنون وعامة الناس، واجتمعوا في سوق الخيل، فتقدم العميان وشكوا حالهم إلى نائب السلطنة فأعفوا من

---

(١) ابن تيمية، رسالة إلى الملك الناصر، ص ٢٠.

(٢) ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ج١٦، ص٢٦.

(٤) الكرمي، الكواكب الدرية، ص٩٦.

(٥) الشيخ محمد بن عبد الرحمن القزويني خطيب دمشق، ولد بالموصل سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، تفقه وناظر ولي خطابة الجامع الأموي، ثم أضيف إليه القضاء، وبعدها تولى قضاء القضاة بالديار المصرية، ثم رجع إلى الشام= =

الطلب، ثم الجذماء فأعفوا كذلك، ثم الأيتام فأعفوا أيضا، وأما البقية فضربوا بأمر النائب، وحمل الخطيب إلى القصر حيث ضربه النائب، وسَب قاضي القضاة، وضُرب الشيخ مجد الدين التونسي تسعين عصاه بين يدي النائب، وحبس هو والخطيب، ثم أفرج عنهما بضمان(١).

وكان من نتيجة هذه الثورة على نائب السلطنة، إضافة إلى إعفاء العجزة ممن سبق ذكرهم، تخفيف الضريبة المقررة، حيث تقرر استخدام أربعمائة فارس بدلا من ألف وخمسمائة، وأُخر استخراج المال حتى يصل السلطان إلى الشام(٢).

ويبرز في هذه الحادثة موقف العلماء الرافض لتجهيز الجيش الإسلامي من خلال أموال عامة الناس وضعفائهم، والذي يظهر أن العلماء لم يمكنوا من الوصول إلى نائب السلطنة لإبداء رأيهم، فحاولوا التعبير عن رأيهم من خلال قيادتهم لمظاهرة سلمية رافضة لإجراءات الدولة ضد ضعفة الشعب ومساكينهم، مع ملاحظة أن في هؤلاء العلماء المتظاهرين من كان يتولى مناصب رسمية محسوبة على الدولة، ومع هذا لم تمنعهم طبيعة وظائفهم تلك من بيان الحق والتعبير عنه عند شعورهم بوجوب ذلك عليهم.

علاوة على ذلك، فإن في رفض العلماء لتلك الضريبة التي قررتها الدولة على العامة، ما يدل على حرصهم على ضرورة الإعداد الإيجابي والسليم للجيش الإسلامي المواجه للأعداء، من خلال تنقية مصادر تمويله من كل شائبة حرام توجب عدم التوفيق عند لقاء المغول.

٦- مناصحات العلماء للسلطة المملوكية أثناء الغزو المغولي التيموري

تجلت مناصحة العلماء لأولياء الأمور في أثناء غزو تيمور لنك لبلاد الشام في مواقف عدة، ومن المواقف التي ذكرتها المصادر:

- معارضة العلماء للسلطان الظاهر برقوق في أخذ أموال الأوقاف

وتولى القضاء بها، وكان من كملة الزمان وأفراد العصر في مجموعه، توفي سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٨م). الصفدي، الوافي، ج٣، ص ص١٩٩-٢٠٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص ص٢٨٧-٢٨٨.

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ص١٣٦-١٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٣٢، ص١٣٧.

لما تحقق السلطان الظاهر برقوق من قدوم عساكر تيمور لنك جهة بلاد الشام سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م)؛ طلب القضاة الأربعة والخليفة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني[(١)] وأعيان المشايخ المفتين، كما حضر سائر الأمراء.

فتكلم السلطان في أخذ أموال الأوقاف من الجوامع والمدارس وغيرها، فلم يوافق شيخ الإسلام ولا القضاة الأربعة، فشكى لهم السلطان بأن الخزائن خالية، والعدو يوشك على أخذ حلب والشام والعسكر يحتاج إلى نفقة، فوقع في المجلس جدال عظيم، وأغلظ شيخ الإسلام والقضاة القول على السلطان، ثم اتفقوا على أن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضي سنة كاملة، وتبقى الأوقاف على حالها[(٢)].

وقد كان لموقف العلماء هذا أثر في الحفاظ على أصول الأوقاف التي يعود نفعها المستمر على المصالح العامة للمجتمع.

- مناصحة القاضي الشافعي صدر الدين المناوي للظاهر برقوق

ففي إطار الاستعداد لمواجهة غزو تيمورلنك سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م)، طلب السلطان من الشيخ المناوي أن يقرضه شيئا من مال الأيتام، فامتنع الشيخ القاضي من ذلك؛ فما كان من السلطان إلا أن عزله[(٣)].

وهذا الموقف من القاضي يبين حرصه على أهمية استخدام المال الحلال الخالص في الإعداد لملاقاة العدو انطلاقا من مبدأ عدم جواز استخدام أموال الأيتام لغير ما أوقفت عليه، ولا يبعد أن الشيخ القاضي لم يجز ذلك بسبب اطلاعه على بذخ أهل السلطة وأن الضرورة تقتضي استخدام

---

(١) شيخ الإسلام عمر بن رسلان بن نصير البلقيني، ولد بالقاهرة سنة (٧٦٢هـ/١٣٦٠م)، حفظ القرآن وعدة متون، برع في الفقه والأصول والعربية والتفسير، أفتى ودرَّس وتولى قضاء القضاة بالديار المصرية، توفي سنة (٨٢٤هـ/١٤٢١م) وكانت جنازته مشهورة للغاية. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ص٧٤-٧٥.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٣؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢٥٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٣٨٦-٣٨٧.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص ص١٩٥-١٩٦ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ص٤٦٧-٤٦٨.

أموالهم لا أموال اليتامى. والحاصل أن موقف القاضي هذا دفع السلطان إلى التوجه إلى بعض كبار التجار فاقترض منهم ما يحتاجه لتجهيز الغزاة[١]، وهو أمر أفضل بكثير من استخدام أموال الأيتام.

- إنكار القضاة لفرض ضريبة على ممتلكات أهل دمشق استعدادا للقاء تيمور لنك

عندما بدأت الاستعدادات للتصدي للمغول سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، حاولت السلطات بدمشق فرض ضريبة على البيوت والبساتين والأملاك للاستفادة منها في إعداد العساكر لمواجهة تيمور لنك، فأنكر القضاة ذلك وكثرت الأقاويل في المجتمع حولها؛ فأبطلت[٢].

يتضح إذا من خلال مواقف مناصحة العلماء لأهل السلطة خلال الغزوين الأول والثاني، تكرر موقف اعتراض العلماء على أخذ أموال عامة الناس وفرض الضرائب عليهم لتجهيز العساكر الإسلامية المواجهة للمغول.

ومن وجهة نظر الباحث، فإن لتكرر ذلك الموقف من العلماء دلالات معينة، منها:

- حرص العلماء على ضرورة الإعداد السليم للجيوش الإسلامية المواجهة للأعداء، وعلى رأس هذا الإعداد السليم، استخدام المال الحلال للإنفاق على العساكر الإسلامية.
- اطلاع العلماء على الترف المالي الذي يعيشه أهل السلطة؛ مما جعلهم يعترضون على محاولاتهم في ابتزاز أموال عامة الناس بحجة تمويل الجيش الإسلامي المواجه للعدو المغولي.
- إن في حرص أهل السلطة للحصول على فتاوى العلماء من أجل أخذ أموال من عامة الناس لدعم العساكر الإسلامية، دليل على اهتمامهم برأي الشرع - ممثلا في حكم العلماء – في القضايا التي يقدمون عليها[٣]، كما أن في ذلك دليلا من ناحية أخرى، على عظم صوت العلماء المؤثر على عامة الناس.

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص١٩٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٦٨.

(٢) ابن حجي، تاريخ (رسالة) ص١٩٩.

(٣) ليس المقصود بذلك سلامة سلاطين المماليك وأمرائهم من الوقوع في المخالفات الشرعية صغيرها وكبيرها، بل المقصود أنهم كانوا يعتبرون الشرع مرجعيتهم الأولى والوحيدة التي يتحاكمون إليها.

- تشابه مواقف العلماء في الغزوين الأول والثاني حول كيفية إعداد الجيش الإسلامي المواجه للمغول.

ثالثا: تهيئة الأوضاع الداخلية

قام العلماء بعدة أدوار لتهيئة الأوضاع الداخلية من أجل الجهاد ضد المغول، ومن هذه الأدوار:

١- القيام بإصلاح الخلافات الداخلية بين السلاطين والأمراء والحيلولة دون توسعها؛ حتى لا تؤثر على معركة المواجهة مع المغول.

ومما يذكر في هذا المقام قيام العلامة الشيخ بدر الدين بن جماعة بتهدئة الأوضاع بين الملك العادل كتبغا والأمير لاجين؛ حيث أن لاجين قد ثار على كتبغا طالبا السلطنة سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، فلما شعر الملك العادل بأن أمر السلطنة أوشك على الزوال منه سارع بدخول دمشق مستنجدا بالشيخ ابن جماعة؛ لتجديد المواثيق له من أمراء المماليك[١].

ورغم ذلك فإن الأمير لاجين تمكن من الاستيلاء على السلطنة، وهنا كان لا بد من موقف يحسم الأمر بين كتبغا ولاجين؛ حتى لا يتطور الأمر إلى صراع داخلي، من المحتمل جدا أن يستغله المغول لشن حملة عسكرية على بلاد الشام كعادتهم؛ فما كان من الشيخ ابن جماعة[٢] إلا أن توجه إلى الملك العادل كتبغا المخلوع من السلطنة وأخذ يهدئ روعه ويحثه على الدخول في الطاعة؛ حفاظا على وحدة البلاد[٣].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥٤.

(٢) الشيخ بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله، ولد سنة (٦٣٩هـ/١٢٤١م)، كان إمام زمانه، وصدر أوانه، حدث بالكثير، له تصانيف عدة، درَّس وأفتى، ولي خطابة القدس، ثم تولى قضاء مصر، ثم قضاء الشام، وولي خطابة الجامع الأموي، توفي سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م). الذهبي، ذيل تاريخ، ج٥٣، ص ص٣٦٦-٣٦٨؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص ص٢٠٨-٢١٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص ص٢٥٢-٢٥٣.

(٣) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٠١؛ خلف، عبد الجواد، القاضي بدر الدين بن جماعة –حياته وآثاره-، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، د.ط، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٣٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: خلف، القاضي ابن جماعة.

وكان من نتيجة هذه التوسط السياسي للشيخ ابن جماعة إقرار كتبغا بسلطنة لاجين، وإعلانه خضوعه لسلطنته.

٢- مواقف العلماء في تهيئة أوضاع البلاد الداخلية إبان غزوات غازان لبلاد الشام(٦٩٩-٧٠٢هـ / ١٢٩٩-١٣٠٢م)

- قام شيخ الإسلام ابن تيمية في يوم الجمعة من شهر شوال سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٧م) بعمل مجلس جليل حافل في الجهاد، حيث حرض في ذلك وبالغ في أجور المجاهدين(١).

وهذا المجلس وإن كان الشيخ حث فيه على إمداد المحاصرين بسيس(٢)، إلا أن أمر مهاجمة المغول لبلاد الشام، كان أمرا متوقعا في أي لحظة؛ ومن هنا كان هذا المجلس بمثابة إثارة للرأي العام ليكون الناس في حالة استنفار دائم لمواجهة المغول عند مهاجمتهم للشام.

ويمكن أن يكون عمل الشيخ هذا مشابها في هذه الأيام للاجتماعات والمهرجانات الخطابية العامة، والتي يهدف منها إلى إثارة الرأي حول قضية ما لكسب التعاطف المادي والمعنوي نحوها.

- رسم قاضي القضاة ابن جماعة بعد وقعة غازان سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) بعمل إماجات(٣) في مدارس ومساجد الديار المصرية والشامية، وأن يتعلم الفقهاء الرمي، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد لقتال المغول، وكتب إلى جميع البلاد الشامية بذلك(٤).

وواضح أن هذا الأمر يشبه ما يعرف اليوم بالخدمة العسكرية الإلزامية في المدارس والجامعات.

وعليه؛ يمكن القول أن الشيخ ابن جماعة وهو العالم التربوي المعروف بنظرياته التربوية ومناهجه العلمية، التي أودعها كتابه القيم" تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم "(٥)، سبق

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٢، ص٥٥٤؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٠٨.
(٢) سيس: هي بلاد الأرمن. أبو الفداء، تقويم، ص٢٥٤.
(٣) إماجات: جمع إماج، وهو الهدف الذي يرمى إليه السهم. دهمان، معجم، ص٢٠.
(٤) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص ص١٠٥-١٠٦؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٩؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج١، ص٢٢٤.
(٥) الكتاب مطبوع ومتداول.

بمرسومه هذا ما تفعله كثير من الدول الحديثة من جعل الخدمة العسكرية إلزامية في بعض المراحل التعليمية، كالمرحلة الثانوية والجامعية.

- تحريض شيخ الإسلام ابن تيمية الناس على جهاد المغول سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)

ففي مستهل صفر من السنة المذكورة وردت الأخبار أن المغول عازمون على قصد بلاد الشام؛ فانزعج الناس لذلك وشرعوا في الهرب إلى مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة؛ فما كان من الشيخ ابن تيمية إلا أن صدع مجاهدا بكلمته التي كان لها الأثر الحسن في نفوس الناس؛ حيث قام في مجلسه بجامع دمشق وحرض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الفرار من البلد، ورغب في إنفاق الأموال للذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأوجب جهاد المغول حتما هذه المرة، وتابع المجالس في ذلك، وكان من ثمرات تلك المجالس منع الدولة السفر إلا بموافقة السلطة؛ فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم[١].

- إلزام العلماء يهود بلاد الشام بدفع الجزية

حاول اليهود الخيابرة – نسبة إلى خيبر - في سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) التنصل من دفع الجزية؛ فأحضروا كتابا زعموا فيه أن الرسول r أسقط عنهم الجزية، لكن الفقهاء تحققوا من الكتاب؛ فتبين لهم أنه كذب مفتعل؛ لما فيه من الألفاظ الركيكة والتواريخ المخبطة واللحن الفاحش، وحاققهم عليه الشيخ ابن تيمية وبين لهم كذبهم وخطأهم وأنه مزور مكذوب؛ فأنابوا إلى أداء الجزية[٢].

والعلاقة بين هذا الأمر والغزو المغولي تتبين من خلال معرفة أن هذه الجزية تساهم في رفد بيت مال المسلمين الذي تعود منافعه على الصالح العام للبلد، ومن هذه المنافع الإنفاق على الجوانب العسكرية.

ومعلوم أن دولة المماليك في هذه الفترة كانت في صراع مستمر مع المغول، ومن هنا أدرك العلماء، علاوة على الالتزام بتطبيق حكم الشرع في أهل الكتاب المقيمين في الدولة الإسلامية، أن دفعهم للجزية أحد الروافد المهمة التي يستغل ريعها في الإعداد العسكري لمواجهة المغول.

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص ص١٢٠-١٢١؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٣٣؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص١٢٣-١٢٤.

(٢) ابن كثير، البداية، ج١٦، ص ص١٥-١٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص١٩٠-١٩١.

- توافق العلماء على الخروج لقتال المغول سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)

لما تواترت الأخبار بقرب وصول المغول إلى ضواحي دمشق سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) اجتمع الأمراء في الميدان بدمشق، وأقسموا على القيام بالجهاد ضد المغول، ونودي في دمشق بعدم الخروج منها؛ فسكن الناس، وجلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على حضور الغزاة، وتوجه الشيخ ابن تيمية إلى جهة العسكر الواصل من حماة، فأدركه بالقطيفة(١) والمرج، فاجتمع بهم وأعلمهم بما اتفق عليه الأمراء بدمشق، فوافقوا على ذلك(٢).

ويظهر من هذا الموقف حرص العلماء على التواصي فيما بينهم على ضرورة الجهاد بالنفس ضد العدو المغولي، وتأكيد ذلك بأداء اليمين تشجيعا لبعضهم البعض.

كما يدل موقف الشيخ ابن تيمية على أن العلماء أثناء الغزو المغولي عملوا على جبهات متعددة، ومنها أنهم كانوا بمثابة جهة تنسيق بين ميادين العمل الجهادي المختلفة.

٣- مواقف العلماء في تهيئة الأوضاع الداخلية عشية غزو تيمورلنك لبلاد الشام

- تحريض العلماء للناس بقتال تيمور لنك سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٢م)

لما جاءت أخبار غزو تيمورلنك لبلاد الشام سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) قام الناس بحفظ بلدهم وأموالهم، وركب القضاة وقدامهم السناجق والناس، وهم يقرؤون مرسوم السلطان الوارد من مصر بالاستعداد للقتال، وكان القضاة يحرضون الناس على القتال والتأهب للعدو ويطمئنوهم بقدوم السلطان وعساكره من مصر(٣).

وقد تجلى دور العلماء في هذه الحادثة في بيان الموقف الرسمي للدولة من تيمورلنك وعساكره، فأشبه دورهم ما يعرف اليوم في العرف السياسي باسم " الناطق الرسمي ".

---

(١) القطيفة: في طرف البرية من ناحية حمص. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٧٨.

(٢) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢١٩؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢٣.

(٣) ابن صصرى، محمد بن محمد(ت٨٠٠هـ/١٣٩٧م)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق: وليم م. برينر، جامعة كاليفورنيا، لوس أنجيلوس، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ص١٤٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن صصرى، الدرة المضيئة.

كما أن العلماء قاموا بتحريض الناس على الجهاد في سبيل الله والاستعداد للقاء العدو، وعملوا أيضا على طمأنة الناس والتخفيف من روعهم من خلال إخبارهم بقدوم عساكر مصر لنجدتهم.

- حرص العلماء على وحدة الصف الداخلي قبيل الغزو التيموري لبلاد الشام

عندما أعلن نائب الشام تنم الخروج عن طاعة السلطان فرج بن برقوق في أواخر ذي الحجة من سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م)، أخذ السلطان فرج يراسل أمراء الشام بضرورة البقاء على الطاعة.

وقد أدرك العلماء أهمية طاعة أمر السلطان لما يحققه من وحدة للبلاد، خاصة أن خروج تنم جاء في توقيت يضر بالصالح الإسلامي العام؛ إذ إن خطر تيمورلنك لا يبعد كثيرا عن بلاد الشام.

ولأجل هذا ثار العلماء في طرابلس على الخارجين عن طاعة السلطان، فخطب خطيب البلد بجهاد نائب الغيبة[١] يونس بلطا، فاستجاب له العلماء والعامة وقاتلوا نائب الغيبة حتى هزموه، فهرب وتوجه إلى حماة، فأرسل لهم تنم عسكرا فهزموه، ثم أرسل لهم يونس بلطا جيشا آخر فتمكن منهم.

وبعد سيطرة يونس بلطا على البلد فعل فيها فعل الكفرة، فقتل نحو عشرين رجلا من أعيان أهلها فيهم من القضاة والعلماء: الشيخ العالم المفتي جمال الدين بن النابلسي الشافعي، والخطيب شرف الدين محمود، والقاضي المحدث شهاب الدين أحمد الأذرعي المالكي، وقاضي القضاة شهاب الدين الحنفي، والقاضي موفق الدين الحنبلي، وعصروا القاضي المالكي المعزول، وأخذوا منه مالا وسجنوه، كما قتل من عامة طرابلس قرابة الألف، وصادر الناس مصادرات كثيرة، وأخذ أموالهم، وسبى حريمهم[٢].

وممن قام مع السلطان ضد تنم، أهل الكرك الذين بعث لهم السلطان كتابا مع عبد الرحمن المهتار؛ يأمرهم فيه بالتصدي للخارجين عن الطاعة، فوقع قتال بين نائب الكرك المنضم لتنم، وعبد

---

(١) هو الذي يقوم مقام السلطان أو نائبه في حال غيابهما، وأهم أعماله إخماد الثورات وتخليص الحقوق. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ص١٧-١٨.

(٢) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص ص١١٦-١٢٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص١٠٢-١٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ص١٥٢-١٥٣.

الرحمن المهتار ومن معه من أهل الكرك، فظهر عليهم النائب وقتل القاضي شرف الـدين موسـى وأخاه جمال الدين عبد الله(١).

ومما يؤخذ من هذه المواقف فيما يتعلق بالغزو المغولي، حرص العلماء على تنقية المجتمع مـن عوامل الفرقة والخلاف المؤدية لضعفه وعدم قدرته على مواجهة الأزمات، وفـي مقـدمتها غـزو تيمور لنك المرتقب لبلاد الشام.

- من مواقف العلماء في تهيئة الأوضـاع الداخليـة اسـتعدادا لقتـال تيمورلنـك سـنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، أنه لما وصل تيمور وجنوده ملطية[٢]، أرسل قضاة حلب إلى قضاة الشام كتبا يحرضوهم فيها على الخروج إليهم والتهيؤ لقتالهم وأخذوا يقللوا من شأنهم(٣).

ويظهر في هذا الموقف تواصي العلماء فيما بينهم على الجهاد في سبيل الله، وأن يكونوا في ذلك قدوة لعامة الناس.

- قيام العلماء بتحريض الناس على مجاهدة تيمورلنك سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)

ومن الأمثلة التي برزت لهذا الدور، قيام شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ومعه قضـاة القضـاة وبعض الأمراء بالطواف في القاهرة، حيث نودي بين أيديهم " الجهاد في سبيل الله لعدوكم الأكبـر تمرلنك؛ فإنه أخذ البلاد، ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخـرب الـدور والمساجد والجوامع وجعلها إسطبلات للدواب، وهو قاصدكم يخرب بلادكم ويقتل رجالكم وأطفـالكم ويسبي حريمكم "(٤). كما أرسلت السلطات المصرية كتابا إلى قضاة دمشق؛ بحث الناس على قتـال تيمورلنك، والاستعداد لذلك(٥).

---

(١) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص١٣٦.

(٢) ملطية: من بلاد الروم، وهي قاعدة الثغور من جهة الروم. أبو الفداء، تقويم، ص٤٣٩.

(٣) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص١٩٣.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٣٦؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٨٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٠١.

(٥) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص١٩٩؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٤٧.

- تنظيم حركة المقاومة الداخلية

اهتم قاضي القضاة بدمشق وبمساعدة بعض أكابر دمشق بتنظيم حركة المقاومة والجهاد ضد المغول سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، حيث قام الشيخ بشراء السلاح وإجراء النفقات وبيع الحواصل واستخدام الرجال للقتال، ونادى بالجهاد، وعمل على حفظ أسوار البلد، وأقام المكاحل[١] بدار السعادة[٢]، وقام بهدم وإحراق ما حول البلد من البناء، واهتم بحفظ أبراج القلعة فوزع على الأبراج مجموعة من المقاتلين وزودهم بعدة القتال، وأخذ يدور على الأسوار وبين يديه المؤذنون يكبرون، ومعهم المصاحف. وقد أثمرت هذه الحركة عن تمسك الناس بعضهم ببعض، وصعدوا القلعة وحصنوا البلد، واهتموا بأمر القلعة رجاء أن تسلم كما سلمت في نوبة غازان سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)[٣]. ومن العلماء الذين عاونوا قاضي القضاة على أعماله تلك القاضي المالكي، حيث استعد عسكريا فحمل السلاح وتلثم وكان يركب أسوار المدينة استعدادا للدفاع عن المدينة[٤].

- النهي عن ارتكاب المنكرات

حرص العلماء على تهيئة المجتمع استعدادا لغزو تيمور لنك وذلك من خلال تطهيره من المنكرات التي تعمل على إضعاف المجتمع إضعافا معنويا من جهة، وتساهم في حلول العقاب الإلهي من جهة أخرى، ولذا أمر القضاة إبان غزو تيمور لنك لدمشق بالكف عن المنكرات ورفع من ارتكبها إلى ولاة الأمور[٥].

---

(١) المكحلة: هي في الأصل وعاء لوضع الكحل الخاص بالعين، وفي فترة البحث استعملت اسما للمدفع، حيث يوضع في هذا الوعاء كحل البارود، مع فتيل صغير لينفجر ويقذف القذيفة على الهدف. دهمان، معجم، ص١٤٣.

(٢) دار السعادة: أصبحت في العهد المملوكي مقر نواب السلطان بدمشق، وكان موقعها غرب جامع الأحمدية في سوق الحميدية. دهمان، معجم، ص٧٢.

(٣) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢١١، ص٢١٨؛ ابن حجي، تاريخ ابن حجي(٢ج)، تعليق: عبد الله الكندري، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج١، ص٤٦٥ و ص٤٧١؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن حجي، تاريخ؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٥٦؛ ابن سباط، تاريخ، ج٢، ص٧٦٣.

(٤) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٦٥؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٥٦.

(٥) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٥٨.

رابعا: العمل على تقليل مفاسد الغزو المغولي

من الصور التي ظهرت في الغزو المغولي الثاني لتقليل مفاسد هذا الغزو:

١- تفاوض العلماء مع غازان بعد استيلائه على دمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)

بعد سقوط دمشق بيد المغول سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) اجتمع مجموعة من العلماء بالجامع الأموي، وتشاوروا في أمر الخروج إلى غازان وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وممن حضر هذا الاجتماع من العلماء: القاضي بدر الدين بن جماعة، والشيخ تقي الدين بن تيمية، والشيخ زين الدين الفارقي، وقاضي القضاة نجم الدين بن صصرى، والقاضي عز الدين بن الزكي، والشيخ نجم الدين بن أبي الطيب، والقاضي شمس الدين محمد بن الحريري، والصاحب فخر الدين بن الشيرجي، والشيخ وجيه الدين بن المنجى، والصدر عز الدين حمزة بن القلانسي، وابن عمه شرف الدين، والشريف زين الدين بن عدنان، وأمين الدين بن شقير الحراني، والشيخ ناصر الدين عبد السلام، والصاحب شهاب الدين بن الحنفي، والشيخ شمس الدين محمد بن قوام النابلسي، وجلال الدين أخو القاضي إمام الدين القزويني، وجلال الدين بن القاضي حسام الدين الحنفي، وجماعة كبيرة من القراء والفقهاء والعدول، وأجمعوا رأيهم على الخروج إلى غازان، وبعد أن صلوا الظهر يوم الإثنين الثالث من ربيع الثاني، توجهوا إلى الله عز وجل، ثم خرجوا للاجتماع بغازان المخيم عند النبك[(١)].

وكان الشيخ ابن تيمية هو المتكلم فيهم مع غازان، وقد كلمه كلاما قويا شديدا فيه مصلحة عظيمة، عاد نفعها على المسلمين[(٢)]، حيث أصدر فرمان أمان لأهل دمشق.

والذي يتضح من اجتماع العلماء وخروجهم للقاء غازان، أن العلماء كانوا في طليعة الفئات التي تهتم بحل الأزمات النازلة على المجتمع المسلم، وذلك من خلال اجتماعهم وتشاورهم وطرحهم للحلول العملية التي تساهم في علاج الأزمة أو التقليل من آثارها السلبية على المجتمع، وأفراده.

---

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص١٩؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٨٩؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص٣٠-٣١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ص٩٩-١٠٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٠٤.
(٢) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٠.

وبمرور الأيام ظهر عدم التزام المغول بالأمان الذي منحه غازان لأهل دمشق؛ فخرج إليه الشيخ ابن تيمية مرة أخرى ليكلمه في ذلك، إلا أنه لم يتمكن من الاجتماع به، والتزم الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة المسلماني بإيصال رسالته لغازان[١].

٢- مفاوضات شيخ الإسلام ابن تيمية مع المغول لتقليل مفاسد احتلالهم لدمشق سنة(٦٩٩هـ/١٢٩٩م)

قام الشيخ ابن تيمية بعدة مفاوضات مع السلطات المحتلة لدمشق سنة(٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، ساهمت في تقليل مفاسد الاحتلال.

ومن هذه المفاوضات:

- تفاوض شيخ الإسلام ابن تيمية مع غازان لحقن دماء المسلمين.

لما ظهر غازان على دمشق بذل له ملك الكُرج[٢] أموالا كثيرة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين، فلما علم بذلك شيخ الإسلام قام بتشجيع المسلمين ورغبهم في الشجاعة، ووعدهم بزوال الخوف عنهم، وانتدب منهم رجالا من وجهائهم وكبرائهم؛ فخرج بهم إلى غازان، وكلمه في موضوع ملك الكُرج وأخبره بحرمة دماء المسلمين وذكره ووعظه، فأجاب غازان إلى ذلك طائعا، وحقنت بسببه دماء المسلمين، وحميت ذراريهم، وصينت حرمهم[٣].

وقال الشيخ وجيه الدين بن المنجى: " كنت حاضرا مع الشيخ فجعل يحدث غازان بقول الله ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته عليه، وهو مع ذلك مقبل عليه بكليته، مصغ لما يقول، شاخص إليه لا يعرض عنه". ثم قال للترجمان: " قل للغازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، وجرت". يقول الشيخ ابن المنجى: " ثم خرج

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٣١؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص٣٤-٣٥.

(٢) الكُرج: جيل من النصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السرير، فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، وتسمى بلادهم بلاد الكرج. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٦.

(٣) الكرمي، الكواكب الدرية، ص ص٩٢-٩٣.

من بين يديه مكرما معززا بحسن نيته الصالحة من بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين، فبلغه الله تعالى ما أراده، وكان أيضا سببا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم، وحفظ حريمهم"(١).

ويذكر الإمام الكرمي ما سمعه من القاضي أبي العباس بن حصري، من أنهم لما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام، فأكلوا منه إلا الشيخ ابن تيمية، فقيل له: " لمَ لمْ تأكل؟ " فقال: " كيف آكل من طعامك، وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس"(٢).

ثم إن غازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: " اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد في سبيلك، فإنك تؤيده وتنصره، وإن كان للملك والدنيا والتكاثر، فإنك تفعل به وتصنع". يقول القاضي ابن حصري: " فكان يدعو عليه، وغازان يؤمن على دعائه، ونحن نجمع ثيابنا خوفا أن يقتل فيطرطس بدمه، ثم لما خرجنا قلنا له: " كدت تهلكنا معك، ونحن ما نصحبك من هنا "، فقال: " وأنا لا أصحبكم ". يقول القاضي: " فانطلقنا عصبة وتأخر، فتسامعت به الخواتين والأمراء، فأتوه من كل فج عميق، وصاروا يتلاحقون به؛ ليتبركوا برؤيته، فما وصل إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وأما نحن فخرج علينا جماعة فشلحونا "(٣).

ومن الموافقات العجيبة أن غازان لم يفلح بعد دعاء الشيخ عليه. ففي سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) غزا الشام فرده الله تعالى بالأمطار والثلوج، وفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) كسره المماليك في وقعة شقحب، وفي السنة التالية توفي متأثرا بخسارة جيشه السابقة.

---

(١) الكرمي، الكواكب الدرية، ص٩٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٩٣.

- توجه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى السلطات المغولية بسبب إفساد جنودهم وأعوانهم في دمشق

ففي منتصف ربيع الآخر قام المغول وصاحب سيس والكرج والأرمن بنهب الصالحية[١]، وتخريب مدارسها ومساجدها، وسبي كثير من أهلها، كما نكبوا بدير الحنابلة، وقتلوا كثيرا من الرجال، وأسروا كثيرا من النساء، وفعلوا بالمزة[٢] وداريا[٣] وغيرهما مثل فعلوا بالصالحية.

فلما اشتدت هذه الأحوال خرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من أصحابه لأحد أعيان دولة المغول، وهو شيخ الشيوخ نظام الدين محمود الشيباني فأخبره بالحال، فتوجه إليهم فهرب المغول ومن معهم لما رأوا شيخ الشيوخ[٤].

- سعي شيخ الإسلام إلى تخليص أسارى المسلمين من أيدي المغول

فقد كان لشيخ الإسلام عدة مفاوضات ضمن هذا الإطار، حيث توجه إلى معسكر المغول للتفاوض في تخليص أسارى المسلمين، واجتمع هناك بغازان وبهاء الدين قطلو شاه والوزير سعد الدين والوزير رشيد الدولة والشريف قطب الدين ناظر الخزانة والكاتب صدر الدين والنجيب الكحال اليهودي وشيخ الشيوخ نظام الدين محمود وأصيل الدين بن النصير الطوسي ناظر الأوقاف، وكان هؤلاء من أعيان دولة غازان[٥]. وحدث أن دخل بعض المغول دمشق وبأيديهم أسرى من المسلمين، فأخذ الشيخ ابن تيمية يكلمهم حتى أطلقوهم[٦].

---

(١) الصالحية: قرية كبيرة من غوطة دمشق تقع على سفح جبل قاسيون، وأكثر أهلها ناقلة بيت المقدس، وهم على مذهب الإمام أحمد. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٣٩٠.

(٢) المزة: قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٢٢.

(٣) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٤٣١.

(٤) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٤٧، المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٣٤.

(٥) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ص٣٢-٣٣.

(٦) العلبي، معارك المغول، ص١٢٠.

كما توجه الشيخ ابن تيمية إلى مخيم بولاي - نائب المغول بعد رجوع غازان - فاجتمع به وكلمه في فكاك أسارى المسلمين، فاستنقذ كثيرا منهم[١]، ومما دار في لقاء الشيخ مع بولاي، سؤاله للشيخ عن جواز لعن معاوية بن أبي سفيان[٢] – رضي الله عنه -، فأجابه الشيخ جوابا حكيما استخدم فيه الحسنيين؛ فأرضى بجوابه بولاي ولم يتعرض لصاحب رسول الله r وكاتب وحيه بسوء. ثم قال بولاي: " هؤلاء أهل دمشق هم قتلة الحسين بن علي ". فقال له الشيخ: " إن أهل دمشق لم يحضروا قتل الحسين، وقتل – رضي الله عنه - بأرض كربلاء[٣] من العراق "، ثم أراد بولاي أن يربط بين سكنى بني أمية الشام ومحبتها، وبين إثم الحاضرين من أهلها "، فبين له الشيخ أنه لا ترابط بين الأمرين، ولم يزل به حتى سكن غضبه على أهل الشام[٤].

٣- تفاوض العلماء مع تيمورلنك بعد سيطرته على دمشق سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م)

- ذهاب مجموعة من العلماء إلى تيمور لتأمين أهل دمشق.

بعد هروب السلطان المملوكي فرج وأمرائه إلى مصر وسقوط دمشق بيد تيمورلنك، اجتمع قضاة البلد للتشاور فيما يفعلونه معه، وكان ممن اجتمع منهم: قاضي القضاة محي الدين محمود بن العز الحنفي، وولده قاضي القضاة شهاب الدين، وقاضي القضاة تقي الدين إبراهيم ابن مفلح الحنبلي، وقاضي القضاة شمس الدين محمد الحنبلي النابلسي، والقاضي ناصر الدين محمد بن أبي الطيب كاتب السر، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الشهيد الوزير، والقاضي شهاب الدين الحسباني الشافعي، والقاضي برهان الدين إبراهيم بن القوسة الحنفي نائب الحكم، والشيخ أبو يزيد البسطامي

---

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ٣٦؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٥؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٤٥.

(٢) الصحابي الجليل معاوية بن صخر بن حرب بن أمية – رضي الله عنه - أحد كتاب الوحي، وهو أخو أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان – رضي الله عنها – زوج النبي r، أسلم في عمرة القضاء سنة (٦هـ/٦٢٧م)، ولم يظهر إسلامه إلا يوم فتح مكة سنة (٩هـ/٦٣٠م)، آلت إليه الخلافة سنة (٤١هـ/٦٦١م) بعد تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – عنها، فسمي ذلك العام عام الجماعة؛ لاجتماع كلمة المسلمين على إمام واحد. الذهبي، تاريخ، ج٤، ص ص٥-٧ و ص ص٣٠٤-٣١٧.

(٣) كربلاء: تقع في طرف البرية عند الكوفة. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٥.

(٤) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣٦.

واتفقوا بعد تشاورهم على الذهاب إلى تيمور؛ لطلب الأمان منه[1]، وبعد رجوعهم اجتمعوا بابن خلدون، وأخبروه بما دار بينهم[2].

وكان من نتيجة هذا اللقاء منح سكان دمشق الأمان، وتسليمه نصا مكتوبا للعلماء، حيث قرئ على الناس بالجامع الأموي[3].

إلا أن تيمور – على عادته – لم يف بهذا الأمان، بل لم يكن منه إلا خدعة ومكرا لأهل دمشق جميعا.

وقد كان قاضي القضاة تقي الدين بن مفلح هو المتكلم مع تيمورلنك[4]، حيث اتفق الشيخ ابن مفلح على الصلح معه، إلا أن هذا الصلح لم يكن من طرف تيمور إلا خدعة، خدع بها تيمور قاضي القضاة وأهل دمشق ليتوصل به إلى بغيته من دمشق وأهلها بدون خسائر، حيث تمكن تيمور بعد ذلك الصلح من السيطرة على دمشق، ثم صب على أهلها صنوف العذاب المادي والمعنوي، وسلبهم أعراضهم وأموالهم، وقد مر تفصيل ذلك في المبحث الثاني من الفصل الأول.

ولا بد هنا من وقفة لمناقشة موقف قاضي القضاة ابن مفلح مع تيمورلنك؛ إذ كان لتصالح الشيخ ابن مفلح مع تيمور، أثر كبير في مجريات الأحداث بعد ذلك.

فهل يعد موقف تصالح الشيخ ابن مفلح مع تيمور لنك موقفا متعاونا مع المغول، قياسا بالنتائج التي حصلت بعده؟

إنه من الضروري حتى تتجلى حقيقة موقف قاضي القضاة من النظر إلى الواقع الذي لابس موقفه ذلك من ناحية، وإلى هدفه من ناحية أخرى.

---

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٦٧؛ ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) ابن خلدون، الرحلة، ص٤٠٢.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٤٧.

(٤) يذكر ابن عربشاه في عجائب المقدور ص٢٥٤، أن الدور الرئيسي في التفاوض مع تيمورلنك كان لابن خلدون، وهو خلاف ما ذكره كثير من المؤرخين، بل هو خلاف ما ذكره ابن خلدون نفسه في كتاب التعريف. ينظر تفاصيل أوفى: ابن خلدون، الرحلة، ص٢٨٨؛ فيشل، والتر ج، لقاء ابن خلدون لتيمورلنك، ترجمة: محمد توفيق، مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت، ص٧٠ وص١١٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: فيشل، لقاء.

فواقع أهل دمشق حينها كان ضعيفا؛ فالسلطان المملوكي هرب بعساكره ولم يبق لدمشق من مدافع إلا القليل، ولم يكن أمام المدنيين من أهل دمشق إلا محاولة تقليل مخاطر الاحتلال؛ ولأجل هذا توجه الشيخ ابن مفلح والعلماء إلى تيمور؛ لدرء مفاسده قدر المستطاع.

ويذكر ابن الصيرفي أن هؤلاء العلماء طلبوا من تيمور عدم معاقبة أهل دمشق، خصوصا أنه لم يبق بها إلا الضعاف والعجزة، بعد هرب السلطان وعسكره، إلا أنه كان مصرا على معاقبتهم؛ بحجة أنهم قاتلوه[١]، مما يفيد بأن ما قام به الشيخ ابن مفلح مع تيمور له ما يبرره؛ وهو حرصه على سلامة أهل دمشق من العقاب، مقابل افتداء أنفسهم بأموالهم، ومن المعلوم في مقاصد الشريعة الإسلامية أن حفظ النفس والعرض مقدم على حفظ المال[٢]، وهي قاعدة – يترجح – أن الشيخ استند إليها في موقفه ذاك مع تيمور لنك.

إضافة إلى ذلك، فإن الشيخ - على ما يبدو - أراد درء أعظم المفسدتين بارتكاب أقلهما ضررا، انطلاقا من نظرة فقهية شرعية مرتكزة على قواعد أصولية مثل: قاعدة: " إذا تزاحمت المفاسد واضطر إلى فعل أحدهما قدم الأخف منها "[٣]، وقاعدة: " الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف "[٤]، وقاعدة: " يختار أهون الشَرَّيْن "[٥]، وقاعدة: " يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام "[٦].

---

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص١٠٤.

(٢) من القواعد الأصولية التشريعية " بيان المقصد العام من التشريع " إذ إن " المقصد العام للشارع من تشريعه الأحكام، هو تحقيق مصالح الناس بكفالة ضرورياتهم، وتوفير حاجياتهم وتحسيناتهم "، والأمور الضرورية للناس ترجع إلى خمسة أشياء هي: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وتعرف بالضرورات الخمس أو الكليات الخمس، وهي في أهميتها بهذا الترتيب، وعند تعارضها تراعى حسب ترتيبها ذلك. خلاف، عبد الوهاب، علم أصول الفقه، دار القلم، الكويت، ط١٨، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ص٢٠٣-٢١٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: خلاف، أصول الفقه.

(٣) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر(ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة، تحقيق: خالد بن علي المشيقح، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص٦٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن سعدي، القواعد.

(٤) الحريري، إبراهيم محمد محمود، المدخل إلى القواعد الفقهية الكلية، دار عمار، عمان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨، ص٩٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الحريري، المدخل.

(٥) المرجع نفسه، ص٩٤.

(٦) المرجع نفسه، ص٩٦.

فمن وجهة نظر الشيخ أن حفظ البلاد من التدمير، وافتداء دماء الناس وأعراضهم بالأموال أمــر في غاية الأهمية، ومفسدة فقد الأموال أقل من مفسدة سفك الدماء، وأقل كــذلك مــن مفســدة هتــك الأعراض؛ ولأجل هذا سعى الشيخ في حث أهل دمشق على بذل أموالهم في سبيل نجاة أرواحهــم وأعراضهم، إلا أن الأمر خرج بعد ذلك من يده؛ لدهاء تيمور وخبثه وغدره.

الأمر الآخر في هذه القضية، أن الشيخ ابن مفلح استند في موقفه إلى الدور الذي قام به العلمــاء مع غازان سنة (٦٩٩هــ/١٢٩٩م)، فأراد أن يقوم بالدور نفسه الذي قام به أولئــك العلمــاء، مــن التفاوض مع سلطان المغول تحقيقا لمصالح البلد.

ويعلق ابن قاضي شهبة على مراد الشيخ ابن مفلح هذا بقوله: " ... ظنا منه أن الأمر يكون كما وقع في قضية غازان، فلم يقع ذلك، غدروا فلم يفوا، وخرج إلى التتار غير مرة بسبب المســلمين، فلم يمكنه الدفع، وانفصل العدو، وقد حصل له ضعف بسبب ما قاساه من التعب، ومــا عاينــه مــن الهول "[١].

بل إن ابن حجر يصرح بمراد الشيخ هذا فيقول: " ... وكثر تردداه إلــى اللنــك؛ ليــدفع عــن المسلمين فلم يجب سؤاله "[٢].

فكلام ابن قاضي شهبة وابن حجر واضح في أن مراد الشيخ ابن مفلح كان حفظ مصلحة دمشق، ودرء أذى تيمورلنك وعسكره عن أهلها، مستندا في ذلك إلى أدوار سابقيه من علماء دمشــق مــع غازان سنة (٦٩٩هــ/١٢٩٩م)، إلا أن مراده لم يتحقق؛ لما اتصف به تيمور وعسكره مــن غــدر وخداع.

إضافة إلى ذلك فإن الشيخ لم يكن يهدف من خلال سعيه في التصالح مع تيمور إلى الوصول إلى مكاسب شخصية، والواقع يشهد بذلك، إذ إن الشيخ لم يتحصل بموقفه مع تيمور علــى أي مكســب ديني أو سياسي أو مالي، بل إن ما حصل له منهم كان على عكس ذلك، فبعض من يتــرجم للشــيخ

---

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص١٩٦-١٩٧.
(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٤٨.

يذكر في سبب وفاته أنه كان بسبب إيذاء المغول له، فالنعيمي يقول في الدارس: " حصل له تشويش في بدنه من أذى التمرية، وتألم إلى أن توفي سنة (٨٠٣هـ)"[١].

كما أن الشيخ ابن مفلح تصدى لتيمورلنك في بيان الحق في المسائل التي أثارها تيمور حول الفتن التي دارت بين أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم –[٢]، وهو أمر يدل على تصدي الشيخ للمغول بكل ما يمكنه القيام به.

ومن هنا ذهب الباحث إلى أن موقف الشيخ ابن مفلح في أصله كان رافضا للغزو التيموري لدمشق، فالشيخ سعى من خلال الدور الذي قام به لتحقيق مصالح أهل دمشق، وعدم توفقه في تحقيق ما أراده لا يعني بالضرورة تعاونه معهم وبالتالي سلبية موقفه. فقد مر سابقا في طيات البحث مواقف لعلماء سعوا فيها لتحقيق مصالح للمسلمين إلا أنهم لم يوفقوا في مساعيهم، ولم يعد موقفهم ذلك متعاونا مع المغول، وكذا كان موقف الشيخ ابن مفلح، فحسبه أنه اجتهد للتقليل من مفاسد احتلال تيمورلنك لدمشق، إلا أن الأمور لم تجر كما توقعها[٣].

٤- كشف شبهات تيمورلنك

من الجهود التي قام بها العلماء لتقليل مفاسد الاحتلال المغولي زمن تيمورلنك، تصديهم لكشف شبهات تيمور لنك التي كان يتعمد بها إثارة علماء البلاد التي يستولي عليها.

---

(١) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٣٧.

(٢) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٦١.

(٣) ذهب الباحث بني عيسى إلى القول بتعاون الشيخ ابن مفلح مع المغول، وكذا عدَّ أكرم العلبي موقف الشيخ ابن مفلح، وقد خالف الباحث ما ذهب إليه الباحثان الفاضلان مبررا تلك المخالفة بما جاء في المتن. بني عيسى، الغزو المغولي، ص ص١٣٢-١٣٣؛ العلبي، تيمورلنك، ص١٦٠.

ففي أثناء سيطرة تيمور على حلب جمع علمائها وفقهائها ليمتحنهم بأسئلته على عادته، وكان من العلماء الذين حضروا للقاء تيمور الشيخ محمد بن الشحنة[(١)]، والقاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي[(٢)]، والقاضي علم الدين القفصي المالكي[(٣)][(٤)].

ومن خلال نص اللقاء الذي دار بين تيمورلنك وعلماء حلب، يتبين أن موقف العلماء تجاه تيمور تجلى في الأمور الآتية:

- الحرص على بيان الحق فيما يتعلق بمشروعية غزو تيمورلنك لبلاد المسلمين.

فعندما سألهم تيمور أيهما يعد شهيدا من قتلى الطرفين المغولي والشامي، أجابه الشيخ ابن الشحنة بقوله: " هذا سؤال سئل عنه رسول الله **r** وأجاب عنه وأنا أجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله **r** ".

فقال تيمورلنك لمترجمه القاضي عبد الجبار الحنفي المعتزلي[(٥)] – وكان من العلماء المصاحبين لتيمور - : " يسخر من كلامي، كيف سئل رسول الله **r** ؟ وكيف أجاب؟ ".

---

(١) محمد بن محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي، ولد بحلب سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، وارتحل إلى دمشق، والقاهرة، وأخذ عن أعيانها، واشتهرت فضائله، وولي قضاء مصر ودمشق، كان من أفراد الدهر علما، وفصاحة، وعقلا، ورياسة، مات سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م). الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص ص٢٦٤-٢٦٥؛ ابن الشحنة، روض المناظر، مقدمة التحقيق، ص ص١١-١٣.

(٢) موسى بن محمد الأنصاري الشافعي قاضي حلب، ولد سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، كان من أهل العلم والدين، اشتغل كثيرا حتى صار فاضلا في العلوم، وأفتى، ودرس، وخطب، بجامع حلب، ولي القضاء مرارا، توفي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م. ابن حجي، تاريخ، ص٢٥٣، ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٤٣-٣٤٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٨٩.

(٣) محمد العيني بن محمد القفصي الدمشقي المالكي، ولي قضاء دمشق عدة مرات، كما ولي قضاء حماة، وحلب، توفي سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٣م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص١٢٢-١٢٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٨٣.

(٤) ابن الشحنة، روض المناظر، ص ص٢٩٩-٣٠٠.

(٥) عبد الجبار بن النعمان بن ثابت الحنفي المعتزلي، ولد بمرو سنة(٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، كان إماما، بارعا، متفننا في الفقه، والمعاني، والبيان، والعربية، واللغة، قدم بلاد الشام مع تيمورلنك، وكان معظما عنده، توفي سنة(٨٠٥هـ/١٤٠٣م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص١٠٣-١٠٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص ص١٤٣-١٤٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٣٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ٧٩.

فقال ابن الشحنة: " جاء أعرابي إلى رسول الله r، وقال يا رسول الله: " إن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليعرف مكانه، فأينا في سبيل الله؟ " فقال عليه الصلاة والسلام: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله "، " ومن قاتل منا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد "(١). فأعجب تيمور جواب الشيخ (٢).

ويتضح عند التأمل في إجابة الشيخ، أنها كانت إجابة مسكتة؛ تحمل رسالة واضحة لتيمور لا مواربة فيها ولا مداراة، مفادها أن احتلال تيمور لحلب وقتله لأهلها بغي وظلم وعدوان وليس من قتل فيه من جند المغول من الشهادة في شيء؛ إذ ليس هو من قبيل إعلاء كلمة الله، فلا هو فتح لبلد من بلاد الكفار، ولا لأجل القضاء على فتنة أودت ببلاد المسلمين، وأما أهل حلب، فأقله أن يشملهم حديث النبي r : " من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد "(٣).

- حث تيمورلنك لحقن دماء المسلمين

من الأمور التي قام بها العلماء لتقليل مفاسد احتلال تيمورلنك لحلب، حثه على التوقف عن سفك دماء المسلمين، فحين قال تيمور لعلماء حلب: " إني رجل نصف آدمي – يشير إلى عرجته – وقد

---

(١) الحديث متفق عليه، عن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه -، قال: " جاء رجل إلى النبي r فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله عي العليا فهو في سبيل الله ". البخاري، محمد بن إسماعيل(ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله r، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، كتاب التوحيد، رقم: ١٢٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: صحيح البخاري؛ مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(ت٢٦١هـ/٨٧٤م)، الجامع الصحيح، دار المغني، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، باب الإمارة، رقم: ١٩٠٤، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: صحيح مسلم.

(٢) ابن الشحنة، روض المناظر، ص ص٢٩٩-٣٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٨١.

(٣) أبو داود، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني(ت٢٧٥هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، د.ت، كتاب السنة، باب في قتال اللصوص، رقم: ٤٧٧٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: أبو داود، السنن؛ الترمذي، الإمام محمد بن عيسى بن سورة(ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، الجامع المختصر من السنن عن رسول الله r ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل المعروف بسنن الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، د.ت، كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، رقم: ١٤٢١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الترمذي، السنن.

أخذت بلاد كذا وكذا "، وعدد سائر ممالك العجم والعراق والهند وبلاد التتار، قال لــه الشـــيخ ابـــن الشحنة: " اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمة، ولا تقتل أحدا "[١].

ويبدو أن نصيحة الشيخ هذه وجوابه على سؤال تيمور السابق عن الشهيد، أثمرا – ولو وقتيـــا – في كف تيمور عن مواصلة اعتدائه على أهل حلب، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وحلف ألا يقتـــل أحدا[٢]، " فحصل بذلك لأهل حلب بعض رفق بالنسبة لغيرهم" كما يقول ابن تغري بردي[٣].

ولما استمر جنود تيمور في قتل أهل حلب، توجه الشيخ ابن الشحنة إلى معسكر المغول خـــارج حلب، فقابل تيمورلنك وذكره بالأمان الذي منحه للسكان، فاعتذر تيمورلنك عن ذلك بأنه حدث خطأ في فهم أوامره، حيث طلب هو إحضار رؤوس الموتى لإقامة أبراج منها إظهـــارا لعظمتـــه علـــى جري عادته، لا أن يقتل الأحياء[٤].

- الحرص على بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في قضية الخلافة[٥]، وفي الفتنـــة التـــي قامت بين علي ومعاوية[٦] - رضي الله عنهما - أمام تيمور.

---

(١) ابن الشحنة، روض المناظر، ص٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٠.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٨١.

(٤) ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص٢١٩.

(٥) يعتقد أهل السنة والجماعة أن الخلافة بعد رسول الله r تثبت أولا لأبي بكر الصديق – رضـــي الله عنـــه - تفضيلا وتقديما له، على جميع الأمة، ثم لعمر، ثم لعثمان، ثم لعلي - رضي الله عنهم -. ابن العز، علي بن علي ابن محمد الحنفي(ت٧٩٢هـــ/١٣٨٩م)، شرح عقيدة الطحاوي، تحقيق: مجموعة من العلماء، المكتب الإســـلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـــ/٢٠٠٦م، ص ص٣٦٣-٣٧٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن العز، شـــرح عقيـــدة الطحاوي.

(٦) الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، هي الخلاف الذي دار بينهما، على إثر مقتل عثمان – رضي الله عنه - سنة (٣٥هـــ/٦٥٥م)، حيث رفض معاوية مبايعة علي - الذي بايعه المسلمون بالخلافة - إلا بعد تســـليم قتلـــة عثمان والقصاص منهم، وكان رأي الخليفة علي أن القصاص لا بد منه ولكن بعد استقرار أوضاع الأمة، ومبايعة معاوية لعلي، وقد انتهى هذا الخلاف بالتصادم العسكري بينهما في موقعة صفين سنة (٤٠هـــ/٦٦٠م)، ويعتقد أهل السنة والجماعة في هذا الخلاف، أن الحق كان مع علي- رضي الله عنه - بسبب مبايعته الشرعية بالخلافة من قبل غالب أهل الحل والعقد، ولكنهم لا يكفرون معاوية، ولا يفسقونه، بل يترضون عنه؛ لفضل صحبته، ولأن بغيه على علي كان بتأويل أخطأ فيه. البغدادي، الفرق، ج٣٧٣؛ ابن العربي، القاضي أبوبكر محمد عبـــد الله الإشـــبيلي= =

فقد سأل تيمور علماء حلب عن رأيهم في علي ومعاوية ويزيد[١]، فأجابه القاضي علم الدين المالكي بأن عليا - رضي الله عنه – اجتهد فأصاب فله أجران، وأن معاوية – رضي الله عنه – اجتهد فأخطأ فله أجر واحد؛ فغضب تيمور من ذلك[٢]، وقال: " أتجعل لمعاوية أجرا ؟"، فقتله[٣].

ثم قال تيمور لابن الشحنة: " قل: علي على الحق، ومعاوية ظالم "، إلا أن الشيخ لم يجب تيمور بما أراد، بل ورَّى في إجابته ليدرأ شره، وليوافق معتقد أهل السنة في هذه القضية؛ فقال: " الحق كان مع علي، وليس معاوية من الخلفاء، فإنه صح عن رسول الله r أنه قال: " الخلافة بعدي ثلاثون سنة "[٤]، وقد تمت بعلي "[٥]. وقد اهتبل الشيخ ابن الشحنة إعجاب تيمور لنك به؛ فعمل أثناء إقامته في قلعة حلب على الشفاعة عند الأمير موسى بن الحاجب طغاي أمير حلب من قبل تيمور لما فيه الخير لأهل حلب، وبعد رجوع تيمور من دمشق، أذن له في أن يطلب فكاك أسر المسلمين الموجودين بحلب، ففك معه نحوا من ألفي أسير[٦].

=المالكي(ت٥٤٣هـ/١١٤٨م)، العواصم من القواصم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ط، د.ت، ص ص٣٠٦-٣٠٨، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن العربي، العواصم.

(١) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ولد حوالي سنة (٢٦هـ/٦٤٦م)، تولى الخلافة بعهد من أبيه سنة (٦٠هـ/٦٧٩م)، وهو أول من غزا مدينة القسطنطينية سنة (٥٠هـ/٦٧٠م)، توفي سنة (٦٤هـ/٦٨٣م)، والناس في يزيد طرفان ووسط، فقوم يعتقدون أنه كان من الخلفاء الراشدين المهديين، وقوم يكفرونه، والحق أنه ملك من ملوك المسلمين وخليفة من الخلفاء الملوك، وهو ممن " لا نسبه ولا نحبه " على حد قول الذهبي. ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في الرد على الرافضة القدرية، (٨ج)، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، د.م، ط١، د.ت، ج٤، ص ص٣٢٩-٣٣٠؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن تيمية، منهاج السنة؛ الذهبي، تاريخ، ج٤، ص ص١٦٧-١٧٠ و ج٥، ص ص٢٦٩-٢٧٥؛ الذهبي، السير، ج٤، ص٣٦؛ ابن كثير، البداية، ج٨، ص ص٣٢٠-٣٢٣.

(٢) ابن الشحنة، روض المناظر، ص٣٠٠؛ ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢١٦.

(٣) ابن سباط، تاريخ، ج٢، ص٧٦٠.

(٤) أخرجه أبو داود عن سفينة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله r : " خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك أو ملكه من يشاء ". أبو داود، السنن، باب: ما جاء في الخلافة، رقم: ٤٦٤٦؛ ورواه أيضا الترمذي بلفظ: " الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك ". الترمذي، السنن، كتاب الفتن، باب: ما جاء في الخلافة، رقم: ٢٢٢٦.

(٥) ابن الشحنة، روض المناظر، ص٣٠١.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٠٠.

كما عمل علماء حلب على تصحيح فهم تيمورلنك ومعتقده في الصحابة، فعندما لعــن تيمورلنــك معاوية – رضي الله عنه -، رد عليه القاضي شرف الدين الأنصاري الشافعي، " بأنــه لا يجــوز لعنه؛ لصحبته ". فقال تيمور: " ما حد الصحابي؟ "(١) فأجاب القاضي شرف الدين: " أنه كــل مــن رأى النبي r ، فقال تيمور: " فاليهود والنصارى رأوا النبي r "، فأجــاب القاضــي: "بــأن ذلــك مشروط بكون الرائي مسلما"(٢).

كما أن العلماء لم يقروا تيمور على لعنه ليزيد؛ فالقاضي شرف الدين رد على لعن تيمور ليزيــد، بقوله " أنه رأى في حاشية على بعض الكتب أنه يجوز لعنه؛ فغضب من ذلك "(٣). وهو جواب يدل على أن أهل السنة لم يكن من أصول عقائدهم لعن المسلمين - بمن فيهم يزيد - والفرق كبير بــين تخطئة المخطئ ولعنه(٤).

والسؤال الذي يطرح هنا: هل الهدف الفكري عند تيمورلنك كان يشكل هدفا مهما فــي حروبــه ضد بلاد الشام؟!

وقد تكرر نفس الأسلوب الذي قام به تيمورلنك مع علماء حلب، فعندما سيطر على دمشق جمــع علمائها وناظرهم في موقف أهل السنة والجماعة من القضايا السابقة التي أثارها عند علماء حلب.

---

(١) يعرف العلماء الصحابي، بأنه كل من لقي النبي r مسلما، ومات على الإسلام. الأنصاري، القاضي زين الدين زكريا بن محمد السبكي(ت٩٢٦هـ/١٥١٩م)، فتح الباقي بشرح ألفية العراقي(٢ج)، تحقيق: عبد اللطيف الهميم وماهر فحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج٢، ص١٨٦، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الأنصاري، فتح الباقي.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٤٧؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ص١٧٥-١٧٦.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٤٧؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ص١٧٥-١٧٦.

(٤) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة، أن لعنة الفاسق المعين ليس مأمورا بها، إنما جاءت السنة بلعنة الأنواع، كلعنة السارق وآكل الربا والمحلل والمحلل له دون تعيين. ابن تيمية، منهاج الســنة، ج٤، ص ص٣٤٣-٣٤٤.

فعندما سيطر تيمور على دمشق قام بجمع علمائها؛ لمناظرتهم وامتحانهم بما امتحن بــه علمــاء حلب، ومن القضايا التي أثارها تيمور قضية الفتنة[١] التي دارت بين علي ومعاوية – رضـــي الله عنهما – وبين الحسين[٢] – رضي الله عنه – ويزيد بن معاوية[٣]. وقد استهل تيمور نقاشه للعلمــاء بتبيين معتقده في هذه القضية، وأنه من أنصار علي والحسين – رضي الله عنهما -، وأن معاويــة وابنه يزيد ظالمان، وأن أهل الشام كانوا من أشياعهم فهم ظالمون مثلهم، وأن الحاضرين من أهــل الشام على مذهب سلفهم.

فتيمور هنا كأنه يبين لهم أنه جاء لينتقم ممن شايع معاوية، ولينتقم من قتلة الحسين، فهو يستخدم أسلوبا ملؤه التهديد والوعيد تجاه العلماء؛ ليدفعهم نحو تقرير معتقــده فـــي جـــوابهم، وإلا ســيكون مصيرهم سيئا عنده، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهو يحاول أن يشرعن جرائمـــه التـــي ينـــوي ارتكابها في دمشق على اعتبار أن الانتقام ممن صادم عليا وحسينا - رضي الله عنهما – قربة مـــن القربات[٤].

---

(١) الفتنة التي دارت بين الحسين ويزيد: هي الخلاف الذي نتج عن رفض الحسين - رضي الله عنه - مبايعة يزيد بالخلافة بعد وفاة أبيه معاوية - رضي الله عنه -، حيث ترتب على ذلك توجه الحسين إلى الكوفة بعد أن جاءتــه =كتب كثيرة من عامة أشرافها يدعونه فيها للقدوم إليهم لإعلان مبايعته، وفي أثناء مسيره إليهم نكثوا في وعــدهم للحسين، فتلقاه جيش يزيد بكربلاء فجرى ما قدره الله تعالى من قتله مظلوما - رضي الله عنه -. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)، الإمامة والسياسة(٢ج)، تحقيق: خليل المنصــور، دار الكتــب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص ص١٨٢-١٨٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة؛ الذهبي، تاريخ، ج٤، ص ص١٦٧-١٧٠.

(٢) الحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهما - ريحانة رسول الله ﷺ وابن ابنته فاطمة – رضي الله عنها - ولد سنة (٤هـ/٦٢٥م) بالمدينة النبوية، ومات بكربلاء مقتولا شهيدا سعيدا سنة (٦١هـ/٦٨٠م). الذهبي، تاريخ، ج٥، ص ص٩٣-١٠٨.

(٣) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ولد سنة (٢٥ أو٢٦هـ/٦٤٥ أو٦٤٦م)، تولى الخلافة بعهد مـــن أبيـــه ســـنة (٦٠هـ/٦٧٩م)، مات سنة (٦٤هـ/٦٨٣م). الــذهبي، تــاريخ، ج٤، ص ص١٦٧-١٧٠ و ج٥، ص ص٢٦٩-٢٧٥.

(٤) مر في مبحث المغول والإسلام ما يدل على سنية تيمور لنك، وأما موقف تيمور لنك من معاوية ويزيد فلا يدل على تشيعه بقدر ما يدل على تأثره بعقيدة شيعية مفادها وجوب الانتقام من كل أعداء آل البيت من وجهـــة النظـــر الشيعية، ومن منطلق دهاء تيمور وخبثه أراد أن يوجه تلك العقيدة الدينية لتحقيق مآربه السياسية في بلاد الشام. عن تلك العقيدة الشيعية ينظر: الخزاري، محسن، بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، دار الميزان، بيروت، ط١، ١٤١٢ه/١٩٩٢م، ص ص٤٢٤-٤٢٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الخزاري، بداية المعارف.

وكان أول ما سأل به علماء دمشق عن الفتنة التي دارت بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - والحسين- رضي الله عنه - ويزيد بن معاوية، فوضح له القاضي ناصر الدين محمد بن أبي الطيب كاتب السر(١)، ابتداء أن نسبه يتصل بعمر وعثمان – رضي الله عنهما -، وأن جده الأعلى توصل إلى رأس الحسين وغسله وطيبه ودفنه؛ ولأجل ذلك سموا بالطيب؛ فهش تيمور لذلك وبش، ثم أجابه القاضي على سؤاله عن الفتنة بما معناه، " أن تلك أمة قد خلت، وأزمانها قد انقضت، وما دار بينها فتنة أزاحنا الله عنها، ودماء طهر الله سيوفنا منها، وأما الساعة فاعتقادنا اعتقاد أهل السنة والجماعة "(٢).

ومما سألهم أيضا ما أعلى الرتب، درجة العلم أو درجة النسب؟

فأجابه القاضي شمس الدين النابلسي الحنبلي(٣) بقوله: " درجة العلم أعلى من درجة النسب؛ بدليل تقديم الصحابة لأبي بكر على علي – رضي الله عنهما – وقد أجمعوا على أن أبا بكر أعلمهم وأثبتهم قدما في الإسلام وأقدمهم، والدليل قوله r : " لا تجتمع أمتي على ضلالة (٤). ثم أخذ ينزع ثيابه؛ استعدادا للشهادة، وقال: " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر "٥؛ فأمر تيمور بإخراجه

---

(١) القاضي ابن أبي الطيب، ولد سنة (٧٤٦هـ/١٣٤٥م)، ولي كتابة السر عدة مرات، وولي مشيخة الشيوخ، وكان عاقلا، ساكنا، ودرس ببعض مدارس دمشق، كما تولى نظر الخزانة. ابن حجي، تاريخ، ص٢٤٢؛ ابن قاضي شهبة، ج٤، ص ص٢٣٩-٢٤٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٢٩-٣٣٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص ص٢٦٢-٢٦٣.

(٢) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص ص٢٦٢-٢٦٣.

(٣) ولي قضاء الحنابلة بدمشق، توفي سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٣م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص١١٦-١١٩؛ النعيمي، الدارس، ج٢، ص ص٣٦-٣٧.

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك t قال: " سمعت رسول الله r يقول: إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم ". قال الشيخ الألباني: " ضعيف جدا دون الجملة الأولى فهي صحيحة ". ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(ت٢٧٣هـ/٨٨٦م)، سنن ابن ماجه، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، د.ت، كتاب الفتن، باب السواد الأعظم، رقم: ٣٩٥٠؛ وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن ماجه، السنن.

(٥) الحديث صحيح أخرجه أصحاب السنن عن أبي سعيد الخدري بألفاظ متقاربة ونصه: قال رسول الله r : " أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ". أبو داود، السنن، كتاب الملاحم، باب في الأمر والنهي، رقم: =٤٣٤٤؛

وعدم إدخاله عليه بعد ذلك[١].

ومن موقف القاضي النابلسي مع تيمور تتضح أمور، منها:

- تبيين الشيخ النابلسي لموقف أهل السنة في قضية خلافة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – بكل وضوح، دون خوف من تيمور.
- إعلان جور تيمور لنك أمام الملأ، وهو بهذا يؤكد على ضرورة مقاومة تيمور لنك؛ لأنه معتد باغ جائر على الحق والخلق.
- طمع هذا العالم في نيل الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومن الأسئلة التي وجهها تيمورلنك لعلماء دمشق أيضا، سؤاله لابن مفلح الحنبلي " أيهما أفضل، الإمام أبو حنيفة أو الإمام الشافعي؟ "، فأجابه الشيخ: " أنه لا يفرق بينهما إلا من يكون نظيرهما "، فأسكته[٢].

وأما العلاقة بين قيام علماء حلب ودمشق ببيان معتقد أهل السنة والجماعة في المسائل التي مر ذكرها وبين التقليل من مفاسد الاحتلال المغولي، فتكمن في الحرص على حفظ المجتمع المسلم من نشر الأفكار المنحرفة من قبل المحتل بما لا يتوافق مع أفكار أهل البلاد وعقائدهم.

والذي يبدو أن تيمور كان يهدف من امتحان العلماء بهذه الأسئلة إلى أمرين:

الأول: تمحيص أفكار العلماء ومبادئهم وتوجهاتهم، ليبني عليها ما يقرره ضدهم من قتل وغيره.

الثاني: أنه كان يهدف إلى الحصول على شرعية احتلاله لبلاد الشام، من خلال اعتراف العلماء له بذلك؛ فالعلماء بالرغم من اجتماعهم مع تيمور، إلا أنهم لم يعترفوا بسلطته على الشام، وبالتالي فإن مفاوضاتهم معه كانت من أجل العمل على رجوعه إلى بلاده.

الترمذي، السنن، كتاب الفتن، باب: ما جاء في أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم: ٢١٧٤؛ ابن ماجه، السنن، كتاب الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم: ٤٠١٢.

(١) ابن عربشاه، عجائب المقدور ص ص٢٦٣-٢٦٤.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص١٠٥.

٥- موقف العلامة ابن خلدون[١] من تيمورلنك

من العلماء الذين التقوا بتيمورلنك أثناء سيطرته على دمشق وبذلوا جهودهم للتقليل مـن مفاسـد غزوه لبلاد الشام، العالم الكبير عبد الرحمن بن خلدون، ويمكن تجلية موقف ابن خلدون من تيمـور في النقاط الآتية:

- أن ابن خلدون لم يبادر من قبله لمقابلة تيمورلنك إذ إنه لم يذهب إليه إلا بعد أن علم من القاضي ابن مفلح أن تيمور لنك سأل عنه شخصيا[٢]؛ فلذا قرر الذهاب إليه معللا ذلـك بقوله: " فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحرا إلى جماعة القضـاة عنـد البـاب، وطلبت الخروج أو التدلي من السور؛ لما حدث عندي من توهمات ذلـك الخبـر "[٣]، ويقول في كتابه الذي وجهه لصاحب المغرب بعد رجوعه إلى مصـر: " وسـمعت أن سلطانهم تمر سأل عني فلم يسع إلا لقاؤه، فخرجت إليه من دمشق"[٤].
- أن ابن خلدون كان في تعامله مع تيمورلنك مداريا له، يستخدم التوريـة والحكمـة مـا أمكن، فابن خلدون قبل يد تيمور، وأكل من طعامه، وقدم له هدية، فوقع ذلك من تيمور موقعا حسنا، وقد كان ابن خلدون يهدف من ذلك الحصول على أكبر قدر من المكاسب له ولأهل الشام ومصر، ويدل على ذلك قول ابن خلدون في الرحلـة: " وقـد غلبنـي الوجل بما وقع من نكبة قاضي القضاة الشافعية صدر الدين المناوي، أسـره التـابعون

---

(١) الإمام العلامة عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي، ولد سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م) بمدينة تونس ببلاد المغرب، وفي سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) رحل إلى مصر وتولى القضاء بها عدة مرات، كان رجلا فاضلا، تقدم في فنون عقلية ونقلية، من أبرز مؤلفاته كتاب التاريخ مع مقدمته الشهيرة، توفي بمصر سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص٣٢٧-٣٣٢؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص ص٢٠٥-٢٠٩؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص١١٤-١١٥.

(٢) كيف تعَرَّف تيمور لنك على ابن خلدون وعلى وجوده في دمشق؟! يورد مصطفى جواد المعلق على الترجمة الانجليزية لكتاب " لقاء ابن خلدون لتيمورلنك " احتمالين لذلك، الأول: إخبار القاضي ابـن مفلـح عـن العلمـاء الموجودين بدمشق بعد هروب السلطان، والثاني: أنه علم به عن طريق جواسيسه ومخبريه. فيشل، لقاء، ص١١٦.

(٣) ابن خلدون، الرحلة، ص٢٨٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٧.

لعسكر مصر بشقحب وردوه، فحبس عندهم في طلب الفدية منه، فأصابنا من ذلك وجل، فزورت في نفسي كلاما أخاطبه به، وأتلطفه بتعظيم أحواله وملكه"[١].

ومن هنا يبدو أن ابن خلدون همه أمر القاضي المناوي وأمثاله من الواقعين في أسر المغول؛ فتحيل بذكائه لتخفيف معاناتهم وفك أسرهم.

وقد قام ابن خلدون فعلا بهذا الدور حيث استشفع تيمورلنك في فك أسارى أهل مصر من القراء والعمال وموقعي الدواوين ومنهم القاضي صدر الدين أحمد بن قاضي القضاة جمال الدين محمود القيصري، وطلب منه أن يكتب لهم كتاب أمان في ذلك، فوافقه تيمور على ذلك الأمر[٢].

وأكد ابن خلدون دوره هذا في كتابه الذي بعثه لصاحب المغرب حيث يقول فيه : " واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق "[٣].

- أن ابن خلدون كان راغبا في الخلاص من تيمور لنك، ويبدو هذا من قوله بعد رجوعه إلى مصر : " وحمدت الله على الخلاص "[٤]، وهي عبارة توحي بأن الخلاص من تيمور نعمة استوجبت منه حمد الله وشكره، ويؤكد ذلك عبارة ابن العماد في الشذرات: " ... إلى أن خلصه الله من يده "[٥]، يقصد خلاص ابن خلدون من تيمورلنك.

خامسا: إصلاح أضرار الغزو المغولي

قام العلماء في فترة الغزو المغولي الثاني بأعمال عدة تندرج ضمن إصلاح المفاسد التي ارتكبها المغول في بلاد الشام، ومنها قيام الشيخ زين الدين الفارقي[٦] خطيب دمشق وشيخ دار الحديث،

---

(١) ابن خلدون، الرحلة، ص٢٩٠.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٥٦؛ ابن خلدون، الرحلة، ص ص٢٩٥-٢٩٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٢٢.

(٣) ابن خلدون، الرحلة، ص٢٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٧.

(٥) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص١١٥.

(٦) زين الدين عبد الله بن مروان الشافعي، ولد سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، اشتغل، وأفتى، وولي مشيخة دار الحديث بعد الإمام النووي، توفي سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م). السبكي، طبقات الشافعية، ج١٠، ص ص٤٤-٤٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص١٦-١٧.

بتعمير مشيخة دار الحديث بعد خرابها في فتنة غازان سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)[١]، كما قام الشيخ الصدر الأصيل صلاح الدين أبو الصفا المعروف بابن الشيرجي، بتعمير المدرستين الشاميتين اللتين خربهما المغول عند غزوهم لدمشق[٢].

ومن المفاسد التي نتجت عن احتلال المغول لمدينة دمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) فتح الخمارات وحانات الزنا، فلما رحلوا عن دمشق قام قبجق - نائب الشام عن المغول - بضمان هذه الأماكن الفاسدة، فنهض إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال له: " إن الذي فعلته من ضمان الخمور شنعة كبيرة، وثلمة عظيمة في حق الإسلام "، واستأذنه في إبطالها، فأذن له، فقام الشيخ وأصحابه وداروا على أماكن الخمور والحانات، فكسروا آنية الخمور وشققوا ظروفها وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش[٣].

---

(١) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص١٧؛ الحصني، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات التواريخ لدمشق(٣ج)، تقديم: كمال سليمان الصليبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٢، ص٥٢٣، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الحصني، منتخبات التواريخ.

(٢) النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٢٦.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٥١؛ البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٧٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٥ و ص٦٢٧؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٠؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٤٧.

المبحث الثاني

المواقف الفكرية لعلماء العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي الثاني

أولا: الدعاء والقنوت

اهتم العلماء بأمر الدعاء والقنوت في الصلوات؛ ليرد الله عن مسلمي الشام بغي المغول، ولينصر الله عساكر المماليك عليهم.

ومن الأمثلة على قيام العلماء بالقنوت والدعاء أثناء الغزو المغولي الثاني:

١- دعاء وقنوت الأئمة في الغزوات الغازانية لبلاد الشام

لما قدم غازان مهاجما بلاد الشام سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) قام خطيب الجامع الأموي الشيخ ابن جماعة بالقنوت في الصلوات، واقتدى به جميع الأئمة(١).

وتكرر ذلك سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) عندما هجم المغول على بلاد الشام، كما قنت أئمة المساجد الأخرى بدمشق(٢)، واستمروا في قنوتهم من أواخر ربيع الآخر حتى أوائل جمادى الآخرة حتى رحل المغول عن البلاد(٣).

كما قنت أئمة دمشق في الصلوات لما تواردت الأخبار بقدوم المغول لغزو بلاد الشام سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، وقرئ صحيح البخاري(٤).

ويذكر العيني أنه في هذه السنة اجتمع مشايخ دمشق وفقهاؤها وصلحاؤها وقضاتها بالجامع الأموي، ووطنوا أنفسهم على الموت، وكشفوا رؤوسهم يتضرعون إلى الله تعالى ويبكون حتى طلوع الفجر، وفي الصباح علموا أن العدو قد رجع عن دخول دمشق وتوجه نحو شقحب ففرحت

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢١؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦١٩.

(٢) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص١٣١؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٦٣٣-٦٣٤.

(٣) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص١٣١ و ص١٣٩.

(٤) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢١٥؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢٢.

الناس لذلك، وعلموا أن الله قد استجاب دعائهم ورحمهم واستمروا مقيمين في الجامع مشتغلين بالدعاء والقنوت في الصلوات[١].

٢- دعاء وقنوت الأئمة عند هجوم المغول على الرحبة سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م)

عندما وصلت الأخبار إلى دمشق بمحاصرة المغول للرحبة في رمضان سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م) قنت خطيب الجامع الأموي في الصلوات الخمس، وتبعه أئمة المساجد الأخرى، واجتهد الناس في الدعاء في أوقات مختلفة، واستمر الأئمة في القنوت إلى أن جاءت الأخبار بنزوح المغول عن الرحبة وعن البلاد الشامية، وكان ذلك في آخر يوم من شهر رمضان. وفي خطبة العيد ذكر الخطيب للناس نعمة رجوع المغول عن الرحبة والبلاد الشامية، وأمر بالشكر عليها وحض على ذلك[٢].

ثانيا: التأليف

حرص العلماء في فترة الغزو المغولي الثاني على الكتابة حول هذا الغزو بما يكشف عن حقيقة موقفهم تجاهه من ناحية، وبما يوضح للمسلمين عبر الأجيال المتعاقبة طبيعة الصراع بين المسلمين في بلاد الشام ومصر وبين المغول.

ومن المواضيع التي ألف فيها العلماء في هذه الفترة:

١- مؤلفات متعلقة ببيان فضل الجهاد والمجاهدين

أ- ألف عبدالله بن ميمون المتوفى سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) كتاب " الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ وما هو نحرير بالسهم الطويل والقصير ".

وقد اشتمل الكتاب على اثنين وسبعين بابا، افتتحها بباب في الجهاد والرباط وفضلهما، واشتملت الأبواب الأخرى على بيان آلات الرمي وأنواعها، وأنواع الأقواس والسهام[٣].

---

(١) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص٢٢٨-٢٢٩.

(٢) البرزالي، وفيات، ص ص١٨٥-١٨٦؛ المقتفي، ج٤، ص٨٤.

(٣) ابن ميمون، عبد الله، الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ أو مهير، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، د.ط، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن ميمون، الإفادة والتبصير.

ب- ألف قاضي القضاة ابن جماعة عدة كتب تدور موضوعاتها حـول الجهـاد، وبيـان فضائله، وهذه الكتب هي:

" تجنيد الأجناد وجهات الجهاد "[١].

" مستند الأجناد في فضل الجهاد "[٢].

وقد بين الشيخ ابن جماعة في مقدمة كتابه الثاني أن سبب تأليفه له هو أمر السلطان إياه بتـأليف كتاب في آلات الجهاد؛ ليكون مستندا للغزاة في سبيل الله، وقد رتبه في ثلاثين بابا اختتمها ببـاب " في قتال الروم والترك واليهود "[٣].

والشاهد فيما يخص البحث قتال الترك؛ فمن المعلوم أن المغول من أجناس الترك، حيـث ذكـر الشيخ حديثا أخرجه البخاري – رحمه الله - ، عن أبي هريرة t قال: قـال رسـول الله r : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجـان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر "[٤].

والمقصود من هذا كله أن الشيخ ابن جماعة أثار في مؤلفه السابق قضية الهجوم المغولي علـى بلاد المسلمين، قاصدا منها تحفيز أهل الإسلام على جهادهم، واستشعار فضيلة ذلك بعد أن ساق لهم الحديث النبوي المرغب في قتال المغول المعتدين والباغين على بلاد المسلمين.

كما ألف الشيخ ابن جماعة كتابا ثالثا في موضوع الجهاد وفضائله، وعنوان هذا الكتاب " مختصر في فضل الجهاد "[٥]، وبين المؤلف أن سبب تأليفه لهذا الكتاب هو إشارة السلطان الأشرف خليل بن

---

(١) خلف، القاضي ابن جماعة، ص٢٧٠.

(٢) نشرت هذا الكتاب وزارة الثقافة والإعلام العراقية سنة ١٩٨٣م، بتحقيق أسامة ناصر النقشبندي.

(٣) ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم الحموي الشافعي(ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، مستند الأجناد في آلات الجهاد، تحقيق: أسامة ناصر النقشبندي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ص٢٩-٣١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن جماعة، مستند الأجناد.

(٤) سبق شرح هذا الحديث ص ص١٨١-١٨٢.

(٥) نشرته وزارة الثقافة والإعلام العراقية سنة ١٩٨٣م، ملحقا بكتاب مستند الأجناد، بتحقيق أسامة النقشبندي.

قلاوون له بتأليف مختصر في الجهاد، يتضمن تجنيد الجيوش وتدبيرها، وجهات أرزاقهم وتقديرها، استنادا إلى السنة والآثار وأقوال العلماء[١].

ت- ألف الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان النبحالي[٢] المتوفى سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) كتابين في الجهاد[٣].

والشيخ كان معاصرا لغزو تيمورلنك للعراق وبلاد الشام، فلا يبعد أن يكون من أسباب تأليفه لهذين الكتابين حرصه على حث الناس في بلاد الشام والديار المصرية على مجاهدة بغي تيمور لنك وردِّ عدوانه عن بلادهم.

ث- ألف العلامة أبو زكريا محي الدين بن النحاس[٤] كتابا حافلا في الجهاد، سماه " مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام "، ثم اختصره[٥].

والشيخ أحد العلماء المعاصرين لغزو تيمورلنك للعراق وبلاد الشام بل وكان أحد سكان دمشق الذين تضرروا من جراء هذا الغزو، كما أنه كان من الحريصين على المرابطة والجهاد في سبيل الله حتى أنه قتل شهيدا بأيدي الفرنج قرب دمياط سنة (٨١٤هـ/١٤١١م)[٦].

ولذا فإن تأليفه في الجهاد يعد دعوة منه لعموم المسلمين بضرورة القيام بواجب الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد بين الشيخ في مقدمة كتابه الغرض من تأليفه للكتاب المذكور، حيث يقول: " أحببت

---

(١) ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم الحموي الشافعي(ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، مختصر في فضل الجهاد، تحقيق: أسامة ناصر النقشبندي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ص٩٩-١٠٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن جماعة، فضل الجهاد.

(٢) الشيخ محمد بن عثمان بن شكر البعلي الدمشقي، ولد سنة (٧٣٥هـ/١٣٣٤م)، سمع الكثير، وحدث وأفاد، وكان صالحا، دينا، خيرا، متواضعا، مات في رمضان سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م). ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٣٣٨-٣٣٩؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٢٧-٣٢٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٦٠.

(٣) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٣٣٨-٣٣٩؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٢٧-٣٢٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٦٠.

(٤) الشيخ الإمام العلامة القدوة أحمد بن إبراهيم بن أحمد ، كان يعرف الفرائض والحساب أتم معرفة، أكثر المرابطة والجهاد، توفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) (. السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٠٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص١٥٧.

(٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٠٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص١٥٧.

(٦) السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٠٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص١٥٧.

أن أوقظ الهمم الرقد، وأنهض العزم المقعد، وألين الأسرار الجامدة، وأبين الأنوار الخامدة، بمؤلف أجمع فيه فضل أنواع الجهاد والحض عليه ..."[١].

وقد جاء الكتاب في ثلاثة وثلاثين بابا اشتملت في مجملها على بيان فضل الجهاد والرباط والترغيب فيهما، وبيان فضل الشهادة في سبيل الله، وبيان الأحكام الشرعية للجهاد والمجاهدين.

ومن هنا يمكن القول أن التأليف في موضوع الجهاد في هذه الفترة، إنما يأتي في سياق تداعيات الغزوين المغولي والفرنجي على البلاد الإسلامية، وبالتالي فإن تأليف مثل هذه الكتب يمثل دعامة قوية للمسلمين في التصدي لأعدائهم، من خلال رفع الروح المعنوية للقتال والتضحية بالأرواح والأموال في سبيل الله تعالى.

٢- مؤلفات خاصة متعلقة بالغزو المغولي الثاني

أ- ألف القاضي علاء الدين علي بن محمد بن عبد الظاهر[٢] مؤلفا في غزوة شقحب بعنوان " الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر "[٣].

وقد كان الشيخ مشاركا في الوقعة فجاءت كتابته هذه كتابة شاهد عيان للحدث، وقد اعتبر النويري ما كتبه علاء الدين ابن عبد الظاهر أتم وأكمل ما صنفه الفضلاء عن هذه الوقعة[٤].

وقد بين الشيخ في مؤلفه هذا موقفه الرافض للغزو المغولي من خلال التعبير عن ابتهاجه بالنصر، ومدحه للسلطان الناصر قلاوون من جهة، وأيضا من خلال إطلاق صفات الذم والقبح

---

(١) النحاس، أحمد بن إبراهيم(ت٨٠٣هـ/١٤٠١م)، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام(٢ج)، تحقيق: إدريس محمد علي ومحمد خالد إسطنبولي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، المقدمة، ج١، ص٧٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: النحاس، مشارع الأشواق.

(٢) القاضي الصدر الرئيس النبيل الكبير علي بن محمد بن عبد الظاهر، ولد سنة(٦٧٦هـ/١٢٧٧م)، كان بيته مجمع الأدباء والفضلاء، يعتبر رئيس الديار المصرية وجاهة وشكلا وإحسانا ونفعا للناس، لم يزل يوقع في دست السلطان إلى أن توفي سنة(٧١٧هـ/١٣٣١٧م). الذهبي، ذيل تاريخ، ج٥٣، ص١٨٠؛ الصفدي، الوافي، ج٢٢، ص ص٣٥-٤١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٨٤.

(٣) نشر الكتاب بتحقيق عمر عبد السلام تدمري من قبل المكتبة العصرية بصيدا وبيروت سنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٤) ابن عبد الظاهر، علاء الدين علي بن محمد، الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر، مقدمة التحقيق، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٢٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٣٢.

على المغول كمثل وصفهم بـــ : " الملحدين " و " العدى " و " أرواح المشركين قد أعد لها الـــدرك الأسفل من النار " و " العدو خذله الله "[١] و " العدو الأزرق "[٢].

ب- كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية حول الغزو المغولي الثاني

كان للشيخ ابن تيمية بعض الكتابات التي يتبين من خلالها موقفه من الغزو المغولي الثاني، منهـــا ما هو موجه لعامة المسلمين، ومنها ما هو موجه لأهل السلطة.

وهذه الكتابات هي:

- كتب الشيخ كتابا إلى عامـــة المســـلمين عنـــدما غـــزا المغـــول بـــلاد الشـــام ســـنة (٦٩٩هـــ/١٢٩٩م).

وقد اشتمل الكتاب فيما يتعلق بالغزو المغولي على بيان سنة الابتلاء، وأنها ســـنة ماضـــية فـــي السابقين واللاحقين، وأن غزو المغول لبلاد الشام هو من الابتلاء لأهلها.

ومما وضحه الشيخ في كتابه أن أهل الشام في محاربة المغـــول انقســـموا إلـــى ثلاثـــة أقســـام: المجاهدون لهم، والمخالفون الناكصون، والمخذلون عن الجهاد، ودعا الناس إلـــى أن يكونـــوا مـــن القسم الأول المجاهد في سبيل الله تعالى، كما حث الشيخ في كتابه على اجتمـــاع الكلمـــة وتوحيـــد الصف للجهاد ضد المغول، مبينا فضل الجهاد والمجاهدين، والرباط والمرابطين، حيث ساق الشيخ مجموعة من الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة المرغبة في الجهاد الشرعي[٣].

- كتب الشيخ كتابا سياسيا آخر وجهه أيضا لعامة المسلمين بعد رجوع المغول عن غـــزو بلاد الشام عام (٧٠٠هـــ/١٣٠٠م).

ومن خلال تحليل هذا الكتاب[٤] يمكن الوقوف على بعض الفوائد، منها:

---

(١) هذا الوصف وما قبله: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر، ص٤٥.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر، ص٥٢.

(٣) ينظر نص الكتاب: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١٤، ص ص٤٩٢-٤٩٩.

(٤) ينظر نص الكتاب: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١٤، ص ص٥٠٠-٥٢٢؛ ابن عبد الهادي، العقود الدريـــة، ص ص١١١-١٤٥.

- أن الوقت الزمني لتوجيه هذا الكتاب كان مناسبا جدا؛ إذ إن المغـول كـانوا يعـاودون غزو بلاد الشام الكرة تلو الكرة، فكان الكتاب بمثابة الـدافع المعنـوي لسـكان الشـام والمحفز لهم ليكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة العدو.
- بين الشيخ ابن تيمية ضرورة الاستفادة من أحوال المتقدمين من هذه الأمة فـي واقعهـم المعاصر، وذلك بأخذ العبرة والعظة والدروس المناسبة، ضاربا لهم فـي ذلـك المثـل بحال المسلمين مع مشركي قريش وأحلافهم في غزوة الأحزاب.
- أخذ الشيخ ابن تيمية يناقش أسباب هزيمـة المسـلمين فـي معركـة مـرج الصـفر سنة(٦٩٩هـ/١٢٩٩م) داعيا إلى تجاوزها.
- حذر الشيخ من بعض الفئات الإسلامية المنضوية داخل المجتمع الإسلامي مـن كـونهم يمالئون المغول ويطمعونهم في البلاد الإسلامية.
- دعا الشيخ إلى الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس مبينا فضائل ذلك، وحذر مـن الجبن والبخل اللذين هما من صفات المنافقين.
- حذر الشيخ من الدخول في طاعة المغول.
- دعا الشيخ ابن تيمية الذين تخاذلوا عن قتال المغول في الغزوات السابقة إلى التوبة إلى الله تعالى والعزم على جهادهم إن قدر الله بينهم لقاءات في المستقبل.

ت- قام الشيخ أحمد بن محمد المعروف بابن عربشاه(١) المتوفى سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) بتأليف كتاب عن سيرة تيمورلنك، وقد سماه " عجائب المقدور في نوائب تيمور ".

ويتضح في هذا الكتاب موقف الشيخ المناوئ لغزو تيمورلنك لبلاد الشـام دون عنـاء، فمجـرد نظرة خاطفة للعناوين الداخلية لفصول الكتاب يستبين هذا الموقف.

---

(١) الشيخ الإمام العالم العلامة البارع الأديب الفقيه اللغوي أحمد بن محمد بن عبد الله بن عربشاه الدمشقي الحنفي، ولد سنة (٧٩١هـ/١٣٨٨م)، يعد أحد أفراد الدهر في الفضل والسجع وعلم المعـاني والبيـان والبـديع والنحـو والصرف والنظم والنثر، توفي سنة(٨٥٤هـ/١٤٥٠م). ابن تغري بردي، المنهل الصـافي، ج٢، ص ص١٣١-١٤٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص ص١٢٧-١٣١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٤٠٩-٤١٣؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ص١٤١-١٤٤.

ومما يذكر تمثيلا على تلك الأوصاف التي أطلقها على تيمور لنك والمتضمنة لمقته وبغضه والدعاء عليه، قوله : " تيمور رأس الفساق، الأعرج الدجال، الذي أقام الفتنة شرقا وغربا على ساق... وسعى في الأرض فأفسد فيها وأهلك الحرث والنسل "(١)، ومما وصفه به أيضا: " الغدار "(٢) و " الداعر "(٣) و " الظلوم الكفور "(٤) و " الكنود "(٥) و " الطاغي "(٦) و " العائث "(٧). وقال موته : " إلى أن انتقل تيمور إلى لعنة الله "(٨)، وقال أيضا: " وجرعه ساقي المنية أمر كأس، وآمن حينئذ بما كان جاحده، فلم ينفعه إيمانه لما رأى البأس، ... ونودي عليه اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، ظالمة أثيمة، وأبشري بحميم وغساق، ومجاورة الفساق... ولو ترى ملائكة العذاب وقد أظهروا استبشارهم، وأخنوا على الظالمين ليخربوا ديارهم... ثم أنهم أحضروا من جهنم المسوح، وسلوا السفود من الصوف المبلول تلك الروح، فانتقل إلى لعنة الله وعقابه، واستقر في أليم رجزه وعذابه ... "(٩).

ويعد الكتاب أحد المصادر المهمة عن حياة تيمور لنك عموما وعن غزوه لبلاد الشام بوجه خاص؛ ذلك أنه الكتاب الوحيد باللغة العربية عن حياة تيمور لنك، كما أن مؤلفه كان معاصرا لتيمور لنك(١٠)، فإن الشيخ ابن عربشاه كان في الثانية عشر من عمره عندما غزا تيمور لنك مدينة دمشق، بل وكان أحد أسارى تيمور الذين اصطحبهم إلى سمرقند، كما يعد شاهد عيان لتلك الأحداث فهو يقول: " أردت أن أذكر منها ما رأيته واقص في ذلك ما رُوِّيتُه "(١١).

---

(١) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٩ و ص٧٤ .
(٣) المصدر نفسه، ص٧٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١١٣.
(٥) المصدر نفسه، ص١٦٢.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٠٦.
(٧) المصدر نفسه، ص٣٨٢.
(٨) المصدر نفسه، ص٣٥٠.
(٩) المصدر نفسه، ص٣٩٣.
(١٠) المصدر نفسه، مقدمة التحقيق، ص١٥.
(١١) المصدر نفسه، عجائب المقدور، ص٣٨.

ومما يعطي الكتاب أهمية أيضا أنه اشتمل على المراسلات التي دارت بين السلطانين المملوكيين الظاهر برقوق، وابنه الناصر فرج من جهة، وبين تيمورلنك من جهة أخرى، وأهمية إثبات هذه الرسائل تكمن في أن الشيخ ابن عربشاه، نقلها من أصولها التركية والفارسية، حيث أصبحت هذه الوثائق من أهم العناصر في تحقيق سيرة تيمور، كما أنه يعرض لحالة امبراطورية تيمور لنك بعد وفاته[١].

إضافه إلى هذا فإن الكتاب يعتبر وثيقة هامة حفظت لأهل الإسلام ما يتعلق بأحداث الغزو المغولي التيموري للعراق وبلاد الشام، مما يدل على حرص علماء المسلمين على توثيق أحداث هذا الغزو ليقف على ذلك خَلَفُهُم.

٣- مؤلفات تاريخية تضمنت بيان أحداث الغزو المغولي الثاني

كتب العلماء المعاصرون للغزو المغولي الثاني عدة مؤلفات تاريخية تضمنت بيان أحداث هذا الغزو.

ومن العلماء الذين سجلوا بأقلامهم أحداث الغزو المغولي للديار الإسلامية:

أ- المؤرخ بيبرس بن عبد الله المنصوري الدواداري[٢] المتوفى سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٤م)

ألف بيبرس كتابين في التاريخ، الأول بعنوان: " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة "، والثاني عنوانه: " التحفة الملوكية "، وله كتاب ثالث يحمل عنوان " مختار الأخبار "، وقد اختلف في نسبته إليه فمن قائل بذلك، ومن قائل أنه مختصر لكتاب زبدة الفكرة، اختصره كاتبه القس الشمس بن كبر "[٣].

---

(١) ابن عربشاه، عجائب المقدور، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ص٦-٧.

(٢) الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري، عمل بنيابة السلطنة المملوكية بالديار المصرية مدة، كان عاقلا وافر الهيبة كبير المنزلة كثير الأدب، أجيز بالإفتاء والتدريس، توفي سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٤م). الذهبي، ذيل العبر، ج٤، ص٧٤؛ الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٢١٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص ص٤٧٧-٤٧٨.

(٣) ينظر في ذلك: الدواداري، بيبرس بن عبدالله المنصوري(ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، مختار الأخبار، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، مقدمة التحقيق، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الدواداري، مختار الأخبار.

فأما كتاب زبدة الفكرة، فهو كتاب ضخم في التاريخ أغلبه مفقود، وما وجد منه أربعة أجزاء فقط، منها الجزء التاسع الذي يغطي الفترة من سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، وحتى سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م).

فالكتاب بهذا يغطي فترة مهمة من فترات الصراع المغولي المملوكي، والمهم في هذا أن مؤلفه يعد شاهد عيان للأحداث كما يؤكد هو بنفسه في كتابه هذا في مواضع مختلفة.

وأما كتابه الثاني الموسوم بالتحفة الملوكية فيغطي الفترة من سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) إلى سنة (٧١١هـ/١٣١١م)، وكان في ما بعد سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) يسرد الأحداث كشاهد عيان بل ومشارك في صنع بعض هذه الأحداث بحكم قربه من السلطان، وتقلده لبعض الوظائف في الدولة فقد عين سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، أمير طبلخانة، وفي سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، عين دوادارا للملك الناصر، وفي سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، تولى نيابة القلعة في القاهرة، وفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، اشترك في وقعة عرض وفي وقعة شقحب، وفي سنة (٧١١هـ/١٣١١م)، تولى أعلى منصب في الدولة بعد السلطان، وهو نيابة السلطنة بالقاهرة[١].

ولذا غدا كتابيه مصدرين رئيسين لأحداث هذه الفترة، واعتمد عليهما كثير من مؤرخي الفترة التالية اعتمادا كبيرا، مثل: النويري، وابن الفرات، والمقريزي، وابن تغري بردي، وابن أيبك، وابن حبيب الحلبي، كما أشاد بالمؤلف كل من: ابن حجر، والذهبي، وابن حبيب، وابن أيبك[٢].

وفي مؤلفات بيبرس تظهر مواقفه المناوئة للغزو المغولي بقسميه، فهو يقول في قائد المغول بعين جالوت كتبغا نوين: " ... وقد وصلها الطاغوت كتبغا نوين ... "[٣].

ووصفهم بالعداوة بقوله: " ... العدو المخذول... "[٤].

---

(١) الدواداري، التحفة الملوكية، المقدمة، ص ص٧-٨، وص ص١٥-١٦؛ زبدة الفكرة، ص٣٩٦ و ص٤٠٤.

(٢) الدواداري، زبدة الفكرة، مقدمة التحقيق، ص٢٧؛ التحفة الملوكية، المقدمة، ص١٧.

(٣) الدواداري، التحفة الملوكية، ص٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٤.

وأطلق الوصف نفسه على جيش غازان في معركة مجمع المروج (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، فقال: "... فاستظهر العدو بانصرافه... "[١]، " ... وعاث العدو في جبل الصالحية..."[٢]، ويقول بعد وقعة شقحب: " وتمت النصرة وحقق على الأعداء الكسرة ..."، ويقول: " ... جهز السلطان خيل الطلب وراء العدو ... وتطهرت ديار الإسلام من الأدناس"[٣].

ويقول مادحا السلطان وانتصاره على المغول في شقحب: " ثم رحل السلطان ... ودمشق قد أخذت زخرفها ... فدخلها ... والملائكة تحييه بإكرام ... في موكب يزهو على المواكب، ونظام يسمو على الكواكب، وقد تاهت الدنيا عجبا، وشغفت الخلائق به حبا، وأعجبوا بنضارة ملكه الذي لقاهم نضرة وسرورا، وأباد أعداؤهم الذين وعدهم الشيطان غرورا "[٤].

ب- أبو الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن أيوب[٥] المتوفى سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)

ألف الشيخ أبو الفداء كتابا جليلا في التاريخ بعنوان " المختصر في أخبار البشر "، واهتم في كتابه بالحديث عن الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام، مبينا أحداث الغزو المغولي واستيلاء المغول على البلاد الإسلامية في العراق وبلاد الشام[٦]، وأثنى على الموقف الإسلامي في التصدي لهم منوها بدور السلطان قطز في تكوين جبهة إسلامية مقاومة للغزو، تمكنت أخيرا من صده وكسره

---

(١) الدواداري، التحفة الملوكية، ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ص١٦٧-١٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ص١٦٨.

(٥) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن أيوب، ولد سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، حفظ القرآن العزيز وعدة كتب، برع في الفقه والأصول والعربية والتاريخ والأدب، وصار من جملة أمراء دمشق، ولاه الملك الناصر قلاوون حماة ولقبه الملك المؤيد، من كتبه- إضافة إلى المختصر- تقويم البلدان ونظم الحاوي في الفقه الشافعي، توفي سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م). الصفدي، الوافي، ج٩، ص ص١٠٤-١٠٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢٤٥؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص ص٣٩٩-٤٠٨.

(٦) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ص٣٠٢-٣٠٣ و ص ص٣٠٨-٣١٦.

بعد أن " يئست القلوب من النصرة عليهم، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام؛ ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه، ولا عسكرا إلا هزموه، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم "(١).

وأهمية الكتاب الكبيرة فيما يتعلق بتسجيل أحداث الغزو المغولي، تظهر في غزو المغول زمن غازان؛ فأبو الفداء في هذه الفترة كان شاهد عيان للأحداث ومشاركا من جهة، كما أنه كان من رجال السلطة في الدولة المملوكية من جهة أخرى؛ فكان معايشا لكثير من وقائع الأحداث في هذه المرحلة، إضافة إلى ذلك أن مؤلفَّه حفظ نصوصا لكتب تاريخية ضائعة، كتاريخ أبي عيسى المنجم، وتاريخ الصنهاجي، ولذة الأحلام لابن سعيد، وتاريخ خلاط للأنصاري(٢).

ت- الإمام شهاب الدين أحمد النويري(٣) صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب " والمتوفى سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

وقد اعتنى النويري بتسجيل أحداث الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام، حيث سجل أحداث هذا الغزو في أربعة أجزاء وربع الجزء تقريبا(٤) من مجموع أجزاء كتابه الثلاثة والثلاثين؛ مما يدل على حرصه على بيان ما يتعلق بالغزو المغولي للعراق وبلاد الشام. كما تحدث عن المغول ونشأتهم وتوسعاتهم في الجزء السابع والعشرين من الصفحة السادسة بعد المائتين وحتى الصفحة الثالثة والثمانين بعد المائتين.

ويتضح موقف الإمام النويري الرافض للغزو المغولي الثاني بوصفه لموقعة شقحب بأنها " المصاف المبارك " و" الغزوة المباركة "(٥)، وما ذاك إلا ابتهاجا بالنصر الذي أحرزه المماليك على

---

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣١٥.

(٢) مصطفى، التاريخ، ج٤، ص٤٠.

(٣) الإمام الفاضل مجموع الفضائل شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم النويري، عالم بحاث غزير الاطلاع، كان نادرا في وقته، حصل له قرب من السلطان الناصر قلاوون ووكله في بعض أموره، وباشر نظر الجيش بطرابلس، ونظر الديوان بالدقهلية والمرتاحية، وله نظم ونثر، توفي سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م). الصفدي، الوافي، ج٧، ص ص١١٠-١١١؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢٥٤؛ الزركلي، الأعلام، ج١، ص١٦٥.

(٤) هي آخر الجزء ٢٩، والأجزاء ٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٨ وص٣٨.

المغول، الذين وصفهم بالطغيان والكفر، إذ يقول مادحا السلطان الناصر قلاوون: " قرن الله مساعيه بالظفر، وحكم مرهفاته في رقاب من طغى وكفر "[١]، كما وصفهم بـ " العدو التتار "[٢].

ث- الشيخ علم الدين البرزالي[٣] المتوفى سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٨م)

ألف الشيخ البرزالي كتابا في التراجم والحوادث التاريخية، معتبرا إياه ذيلا لتاريخ أبي شامة المعروف بذيل الروضتين، فهو يتناول الأحداث من سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، وقد عرف الكتاب باسم " المقتفي على كتاب الروضتين "، كما عرف بـ " تاريخ البرزالي ".

وقد حرص الشيخ البرزالي في كتابه على تدوين أحداث الغزو المغولي باعتبار أنه كان معاصرا لأحداثه، ومشاهدا لكثير من آثاره. ولأهمية كتاب البرزالي اعتمد عليه كثير من المؤرخين المعاصرين واللاحقين للبرزالي، كالنويري، والذهبي، واليونيني، وابن الجزري، وابن كثير، والصفدي، وابن شاكر الكتبي، والسبكي، والمقريزي، وابن قاضي شهبة، وابن حجر، وابن تغري بردي وغيرهم[٤].

ويتميز " تاريخ البرزالي " بأنه منظم لا حسب السنوات فقط، ولكن حسب الشهور أيضا، وقد أدخلت الوفيات ضمن الأحداث فيه "[٥]، وأخذ الشيخ البرزالي في مؤلفه هذا يصف المغول بأوصاف تدل على رفضه وإنكاره لغزوهم لبلاد الشام مثل: " العدو المخذول "[٦]، ووصف نصر

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٣٢، ص١٧.

(٣) الشيخ علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الشافعي، الإمام العالم الحافظ محدث الشام، ولد سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م)، ولي مشيخة دار الحديث النورية ومشيخة النفيسية، كتب بخطه ما لا يحصى كثرة، توفي سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٨م). الذهبي، ذيل تاريخ، ج٥٣، ص ص٢٥٤-٢٥٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص ٢١٤-٢١٦.

(٤) البرزالي، المقتفي، ج١، مقدمة التحقيق، ص٩٣-٩٦.

(٥) مصطفى، التاريخ، ج٤، ص٤٤.

(٦) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢١٨.

أهل الشام ومصر على المماليك بقوله: " فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا بهذا الأمر العظيم والنصر المبارك "[١]، وقال في هزيمتهم: " وحصل لهم الخذلان من الله سبحانه "[٢].

ج- الإمام العلامة مؤرخ الإسلام شمس الدين محمد الذهبي[٣] المتوفى سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

ألف الإمام الذهبي عدة مؤلفات تاريخية جليلة حفظ فيها ما يتعلق بالغزوين المغوليين للعراق وبلاد الشام ومن هذه المؤلفات مؤلفه العظيم " تاريخ الإسلام "، و " سير أعلام النبلاء " و " العبر في خبر من غبر " وغيرها.

وتكتسب مؤلفات الإمام الذهبي أهميتها من كون مؤلفها كان من المتخصصين في علم الحديث ورجاله، حيث قضى عمره كله في علم النقد والتجريح والتعديل، ولذا حرص في مؤلفاته التاريخيه على ذكر الإسناد أو المصدر الذي اعتمد عليه لطرح العهدة على الراوي، ومما يعطي مؤلفات الإمام الذهبي أهمية أيضا أنه اعتمد على مصادر ضاع بعضها فهو بذلك حفظ عددا من نصوص هذه المصادر[٤].

وقد بين الإمام الذهبي موقفه المناوئ للغزوين المغولين الأول والثاني في مؤلفاته السابقة من خلال تلك الأوصاف التي أطلقها على المغول.

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٥.

(٣) الإمام الحافظ المحدث شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي، ولد سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، محدث العصر وإمام الجرح والتعديل، رجل الرجال، صاحب المصنفات العديدة الهائلة في علم الحديث ورجاله وفي تاريخ الإسلام، إمام الوجود حفظا، وذهب العصر معنى ولفظا، توفي سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م). الصفدي، الوافي، ج٢، ص ص١١٤-١١٨؛ الكتبي، فوات، ج٢، ص ص٣٠٥-٣٠٧؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج٩، ص ص١٠٠-١٠٥؛ ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي(٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية(٢ج)، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٢، ص ص٤٥٠-٤٥١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن طولون، القلائد الجوهرية؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص٢٦٤-٢٦٨.

(٤) مصطفى، التاريخ، ج٤، ص٥٤.

فعلى سبيل التمثيل يرد عند الإمام الذهبي في " العبر " قوله عن معركة حمص (٦٨٠هـ/١٢٨١م): " وصعد خالص الدعاء، وطاب الموت في سبيل الله، ففتح الله ونصر، وولى العدو الملعون وانكسر، وأصيب رأس الكفر منكو تمر بطعنه ... "[١]. ويرد عنده نفس هذا الوصف عن المغول الغازانية في " تاريخ الإسلام "، فيقول: " في أول السنة خرج السلطان بالجيوش للقاء العدو "[٢]. ويقول بعد موقعة شقحب واصفا المغول بالأعداء: " ... وكان العدو نحو أربعة آلاف ... "[٣]. ويقول بعد موقعة الخازندار (٦٩٩هـ/١٢٩٩م): " ... ثم أعان الله وترحل الملك في ثاني عشر جمادى الأولى غير مصحوب بالسلامة ... "[٤]. وقال شامتا بهزيمتهم: " ... ومزقوا كل ممزق "[٥].

ويقول بعد النصر حامدا الله على النصر وسلامة السلطان والخليفة: " ... ثم دخل السلطان والخليفة راكبين والحمد لله ..."[٦].

وفي تاريخ الإسلام يقول بعد موقعة عين جالوت: " ... وعيَّد المسلمون على خير عظيم، والحمد لله "[٧]، ويقول لسلامة قلعة دمشق: " ودقت البشائر يومئذ بالقلعة وجليت لسلامتها، ولله الحمد "[٨].

"[٨].

ح- الإمام صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي[٩] المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)

---

(١) الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٤٢.
(٢) الذهبي، تاريخ، ج٥٢، ص٦٩.
(٣) الذهبي، ذيل العبر، ج٤، ص٥.
(٤) الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٩٥.
(٥) الذهبي، ذيل العبر، ج٤، ص٥.
(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص٦.
(٧) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص٦٢.
(٨) المصدر نفسه،ج٥٢، ص٨٩.
(٩) الإمام العلامة المؤرخ خليل بن أيبك الصفدي، ولد سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) بصفد، كان إماما بارعا ناظما ناثرا، درس الحديث والفقه والنحو والأدب، وتتلمذ على أئمة كبار منهم المزي والذهبي، تولى كتابة الإنشاء بمصر ودمشق، وتولى كتابة السر بحلب، وحدث بدمشق وحلب وغيرهما. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ص١٥-١٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٣٤٣.

ألف الشيخ الصفدي كتاب " الوافي بالوفيات " وقد أراده أن يكون تتمة لوفيات الأعيان لابن خلكان فجاء معجما مفردا، وموسوعة رجال كاملة، جمع فيه تراجم الأعيان من بداية الإسلام إلى عصره[١].

وقد حرص الصفدي في ثنايا ترجمته للأعيان على بيان ما يتعلق بأحداث الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام، وبحكم معاصرته ومشاهدته ومشاركته في بعض أحداث الغزو المغولي الثاني فقد اكتسبت تراجمه لمن لهم صلة بهذا الغزو أهمية كبيرة.

خ- العلامة الإمام محمد بن الشحنة[٢] المتوفى سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م)

وضع الشيخ ابن الشحنة كتابا تاريخيا سماه " روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر "، وقد ذكر الشيخ أحداث الغزو المغولي التيموري لبلاد الشام بصفته شاهد عيان للأحداث، بل وكان أحد العلماء الذين امتحنهم تيمورلنك بحلب، وقد حرص الشيخ في كتابه على ذكر تفاصيل لقاء علماء حلب مع تيمورلنك، وبيان الوضع المأساوي الذي حل بمدينتي حلب ودمشق على يد تيمور وجنوده[٣].

والشيخ ابن الشحنة كمن سبقه من العلماء كان منكرا لغزو المغول التمرية لبلاد الشام، حيث يقول عن تيمورلنك عندما كان محاصرا لحلب: " ... نازل الملعون حلب ..."[٤]، ويقول بعد أن أخذ أخذ تيمورلنك حلب: " أخذ القلعة بالأمان والأيمان التي ليس معها إيمان "[٥].

---

(١) مصطفى، التاريخ، ج٤، ص٧٧.

(٢) الشيخ محب الدين أبو الوليد محمد بن محمد بن محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي، ولد بحلب سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، ارتحل إلى دمشق والقاهرة وأخذ عن أعيانهما، وأذن له شيخه في التدريس والإفتاء قبل أن يلتحي، كان من أفراد الدهر علما وفصاحة وعقلا ورياسة، توفي سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ص٩٥-٩٧؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص ص٨١٨-٨١٩.

(٣) ابن الشحنة، روض المناظر، ص ص٢٩٧-٣٠٣.

(٤) المصدر نفسه، طبعة بولاق بهامش الجزء التاسع من كتاب الكامل لابن الأثير، القاهرة، ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، ص٢١١، ويلاحظ في هذه الطبعة تسميته بـ " روضة المناظر " بدل " روض المناظر ".

(٥) ابن الشحنة، روض المناظر، ص٢٩٩.

كما وصفه بالغدر في قوله : " وفي اليوم الثاني غدر بكل من في القلعة "[١]، ووصف أفعاله بمسلمي حلب وصفا يدل على تحسره وتألمه بما حصل لهم، إذ يقول : " وعوقب غالب المسلمين بأنواع من العقوبة، وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه ... والمسلمون في عذاب وعقاب وسبي وقتل وأسر، وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب ونبش "[٢].

وكل ذلك لا شك أنه يدل على إنكار الشيخ لغزو تيمورلنك لبلاد الشام وما صاحب ذلك الغزو من أفعال وحشية انتقامية.

د- العلامة أحمد بن حجي الحسباني الدمشقي[٣] المتوفى سنة (٨١٦هـ/١٤١٣م)

ألف الشيخ ابن حجي كتابا جليلا في التاريخ عرف باسم " تاريخ ابن حجي " ذيل به تاريخ العلامة ابن كثير المعروف بالبداية والنهاية؛ ولأن الشيخ من المعاصرين للغزو التيموري لبلاد الشام ومن المشاهدين لوقائعه فإنه ضمن كتابه ما يتعلق بهذا الغزو، واصفا أحداثه ونتائجه.

وقد غدا الكتاب مصدرا أصيلا ومهما فيما يتعلق بهذا الغزو، وقد نقل عنه ثلة من كبار المؤرخين اللاحقين وعلى رأسهم الإمام ابن حجر في إنباء الغمر، وتلميذه ابن قاضي شهبة، كما أخذ عنه " المقريزي في عقوده، وابن تغري بردي في نجومه، والنعيمي في تاريخ المدارس، وابن طولون في قلائده الجوهرية إلى عصر ابن العماد في شذراته "[٤].

---

(١) ابن الشحنة، روض المناظر، ص٣٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠١.

(٣) الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي بن موسى السعدي الحسباني الدمشقي الشافعي، ولد سنة (٧٥١هـ/١٢٥١م)، انتهت إليه مشيخة الشام ورئاسة العلم بها، تولى عدة وظائف منها: التدريس في مدارس دمشق، ومشيخة الشيوخ، والقضاء استنابة، والإفتاء في دمشق، توفي سنة(٨١٦هـ/١٤١٣م). إنباء الغمر، ج٧، ص١٢١-١٢٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص ص٢٦١-٢٦٢؛ ابن حجي، تاريخ، مقدمة التحقيق، ص ص٢-٣٢.

(٤) ابن حجي، تاريخ، مقدمة التحقيق، ج١، ص١٥.

ويتبين موقف الشيخ ابن حجي المعارض لغزو تيمورلنك لبلاد الشام من خلال إطلاقه وصف العدو على الجيش المغولي حيث يقول : " ... أن طائفة وصلت من العدو إلى حماة ... "[١]، وقد تكرر هذا الوصف من ابن حجي لعسكر تيمورلنك في مواضع أخرى[٢].

ومما قاله ابن حجي في تيمور عاكسا موقفه من غزوه لبلاد الشام:

" وكان توجه هذا الملعون في يوم السبت..."[٣].

" ... ثم ترحل غير مصحوب بالسلامة عنها – يعني بغداد - "[٤].

" ... بأمر تمرلنك - قبحه الله تعالى- "[٥].

" ... نسأل الله السلامة من هذا الظالم... "[٦].

ذ- الإمام العلامة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني[٧] المتوفى سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٩م)

ألف الإمام ابن حجر كتابا في التاريخ والتراجم يعرف بـ " إنباء الغمر بأبناء العمر "، وتمتد أحداث الكتاب من سنة (٧٧٣هـ- ١٣٧١م) إلى سنة (٨٥٠هـ-١٤٤٦م) وقد ضمن كتابه أحداث الغزو التيموري للعراق وبلاد الشام، ويكتسب كتاب " إنباء الغمر " أهميته من كون الإمام ابن حجر كان عالما محدثا وهي ميزة أعطت كتب المؤرخين عموما أهمية كبيرة بين كتب التاريخ، إضافة إلى ذلك فإن ابن حجر كان معاصرا لغزو تيمورلنك لبلاد الشام.

---

(١) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٦٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ج١، ص٤٦٣، و ص٤٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٤٨٦.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٥٠٣.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٥٠٤.

(٦) ابن حجي، (رسالة)، ص٢٦٩.

(٧) الشيخ العلامة الحافظ المحدث شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني أمير المؤمنين في الحديث، ولد سنة (٧٧٣هـ/١٣٧١م)، وصف بأنه خاتمة الحفاظ، ناقد الأسانيد والألفاظ، انتهى إليه علم الأثر والمعرفة بالعلل وأسماء الرجال، درَّس وأفتى وتولى منصب قاضي القضاة بالديار المصرية، من أشهر مؤلفاته " فتح الباري بشرح صحيح البخاري "، توفي سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٩م) بالقاهرة. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص ص١٧-٣٢؛ ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج٢، ص ص٤٥٥-٤٥٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٣٩٥-٣٩٩.

ويتضح موقف الشيخ المعارض لهذا الغزو عند حديثه عن تيمور الذي يصفه مثلا بأنه: " مطبوع على الشر "[١]، ويصف أفعاله وإمداد الله له في ذلك بأنه استدراج في الإثم[٢] مستشهدا بقوله تعالى: " إنما نملي لهم ليزدادوا إثما "[٣]، وقال عنه: " أنه كان مغرى بغزو المسلمين وترك الكفار "[٤]، وقال أيضا: " ... كان غشوما ظلوما سفاكا للدماء مقداما على ذلك "[٥]، ووصف غزوه للعراق بأنه بأنه فتنة وشبهه بالنار ذات الشرر والضرر، فقال: " وفيها – أي سنة (٧٩٥هـ) - عاث تمر لنك بالعراق وخرب بغداد ... واتصل شرر فتنته إلى الشام، ووصل خبر ضرره إلى مصر "[٦]، ووصف أفعاله ببلاد الشام سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) بأنها من القبائح، فقال : " ... ثم أول شيء فعله اللنك من القبائح تعطيل الجمعة من الجامع الأموي..."[٧].

ثالثا: الفتوى

صدرت من العلماء المسلمين بعض الفتاوى حول الغزو المغولي الثاني، ومنها:

١- فتوى الشيخ ابن دقيق العيد[٨] بعدم جواز أخذ أموال من عامة الناس لملاقاة المغول سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م).

فبعد انتهاء معركة الخازندار أخذت العساكر المصرية تستعد مرة أخرى للعودة إلى بلاد الشام لملاقاة المغول، وفي إطار هذا الاستعداد العسكري تقرر أخذ مال من الرعية للنفقة على العساكر،

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص١٦.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٨.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٧٨.
(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص٢٣٤.
(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٣٥.
(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٠.
(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٠٧.
(٨) شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب القشيري، ولد سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) بمدينة ينبع بالحجاز، كان من أجل علماء المسلمين علما وديانة وعملا، انتهت إليه رياسة العلم في زمانه، وفاق أقرانه، ورحل إليه الطلبة، تولى عدة وظائف منها: مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وقضاء القضاة بالديار المصرية، توفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م). النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص١١؛ الذهبي، العبر، ج٤، ص٦؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج٩، ص ص٢٠٧-٢١٢؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢٨.

فأمر الملك الناصر نائب الحسبة مجد الدين عيسى بن الخشاب أن يأخذ فتوى الفقهاء بجواز ذلك، فرسم له الأمير سلار بأخذ موافقة قاضي القضاة الشيخ ابن دقيق العيد، فامتنع الشيخ عن الفتيا بجواز ذلك.

فاجتمع به الأمراء وشكوا إليه قلة المال، فأصر على امتناعه، فاحتج عليه ابن الخشاب بفتوى الشيخ العز بن عبد السلام، فرد عليه الشيخ بقوله: "لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلي نسائهم وأولادهم، وحلف كل منهم أنه لا يملك سوى هذا، وكان ذلك غير كاف، فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد، وأما الآن فيبلغني أن كلا من الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلي، ويعمل الإناء الذي يستنجى منه في الخلاء من فضة، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر" وقام عنهم[١].

ويمكن أن يستنتج من هذا الموقف للشيخ ابن دقيق العيد أمور منها:

- حرص العلماء على الإعداد الصحيح للجيش المقاتل في سبيل الله؛ ذلك أن جباية الأموال من الناس دون وجه حق ظلم، والظلم عواقبه وخيمة، وهو من أكبر أسباب محق البركة ورفع النصرة.

ففي موقف الشيخ السابق، علاوة على إنكار المنكر وتغييره، العمل على تجنيب المسلمين كارثة توالي الخسائر، التي من أعظم أسبابها الاستعانة بالمال الحرام في إعداد جيوشهم.

- بيان العلماء للحق ومواجهة رجال الدولة به دون أن يخشوا في ذلك لومة لائم.
- أن العلماء لم يقبلوا لأنفسهم أن يكونوا بمثابة سلالم عبور تمرر السلطة من خلالهم قراراتهم على عامة الناس، بل كانوا صمام أمان لحفظ الطبقات المختلفة في المجتمع من محاولات الاعتداء أو الظلم التي يمكن أن تصدر من قبل ذوي اليد الطولى في البلد.

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٨٩٧-٨٩٨؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص٧٣-٧٥.

٢- فتوى العلماء بقتال المفسدين من عرب البادية.

في سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) كثر فساد العربان وقطعوا طريق التجار وفرضوا على التجار وعلى أرباب المعايش بأسيوط[١] ومنفلوط[٢] فرائض أجبروهم على دفعها، واستخفوا بالولاة، ومنعوا الخراج، وأخرجوا المساجين.

فكان من نتيجة ذلك أن استفتى السلطان القضاة والفقهاء في قتالهم، فأفتوهم بجواز ذلك، فخرج إليهم الأمراء، وتمكنوا من القضاء على حركة التمرد، وتم إصلاح الأوضاع[٣].

وتتجلى ثمرة هذه الفتوى في المحافظة على استقرار الأوضاع الداخلية لدولة المماليك في فترة الغزو المغولي؛ بما يجعلها في غاية التهيؤ لمواجهتهم عند اعتدائهم.

٣- فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في قتال المغول المسلمين.

أصدر شيخ الإسلام ابن تيمية بعض الفتاوى المتعلقة بقتال المغول بعد إسلامهم والتي عملت على تصحيح مفاهيم الناس حول ذلك، بعد أن التبس الأمر لديهم بسبب أن المغول أصبحوا من المسلمين، ومن الفتاوى التي أصدرها شيخ الإسلام ابن تيمية حول الغزو المغولي الثاني لبلاد الشام:

- فتوى الشيخ بوجوب قتال المغول لمشابهتهم الخوارج[٤].

فقد شاع بين الناس أن قتال المغول لا يجوز لكونهم من المسلمين، كما أنهم ليسوا من الفئة الباغية التي أمر الله ورسوله بقتالها؛ لأنهم لم يدخلوا في طاعة سلطان المماليك أصلا ثم خالفوه.

---

(١) أسيوط: مدينة جليلة كبيرة في غربي النيل من نواحي صعيد مصر. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١٩٣.

(٢) منفلوط: تقع بالصعيد الأوسط على الشط الغربي للنيل، تحت أسيوط على مرحلة منها. أبو الفداء، تقويم، ص١٢٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ص٩٢٠-٩٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ص١٢٠-١٢٢.

(٤) الخوارج: هم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة، وأولهم خروجا هم من خرج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – معترضين على قيامه بالتحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه -. البغدادي، الفرق، ج١، ص ص٩١-١٠٠؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص ص١٣٢-١٣٣.

فقام ابن تيمية وبين للناس أن هناك فئات من المسلمين يجب قتالها إضافة إلى الفئة الباغية، وذكر منها ما ينطبق عليه حال المغول المحاربين للمسلمين، ألا وهي فئة الخوارج، حيث قال الشيخ: " هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية – رضي الله عنهما – ورأوا أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه أضعافا مضاعفة ". " فتفطن العلماء والناس لذلك "[١]، وكان يقول للناس مؤكدا وجوب قتال المغول:" إذا رأيتموني من ذلك الجانب، وعلى رأسي مصحف فاقتلوني"[٢].

- فتوى الشيخ بالفطر في رمضان للمقاتلين.

اهتم شيخ الإسلام ببيان فقه الأولويات في قتال المغول، فمعركة شقحب كانت في رمضان؛ مما يعني وجوب الصيام عند المسلمين؛ ولذا قام الشيخ - من منطلق رؤيته الفقهية الناظرة في مقاصد الشريعة وأولوياتها - بإفتاء الناس بالفطر مدة قتالهم للمغول وأفطر معهم.

وكان يدور على الأجناد والأمراء ويظهر لهم فطره؛ ليعلمهم أن إفطارهم أفضل ليتقووا على القتال[٣]، وكان يتأول في الشاميين قوله **r** للصحابة عام فتح مكة المكرمة: " إنكم ملاقو العدو غدا والفطر أقوى لكم "[٤].

- سئل عن حكم قتال جيش المغول وهم على دين الإسلام.

فأجاب الشيخ بوجوب قتالهم من وجهين:

الأول: بمعرفة حكم الله في مثلهم، كما حصل في قتال الخوارج وأهل البغي ومانعي الزكاة، وقد مر تفصيل هذا الوجه قبل قليل.

الثاني: بمعرفة أحوالهم، فإن المغول لما دخلوا بلاد الشام سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) فعلوا فيها أفعال الكفار، كما بين الشيخ أن جمهورهم لا يصلون، ولا يوجد في عسكرهم مؤذن ولا إمام، كما أن

(١) ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ج١٦، ص٢٣.
(٣) ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢٦؛ العيني، عقد الجمان، ج ، ص٢٤٣.
(٤) وهو جزء من حديث طويل رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري برقم ١١٢٠.

دولتهم قامت على الأساس العرقي، وليست على الأساس الديني، فمن أطاعهم والوه ولو كان كافرا، ومن خالفهم عادوه ولو كان مسلما، إلى غير ذلك من الأدلة التي استند إليها شيخ الإسلام في فتـــواه على وجوب قتال المغول[١].

- سئل شيخ الإسلام عمن خرج مكرها مع المغول، ماذا يجب عليه؟

فأجاب بأن هؤلاء يجب عليهم عدم قتال المسلمين[٢].

- سئل عن حكم قتال المغول إذا تترسوا بأسارى المسلمين.

فأفتى بجواز قتل المسلمين إذا تترس بهم الأعداء على أن يكون ذلك بقصد قتل الكفار[٣]، وبـــين أن كلمة العلماء متفقة على أن جيش الكفار إذا تترسوا بمن عندهم من أســـرى المســـلمين وخيـــف الضرر على المسلمين وبلادهم، فإنهم يقاتلون، وإن أفضى ذلك إلى قتل المسلمين الذين تترسوا بهم، وفي حال قتلهم فإنهم شهداء[٤]، واستدل الشيخ بقول النبي **r** : " يغزو هذا البيت جيش من النـــاس، فبينما هم ببيداء من الأرض إذ خسف بهم "، فقيل يارسول الله: " وفيهم المكره "، فقـــال: " يبعثـــون على نياتهم "[٥].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١٤، ص ص٥٤٤-٥٥١.

(٢) المصدر السابق، ج١٤، ص٥٥٩.

(٣) المصدر السابق، ج١٤، ص٥٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ج١٤، ص٥٦٤.

(٥) الحديث في الصحيحين من حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله **r** : " يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم، قالت: قلت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفـــيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم ". البخاري، كتاب البيوع، باب: ما ذكر في الأسواق، رقم: ٢١١٨؛ مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم: ٢٨٨٢.

- ومما أفتى به الشيخ أن غنيمة المغول تخمس[١]، ويباح الانتفاع بها[٢].
- من الأمور التي يصح إدراجها ضمن الفتاوى، ما قام به شيخ الإسلام من مناظرة طائفة الأحمدية الصوفية المبتدعة.

فإن أفراد هذه الفرقة الصوفية كانوا يخدعون الناس بحيلهم الشيطانية، كدخول النار وغير ذلك، فأنكر عليهم الشيخ أفعالهم تلك، فشكوه إلى نائب السلطنة، فاتفق على عقد مجلس بينهم وبين الشيخ، وكان من ضمن ما قاله الشيخ لهم: " من أراد منهم أن يدخل النار، فليدخل أولا إلى الحمام، وليغسل جسده غسلا جيدا، ويدلكه بالخل والأشنان، ثم يدخل بعد ذلك النار إن كان صادقا "، فقال الشيخ صالح شيخ المنيبع: " نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر، ليست تنفق عند الشرع "، " فضبط عليه الحاضرون في المجلس تلك الكلمة، وكثر عليهم الإنكار من كل أحد، ثم أمر بإبطال بدعتهم "[٣].

والشاهد أن هذه المناظرة كشفت عن وجود فئات يمكن أن يستغلها المحتل لتمرير مشروعه في البلاد المحتلة، مقابل حصوله على مكاسب مادية أو فكرية.

ويظهر من هذه الحادثة أيضا، مدى تأثير الخلافات العقدية في توجيه طبيعة التعامل من قبل طوائف المجتمع الشامي مع الغزاة المغول؛ لأجل الحصول على مصالح خاصة على حساب المصالح العامة للمجتمع.

---

(١) تخميس الغنائم: إخراج خمس الغنيمة لصرفه في مصارفه المبينة في آية الخمس، وهي قوله تعالى: " واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل... الآية " سورة الأنفال، ٤١. ابن الفركاح، تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم(ت٦٩٠هـ/١٢٩١م)، مسألة الغنائم، تحقيق: عبد الستار أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٣٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الفركاح، مسألة الغنائم.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١٤، ص٥٨٨.

(٣) ابن كثير، البداية، ج١٦، ص ص٤٢-٤٣.

٤- فتاوى العلماء إبان غزو تيمورلنك لبلاد الشام

- فتوى العلماء بوجوب قتال تيمورلنك

بعد أن تواردت أخبار غزو تيمورلنك لبلاد الشام، أخذ الفقهاء والقضاة في تعبئة الشعور العام لمواجهته، ومن جملة ذلك صدور فتوى من قبل قاضي القضاة بوجوب قتال تيمورلنك وجيشه، وقد أيد هذه الفتوى بقية القضاة والعلماء فوضعوا خطوطهم عليها ومنهم ابن حجي، ثم خرج القضاة ومعهم بعض الحجبة إلى أسواق دمشق وشوارعها، وأخذ الطيبي المؤذن يقرأ تلك الفتوى على الناس[١]، ثم قرئت على الناس أيضا بالجامع الأموي[٢].

- فتوى العلماء بعدم جواز أخذ أموال التجار للنفقة على العساكر.

عندما وصلت الأخبار في المحرم من سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) بقدوم تيمورلنك وعساكره نحو بلاد الشام، اجتمع السلطان بالأمراء واستدعى الخليفة والقضاة والأمراء وشاورهم في الاستعداد للقاء العدو، وطرحت في المجلس قضية أخذ الأموال من التجار للنفقة على العساكر، فلم يوافق القضاة على ذلك. وتكلم القاضي جمال الدين الملطي[٣] معترضا، فقال: " أنتم أصحاب اليد، وليس لكم معارض، وإن كان القصد الفتوى، فلا يجوز أخذ مال أحد، ويخاف من الدعاء على العساكر إن أخذ مال التجار"، فقيل لهم: " نأخذ نصف الأوقاف نقطعها للأجناد البطالين[٤]"، فعارضهم القاضي

---

(١) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص ص٤٥٥-٤٥٦؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٤٧.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٤٨.

(٣) قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن موسى الملطي الحنفي، ولد سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، أصله من ملطية وسكن حلب، اشتغل بالعلم حتى مهر وعمل بالإفتاء والتدريس، ثم استدعاه السلطان فولاه القضاء سنة (٨٠٠هـ/١٣٩٧م) واستمر إلى أن توفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٤٦-٣٥٠؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٥٠-٢٥١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٦٤-٦٥.

(٤) الأجناد البطالون: هم العاطلون من الجنود والأمراء، عن أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها؛ نتيجة غضب السلطات عليهم، أو لكبر سنهم. دهمان، معجم، ص٣٥.

الملطي أيضا[١]، ولما أصر على منع ذلك، قام بقية القضاة ومشايخ العلم، مؤيدين لفتوى القاضي الملطي[٢].

ويظهر سبب اعتراض العلماء على أخذ أموال من الناس واضحا في هذا الموقف، وذلك من قول القاضي الملطي: " ويخاف من الدعاء على العساكر إن أخذ مال التجار "، والمقصود أن هذا الدعاء سيصدر من جهة مظلومة، في وقت أحوج ما تكون العساكر فيه إلى الدعاء لهم لا الدعاء عليهم.

رابعا: الشعر

أحدث استيلاء المغول على دمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) ألما وحزنا في نفوس أهلها، وقد عبر العلماء بنظمهم عن بعض المآسي التي عاناها أهل دمشق من جراء وقوعها بيد المغول.

فالشيخ كمال الدين الزملكاني[٣] عبر في أبيات له، عن كثرة المغول واصفا إياهم بالعلوج[٤]، كاشفا عن بعض المتعاونين معهم من أهل دمشق كالحن والبن، وهما ابنا الشيخ الجريري، فقال:

لهْفي على جِلق يا شر ما لقيت　　من كل علج له في كفره فن

بالطم والرم جاءوا لا عديد لهم　　فالجن بعضهم والحن والبن[٥]

وقال الشيخ عز الدين عبد الغني الجوزي أبياتا شبه فيها المغول بالكلاب، ووصفهم بالخسة، وأشار إلى إفسادهم وكثرتهم معتبرا إياهم جنا مفسدين، كما كشف عن تآمر الحن والبن معهم، فقال:

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص ص١٠٢٨-١٠٢٩؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٥٠-٢٥٢؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص١٩١-١٩٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ص١٧٥-١٧٦.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٩٤.

(٣) الشيخ الإمام العلامة محمد بن علي بن عبد الواحد الشافعي، درَّس وأفتى وصنف، وانتهت إليه رياسة المذهب تدريسا وإفتاء ومناظرة، توفي سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م). السبكي، الطبقات الكبرى، ج٩، ص ص١٩٠-٢٠٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ص١٤٠-١٤١.

(٤) العلوج: جمع علج، وهو كل جاف شديد من الرجال. أنس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، د.ن، د.م، ط٢، د.ت، ج٢، ص٦٥١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: أنس وآخرون، المعجم الوسيط.

(٥) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣٠؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٣٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٢.

بلينا بقـــوم كالكـــلاب أخسة علينـا بغـارات المخاوف قد شنوا

هم الجن حقا ليس في ذاك ريبـة ومع ذا فقد والاهم الحن والبـن[(١)]

وأكد الشيخ علاء الدين الوداعي[(٢)] كثرة المغول وسوء طباعهم، فقال:

دهتـنا أمـور لا يطاق احتمالـها فسلـم منـها الإله له المـن

أتتنا تتـار كالـرمال تخالـهم هم الجن حتى معهم الحن والبن[(٣)]

وقد وضح الشيخ كمال الدين ابن قاضي صرخد، الحال السيئة التي آلت إليها دمشق بعد سقوطها بيد المغول، فقال:

رمتنا صروف الدهر منها بسبعـة فمـا أحـد منا من السبع سالم

غـلاء وغـازان وغزو وغـارة وغدر وإغبان وغـم ملازم[(٤)]

---

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٢.

(٢) الشيخ المقرئ المحدث الكاتب المنشئ علي بن المظفر الكندي المعروف بالوداعي أو الـوادعي، ولـد سـنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، تولى مشيخة المدرسة النفيسية، كان يتشـيع مـن غيـر سـب ولا رفـض، تـوفي سـنة (٧١٦هـ/١٣١٦م). الكتبي، فوات، ج٣، ص ص٩٨-١٠٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٧١؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص ص٥٣٧-٥٣٨؛ الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٣.

(٣) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣١؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٣٦.

(٤) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣١؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٣٧.

وقد رثى الشيخ علاء الدين القواس[١] في قصيدة له سقوط دمشق بيد المغول سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، معددا الجرائم التي ارتكبوها من قتل ونهب وأسر وسبي وتخريب لأماكن العبادة والدراسة، واصفا إياهم بالفساد[٢] والإفساد في دمشق؛ لعداوتهم لأهلها وسكانها.

فقال في مطلع قصيدته باكيا دمشق:

أحسن الله يا دمشق عزاك ... في مغانيك يا عماد البلاد

وبرستاق نيربيك مع المزة ... مع رونق بذاك الوادي

وبأنس قاسيون وناس ... أصبحوا مغنا لأهل الفساد

طرقتهم حوادث الدهر بالقتل ... ونهب الأموال والأولاد

وبنات محجبات عن الشمس ... تناءت بهن أيدي الأعادي

وقصور مشيدات تقضت ... في ذراها الأيام كالأعياد

وبيوت فيها التلاوة والذكر ... وعالي الحديث بالإسناد

حرقوها وخربوها وبادت ... بقضاء الإله رب العباد[٣]

وعندما انتصر المماليك على المغول في شقحب سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) أثار انتصارهم ذلك أهل الشام والديار المصرية، فتفاعلوا معه تفاعلا عظيما معبرين عن فرحتهم بهذا الانتصار، وقد شارك أهل العلم في التعبير عن هذا الفرح من خلال نظمهم للقصائد المعبرة عن شكر الله تعالى، ومدح المساهمين فيه وعلى رأسهم السلطان.

ومن العلماء الذين سجلوا بنظمهم نصر موقعة شقحب، القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر، الذي قال ممتدحا السلطان الناصر قلاوون:

---

(١) الشيخ علي بن إسماعيل الوتّار، كان حسن المجالسة، ديّنا أديبا له نظم، حدث برسالة الشافعي عن أبي اليسر، توفي سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م). ابن حجر، الدرر الكامنة، دار الجيل، ج٣، ص٢٩.

(٢) جرار، أصداء، ص١٦٦.

(٣) المرجع نفسه، ص١٦٦.

هــم زعمــوا بأنـــــك لست تــأتــي ركبــــــــت إلى لقائــــــهم البريــــدا

ولاذوا بالفـــــرار فلـــم تدعهــــم وأعددت الســلاسل والقيـــــــــودا[١]

وممن امتدح نصر موقعة شقحب وأثنى على الناصر قلاوون وعسكره، كاتب الإنشـاء شـمس الدين الطيبي[٢]، حيث يقول:

رمى كتائب غازان بعسكره الفاذين إذ دلفــوا للبــغي وازدلــــقوا

لاقــاهم الفيلق الجــرار فانكسروا خوف العوامل بالتأنيث وانصرفوا[٣]

وعبر عن موقفه من المغول بتوجيه اللعن عليهم، وإظهاره التشفي منهم، فيقول:

فروا من السيف ملعونين حيث سروا وقتلوا في البراري أينما ثقفوا[٤]

ونظم الشيخ جمال الدين أبو بكر قاضي عجلون قصيدة طويلة[٥] في وقعة شـقحب، يقـول فـي مطلعها:

الله أكبر جــاء النصــر والظفــر والحمــد لله هــذا كنت أنتظــر

وأبرز القدر المحتــوم بارئــــه سبحانه بيديه النفع والضــرر[٦]

---

(١) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٧٠.

(٢) شمس الدين أحمد بن يوسف بن يعقوب الطيبي، كاتب الإنشاء بطرابلس، كان كاتبا مجيدا، مكثرا مـن الـنظم والنثر والترسل توفي سنة (٧١٧هـ/١٣١٧م). الصفدي، الوافي، ج٨، ص ص١٩٣-١٩٦؛ ابن حجـر، الـدرر الكامنة، الجيل، ج١، ص ص٣٤١-٣٤٤، ابن تغري بردي، المنهـل الصـافي، ج٢، ص٢٧١، حاشـية٢ و ص ص٢٨٠-٢٨٢.

(٣) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج١، ص٢٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٢.

(٥) ينظر نص القصيدة: الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ص٩٣-١٠٠؛ النـويري، نهايـة الأرب، ج٣٢، ص ص٣٣-٣٨.

(٦) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ص٩٣-٩٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٣٣.

وأخذ الشيخ يرغب المسلمين في الجهاد والاستشهاد من خلال تمنيه أن يكون الموت قد ناله في تلك المعركة، كما أنه وصف الحرب وصفا تهفو إليه النفوس وتتحفز للقتال في سبيل الله[١] ، فيقول:

وددت لو كنت بين الصف منجدلا قد ارتوت من دمي الحظية السمر

وكوثر الحرب قد راقت مشاربه تحت العجاجة والأبطال تعتكر

والسيف يبدي بديعا من فواقره والرمح ينظم والهامات تنتشر[٢]

كما أن الشيخ كشف عن تعاون الأرمن مع المغول في وقعة شقحب؛ الأمر الذي دعاه إلى تحريض السلطان والعساكر الإسلامية إلى غزوهم في عقر دارهم، مذكرا بأفعالهم القبيحة في الصالحية سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، فقال:

هبوا إلى سيس من أحلام رقدتكم وسارعوا في طلاب الثأر وابتدروا

...

أما رأيتم وعاينتم وقد فعلوا في الصالحية ما لا تفعل التتر[٣]

كما أنه أخذ يدعو جند المسلمين إلى المحافظة على عدة القتال[٤]، من أجل استخدامها في انتصارات أخرى قادمة على المغول، تتوج باسترجاع دار الخلافة الإسلامية ببغداد، إضافة إلى ذلك فهو يشحذ همم السلطان لمواصلة المعارك ضد المغول ، فيقول:

إنا لنرجوه من بغداد ينهلها في بارق الحرب والرمضاء تستعر

صونوا جيادكم اللاتي بكم هميت بماء دجة يرويها فتصطدر

---

(١) جرار، أصداء، ص٨٧.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ص٣٣-٣٤.

(٣) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ٩٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٣٥.

(٤) جرار، أصداء، ص٨٧.

يؤمـــها وإمـــام المسلمين معا ثقـــوا بقولي فهـــذا منـــه منتظر[(١)]

وفي هذه الأبيات لفته يبينها القاضي، وهي أنه ينظر إلى المغول حتى بعد إسلامهم أنهـم محتلـون لبلاد المسلمين، مما يتوجب على أهل الإسلام في الشام أن يعدوا العدة لتخليص البلاد الإسلامية من أيديهم.

وأخذ القاضي شرف الدين بن الوحيد[(٢)] يتعالى في نظرته لغازان، الذي اعتبره غيـر أهـل ولا كفء لاحتلال دمشق، مشبها إياه في ذلك بمن سبقه من آبائه المغول الكفرة، وهو رابط يـدل علـى أن أهل العلم لم تختلف نظرتهم الرافضة للغزو المغولي قبل إسلامهم وبعده، وممـا قالـه القاضـي معبرا عن هذه المعاني:

لقد تمت النعمى وأوضحـــت البشرى وقد أعبق الفتح المبين لنا نشـــــــرا

حبانا إله الخلق بالنصر والهـــــدى على الشرك والإيمان قد غلب الكفـــرا

ولمـا غزا غـــازان عقـــر ديـارنا وأعطاه من يعطي ومن يمنـع النصـرا

تمـــرد طغيـــانا وتـــاه تجـــبرا ولم يرتفق سعيا ولــــم يستفق سكرا[(٣)]

وتتأكد هذه النظرة أيضا عند علماء آخرين، وذلك بوصف الغزو المغولي لبلاد الشام، بأنه بغـي يجب رده وقتال أهله، فالشيخ بدر الدين المنبجي[(٤)] يقول في وقعة شقحب، معتبرا نصـرها نصـرا للإسلام على الشرك:

إن البـغاة بني خاقان أقدمــــهم على هلاكـــــهم الطغيـــان والأشـــر

---

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص ص٩٩-١٠٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٣٧.

(٢) القاضي شرف الدين محمد بن شريف بن يوسف الزرعي، الرئيس العالم الأديب كاتب الدرج، صاحب الخـط الفائق والنظم الرائق، شيخ التجويد، كان شجاعا مقداما متكلما منشئا، توفي سنة (٧١١هـ/١٣١١م). الذهبي، ذيل تاريخ، ج٥٣، ص١٢٧؛ الذهبي، ذيل العبر، ص٣٠.

(٣) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٨٩.

(٤) الشيخ محمد بن عمر البزار الشافعي، الأديب البارع، صاحب النظم والنثر، توفي سنة (٧٢٣هـــ/١٣٢٣م). الذهبي، ذيل تاريخ، ج٥٣، ص٢٧٢.

راموا وقد حشـــدوا غلبا فما غلبوا   وحالوا النصر تضليلا فمــا نصـــروا

...

يا وقعــة مــرج الصفر افتخــرت   بك الوقائــع في الآفـــاق والعصر

رفعت بالنصر أعـــلام الهدى ولقد   جـــردت للشرك كسرا ليس ينجبر[١]

ولا تختلف هذه النظرة عند الشيخ شمس الدين أحمد بن يعقوب الطيبي الذي يقول:

ذوقــوا وبــال تعديكــم وبغيتكــم   في أمركم ولكأس الذل فارتشفــوا[٢]

كما أنه يعتبر القتال بين أهل الشام و بين المغول وأعوانهم، قتالا بين أهل الإسلام وأهل الضلال والكفر، فالأولون مجاهدون والآخرون ظالمون، فيقول:

وجــاهدوا فــي سبيل الله فانتصروا   مــن بعد ظلم وممــا ساءهم أنفـــوا

لما أتتهم جمــوع الكفــر يقدمــهم   رأس الضـــلال الذي في عقله حنف[٣]

ويقول راجيا الله لهم اللعنة وسوء المصير بدخول النار؛ جزاء ما فعلوه بالشام وأهله:

فروا من السيف ملعونين حيث سروا   وقتلــوا في البــراري حيثمــا ثقفــوا

...

إن الذي في جحيـــم النار مسكنــه   لا تستبــاح له الجنــات والغــرف[٤]

ثم لا ينسى الشيخ أن يعبر عن سروره وفرحه بالنصر على المغول، ورد ضررهم عــن بــلاد الشام، فيحمد الله الذي منح المسلمين النصر على أعدائهم، حيث يقول:

---

(١) الدوادار، كنز الدرر، ج٩، ص ص٩١-٩٣؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص٢٧٤-٢٧٥.
(٢) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٨٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٨٠.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٨١.

فالحمـــد لله معطـــي النصــــــر نـــاصره وكاشف الضر حيث الحال تتكشـــف[١]

ومن الصور التي تظهر في أشعار العلماء مبينة موقفهم من المغول، صورة الاستهزاء والسخرية بهم نتيجة هزيمتهم في موقعة شقحب، فالشيخ علاء الدين الوداعي يقول:

قـــــــولوا لقـــازان بــــــأن جيوشــه جـــــــاءوا ففـــــرجنـــاهم بالشام

فــــي ســـرحة المــــرج التي هاماتهم منثـــــــورها وشقائــــق الأجسام

مــــا كـــــان أشأمـــها عليهم فـــــرجة غمــت وأبـــركها علـــى الإسلام[٢]

وقال الشيخ العلامة نجم الدين علي بن داود القحفازي[٣] في ذلك:

لمــــا غــــــــدا غـــــازان فخـــــــارا بما قــــد نال بالأمــس وأغراه البـــطر

جـــــاء يــــــرجي مثلـــــــــــها ثانيــــــة فانقلـــب الــدست عليــه وانكسر[٤]

وتستمر صورة إظهار الشماتة بالمغول بإظهار الفرح بموت غازان، فعلاء الدين الوداعي يقول بعد أن بلغه خبر موت غازان:

قد مـــــات غـــــازان بلا مــرية ولـــم يمت في الحجج الماضية

بــــــل شنـــعوا عن مـــوته فانثنى حيا ولكـــن هـــذه القاضيــــة[٥]

---

(١) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ٢٨٢.

(٢) الصفدي، الوافي، ج٤، ص٢٥٦.

(٣) الإمام العلامة نجم الدين علي بن داود بن يحي القحفازي الحنفي، ولد سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، شـيخ أهـل دمشق في عصره، له النظم والنثر والكتابة الفائقة، خطب في جامع تنكز بدمشق، ودرَّس في الركنية، توفي سـنة (٧٤٤هـ/١٣٤٣م). ابن شاكر، فوات، ج٣، ص ص٢٣-٢٦.

(٤) الصفدي، الوافي، ج٤، ص٢٥٦.

(٥) ابن شاكر، فوات، ج٤، ص ص٩٧-٩٨.

فأجابه الشيخ شهاب الدين محمود[١] بقوله:

مـــات من الرعب وإن لـــم تكن　　　بمـــــوته أسيافـــنا راضيــــة

وإن يفتـــــــــها فأخـــــوه إذا　　　رأى ظباها كانت القـــاضيـــة[٢]

ومن الصور التي تظهر في أشعار العلماء بعد وقعة شقحب، صورة الحرص على توجيه النـــاس في بلاد الشام لأخذ العبر والعظات من الغزو المغولي لبلادهم.

فالشيخ جمال الدين أبو بكر قاضي عجلون يعتبر أن أحد أهم أسباب تسليط العدو على أهل الشام هو عدم حسن معاملة الله سبحانه وتعالى بالتزام أوامره وترك منهياته[٣]، فيقول:

يـــا أهـــل جِلّق أمنا في مســـــــــاكنكم　　　وعاملوا الله رب العـــرش وانزجروا

صوموا وصلوا وزكوا وارحموا وصـــلوا　　　وابغوا النجاة وحجوا البيت واعتمروا

ولا تخـــافوا من التتـــار مجلبـــــــــة　　　من بعـــد ما ارتفع التدليس والعـــور[٤]

ومن المواقف التي تظهر للعلماء تجاه المغول، تشجيعهم للصلح بين المماليك والمغول، فبعـــد أن أرسل السلطان المغولي بو سعيد للسلطان المملوكي محمد قلاوون، يفصح عن رغبته في التصــــالح معه في سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م)، أخذ العلماء يرغبون في ذلك.

ومن الأمثلة التي تظهر موقفهم هذا، ما قاله شيخ الشيوخ شرف الدين عبـــد العزيـــز بـــن محمـــد الأنصاري[٥] في أبيات له:

---

(١) الشيخ شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحنبلي الإمام العلامة البـــارع الكاتـــب، ولـــد بدمشـــق ســـنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، تفقه على ابن المنجا، تولى منصب صاحب الإنشاء بعد وفاة شرف الدين ابن فضل الله، توفي سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٤م). الكتبي، فوات، ج٤، ص٨٢.

(٢) الكتبي، فوات، ج٤، ص ص٩٧-٩٨.

(٣) جرار، أصداء، ص٢١٥.

(٤) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص١٠٧.

(٥) الشيخ الإمام العلامة عبد العزيز بن محمد الأنصاري، ولد بدمشق سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م)، كان مفرط الذكاء، له محفوظات كثيرة وفضائل مشهورة، وحرمة وجلالة، مات بحماة سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م). الصـــفدي، الـــوافي، ج١٨، ص ص٣٣٤-٣٤٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٣٥-٥٣٦.

سألت سوارها المثرى فنادى فقير وشاحها الله يفتح

لها طرف يقول الحرب أولى ولي قلب يقول الصلح أصلح(١)

ولا شك أن موقف العلماء هذا ينم عن رغبتهم في جمع كلمة المسلمين وحقن دمائهم وتوفير جهودهم العسكرية لبذلها ضد أعداء الإسلام والمسلمين.

وعندما غزا تيمورلنك بلاد الشام سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) سجل العلماء بنظمهم موقفهم منه، فابن عربشاه نظم قصيدة بمناسبة موته وصفه فيها بالأعرج الدجال، مما يدل على اتصافه بكثرة الفساد والإفساد في الأرض، فيقول:

ناهيك منهم فتنة كالأبحر الظلما تمور

الأعرج الدجال من قصم الجماجم والظهور(٢)

كما عده باغيا ساعيا لإطفاء نور الإسلام، معتبرا إياه مكملا لمفاسد جنكيز خان الكافر في بلاد الإسلام، فيقول واصفا شيئا من أفعاله المنكرة في أهل دمشق:

ومحا الهدى وغدا الردى بحسامه الباغي يمور

أفنى الملوك وكل ذي شرف وذي علم وقور

وسعى على إطفاء نور الله والدين الطهور

بفروع جنكيز خان ذاك الظالم النحس الكفور (٣)

ولا يتحرج ابن عربشاه أن يبدي فرحته بموت تيمور، بل والدعاء عليه بحلول عذاب الآخرة عليه؛ جزاء أفعاله في المسلمين، فيقول:

---

(١) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص ص١١٥-١١٦.
(٢) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٣٩٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٩٥.

وتبـــــــدلت منه الكـــــرامـــة　　　بـــــالمـــــذلة والعثـــــــور

ومضـــى إلـــى دار النكـــــــال　　　بما تحمــل مـــــن وقـــور[١]

وأخذ علاء الدين الغزولي[٢] يرثي سقوط حلب ودمشق بيد المغول التمرية مبينا ما أصابهما مـــن من الخراب على أيديهم، فيقول:

حُزْنِي على الشَّهباء قبـل حماتـــنا　　　هـُــــــوَ أَوَّلٌ وهـــي المحـــلُّ الثـــاني

لا تـــــدعي الأحـــزان يـــا شقرائنا　　　السبــــق للشهـــــباء فـــي الأحـــزان

رتعت كلاب المغــل فـــي غزلانهـــا　　　وتحكمـــت فـــي الحـــور والــــولدان[٣]

كما سجل بنظمه ما حل بدمشق من مآسي، مستثيرا أمجاد التاريخ الدمشقي ممـــثلا فـــي الجـــامع الأموي، الذي شربوا فيه الخمور وفعلوا بداخله المنكر بالنساء، وقتلوا في جنباته الأطفال[٤]، فيقول:

فيقول:

أبـــني أميـــة شربوا الخمور بصحنه　　　والمغــــل تــفتــل في ذرى الأركان

حتـــــى انتشوا أين عيـــن وليدكم　　　ألـــقـــوا عــرابـــدهم على النســـوان

لم يرحـــموا طفـــلا بكـــى فقلوبـــهم　　　في الفتـــك صـــخــر لا أبو سفيان[٥]

ثم أخذ الشيخ يرثي دمشق بكلماته الحزينة في أبيات طويلة، منها:

---

(١) ابن عربشاه، عجائب المقدور ، ص٣٩٦.

(٢) علي بن عبد الله البهائي الغزولي، كان مملوكا تركيا صاحب ذكاء، فمال إلى الأدب، ولازم العز الموصـــلي فتخرج به، صحب الشيخ جلال الدين خطيب داريًا وأخذ عنه وعن غيره، له كتاب في الأدب بعنوان " مطالع البدور في منازل السرور "، وبرز في نظم الشعر الجيد، توفي سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م). المقريزي، درر العقود، ج٢، ص ص٤٥٩-٤٦٠.

(٣) الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي(ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، مطالع البدور في منازل السرور (٢ج)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ط، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ج٢، ص ص٦٢٠-٦٢١، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الغزولي، مطالع البدور.

(٤) جرار، أصداء، ص١٧٥.

(٥) الغزولي، مطالع البدور، ج٢، ص٦٢٠.

أدمشـــق آهـاتي علـيك كـثيرة كالدمع في جفن الكئيب العـــاني

حسراتها لا تنـــــــقضي من خاطري هـي شغل أفكاري ونصب عيانـي

لي أنـة لي حـرقة لـي لـــــهفة لـي حسرة لـي لـوعة وكفانـي[١]

ولا ينسى الشيخ قبل ختام قصيدته أن يذكر بسبب ما حل بهم من بلاء على يد تيمورلنك، وهـو الذنوب، داعيا أهل دمشق للتوبة والاستغفار؛ لعل الله أن يغفر ويصفح ويبدل خوفهم أمنا، فيقول:

يـا رب فعل الذنب أصل بـــلائنا فـــاصفـح وجـد للذنب بالغفران

واغسل بماء الأمن وجه رجائــــنا واصــــرف بفضلك حاضر الطغيان

واجمع على جـسماننا أرواحــــنا يا جــــامـع الأرواح بالجسمـان[٢]

(١) الغزولي، مطالع البدور، ج٢، ص٦٢١.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٦٢١.

المبحث الثالث

المواقف العسكرية لعلماء العراق والشام من الغزو المغولي الثاني

أولا: المشاركة في القتال

١- مشاركة العلماء في وقعة الخازندار سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م).

تعتبر موقعة الخازندار أول معركة يخوضها المغول بعد إسلامهم ضد المماليك، وقضية مشاركة العلماء من عدمها في القتال ضد المغول - بعد أن أصبحوا إخوانا لهم في العقيدة - تعكس موقف أهل العلم من الغزو المغولي بعد إسلامهم.

وقد كان للعلماء مشاركات كثيرة ضد الغزو المغولي في وقعة الخازندار، ومن هذه المشاركات التي وقف عليها الباحث:

- مشاركة قضاة المذاهب الأربعة والقاضي ابن دقيق العيد.

حيث أخذ القضاة والفقهاء ومعهم الشيخ ابن دقيق العيد يمشون بين صفوف الجند في ساحة المعركة، ويذكرونهم بالجنة والصدق في اللقاء والصبر على مواجهة العدو وتوطين النفس على الملاقاة، وأخذوا يتلون عليهم آيات الجهاد، ويحرضونهم على الجهاد، حتى كثر البكاء على أرض المعركة[١].

- القاضي عماد الدين إسماعيل بن تاج الدين بن الأثير نائب السر بمصر، شارك في الوقعة وفقد فيها، وذكر البرزالي أنه قتل[٢].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٨٧؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٠٣؛ عاشور، الجهاد الإسلامي، ص١٢٠؛ حجة، مواقف أئمة المسلمين، ص١٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤٢؛ البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢٦؛ الصفدي، الوافي، ج٩، ص٥٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٩٤.

- قاضي القضاة الحنفي حسام الدين الحسن بن أحمد الرازي، شارك في الوقعة وفقد فيها، ولم يوقف له على خبر، وكان حينها في السبعين من عمره[١].
- الشيخ علاء الدين علي بن الشيخ إبراهيم الجعبري، وكان ممن استشهد في الوقعة[٢].
- الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الله المقرئ المعــروف بــابن المقيــر، حضــر المصاف ضد المغول، واستشهد يومئذ[٣].
- المؤرخ بيبرس الدوادار شارك في التجريدة التي أرسلها الناصر قلاوون من مصر إلى دمشق بعد وقعة غازان[٤].
- بعد خروج المغول من دمشق نادى أرجواش – نائب القلعة – بحفظ الأسوار والأبواب، والمبيت على أسوار البلد؛ فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو علــيهم آيات الجهاد والرباط، ويذكر لهم الأحاديث النبوية المبينــة لفضــل الجهــاد والربــاط والحراسة، ويحثهم على ذلك[٥].

٢- مشاركة العلماء في وقعة شقحب سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)

ظهرت عدة مشاركات بارزة للعلماء في وقعة شقحب ضد المغول، كشفت عن موقفهم الــرافض للغزو المغولي الثاني لبلاد الشام.

ومن العلماء الذين شاركوا في هذه الوقعة:

- الشيخ نجم الدين أيوب الكردي، حيث استشهد في الوقعة[٦].

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٢٩٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٥٢.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٨.

(٣) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص ص٢٦-٢٧؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٤٠٤؛ ابن العماد، شذرات الــذهب، ج٧، ص٧٩٢.

(٤) الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٧٢.

(٥) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٧٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٦.

(٦) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٩٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٦٣.

- المؤرخ أبو الفداء صاحب " المختصر في أخبار البشر "[(١)].
- خرج القضاة في الرابع والعشرين من شعبان مع العساكر الشامية؛ لشهود القتال ضد المغول[(٢)].
- الفقيه إبراهيم بن عبيدان وقد استشهد في الوقعة[(٣)].
- القاضي شرف الدين محمد بن عبد الله المخزومي المعروف بابن القيسراني، شارك في الوقعة[(٤)].
- المؤرخ النويري صاحب " نهاية الأرب "، إذ يقول عن موقعة شقحب: " وكنت ممن شهد هذا المصاف في جملة العساكر الإسلامية "[(٥)]، ويقول أيضا: " فبتنا تلك الليلة، وليس منا إلا من لبس لأمة حربه، وأمسك عنان فرسه في يده ٠٠٠ فلم نزل على ذلك وأعنة خيلنا بأيدينا حتى طلع الفجر فصلينا وركبنا "[(٦)].
- خرج الفقهاء والقراء في وقعة شقحب، وأخذوا " يطوفون بين المعسكر الإسلامي؛ يتلون القرآن، ويحثون على الجهاد، ويشوقون إلى الجنة "[(٧)].
- شيخ الإسلام ابن تيمية.

يذكر صاحب " العقود الدرية " أن حاجبا شاميا أخبره عن الشيخ قائلا: " قال لي الشيخ يوم اللقاء ونحن بمرج الصفر وقد تراءى الجمعان "، " يا فلان أوقفني موقف الموت "، قال: " فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم ". ثم قلت له: " ياسيدي هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك ما تريد ".

قال: " فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفتيه طويلا، ثم انبعث وأقدم على القتال، وأما أنا فخيل إلي أنه دعا عليهم، وأن دعائه استجيب منه في تلك الساعة ". قال: " ثم أحال

---

(١) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص٢٤٤.
(٢) ابن كثير، البداية، ج١٦، ص ص٢٣-٢٤؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٢٣.
(٣) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢٢٤.
(٤) الصفدي، الوافي، ج٣، ص ص٢٩٣-٢٩٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، الجيل، ج٣، ص ص٤٨١-٤٨٢.
(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٢٧، ص٢٨٠.
(٦) المصدر نفسه، ج٣٢، ص ص١٧-١٨.
(٧) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٣٣.

القتال بيننا ... وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما؛ تحريضا على القتال وتخويفا للناس من الفرار"، فقلت له: "يا سيدي لك البشارة بالنصر، فإنه قد فتح الله ونصر، وها هم التتار محصورون بهذا السفح، وفي غد إن شاء الله يؤخذون عن آخرهم، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ودعا لي في ذلك الموطن بدعاء، وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده "[١].

٣- خروج العلماء لقتال تيمورلنك سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م)

عندما خرج السلطان الظاهر برقوق إلى الشام لقتال تيمورلنك سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) خرج معه شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، والقاضي الحنفي جمال الدين محمود القصيري، والقاضي المالكي ناصر الدين محمد بن التنسي، والقاضي برهان الدين بن نصر الله العسقلاني، والقاضي كاتب السر بدر الدين بن فضل الله، والشيخ شهاب الدين بن الناصح، والشيخ أبو عبد الله الكركي، والشيخ محمد المغربي، والشيخ إبراهيم بن قزاعة، وغيرهم[٢].

٤- مشاركة العلماء في قتال تيمورلنك سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م)

شارك عدد من العلماء في المواجهات العسكرية التي دارت بين المماليك وعساكر تيمورلنك على أبواب مدينتي حلب ودمشق سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م).

ومن العلماء الذين شاركوا في هذه المواجهات:

- قاضي القضاة أحمد بن محمد بن فياض المقدسي، اشترك مع المقاتلة في قتال المغول خارج حلب، فمسكوه واعتقلوه بالقلعة[٣].
- الشيخ قاضي القضاة المالكي بالشام برهان الدين التادلي، وقد جرح في الموقعة ثم استشهد على أثر ذلك وكان عمره سبعون عاما[٤].

---

(١) ابن عبد الهادي، العقود الدرية، ص ص١٤٧-١٤٨؛ الكرمي، الكواكب الدرية، ص٩٦.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص١٩٦ و ص ص٢٠٥-٢٠٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٦٧.

(٣) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٠٥.

(٤) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢٣١ و ص٢٣٤؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٤٦؛ ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٣٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص١٥٥.

- قاضي القضاة شرف الدين عيسى المالكي، وقد أصيب بضربة سيف في يده شلت على أثرها[١].
- الشيخ ابن الفجر المصري مدرس المدرسة الدولعية، حيث فقد في الموقعة[٢].
- الشيخ محمد بن أحمد التركماني العبطيني، نزيل مصر، خرج مع العسكر ففقد في الوقعة[٣].
- الإمام العلامة أحمد بن راشد بن طرخان الملكاوي، شارك في الوقعة، وحصل له ضعف وتغير بعدها؛ فمات في رمضان[٤].
- الشيخ أحمد بن نصر الله الكناني العسقلاني، خرج مع العسكر المصري لقتال تيمورلنك[٥].
- الشيخ شمس الدين محمد بن المنير المؤذن المشهور بالديار المصرية، خرج للقتال فتعرض لعقوبة المغول أثناء القتال فتوفي نتيجة ذلك[٦].
- قضاة الديار المصرية الثلاثة الشافعي صدر الدين المناوي، والمالكي نور الدين بن الجلال الذي توفي بالطريق[٧]، والحنبلي موفق الدين أحمد بن نصر الله، كما خرج معهم العلامة ابن خلدون، والشيخ محمد المغيربي[٨].

وقد اشترك القاضي الشافعي في قتال مجموعة من المغول أثناء محاصرتهم لدمشق، حيث تمكن هو ومن معه من قتل وأسر جماعة منهم[٩].

---

(١) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٣٧.

(٢) ابن حجي، تاريخ، ص٢٣١.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣١٨-٣١٩؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ص١٢٣-١٢٤.

(٤) ابن قاضي شهبة، ج٤، ص٢٠٢؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٢٥٢-٢٥٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٩٩.

(٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢٣٩.

(٦) ابن حجي، تاريخ، ص٢٤٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٠٧.

(٧) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٢٨-٢٢٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٣٦.

(٨) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٦٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٦١؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص٧٩.

(٩) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٦٥.

ثانيا: الوقوع في الأسر.

وقع بعض العلماء في أسر المغول عندما غزا غازان دمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، ومنهم:

- القاضي تقي الدين سليمان بن قدامة المقدسي الحنبلي، أسره المغول وعملوا في رقبته حبلا يجرونه به، ثم تركوه، وأسرت بناته وخلق من أقاربه، ورأى الأهوال[١].
- الشيخ علاء الدين علي بن شرف الدين محمد بن القلانسي، والشيخ شرف الدين محمد ابن الأثير، والشيخ بدر الدين محمد بن فضل الله بن مجلي العدوي، حيث اتخذهم غازان كرهائن مقابل فكاك أسر أحد رجال دولته المعوقين عند السلطان الناصر، وقد تمكن ابن القلانسي وابن الأثير من التخلص من الأسر بحيل عديدة، ورجعا إلى دمشق سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م)[٢]، وأما ابن فضل الله فقد عاد سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م)[٣].
- الشيخ عبد الرحمن بن علي بن قدامة المقدسي، أسره المغول- وقد تمكن من الخلاص منهم - ولذا سمي بالتتري[٤].
- الشيخ فتح الدين بن ضبرة أسره المغول، ورجع من أسرهم سنة (٧٠٧هـ/١٣٠٧م)[٥].
(٧٠٧هـ/١٣٠٧م)[٥].
- الشيخ يوسف بن محمد بن إسماعيل الفزاري، وقد تمكن من الخلاص والرجوع إلى دمشق[٦].
- الشيخ عبد الرحيم بن عثمان بن علي النصيبي، المعروف بابن الطباخ، أسره المغول وأقام عندهم مدة ثم تمكن من الرجوع[٧].

---

(١) الذهبي، تاريخ، ج٥٢، ص٨٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٣٧.

(٢) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص١٢٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤٩؛ البرزالي، المقتفي، ج٣، ص١٧٤؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٠ و ج٥، ص١٨٧ و ص٣٩٧؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٩٤.

(٣) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٢٧٣ و ص٣٢٣.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص١٢٦.

(٥) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص١٤٨.

(٦) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص٢٤١.

(٧) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٢.

وعندما غزا تيمورلنك بلاد الشام سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م)، وقع في أسره عدد من أهل العلم، ومن هؤلاء:

- القاضي شرف الدين عبد الله الحلبي الشهير بابن النجيب، ناظر الجيش بحلب، أسره المغول أثناء مداهمتهم لحلب، وحملوه معهم إلى بلاد الروم، حيث توفي هناك[١].
- قاضي القضاة تقي الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد الكفري، وقد توفي في أسرهم[٢].
- الشيخ أبو البركات موسى بن محمد الشرف الحلبي الشافعي، أسره المغول بحلب، ثم أطلقوه مع مجموعة من الأسارى بعد عودتهم من دمشق، فمرض على إثر ذلك، فما لبث أن مات في رمضان من السنة نفسها[٣].
- الشيخ ابن العديم عمر بن إبراهيم الحنفي، أسره المغول بحلب، وعوقب وأخذ من ماله واعتقل بالقلعة، ثم خلص مع بقية القضاة عند رجوع تيمورلنك من دمشق[٤].
- الشيخ شرف الدين موسى بن محمد بن محمد الأنصاري قاضي حلب، أوذي عندما أخذ المغول حلب، وأسروه ثم أطلقوه[٥].
- الشيخ تاج الدين بن محمود الأصفهيدي العجمي، أسره المغول، ثم استنقذه منهم الشيخ إبراهيم صاحب شماخي[٦].
- الشيخ إبراهيم بن محمد بن خليل البرهان الشافعي، أسره المغول بحلب، وسلبوا ماعنده، وفقد أثناء اقتحامهم لدمشق أهله وأولاده، ولما توجه المغول إلى دمشق أطلقوه[٧].
- الشيخ علاء الدين علي بن سلام، حصل له في الفتنة التيمورية نصيب وافر من العذاب

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢١٥-٢١٦.

(٢) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٤٨-٤٩.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص ص٢٤٩-٢٥٠.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص١٣٧-١٣٨.

(٥) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢٥٣؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٤٣-٣٤٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٨٩.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص٢٢٩-٢٣٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٢٥.

(٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص ص١٣٨-١٤١.

والحريق، وأصيب في ماله، ثم أسروه معهم إلى ماردين، ثم هرب عنهم من هناك(١).

- الشيخ تقي الدين أبو بكر بن علي الكناني، أسر ثم تخلص من الأسر ورجع إلى القاهرة(٢).
- الشيخ قاضي القضاة الشافعي صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي.

أسره المغول وهو في طريقه إلى مصر بعد فرار العساكر المصرية، فلما قبضوا عليه سلبوا ما عنده من الثياب، وامتحنوه محنا شديدة، فلما أحضروه إلى مجلس تيمور لنك دخل مغضبا، وخاطب تيمور بقوله: " أنت خارجي " وكلمه كلمات عنيفة؛ فغضب تيمور منه وأمر بإخراجه وعقابه، فأردف عليه الجند أنواع الإساءات والعقوبات، ثم أخذوه معهم، حتى مات غرقا في نهر الزاب في طريق أسره(٣).

وهذا الموقف من القاضي يدل على إنكاره لغزو تيمورلنك لبلاد الشام، معتبرا إياه خارجيا باغيا على أهل الإسلام، يجب قتاله ورد بغيه.

والملاحظ من هذا الموقف أن نظرة العلماء لم تختلف تجاه المغول في زمن غازان والمغول في زمن تيمورلنك. فشيخ الإسلام ابن تيمية اعتبرهم زمن غازان من جنس الخوارج الذين يجب قتالهم، والشيخ المناوي اعتبرهم زمن تيمورلنك كذلك من جنس الخوارج الذين يجب قتالهم؛ مما يعطي دلالة على أن موقف العلماء كان متفقا في وجوب قتال المغول الذين غزوا بلاد الشام بعد إسلامهم.

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٢٥١؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص١٩٦.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج١١، ص٥٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص١٨٣.

(٣) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٩٩؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٥٢؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٣٣-٢٣٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣١٥-٣١٧؛ ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٩٢؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ص١٠٢-١٠٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦١٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٥٥-٥٦.

- الشيخ علي بن محمد بن النصير السخاوي الملقب بعصفور نهبه المغول وأسروه، ولكنه نجا بعد ذلك من الأسر [١].
- الشيخ أحمد بن محمود بن محمد الحنفي المعروف بابن العجمي، خرج مع الناصر للقتال، ووقع في الأسر، ثم تخلص منهم [٢].
- قاضي القضاة محي الدين محمود بن العز الحنفي، عاقبوه بعقوبات متنوعة، وكووه وسقوه الماء والملح، وشووه بالكلس والنار هو وولده قاضي القضاة شهاب الدين أبو العباس أحمد، ثم أسروهما معهم، وبعدها تمكنا من الرجوع إلى الشام [٣].
- قاضي القضاة شمس الدين النابلسي الحنبلي، وكان قد هرب من بغداد بعد أن شاهد خرابها وقتْلِ أهلِها، فقام بنقل مشاهداته تلك للمؤرخين في بلاد الشام كابن حجي [٤].
- الشيخ شهاب الدين بن الشهيد، والشيخ صدقة بن الجابي [٥].
- الشيخ محمد بن أحمد بن الفضل العماد الهاشمي، شيخ الشيوخ بحلب، مات في أسره عند المغول [٦].

ومما قاله ابن عربشاه في أسر المغول لأهل العلم في بلاد الشام: " إن كل أمير من أمرائه، وزعيم من زعمائه، أخذ من الفقهاء والعلماء، وحفاظ القرآن والفضلاء، وأهل الحرف والصناعات، والعبيد والنساء والصبيان والبنات، ما لا يسع الضبط " [٧].

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص ص٣١٦-٣١٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ص٢٢٣-٢٢٤.

(٣) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص ص٢٩١-٢٩٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢٢٠.

(٤) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٥١٥؛ ابن قاضي شهبة، ج٤، ص١٨٣؛ ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٩٢.

(٥) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٨٣.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٣١٩؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٣٥-٢٣٦.

(٧) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٩٥.

ثالثا: التعرض للتعذيب والقتل

عندما غزا غازان بلاد الشام سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) تعرض كثير من العلماء للأذى والتعـذيب والقتل.

ومن أهل العلم الذين آذاهم وعذبهم المغول بعد سيطرتهم على دمشق:

- قاضي القضاة الحنبلي تقي الدين، حيث ناله أذى كثير من المغول عندما اقتحموا دير الحنابلة[١].
- العدل الرئيس عمر بن عباس بن جعوان الأنصاري[٢].
- أم علي حبيبة بنت الشيخ أحمد بن محمد المقدسية – أجازها جماعة من العلماء -، آذاها المغول فصبرت واحتسبت[٣].
- المفتي نجم الدين موسى بن إبراهيم الشقراوي الحنبلي، شيخ دار الحديث العالية بسفح قاسيون، حيث قاسى مشاقا شديدة أيام فتنة غازان كما تعرض لنهب أمواله[٤].

وأما العلماء الذين قتلوا أثناء سقوط دمشق بيد المغول فلم يكن عددهم بالهين، وممن ذكرت المصادر قتلهم على يد المغول سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م):

- الخطيب الإمام العالم موفق الدين أبو المعالي محمد بن محمد بن الفضل البهراني الحموي[٥].
- الفقيه المقرئ أحمد بن عبد الله اليونيني الصالحي، دخل عليه المغول فآذوه، ثم قتلوه[٦].
قتلوه[٦].
- الشيخ أحمد بن محمد الصالحي الحداد[٧].

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٣٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٥، ص٦٢٢.
(٢) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص ص١٢٢-١٢٣.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٤٦.
(٤) الذهبي، ذيل تاريخ الإسلام، ج٥٣، ص٢٨.
(٥) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٩٢.
(٦) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٣٧؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٩٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٧٥.
(٧) الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٩٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٧٦.

- الشيخ إبراهيم بن عنبر المارديني الأسمر، توفي بعد الشدة والضرب[١].
- الشيخ إبراهيم بن أبي الحسن الفراء الصالحي، قتل بجامع الصالحية[٢].
- الفقيه سيف الدين أبو بكر بن الشهاب أحمد بن سرور النابلسي[٣].
- الشيخ علي بن عبد الرحمن المقدسي، قتله المغول بالجامع المظفري[٤].
- الشيخ علي بن أحمد بن نعمة المقدسي الحنبلي، قيم جامع الجبل، عذبه المغول عذابا شديدا إلى أن مات شهيدا[٥].
- الشيخ عمر بن أحمد بن نعمة المقدسي، أخو الشيخ علي السابق ذكره، عذبه المغول لما دخلوا الصالحية عذابا شديدا؛ فمرض من شدة ما أصابه ثم مات[٦].
- الشيخ علي بن مطر المحجي الصالحي البقال[٧].
- الشيخ محمد بن يوسف بن خطاب التلي الصالحي، مات بجبل الصالحية بعد المحنة والشدة[٨].
- الشيخ محمد بن سليمان بن داود الجزري المقرئ بالرباط الناصري[٩].
- الشيخ علي بن الحسن الجابي، عذبه المغول عند دخول دمشق حتى مات متألما من العذاب سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م)[١٠].

---

(١) الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٩٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٧٨.

(٢) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٥٣؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٩٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٧٨.

(٣) الذهبي، معجم محدثي الذهبي، تحقيق: روحية عبد الله السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٢٠٢، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الذهبي، معجم محدثي؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٨٤.

(٤) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٨٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٧٨٥-٧٨٦.

(٥) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٤٨؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٤٠١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٨٦.

(٦) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٤٩.

(٧) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٥٢؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٤٠١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٨٦.

(٨) الذهبي، العبر، ج٣، ص٤٠٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٩١.

(٩) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٥١؛ الذهبي، معجم محدثي، ص١٥٧.

(١٠) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص ص٤٥-٤٦.

- الشيخ عبد الرحمن بن عمر بن صومع الدير قانوني الصالحي، قتله المغول بالصالحية، ولم يدفن[١].
- الشيخ أحمد بن محمد المقدسي المعروف بابن المجاهد[٢].
- الشيخ عيسى بن بركة بن والي السلمي الحوراني، عذبه المغول بالرمي داخل النهر في البرد الشديد؛ فمات على إثر ذلك، ودفن بعد موته بعشرة أيام[٣].
- الشيخ أحمد بن الفقيه سليمان بن عطاف بن أبي الجيش المقدسي، توفي بدمشق بعد أن أخذ أهله وبناته[٤].

إضافة إلى هؤلاء يذكر الذهبي وابن العماد الحنبلي، أنه توفي بدمشق وجبل الصالحية في هذه الفتنة من شيوخ الحديث أكثر من مائة نفس[٥].

وبعد انتصار المغول في وقعة الخازندار وعزمهم على دخول دمشق، صدر من بعض العلماء مواقف بغرض حفظ المدينة، ومن ذلك أن الشيخ وجيه الدين بن منجي أراد أن يبذل جميع أملاكه العينية؛ افتداء لما يمكن افتدائه من البلد، وأما الشيخ ابن القلانسي فقرر التصدي للمغول حتى الموت.

فلما علم المغول بذلك قرروا معاقبتهما ومن معهما من العلماء، فقاموا بعصر الشيخ ابن شقير، وأما ابن منجى وابن القلانسي فتوعدوهما بالعصر، ثم ضربوهما، وضربوا معهما بعضا من كبار البلد كقاضي القضاة الشيخ نجم الدين بن صصرى[٦]. كما قام المغول بمصادرة أموال ابن منجى، وابن القطنة، حيث فقد كل منهما مائة وخمسين ألف درهم[٧].

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٩.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٥٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٥٤.
(٤) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص٥٦.
(٥) الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٩٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٧٥.
(٦) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٢٩؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص ص٣٥-٣٦.
(٧) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣٣.

وعندما غزا المغول بلاد الشام سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) ووصلوا إلى حلب، قام أبو جلنك الشاعر الحلبي وأحد فقهائها المتميزين في جماعة من أهلها بالإغارة على طائفة منهم، فوقع أبو جلنك بيد المغول، فأحضروه إلى مقدمهم فسأله عن عساكر المسلمين، فكثرهم ورفع شأنهم بهدف إضعاف معنويات المغول؛ فأمر بقتله[(١)].

ولما هاجم تيمورلنك بغداد سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٣م) قتل من علمائها، الشيخ شهاب الدين أحمد بن صالح الحنبلي، خطيب جامع القصر ببغداد[(٢)]، ونال منهم الشيخ غياث الدين العاقولي مدرس المدرسة المستنصرية أذى، حيث نهبت أمواله وأسرت حريمه[(٣)].

وعندما غزا تيمورلنك بلاد الشام سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) أصاب العلماء بلاء عظيم من جراء التعذيب والأذى والقتل.

فمن العلماء الذين نالهم أذى وتعذيب المغول في تلك المحنة:

- الشيخ الشريف علي بن محمد الزين الحسني، اعتقله المغول بحلب وملؤا سطلا ماء وملحا ليسقوه إياه فجاء ثور وشربه، فاعتقدوها كرامة للشريف فأطلقوه[(٤)].
- الشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن بن رحال اللوبياني، آذاه المغول عند دخولهم دمشق[(٥)].
- الشيخ علم الدين محمد بن محمد الدمشقي القفصي، أصيب في الوقعة بماله، وأسرت ابنته[(٦)].

---

(١) البرزالي، المقتفي، ج٣، ص١٣٩.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص١٧٠؛ العاني، نوري عبد الحميد، العراق في العهد الجلائري(دراسة في أوضاعه الإدارية والإقتصادية)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١١٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: العاني، العراق في العهد الجلائري.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص ص٢٧٥-٢٧٨؛ معروف، علماء المستنصرية، ج١، ص٤٨.

(٤) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٢٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٢٨٤.

(٥) ابن قاضي شهبة، تاريخ ج٤، ص١٧٣؛ السخاوي، الضوء اللامع ، ج١١، ص٤٣؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص ص٢٩٩-٣٠٠.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص١٢٢-١٢٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٨٣.

- الشيخ زين الدين عمر بن بُراق الدمشقي، أوذي في الفتنة وأخذ ماله وأصيب في أهلـه وولده، ثم مات في شوال[١].

وأما العلماء الذين قتلوا بسبب الغزو المغولي زمن تيمورلنك، فقد ذكرت المصادر عـددا كبيـرا منهم.

ومن هؤلاء العلماء:

- القاضي علاء الدين علي بن محمد التميمي الصرخدي[٢].
- الفقيه عمر بن عبد الله الكفيري الشافعي، أسره المغول في بيت ليما، ثم قتلوه[٣].
- الشيخ عثمان بن بن محمد العبادي الكركي[٤].
- الشيخ أحمد بن رجب بن أبي البركات الشرف البقاعي الشافعي، عذبه المغول بـأنواع العذاب حتى توفي[٥].
- الفقيه الشافعي داود بن علي الكردي الشافعي، نزيل حلب[٦].
- الشيخ علي بن إبراهيم الكلبي الحلبي[٧].
- الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد الحلبي الشافعي المعروف بـابن الـركن[٨]، ونقـل السخاوي عن ابن خطيب الناصرية قوله: " أنه رأى له مصنفا سماه " روض الأفكـار

---

(١) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٩٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٠٨-٣٠٩؛ ابن العمـاد، شـذرات الذهب، ج٩، ص٥٣.

(٢) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٦٨(الحاشية)؛ ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢١٥؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٢٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٦.

(٣) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢٣٤؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٣٠٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٦.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص١٣٩.

(٥) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٠٢-٢٠٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٣٠٢.

(٦) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٢١٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٦٦.

(٧) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٢٩٤-٢٩٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص١٥٦.

(٨) ابن قاضي شهبة، تاريخ ج٤، ص ٢٣٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣١٩-٣٢٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص ص١٢-١٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٥٦-٥٧.

وغرر الحكايات والأخبار "، وكتب أحد أقربائه على ظهر الكتاب، أنــه مــات مقتــولا شهيدا على يد تمرلنك؛ لكونه لقيه بكلام شديد "[١].

- الفقيه الشافعي القاضي شمس الدين محمد بن إسماعيل بن الحسن البــابي ثــم الحلبــي، حيث فقد في كائنة حلب[٢].
- الفقيه المحدث شمس الدين محمد بن خليل بن طوغان الحنبلي، عذبه المغول بدمشــق، وظل يعاني من ألم العذاب حتى توفي في شعبان من السنة نفسها[٣].
- العالم شمس الدين محمد بن سليم بن كامل الجدواني الشافعي مفتي دمشق، عذبه المغول بعد استيلائهم على دمشق بأنواع العذاب، فمات على إثر ذلك[٤].
- القاضي ناصر الدين محمد بن عمر بن أبي الطيب العجلي، تعرض لتعــذيب المغــول؛ مما أدى إلى وفاته في رجب[٥].
- الفقيه المقرئ الصوفي محمد البصروي الضرير، عذبه المغول، فكان ذلك ســببا فــي وفاته[٦].
- الشيخ أحمد بن آقبرص بن بلغان الصالحي[٧].
- المحدث عمر بن محمد بن عبد الهادي المقدسي[٨].
- المحدثة فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسية[٩].

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص ص١٢-١٣.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٣٦-٢٣٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٢٠-٣٢١؛ ابــن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٦٦.

(٣) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٨٩؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ ج٤، ص ص٢٣٧-٢٣٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٢٣-٣٢٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٥٨.

(٤) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص ص٤٨٣-٤٨٤؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٣٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٣٢٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١١٠.

(٥) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٨٣؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢٣٩-٢٤٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٢٩-٣٣٠؛ ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٩٣.

(٦) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٨٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٣٤٢.

(٧) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٥٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص ص٤١-٤٢.

(٨) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص١١٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٥٣.

(٩) المقريزي، درر العقود، ج٢، ص٢٠٥؛ ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج٢، ص ص٣٩٨-٣٩٩.

- المحدثة خديجة بنت أبي بكر الصالحية المعروفة ببنت الكورى[١].
- الشيخ عبد القادر بن القمر المعروف بالفراء سبط الحافظ الذهبي[٢].
- الشيخ بدر الدين محمد بن قوام الصالحي، مات محترقا في حريق المغول لدمشق[٣].
- الإمام العلامة مفتي المسلمين أقضى القضاة شهاب الدين أحمد بن راشد بن طرخان الملكاوي الشافعي توفي في منتصف شهر رمضان، ويظهر من كلام ابن حجي أن سبب وفاته ما حصل له من ضعف بسبب مشاركته في قتال أهل دمشق لتيمورلنك[٤].
- الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الحافظ الذهبي، قتله المغول بعد أن هاجمت مجموعة منهم قريته كفر بطنا، فقاتلهم أهل القرية، إلا أنهم غُلبوا فقبض عليهم، فأوذي الشيخ شمس الدين فجاء بمال ليكفوا عنه، فطلبوا منه المزيد فلم يقدر؛ فقتلوه[٥].
- الشيخ شرف الدين أحمد بن حسين بن رجب، مات نتيجة العذاب[٦].
- الشيخ زين الدين عمر بن الشيخ علاء الدين بن الشاطر، مستوفي الأوقاف، مات في الحريق؛ إذ لم يتمكن من الهروب لما نال من العذاب[٧].
- الشيخ زين الدين عمر البعلبكي[٨].
- الشيخ الفرائضي مسند الصالحية أبو بكر بن إبراهيم بن معتوق بن قدامة الصالحي[٩].

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٧٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٤٧.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٢٩٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص ص٢٩١-٢٩٢ . ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٥٠.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر،ج٤، ص٣٣٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٩، ص ص٢٦٢-٢٦٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٦٢.

(٤) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٩٢.

(٥) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٧٩؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٣٢٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص٣٠١.

(٦) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص ص٢٤٢-٢٤٣.

(٧) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٨٧؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٣١.

(٨) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢٤٦.

(٩) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٩٧؛ ابن حجر؛ إنباء الغمر، ج٤، ص ص٢٦٦-٢٦٧.

- الشيخ أبو بكر بن سليمان بن صالح الدادبخي[١].
- الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن عبد الهادي بن قدامة[٢].
- الشيخ أبو المحاسن عبد الله بن محمد بن عبد الأحد الحراني الحلبي، مات بحلب بعد أذى المغول له[٣].
- قاضي القضاة الحنفية بدمشق الشيخ عبد الله بن يوسف بن فزارة الدمشقي المعروف بابن الكفري، أوذي في الفتنة بدمشق، وقاسى أنواعا من الحاجة والذل، ثم مات في ذي الحجة من السنة نفسها[٤].
- الشيخ محمد بن بهادر المسعودي الصلاحي[٥].
- الشيخ محب الدين محمد بن منيع الصالحي المعروف بالوراق[٦].
- الشيخ يوسف بن إبراهيم الأذرعي[٧].
- الشيخ برهان الدين بن القوشة، مات بعد أن ضعف سبعة عشر يوما[٨].
- الشيخ إبراهيم بن محمد بن المدركل[٩].
- الشيخ إبراهيم بن محمد بن خولان الدمشقي[١٠].
- الشيخ شمس الدين محمد الهروي الحنفي، امتحن في الفتنة وعذب أنواع العذاب، وقيل أنه قتل[١١].

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٢٦٧-٢٦٨.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٢٦٨-٢٦٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١١، ص٣٨.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ٢٨٢ و ص٢٨٥.

(٤) ابن حجي، تاريخ، ص ص٢٧٢-٢٧٣؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٧٢؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص ص٢١٦-٢١٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٢٨٤-٢٨٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٣٦.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ص٣٢٢-٣٢٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص٢٠٦.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٣٤٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٩، ص١٩٨.

(٧) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٣٤٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٩٢.

(٨) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٩٣.

(٩) السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص١٣٦.

(١٠) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٣.

(١١) المصدر نفسه، ج١٠، ص١١٣.

- الشيخ شرف الدين صدقة بن سعيد، مات من آثار العذاب[١].
- زين الدين عمران بن إدريس الجلجولي، المقرئ الفقيه الشافعي، آذاه المغول حتى عجز عن الحركة؛ فمات في الحريق[٢].
- الفقيه زين الدين عبد السلام المالكي[٣].
- الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف البانياسي المقرئ، توفي في الحريق[٤].
- القاضي بدر الدين حسن بن منصور الحنفي، مات بسبب التعذيب[٥].
- قاضي القضاة الشيخ علاء الدين علي بن مفلح الحنبلي، توفي في شعبان من أثر الكـــي الذي كواه به المغول، وذلك لما خرج إليهم للشفاعة في أهل الشام[٦].
- القاضي شمس الدين محمد بن الغزولي الشافعي، توفي تحت تعذيب المغول، وهو على وظيفة الحسبة بدمشق[٧].
- مفتي دمشق زين الدين عمر النيربي الشافعي، توفي تحت عذاب المغول[٨].
- الشيخ شمس الدين محمد بن الكناني الحنفي، المؤذن المشهور بالديار الشـــامية، عذبـــه المغول؛ فتوفي من أثر ذلك في شعبان[٩].
- الشيخ ابن منير مؤذن السلطان وعين مؤذني الديار السلطانية عاقبه المغـــول التمريـــة فمات بالجامع من أثر العقوبة[١٠].
- الشيخ شرف الدين أحمد بن حسين إمام المدرسة الشامية الجوانية[١١].

---

(١) ابن حجي، تاريخ، ص٢٥٤.
(٢) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٨٧؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٣٢.
(٣) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢٤٨.
(٤) ابن حجي، تاريخ (رسالة) ص٢٤٨؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٠٦.
(٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص١٢٩.
(٦) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص١٢٥.
(٧) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٧.
(٨) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٨.
(٩) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٩.
(١٠) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٤٨٥ و٤٩٠.
(١١) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص ص٢٤٢-٢٤٣.

- الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن تقي الدين عبدالله بن الفخر البعلبكي الشافعي[١].
- الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد العوديفي الحنبلي[٢].
- المحدث زين الدين عمر الخابوري[٣].
- الشيخ شهاب الدين الملكاوي، قام المغول بإحراقه عندما هاجموا دمشق[٤].
- الشيخ ناصر الدين محمد بن أحمد بن إسماعيل العبطيني، فقد في الوقعة[٥].
- الشيخ محمد بن محمود بن المنتجب السرميني[٦].
- المحدثة عائشة بنت محمد البالسية المعروفة بضوء الصباح[٧].

ويورد ابن حجي – رحمه الله – قائمة فيها حوالي سبعة وخمسين رجلا من أهل العلم ذكر أنهم فقدوا في فترة غزو تيمورلنك لبلاد الشام ورد ذكر بعضهم فيما سبق[٨].

ويصف ابن قاضي شهبة ما حل بأهل دمشق من العذاب والقتل في تلك الفترة بقوله: " وهلك خلال هذه المدة من العقوبة والجوع، من لا يمكن حصره، وحل من العذاب ما لا يمكن وصفه "[٩].

"[٩].

ولما خلص تيمورلنك من بلاد الشام توجه نحو العراق، وارتكب فيها من الفظائع مثل ما ارتكبه في الشام، ويلخص ابن حجي مأساة أهل بغداد في فتنة تيمور لنك بقوله : " ويوم السادس والعشرين منه – أي شهر ذي الحجة - توجه تمر لنك من بغداد بعد ما هدمها وقتل أهلها حتى لم يبق منهم إلا من استخفى وقليل ما هم "[١٠].

---

(١) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٢.
(٤) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٧٣.
(٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٩٤.
(٦) المصدر نفسه، ج١٠، ص٤٣.
(٧) المقريزي، درر العقود، ج٢، ص٢٠٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٧٩.
(٨) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص ص٥٠٩-٥١٠.
(٩) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٧٧.
(١٠) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٥٠٥.

وعندما وصل تيمورلنك إلى بغداد نكب بأهلها، وقد نال العلماء هناك نصيب من القتل والأذى من قبل المغول. فممن ذكرتهم المصادر، الشيخ القاضي غياث الدين عبد الرحمن الحنبلي، قتله المغول في وقعة بغداد، كما قتلوا الشيخ القاضي شهاب الدين المالكي، وشيخ الحنابلة ببغداد نصر الدين الكيلاني[١].

يتضح إذا من خلال ما سبق إيراده لتلك الأعداد الكبيرة من العلماء المسلمين التي نكبت بالغزو المغولي الثاني للعراق وبلاد الشام وأصابها بأسه بين أسير وجريح ومعذب وقتيل، يتضح حِرْصُ العلماء في العراق وبلاد الشام على التصدي للغزو المغولي الثاني والقيام بمقاومته كل حسب وسعه، كما يتضح من جانب آخر عدم تقدير المغول - رغم إسلامهم - العلم وأهله فساموا العلماء سوء العذاب، وأهانوهم غاية الإهانة، وأشربوهم كأس المذلة، وأن جزءا كبيرا من محاضن العلم ومراكزه تعرضت للتدمير والتخريب على أيديهم، بما يوحي بأن المغول - حتى بعد إسلامهم - لم يختلف تعاملهم مع سكان العراق وبلاد الشام، بل إن الوحشية التي صاحبت الغزو المغولي الثاني للعراق وبلاد الشام كانت أسوأ من وحشية الغزو المغولي الأول، مما يعطي دلالة على أن جزءا غير يسير من الهمجية المغولية القديمة لا يزال متغلغلا في نفسيات المغول وثقافتهم.

---

(١) ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٥٠٥؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٢٠.

المبحث الرابع

موقف علماء العراق من الغزو المغولي الثاني

بالرغم من إسلام المغول في العراق ودعم سلاطينهم للإسلام وثقافته إلا أن بعض المواقف التي صدرت من العلماء هناك تكشف أمرا في غاية الأهمية وهو أن العلماء المسلمين في العراق كانوا يأملون في التخلص من حكم المغول لهم، وعودة العراق لحظيرة الدولة الإسلامية العربية في مصر وبلاد الشام، وثمة مواقف يمكن من خلالها الاستدلال على هذا الادعاء، ومن أبرز هذه المواقف:

- رفض العلماء في العراق إفتاء غازان بحربه لبلاد الشام سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م).

ففي رمضان من سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) أغارت عساكر حلب على ماردين وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض، فسار صاحبها إلى سيده غازان وشكا له الحال فغضب من ذلك وقرر غزو الشام، وطلب من العلماء والقضاة بتبريز أن يفتوه في أمر قتالهم، فأجابوا بأن مثل هذا لا يثبت بكلام شخص واحد وخصوصا في مثل هذه الأحوال[١].

وموقف العلماء هنا واضح في رفض الانصياع لغازان لإصدار فتوى تبرر لـه محاربة أهل الشام. وقد أفاد موقف العلماء هذا في انثناء غازان عن حرب بلاد الشام في تلك الفترة، والاكتفاء بإرسال وفد للتفاوض مع سلطان المماليك حول ذلك الموضوع، إلا أن قدوم قفجق نائب الشام ومن عنده من الأمراء إلى بلاد المغول بسبب الخلافات الداخلية في بلاد الشام، ومن ثم تحريضهم غازان لغزو بلاد الشام قوى عزمه على ذلك[٢]، وهو ما حدث سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م).

---

(١) العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٣٦٥ وص ص٤٦١-٤٦٢. يورد مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني رواية تناقض تلك الرواية يدعي فيها أن جميع علماء العراق أفتوا غازان بضرورة محاربة أهل الشام لما فعلوه في ماردين. الهمذاني، جامع التواريخ، ص ص١٥٩-١٦٠. ومن وجهة نظر الباحث فإن رواية العيني تبدو أكثر قبولا من رواية الهمذاني لما يكتنفها من الموضوعية التي تفتقدها رواية الهمذاني الذي يروي غالبا ما يؤيد ويبرر أعمال المغول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن رواية العيني تؤيدها الشواهد التي ذكرها الباحث في المبحث أعلاه.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٤٦٢.

- من المواقف التي يستدل من خلالها أيضا على رفض بعض العلماء في العراق للاحتلال المغولي للعراق ما حدث في عهد أولجايتو من اتهام الشيخ شهاب الدين السهروردي والشيخ جمال الدين العاقولي[١] - وكانا من كبار علماء بغداد - بالاتصال بالمماليك؛ وكادا أن يقتلا لولا تدخل الوزير رشيد الدين الذي أظهر براءتهما[٢].

فهذه الحادثة تدل على أن هناك عددا من علماء العراق لم يكن ولاؤهم للحكم المغولي، مع ملاحظة أن هذه الحادثة وقعت في عهد أولجايتو أي بعد جعل الإسلام الدين الرسمي للدولة، فماذا يتوقع إذا أن يكون الحال في وقت كانت الديانة الرسمية للدولة هي الديانة الشامانية الوثنية؟!!

- قيام الشيخ عمر بن عمران بن صدقة البلالي[٣] بكشف أخبار المغول للمماليك.

توجه الشيخ عمر البلالي إلى بلاد المغول فأخذ من هناك يرسل أخبار المغول للمماليك، فتنبه له المغول، وسأله السلطان خدا بنده عن سبب مجيئه فقال له : " جئت لكشف الأخبار للملك الناصر والمسلمين "، فألقاه وآخر معه للكلاب، فقتلت الكلاب ذلك الآخر ولم تمس الشيخ عمر البلالي، فعظم في أعينهم وأكرموه، وقربه السلطان إليه، وكان سببا في رجوعه إلى معتقد أهل السنة والجماعة، وسأله الإقامة عنده، فأقام هناك سنين عدة يدعو إلى شرائع الإسلام[٤].

---

(١) هو الشيخ الإمام عبد الله بن محمد بن علي الواسطي البغدادي الشافعي، ولد سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، مدرس المستنصرية نحوا من أربعين سنة، وأفتى قرابة سبعين سنة، وباشر نظر الأوقاف، توفي سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م). الصفدي، الوافي، ج١٧، ص ص٣١٨-٣١٩؛ السبكي، الطبقات الكبرى، ج١٠، ص٤٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٦، ص٢١٩.

(٢) الهمذاني، جامع التواريخ، المقدمة، ج٢، ق١، ص٢٢؛ القزاز، العراق في العهد المغولي، ص ص٣٨٤-٣٨٥.

(٣) الشيخ عمر البلالي: ولد سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، سمع الصحيح على ابن الشحنة، وحدَّث، قدم دمشق واتفقت له كائنة فسجن بقلعة دمشق حين كان الشيخ ابن تيمية بها، وظل مسجونا لمدة خمس سنين ثم أطلق، مات سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م). ابن رجب، الإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي(ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)، المنتقى من معجم شيوخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن رجب الحنبلي، تعليق: عبدالله الكندري، غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م، ص١١٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن رجب، المنتقى؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢١٣.

(٤) ابن رجب، المنتقى، ص١١٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢١٣.

ويلاحظ من هذا الأمر أن العلماء كانوا يعملون على مختلف الأصعدة من أجل مقاومة المغول والتخلص من سيطرتهم على العراق.

- حرص العلماء على نقل مشاهداتهم للغزو المغولي للمؤرخين المسلمين من أجل تدوينها ومن ثم نشرها بين الناس.

من ذلك أن القاضي جمال الدين عبدالله بن محمد النحريري[١] قدم دمشق أواخر سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٤م) واجتمع بالمؤرخ ابن حجي وحدثه عن المصائب التي ارتكبها تيمور لنك ببغداد[٢].

ومن ذلك أيضا قيام الشيخ أحمد بن محمد بن النعمان الحنفي قاضي بغداد[٣] بنقل أخبار غزو تيمور لنك للعراق سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) للمؤرخ ابن عربشاه حيث سجل هذا الأخير معلوماته عن هذا الغزو من خلال القاضي تاج الدين[٤].

وبعد تسليط الضوء على بعض الأمثلة اليسيرة التي تبين مواقف علماء العراق من الغزو المغولي الأول – كما مر في المبحث الرابع من الفصل الأول – ومن الغزو المغولي الثاني، تبدو ضرورة إفراد مواقف علماء العراق من الدولة الإيلخانية قبل إسلامها وبعده بالبحث والدراسة؛ ليتسنى الوقوف على منهج العلماء في التعامل مع هذه الدولة، وهل اختلفت هذه المواقف قبل إسلام المغول وبعده.

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن محمد بن إبراهيم النحريري المالكي، ولد سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، كان إماما فاضلا فقيها، ولي قضاء حلب ثم حدث بينه وبين الملك الظاهر ما أوجب فراره إلى بغداد، توفي سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٤م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص٢٤١-٢٤٣.

(٢) ابن حجي، تاريخ (رسالة)، ص٢٧١.

(٣) الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد، ولد سنة (٧٥١هـ/١٣٥٠م)، ولي قضاء بغداد وفي سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) توجه إلى القاهرة والتقى هناك بابن عربشاه، توفي بدمشق سنة (٨٣٤هـ/١٤٣٠م). ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٣٠٥.

(٤) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٣٠٥.

الفصل الرابع

مواقف علماء العراق وبلاد الشام المتعاونة مع المغول أثناء الغزو المغولي

المبحث الأول

المواقف المتعاونة مع المغول التي ظهرت من بعض العلماء في فترة الغزو المغولي الأول

ظهرت لبعض العلماء في فترة الغزو المغولي الأول مواقف يمكن اعتبارها مواقف متعاونة مع المغول؛ خدمت مصالح العدو وسعت للوقوف بجانبه مدفوعة بدوافع مختلفة.

ومن هذه المواقف:

١- موقف مؤيد الدين محمد بن العلقمي

كان ابن العلقمي(١) في وقت قدوم الغزو المغولي يتولى منصب الوزارة ببغداد للخليفة العباسي المستنصر، وقد تجلى موقف ابن العلقمي المتعاون مع المغول في مكاتبته للمغول وإطماعهم في المجيء إلى العراق وتسهيل دخولهم بغداد، ومن ثم العمل على إسقاط الخلافة العباسية وإقامة خليفة علوي.

والحقيقة أن أقوال المؤرخين قد كثرت حول موقف ابن العلقمي السابق من المغول، فأكثرهم يتهم ابن العلقمي بالتعاون مع المغول، ومن هؤلاء: بيبرس الدوادار واليونيني والنويري والذهبي وابن فضل الله العمري وابن الوردي وابن العميد وابن كثير والصفدي واليافعي وابن حبيب وابن خلدون وابن دقماق والعيني والسيوطي وغيرهم(٢).

---

(١) سبقت ترجمته ص٢٥ من هذه الدراسة.

(٢) الدوادار، زبدة الفكرة، ص ص٦٨-٧٠؛ اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص ص٨٦-٨٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص١٩٠؛ الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص٣٤، السير، ج٢٣، ص١٨٠؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٢٧، ص ص٣٦٦-٣٦٧؛ ابن الوردي، تاريخ، ص ص٢٧٩-٢٨٠؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين،= =ص٤٥؛ ابن

وهناك من المؤرخين من يدافع عن ابن العلقمي ويحاول أن يدرأ عنه هذه التهمة، ومـــن هـــؤلاء مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني[١] وابن الطقطقي[٢]، وعباس إقبال[٣] وسعد بن حذيفة[٤] وعلـــي الكوراني[٥].

وقد أورد ابن الوردي في " تتمة المختصر " ما يجلي شيئا من حقيقة مكاتبة ابن العلقمي للمغول، وذلك بإيراده لما يشبه الوثيقة التي تحتوي على مراسلة ابن العلقمي لنائب الخليفة على إربـــل تـــاج الدين محمد بن صلايا العلوي الشيعي يطلعه على ما وصل بين أهل السنة والشـــيعة ببغـــداد ســـنة (٦٥٥هـــ/١٢٥٧م)، وعلى ما أضمره من التعاون مع المغول، وقد جاء في هذه المراسلة: " إنه قـــد نهب الكرخ المكرم، وقد ديس البساط النبوي المعظم، وقد نهبـــت العتـــرة العلويـــة، واستؤســـرت العصابة الهاشمية، وقد عزموا على نهب الحلة والنيل، بل سولت لهم أنفسهم أمرا فصـــبر جميـــل، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة منها وهم صاغرون، وكن لما أقول بالمرصـــاد، وتأول أول النحل وآخر صاد واحرص "[٦]، وأوردها الذهبي أيضا بزيادة على ما ههنا[٧].

كثير، البداية، ج١٥، ص٣٠٥؛ الصفدي، الوافي، ج١٧، ص٣٤٤؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص ص١٠٥-١٠٦؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٥٦هــ)؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٣، ص٦٥١؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ص٢٢٠ت٢٢١؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٥٨؛ السيوطي، تاريخ، ص٥٣١ و ص٥٣٣ و ص٥٣٩.

(١) الهمذاني، جامع التواريخ، ج١، ق٢، ص٢٩٣

(٢) ابن الطقطقي، الفخري، ص٣٣٨.

(٣) إقبال، عباس، تاريخ مغول وأوايل أيام تيموري، نشـــر نامـــك، طهـــران، د.ط، ١٣٧٦هـــــ/١٩٥٦م، ص ص١٨٦-١٨٧.

(٤) الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ص٢٤١-٣٥١.

(٥) الكوراني، علي العاملي، كيف رد الشيعة غزو المغول، دار الهدى، قم، ط١، ١٤٢٧هــ/٢٠٠٦م، ص ص٤٩-٨٠، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الكوراني، كيف رد الشيعة.

(٦) ابن الوردي، تاريخ، ج٢، ص ص١٨٩-١٩٠.

(٧) الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٢٩١-٢٩٢.

٢- موقف نصير الدين الطوسي[١]

ساهم الطوسي مساهمة فاعلة وكبيرة في الغزو المغولي الأول للعراق، وكان له دور بارز في إسقاط بغداد بيد المغول.

وتجلت مواقف الطوسي المتعاونة مع المغول في أمور منها:

- أن الطوسي كان مصاحبا لهولاكو في غزوه لبغداد وكان بمثابة المستشار الأمين المخلص له في غزوته هذه خاصة.

ومما أبداه لسيده من خالص نصائحه تهوينه له قضية احتلال بغداد وقتل الخليفة العباسي عندما أراد الفلكي حسام الدين المنجم صرف هولاكو عن مهاجمة بغداد فأخبره بخطورة ذلك عليه وعلى جنوده وعلى العالم أجمع بما سينتج عنه من حوادث بيئية بالغة الضرر على الأرض، فقال له الطوسي: " إن شيئا من ذلك لن يحدث، وإن هولاكو سيحكم مكان الخليفة العباسي "[٢].

وفي هذه الحادثة دليل على مساهمة الطوسي في إسقاط بغداد ورغبته في إفراغ العالم الإسلامي من المرجعية الدينية ومركز الوحدة الإسلامية المتمثلة في الخلافة الإسلامية.

- أن الطوسي كان يحرر رسائل التهديد والوعيد بلسان هولاكو لحكام المسلمين وينعتهم بالنعوت السفيهة والوضيعة، في مقابل ما يعظم به أمر هولاكو وحاله.

فقد كتب الطوسي رسالة إلى أهل الشام على لسان هولاكو يهددهم فيها، ويحذرهم مخالفة هولاكو، ويرهبهم بزول العذاب عليهم صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا[٣]، ومما جاء في هذه الرسالة:

---

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسن الطوسي، من علماء الشيعة، ولد سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، كان رأسا في علم الأوائل، كان مع الإسماعيلية في ألموت، فلما قضى عليهم هولاكو التحق به وأصبح ذا منزلة عنده، ابتنى بمراغة قبة ومرصدا عظيما، مات منتحرا على ما ذكر صاحب كتاب الحوادث سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م). مجهول، الحوادث، ص٣٧١؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٢٦؛ الصفدي، الوافي، ج١، ص ص١٤٧-١٥١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٩١-٥٩٢؛ الطهراني، الأنوار الساطعة، ص ص١٦٨-١٧٠.

(٢) الهمذاني، جامع التواريخ، ج١، ق٢، ص ص٢٧٩-٢٨٠؛ الشهري، دور العلماء المسلمين، ص ص١٠٢-١٠٤؛ الغامدي، سقوط الدولة العباسية، ص ص٢٩٥-٢٩٧.

(٣) ابن العبري، تاريخ مختصر، ص ص٤٨٤-٤٨٥.

" اعلموا أنا جند الله، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل عليع غضبه، لا نرق لشاك، ولا نرحم عبرة باك، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل كل الويل لمن لم يكن من حزبنا، قد خربنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد..."(١).

كما قام الطوسي بكتابة رسالة في سقوط بغداد بيد هولاكو يظهر فيها بنفس المتعاون والمؤيد للاحتلال، حيث أخذ يبرر فيها اقتحام المغول لبغداد، ويثني على سقوط المدينة بيدهم، ويظهر فيها الثناء على هولاكو وسياسته(٢)، كمثل قوله: " ملك العالم مادة الأمن والأمان هولاكو خان "(٣)، " الملك المبارك المظفر المنصور "(٤).

وبعد سقوط بغداد وجه الطوسي رسالة لأهل حلب على لسان هولاكو يتوعدهم ويهددهم فيها، منزِّلا آيات القرآن في الكافرين على أهل حلب المسلمين، ومما جاء في هذه الرسالة: " أما بعد فقد نزلنا بغداد سنة (٦٥٦هـ) فساء صباح المنذرين، فدعونا مالكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذا وبيلا "، وقد دعوناك إلى طاعتنا فإن أتيت فروح وريحان، وإن أبيت فخزي وخسران، فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، فتكون من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فما ذلك على الله بعزيز، والسلام على من اتبع الهدى"(٥).

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر، ص ص٤٨٤-٤٨٥، ومخطوط رسالة الطوسي موجود بمكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد تحت رقم ٩٧٥، ونصها يختلف قليلا عما عند ابن العبري.

(٢) نص الرسالة في: الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص ص٣٦٣-٣٧٢؛ القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية، الملاحق، ص ص٥١٢-٥١٧، الأعسم، عبد الأمير، الفيلسوف نصير الدين الطوسي، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: الأعسم، الفيلسوف نصير الدين.

(٣) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٣٦٣؛ البرزالي، المقتفي، ج٢، ص٣٦٣.

(٤) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص٣٧١؛ البرزالي، المقتفي، ج٢، ص٣٧١.

(٥) الهمذاني، جامع التواريخ، ج١، ق٢، ص ص٢٩٦-٢٩٧.

ومن الرسائل التي كتبها الطوسي رسالة وجهها لأهل بغداد في سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) يؤكد فيها على شرعية الحكم المغولي ووجوب طاعته ويحذر من مخالفته، كما أخذ يمجد فيها المغول ويشيد بفتوحاتهم، منوها برعاية الله لهم في ذلك[١].

وقد غدت هذه الأساليب والمكاتبات الطوسية أنموذجا وعمدة سارت عليه غالب المكاتبات السياسية المغولية للسلاطين المسلمين فيما بعد.

ويؤكد صحة هذا القول ما ذكره ابن حجر في " إنباء الغمر " معلقا على كتاب تيمور لنك الذي أرسله للظاهر برقوق سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) بعد أن ساق جزءا منه، حيث يقول: " وأكثر هذا الكتاب منتزع من كتاب هولاكو إلى الخليفة ببغداد، وإلى الناصر بن العزيز بدمشق، وهو من إنشاء النصير الطوسي "[٢].

وقد اعتبر القزاز رسائل الطوسي هذه مبررا لأمراء المسلمين، وزعماء الشيعة من السياسيين ورجال الدين المحيطين بالخلافة في التخلي عن الخلافة وقبول موالاة المغول، كما اعتبرها سببا في ظهور دعوات انهزامية أفقدت الخلافة قدرتها على الدفاع وأدت إلى تفريق الجيش والاستغناء عن كثير من فرقه كما أدت إلى استسلام كثير من المدن العراقية للمغول[٣].

ومما يدعم صحة هذا الرأي، أن عامة الشيعة ينظرون إلى أعلامهم من أمثال الطوسي نظرة ملؤها التسليم والإذعان لما يقولون ويقررون.

- بعد سقوط بغداد كان الطوسي أحد رجالات المغول البارزين الذين عملوا على تقرير الخليفة بأملاكه؛ حيث اصطحبه هو وأمراء المغول والوزير ابن العلقمي، إلى قصوره لإخراج ما خبأه من ذهب وحلي وجواهر وأشياء نفيسة[٤].

---

(١) ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الحنبلي(٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، تلخيص مجمع الآداب، تحقيق: مصطفى جواد، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، د.ط، د.ت، ج٤، ق٣، ص ص٥٥٦-٥٥٧، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن الفوطي، تلخيص؛ القزاز، العراق في العهد المغولي، ص١٠٨ و ص٢٨١.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٢٠٧.

(٣) القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية، ص ص٢٧٧-٢٧٩.

(٤) مجهول، الحوادث، ص٣٥٧؛ الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص٢٦٢؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص ص١٧٢-١٧٣.

- عمل الطوسي على تفريغ بغداد من حضارتها وثقافتها؛ من خلال استحواذه على كثير من كتب الأوقاف ببغداد ونقلها إلى مرصده بمراغه[١] في أذربيجان[٢]، كما أنفق دخل الأوقاف البغدادية على المقيمين والمشتغلين فيه[٣].
- توجه الطوسي في سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) إلى بغداد؛ " لتصفح الأحوال، والنظر في الوقوف، والبحث عن الأجناد والمماليك، ثم توجه إلى واسط والبصرة، وجمع من العراق كتبا كثيرة؛ لأجل الرصد "[٤].

ويعلق المؤرخ الشبيبي على ذلك بقوله: " يستفاد من هذه الكلمة أن منصب الطوسي لم يكن قاصرا على النظر في الوقوف، بل يتناول البحث عن الأجناد والمماليك... فهو بمناصب الوزراء وكبار الحكام أشبه، وإن لم يتضح لنا تماما غرضه من البحث عن الأجناد والمماليك. أفكان المغول بحاجة إلى استخدام جيش من المرتزقة أو المماليك، أم أنهم كانوا يلاحقون بقية السيوف من مماليك بني العباس؟! "[٥].

وبعد سرد تلك المواقف لنصير الدين الطوسي الشيعي من الغزو المغولي الأول للعراق يتضح مدى دور العامل العقدي في توجيه هذا الغزو لتحقيق مكاسب خاصة على حساب مصالح الأمة العامة. فالنصير الطوسي استغل الغزو المغولي الوثني للعراق في الاستفادة منه لإسقاط الخلافة العباسية السنية أملا منه في إقامة إمامة شيعية بالعراق.

---

(١) مراغه: بلدة مشهورة عظيمة من أشهر وأعظم بلاد أذربيجان. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٩٣.

(٢) ابن كثير، البداية، ج١٥، ص ص٣٤١-٣٤٢.

(٣) البرزالي، المقتفي، ج١، ص٣٠٩؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، أحداث سنة (٦٥٦هـ)؛ الطهراني، الأنوار الساطعة، ص١٦٩-١٧٠.

(٤) مجهول، الحوادث، ص٣٨٢؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٩، ص١٣.

(٥) الشبيبي، مؤرخ العراق، ص ص٢١٢-٢١٣.

٣- موقف القاضي فخر الدين الطهراني

فقد قام القاضي فخر الدين عبدالله بن عبد الجليل الطهراني الرازي الحنفي[(١)] بـــإخراج الفقهـــاء إلى باب سور بغداد عند مخيم هولاكو لإيذائهم. وعند وفاته ابتلاه الله بمرض في وجهه حتى تآكـــل أنفه ولقي مشاقا عظيمة حتى توفي[(٢)].

٤- موقف الفقيه الشيعي رضي الدين علي بن طاووس

بعد دخول هولاكو العراق أمر أن يستفتى علماؤها، أيهما أفضل الحاكم المسلم الجائر، أم الكـــافر العادل؟

وجمع هولاكو علماء المدرسة المستنصرية لأجل تلك المسألة، ولما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب، فلما رأى رضي الدين علي بن طاووس[(٣)]- وكان مقدما محترما- إحجامهم تنـــاول الفتيـــا وكتب فتواه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فتبعه بقية علمـــاء المستنصـــرية بـــنفس الفتوى[(٤)]، ويرى القزاز أنهم كانوا مكرهين على ذلك[(٥)].

وعند تأمل هذه الفتوى مجردة ترى أنها صحيحة ومقبولة، ولكنها ليست كذلك إذا اتخذت مبـــررا وذريعة؛ لاحتلال بلاد أخرى ونهب خيراتها وسوم أهلها سوء العذاب، وليست مقبولة أيضا إذا علـــم الواقع والسياق الذي طرحت فيه، كواقع احتلال المغول للعراق.

فمن هذا المنطلق يمكن اعتبار هذه الفتوى محققة لمصالح المحتل المغولي في العراق؛ لأن العدو ولا ريب لم يكن هدفه منها معرفة الحكم الشرعي في غزوه للعراق، فهو عدو كافر ليس للمعـــايير

---

(١) لم أعثر له على ترجمة في المصادر التي بين يدي.

(٢) مجهول، الحوادث، ص٣٩٦.

(٣) هو علي بن موسى بن جعفر الطاووس، ولد سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) في مدينة الحلة، اشتغل بالفقه على مذهب الإمامية حتى برع فيه، توفي سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) ببغداد ودفن بالنجف. ابن طاووس، علي بن موسى، فلاح السائل، قدم له: محمد مهدي الخرسان، المكتبة الحيدرية، النجف، ط٢، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، المقدمة، ص ص٤-٥ و ص١٥.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري، ص٢٣؛ الشبيبي، محمد رضا، مؤرخ العراق ابن الفوطي(٢ج)، د.م، المجمع العلمي العراقي، د.ط، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ج٢، ص٢٣١، وسيشار له حال وروده لاحقا: الشبيبي، مؤرخ العراق.

(٥) القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية، ص١٠٨وص٢٧٨.

الشرعية عنده اعتبار، ولا يمكن كذلك أن يراعي في أهل العراق إلَّاً ولا ذمة، وعليه؛ فإن مثل هـذه الفتوى إنما يراد منها إخضاع الرأي العام، وهو أمر تحصل عليه هولاكو وجنوده من خـلال هـذه الفتوى وما شاكلها.

ويبدو أن تلك الفتوى التي صدرت من ابن طاووس كان لها وقع إيجابي في نفس هولاكو نحـو ابن طاووس حيث شمله وعائلته وأصدقائه بالأمان والإحسان، وليس هذا فحسـب بـل ولاه نقابـة العلويين، ولذا اعتبر ابن طاووس أن ذلك اليوم هو من أيام سعادته، وأنه من أيام الأعياد التي مـن لوازمها عليه وعلى ذريته دوام الشكر والدعاء، فهو يقول في كتابه " الإقبال بالأعمال الحسنة فيمـا يعمل مرة في السنة ": " اعلم أن يوم عاشر صفر سنة (٦٥٦هـ) كان يوم حضوري بين يدي ملـك الأرض - زيدت رحمته ومعدلته - وشملتني فيه عنايته، وظفرت فيه بالأمان والإحسان، وحقنـت فيه دماؤنا، وحفظت فيه حرمنا وأطفالنا ونساؤنا، وسلم على أيدينا خلق كثير من الأصدقاء والأسرة والإخوان، ودخلوا بطريقنا في الأمان "[(١)]، ويقول: " ... وولاني على العلويين والعلمـاء والزهـاد "[(٢)].

الموقف الآخر الذي صدر من ابن طاووس علاوة على فتواه السابقة أنه لم يتحرج في الثناء على هولاكو واقتحامه لبغداد، بل والدعاء له بـ " المجازاة المكرَّمة " و " الدعاء المبـرور "، وتبريـر أفعاله ببغداد بأنه علامة لصدق النبي r وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه - فهو يقول: " اعلم أن في مثل هذا اليوم ثامن وعشرين محرم سنة (٦٥٦هـ) فتح ملـك الأرض - زيـدت رحمتـه ومعدلته ببغداد - وكنت مقيما بها في داري بالمقيدية، وظهر في ذلـك تصـديق الأخبـار النبويـة ومعجزات باهرة للنبوة المحمدية ... ولتصديق جدنا محمد r فيما كان أخبـر بـه مـن متجـددات الدهور، وأدعو لملك الأرض بالدعاء المبرور، وفي ذلك اليوم زالت دولة بني العباس كما وصـف مولانا علي – عليه السلام – زوالها في الأخبار التي شاعت بين الناس ..."[(٣)].

---

(١) ابن طاووس، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة، علق عليه: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٦٥، وسيشار إليه عند وروده لاحقا: ابن طاووس، الإقبال.
(٢) المصدر السابق، ص٦٣.
(٣) المصدر السابق، ص٦٣.

وهناك عالم شيعي آخر من آل طاووس كان له موقف متعاون مع هولاكو وهو مجد الدين محمد ابن عز الدين بن الحسن بن طاووس – ابن عم رضي الدين – حيث قام هذا العالم بإهداء مؤَلَّفه " كتاب البشارة " لهولاكو بعد استيلائه على بغداد، فكان من نتيجة ذلك أن أقره على نقابة العلويين، كما أنه أخذ هو ورضي الدين ومجموعة من فقهاء الحلة الأمان من هولاكو لأهل الكوفة والحلة والمشهدين العلوي والحسيني والتمسوا أن يعين لهم شحنة(١).

٥- موقف القاضي محي الدين بن الزكي

بعد استيلاء هولاكو على حلب قلد القضاء للشيخ كمال الدين عمر التفليسي الذي أحسن إلى الناس في فترة توليه وخفف عنهم شدة الغزو المغولي، فأراد القاضي محي الدين بن الزكي الشافعي(٢) أن يتقلد القضاء بدلا منه، فتوجه إلى هولاكو بحلب ومعه القاضي صدر الدين بن سني الدولة(٣)؛ لجر القضاء إليهما، فما كان من ابن الزكي إلا أن خدع ابن سني الدولة، وبذل أموالا كثيرة؛ فولاه هولاكو القضاء بدمشق، وفي طريق عودة القاضيين إلى دمشق توفي ابن سني الدولة ببعلبك، وظل ابن الزكي قاضيا حتى تسلطن بيبرس فأبعده إلى مصر حيث توفي هناك سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م)(٤).

وقد انتقد المؤرخ أبو شامة عدم أهلية ابن الزكي، ودخوله في طاعة المغول، فقال عنه في الذيل: " وشرع القاضي في جر الأشياء إلى نفسه وأولاده، ومن يتعلق به عدم الأهلية، وأضاف إلى نفسه

---

(١) الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص٢٩٦. الطهراني، الأنوار الساطعة، ص١٥٧؛ الشبيبي، مؤرخ العراق، ج٢، ص١٨٩؛ القزاز، العراق في عهد السيطرة المغولية، ص٢٧٨.

(٢) قاضي القضاة يحي بن محمد بن علي بن الزكي، ولد سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م)، كان صدرا معظما، تولى قضاء دمشق مرات، له في ابن عربي عقيدة تتجاوز الوصف، ويفضل عليا على عثمان، توفي بمصر سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م). ابن كثير، طبقات، ج٢، ص ص٨١٦-٨١٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ص٥٧٠-٥٧١.

(٣) أحمد بن يحي بن هبة الله الشافعي المعروف بابن سني الدولة، ولد سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م)، تفقه وبرع في المذهب الشافعي، كان عالما بعلوم شتى، توفي سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م). اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٣٨٥؛ الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص ص٣٣٢-٣٣٤؛ ابن كثير، طبقات، ج٢، ص ص٧٩١-٧٩٢.

(٤) الذهبي، تاريخ، ج ٤٨، ص ص٣٣٢-٣٣٤؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٤، العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٣٩ و ص٢٥١.

وأولاده وأخيه ونحوهم عدة من المدارس... كل هذا مع ماعرف عنه من التقصير في حق الفقهاء في المدرستين اللتين كانتا بيده من قديم الزمان العزيزية والتقوية، وعدم إنصافه فيهما "(١).

ومن مواقف ابن الزكي السلبية، أن كتبغا نوين قبل لقائه للمظفر قطز، استدعاه هو والملك الأشرف موسى صاحب حمص بعد أن أصبحا من أعوان المغول؛ فاستشارهما في لقاء قطز، فمنهم من أشار بعدم اللقاء؛ حتى يجيئه مدد من هولاكو، ومنهم من أشار بغير ذلك، فاقتضى رأي كتبغا الملتقى(٢).

وسلبية موقف القاضي واضحة في كونه كان مشيرا مخلصا لأعداء المسلمين، كما أن عبارة ابن تغري بردي جلية في انضمام القاضي تحت لوائهم؛ حيث يقول عنه وعن صاحب حمص: " وكانا قد انضما إلى المغول "(٣).

٦- موقف الفخر محمد بن يوسف الكنجي

قام الفخر محمد بن يوسف بن محمد الكنجي(٤) بالتعاون مع الشمس القمي الذي حضر من جهة هولاكو، في أخذ أموال الغائبين عن دمشق؛ فكان من نتيجة ذلك أن ثار عليه العوام بعد معركة عين جالوت وقتلوه في جامع دمشق(٥).

٧- موقف شمس الدين عباس بن محمد الماكسيني

لما سيطر المغول على دمشق سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) دخل شمس الدين عباس بن محمد الماكسيني الدمشقي في طاعتهم، وقام معهم في أعمالهم، فلما انكسروا بعين جالوت قتله

---

(١) أبو شامة، الذيل، ص ص٢٠٥-٢٠٦.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص٣٦٠؛ ابن شاكر، عيون، ج٢٠، ص ص٢٢٦-٢٢٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٣.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٣.

(٤) محمد بن يوسف الكنجي، كان من أهل العلم بالفقه والحديث، لكن كان فيه كثرة كلام، وميل إلى مذهب الرافضة، وجمع لهم كتبا توافق أغراضهم. أبو شامة، ذيل الروضتين، ص٢٠٨؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٣٦٨-٣٦٩.

(٥) اليونيني، ذيل مرآة، ج١، ص ص٣٦١-٣٦٢؛ ابن شاكر، عيون، ج٢٠، ص٢٢٧؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص٢٥٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٥.

المسلمون[١]، وممن قتله المسلمون أيضا ممن تعاون مع المغول ابن البغيل الذي كان يسخر الـــدواب لهم[٢].

(١) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص٢٠٨؛ الذهبي، تاريخ، ج٤٨، ص ص٣٤٣-٣٤٤.
(٢) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص٢٠٨.

المبحث الثاني

المواقف المتعاونة مع المغول التي ظهرت من بعض العلماء في فترة الغزو المغولي الثاني

ظهرت في فترة الغزو المغولي الثاني للعراق وبلاد الشام بعض المواقف من العلماء خدمت مصالح المغول، ويمكن تجليتها فيما يأتي:

أولا: مواقف العلماء المتعاونة التي ظهرت في غزو غازان سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)

١- موقف القاضي إبراهيم بن علي بن خشنام الكردي[(١)]

فبعد أن وصل المغول حمص سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) داخل القاضي إبراهيم غازان، وولي له قضاء حمص، وحكم وظلم، ثم سافر معهم، فولوه قضاء خلاط، وظل على ذلك حتى مات سنة (٧٠٥هـ/١٣٠٥م)[(٢)].

وقد ذمه الذهبي بقوله: " وكان غير أهل للأخذ عنه "[(٣)].

ومن المفارقات أن والد هذا القاضي شيخ الإسلام علي بن إبراهيم كان قد قتله المغول أثناء هجومهم على حلب سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م)[(٤)].

---

(١) هو إبراهيم بن علي بن خشنام الكردي الحلبي الحنفي، ولد سنة (٦٢٩هـ/١٢٣١م)، تفقه وولي قضاء حمص، وبعد عزله تولى إمامة جامع حمص. الذهبي، ج٥٣، ص ص٦٥-٦٦.

(٢) الذهبي، ذيل تاريخ، ج٥٣، ص٦٦؛ الصفدي، الوافي، ج٦، ص٤٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٥.

(٣) الذهبي، تاريخ، ج٥٣، ص٦٦.

(٤) ينظر ص١٦٤ من هذه الدراسة.

٢- موقف الصدر فخر الدين أبو الربيع سليمان بن محمد

لما دخل المغول دمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) كان مباشر نظر الدواوين الصدر فخر الدين أبو الربيع سليمان بن محمد[١]، فدخل في خدمتهم لأجل وظيفته، فحصل له من قبل الدولة والناس أذى وحبس ومصادرة، ولم يخلص إلا بعد شدة ونكد كثير، ومات عقيب خروج المغول من دمشق[٢].

٣- موقف شيخ الشيوخ نظام الدين الشيباني

عندما غزا غازان بلاد الشام سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) كان يصاحبه شيخ يسمى شيخ الشيوخ نظام الدين محمود بن علي الشيباني، وبعد استيلاء المغول على دمشق، أخذ في طلب الأموال، ودخلته العظمة، وصار يتكلم بلسان المغول، ويستهين بقلعة دمشق، فيقول: " لو أردنا أخذها أخذناها من أول يوم "، كما أنه جبى من أهل دمشق ستمائة ألف درهم، وقد ذكره الإمام الذهبي بقوله: " كان شيخا خبيثا طماعا "[٣]، ووصفه المقريزي بقوله: " ولم يكن فيه من أخلاق المشايخ ما يمدح به "[٤].

٤- موقف الشيخ صالح الرفاعي

لما تمكن المغول من دمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) كان الشيخ صالح الأحمدي الرفاعي شيخ الطائفة الأحمدية الرفاعية، من الذين أكرمهم المغول ولم يؤذوهم، ولما جاء قطلو شاه نائب سلطان المغول نزل عنده، ولما ناظره الشيخ ابن تيمية في سنة (٧٠٥هـ/١٣٠٥م)؛ ليكشف زيف معتقده، اعترف أثناء النقاش بتوافقه مع المغول، فقال: " نحن ما يتفق حالنا إلا عند التتار، وأما قدام الشرع فلا "، فضبط عليه هذه الكلمة الأمراء الحاضرون، وأنكروا هم وأهل المجلس عليهم توافقهم مع المغول.

---

(١) الصدر فخر الدين سليمان بن محمد، كان فاضلا نبيلا ولم يحدث، تولى نظر الديوان الكبير، كان من رؤساء دمشق المعدودين الموصوفين بالكرم والحشمة والإحسان، توفي سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م). الصفدي، الوافي، ج١٥، ص٢٥٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص ص٥٣-٥٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٨٣.

(٢) البرزالي، الوفيات، ص ص٤٥٨-٤٥٩.

(٣) الذهبي، تاريخ، ج٥٢، ص٨٣.

(٤) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣٣؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩١.

٥- موقف أصيل الدين الطوسي

صاحب أصيل الدين بن نصير الدين الطوسي المغول أثناء غزوهم لدمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) وكان في وظيفة النظر على الأوقاف، وقد قام أثناء فترة سيطرة المغول على دمشق بجبي مائتي ألف درهم من أهل دمشق أجرة النظر على أوقاف دمشق، كما أخذ أموالا طائلة غيرها، وأخذ أيضا كتبا قيمة لمرصد والده بمراغة[١].

٦- موقف قوام الدين الحسن بن محمد بن الطراح

انضم قوام الدين الحسن بن محمد إلى المغول أثناء غزوهم لبلاد الشام سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، ثم سافر معهم إلى بلادهم، وصارت له مكانة عالية عندهم[٢].

ثانيا: مواقف العلماء المتعاونة التي ظهرت في غزو تيمورلنك سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م)

١- موقف قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد النابلسي[٣]

فإنه لما دخل المغول دمشق شاركهم في الأمور المنكرة، ونسبت إليه أشياء قبيحة من السعي في أذى الناس وأخذ أموالهم[٤].

وقد خفف ابن قاضي شهبة هذه التهمة عن القاضي؛ حيث ذكر عنه أنه كان مرافقا للمباشرين الذين يستخرجون الأموال من الناس، ولكنه لم يكن يدخل معهم في استخراج الأموال من أصحابها[٥].

---

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٩، ص٣٣؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٤٠٧ و ص٤٧٣؛ دهمان، ولاة دمشق، ص١٠٦.

(٢) الصفدي، الوافي، ج١٢، ص١٦٥.

(٣) شمس الدين النابلسي، ولي قضاء الحنابلة بدمشق، ولم يكن مرضيا في القضاء، توفي سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م). ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص١١٦-١١٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٠٧؛ النعيمي، الدارس، ج٢، ص ص٣٦-٣٧.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص١١٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٠٧؛ النعيمي، الدارس، ج٢، ص ص٣٦-٣٧.

(٥) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٧٣.

ولعل ما ذكره ابن قاضي شهبة هو الأقرب إلى الصحة؛ لأن المغول أسروه معهم، ولما وصلوا بغداد تمكن من النجاة منهم ورجع إلى دمشق[١]، فلو كان القاضي معاونا لهم، ومباشرا في استخراج الأموال لصالحهم، لما كان هناك معنى لأسره، ولما سعى إلى النجاة منهم، بل ربما رغب في الذهاب معهم طوعا؛ خوفا من أهل دمشق الذين قاموا بعد خروج المغول بمعاقبة من دخل في خدمتهم.

٢- موقف محمد بن حسن اليماني

دخل محمد بن حسن بن أبي بكر اليماني الحرضي الشافعي في طاعة المغول، وصارت له وجاهة أيام تيمور لنك بدمشق، فلما رحل عاقبه أهل دمشق حتى مات[٢].

٣- موقف القاضي محمود بن أحمد الحنفي

ممن خدم المغول أثناء سيطرتهم على دمشق زمن تيمورلنك، القاضي محمود بن أحمد بن إسماعيل الحنفي المعروف بابن الكشك[٣]، فقد دخل معهم في المظالم وبالغ فيها، وولي القضاء لهم ولقب: " قاضي المملكة "، وخطب بالجامع؛ فكرهه الناس ومقتوه، ولم يلبث أن اطلع تيمور على أنه خانه؛ فصادره وعاقبه وأسره، ثم هرب من تبريز وتوجه إلى القاهرة، وظل فيها حتى توفي سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)[٤].

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص١١٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٠٧؛ النعيمي، الدارس، ج٢، ص ص٣٦-٣٧.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص٢٢١.

(٣) القاضي محمود بن أحمد بن إسماعيل الحنفي المعروف بابن الكشك، قاضي قضاة الحنفية، ناب في القضاء عن أبيه، ثم استقل به. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص٣٤٨-٣٤٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٢٨.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ص٣٤٨-٣٤٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٢٧.

٤- موقف القاضي عبد الجبار المعتزلي

من العلماء الذين كانوا يصاحبون تيمور لنك في غزوه للعراق وبلاد الشام القاضي عبد الجبار بن النعمان المعتزلي[١]، وكان بمثابة المترجم بينه وبين العلماء الذين يقابلهم تيمور، كما كان محرر رسائله إلى المماليك، وكان إمامه في الصلاة[٢].

والقاضي عبد الجبار هذا يعد من علماء المعتزلة[٣]، الأمر الذي يطرح تساؤلا وهو: هل كان للعامل العقدي دور في إدارة الصراع المغولي المملوكي؟ أم أن الأمر جاء اتفاقا، خصوصا أن هناك إشارات أوردتها بعض المصادر تدل على عدم رضا القاضي عبد الجبار بأفعال تيمور لنك؛ إذ تذكر عنه " أنه كان ينفع المسلمين في غالب الأحيان عند تيمور، وكان يتبرم من صحبته، ولم يسعه إلا موافقته "[٤].

إلا أن هناك إشارة مضادة ترد عند ابن عربشاه يمكن أن تُعَكِّر إعذار القاضي عبد الجبار وهي قول ابن عربشاه: " وكان عبد الجبار عالم تيمور وإمامه، وممن يخوض في دماء المسلمين أمامه "[٥]، وهي إشارة توحي بعدم إنكار القاضي لأفعال تيمور لنك السيئة بالشام وأهلها.

---

(١) مرت ترجمته ص٢٠٣.

(٢) ابن الشحنة، روض المناظر، ص٢٩٩ وص٣٠١؛ ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٦٥؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص٨٩.

(٣) المعتزلة: فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية، من مبادئها القول بخلق القرآن، وأن صاحب الكبيرة في منزلة بين منزلتين، وأن الإنسان مختار في كل أفعاله، وأخيرا تحرر مذهبهم في أصول خمسة هي: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. البغدادي، الفرق، ص ص١٣١-١٣٧؛ الجهني، الموسوعة الميسرة، ج١، ص ص٦٤-٧٤.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص١٤٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٣٥.

(٥) ابن عربشاه، عجائب المقدور، ص٢٦٥.

الخاتمة

وبعد، فإنه يحسن في ختام هذه الدراسة الإشارة إلى أهم ما توصلت إليه من النتائج علاوة على ما ورد منها في ثنايا البحث:

١- أن الموقف العام لعلماء العراق وبلاد الشام كان رافضا للغزو المغولي الأول والثاني لبلادهم، ولم يؤثر اعتناق المغول للإسلام على موقفهم الرافض لذلك الغزو.

٢- تنوعت أساليب العلماء الرافضة للغزو المغولي الأول والثاني بين أساليب سياسية وأساليب فكرية وأساليب عسكرية، ساهمت جميعها في مواجهة ومقاومة هذين الغزوين على المستوى القريب والبعيد، إضافة إلى أن هذه الأساليب اتخذت طابعا فرديا أحيانا، وطابعا جماعيا أحيانا أخرى، وطابعا رسميا كذلك.

٣- بروز الحجم الكبير للعلماء في المشاركة في الحياة والأحداث السياسية التي يتطلبها الموقف الراهن؛ مما يدل على اطلاع العلماء على تفاصيل الواقع السياسي وحرصهم على المشاركة فيه، كما يدل على منح السلطة ثقتها للعلماء في القيام بتمثيلها والحديث باسمها، وكلا الأمرين السابقين ينمان عن تمتع العلماء في فترة البحث بوعي سياسي أهلهم للحصول على مساحة سياسية كبيرة في المجتمعين العراقي والشامي.

٤- أن الرأي العام في العراق أثناء فترة الحكم المغولي الإيلخاني لم يكن راضيا عن سياسة المغول في حربهم ضد بلاد الشام.

٥- كان العلماء يقومون بسد الفراغ السياسي الناجم عن سقوط السلطة أو تخليها عن مهامها في وقت الأزمات.

٦- ظهرت من بعض العلماء مواقف متعاونة مع المغول في غزويهم الأول والثاني للعراق وبلاد الشام، وقد كانت هذه المواقف مدفوعة بدوافع مختلفة منها ما كان مذهبيا، ومنها ما كان ماديا، ومنها ما كان سببه سوء تقدير المواقف، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه المواقف كانت محدودة ومعدودة في مقابل المواقف الرافضة لهذين الغزوين.

وأخيرا فلله الحمد في الأولى والآخرة، وله الشكر ربي جل وعز على ما يسر وأعطـــى، ولـــه الفضل إلهي على ما وفق وأسدى، سبحانك لا أحصي ثنائك عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

موارد البحث

أولا: المخطوطات:

١- ابن حبيب، الحسن بن عمر(٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، درة الأسلاك، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، ميكروفلم رقم ٥١٤٦.

٢- مؤلف مجهول، تاريخ الدولة التركية، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، ميكروفلم رقم ١١٣٠.

ثانيا: المصادر:

١- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي(ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت.

٢- الأنصاري، القاضي زين الدين زكريا بن محمد السبكي(ت٩٢٦هـ/١٥١٩م)، فتح الباقي بشرح ألفية العراقي(٢ج)، تحقيق: عبد اللطيف الهميم وماهر فحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٣- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي(ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور(٥ج)، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٤- البخاري، أبو الفضل صفي الدين محمد بن أحمد(ت١٢٠هـ/٧٣٧م)، القول الجلي في ترجمة شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٥- البخاري، محمد بن إسماعيل(ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله r، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٦- البرزالي، علم الدين القاسم بن محمد الإشبيلي الدمشقي(ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي(٤ج)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٧- المؤلف نفسه، مشيخة قاضي القضاة ابن جماعة(٢ج)، تحقيق: موفق بن عبد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٨- المؤلف نفسه، الوفيات، تعليق: عبدالله الكندري، غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٩- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة(٢ج)، تعليق: محمد السعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ط، د.ت.

١٠- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر(ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ط، د.ت.

١١- الترمذي، الإمام محمد بن عيسى بن سورة(ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، الجامع المختصر من السنن عن رسول الله r ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل المعروف بسنن الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، د.ت.

١٢- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة(١٦ج)، تعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٣- ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي(١٢ج)، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٤- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني(ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، مجموع الفتاوى(٢٠ج)، تحقيق: عامر الجزار وأنور الباز، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

١٥- المؤلف نفسه، رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار، تقديم: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، د.ط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

١٦- المؤلف نفسه، منهاج السنة النبوية في الرد على الرافضة القدرية (٨ج)، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، د.م، ط١، د.ت.

١٧- ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي(ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير، تعليق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٢م.

١٨- ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، مستند الأجناد في فضل الجهاد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، د.ط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٩- المؤلف نفسه، كتاب مختصر في فضل الجهاد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، د.ط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٠- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٩ج)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢١- الجويني، علاء الدين عطا ملك الجويني(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، تاريخ العالم (جهانكشاي) (٢ج)، تحقيق: محمد عبد الوهاب القزويني، ج١، ترجمة: السباعي محمد السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م. ج٢ ترجمة: محمد التونجي، دار الملاح، د.م، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٢- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه(٢ج)، تحقيق: محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، د.ط، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٢٣- ابن حجر، الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، إنباء الغمر بأبناء العمر(٩ج)، مراقبة: محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية(عن دائرة المعارف العثمانية)، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٤- المؤلف نفسه، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة(٦ج)، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م. طبعة دار الجيل (٤ج)، بيروت، د.ط، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٢٥- المؤلف نفسه، فتح الباري بشرح صحيح البخاري(١٣ج)، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

٢٦- ابن حجي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي الحسباني(ت٨١٦هـ/١٤١٣م) تاريخ ابن حجي(٢ج)، تعليق: عبد الله الكندري، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٢٧- المؤلف نفسه، الذيل على تاريخ ابن كثير(تاريخ ابن حجي)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة اليرموك، المفرق، تحقيق: عمر علي ذياب الشامي، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٢٨- الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي(ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم الأدباء(٧ج)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٢٩- المؤلف نفسه، معجم البلدان(٥ج)، دار صادر ، بيروت، د.ط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٣٠- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٣١- ابن حنبل، أحمد بن محمد(ت٢٤١هـ/٨٥٥م)، المسند(٢٠ج)، شرحه: أحمد شاكر وحمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٣٢- الخزنداري، الأمير شهاب الدين قرطاي العزي، تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تحقيق: هورست هاين ومحمد الحجيري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٣٣- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد تاويت الطنجي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٣٤- المؤلف نفسه، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون(٨ج)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٣٥- ابن خلِّكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان(٨م)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

٣٦- أبو داود، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني(ت٢٧٥هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، د.ت.

٣٧- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد العلاني(ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين(ج٢)، تحقيق: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٣٨- الدوادار، بيبرس بن عبدالله المنصوري(ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة(ج٩)، تحقيق: محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الهرم، د.ط، د.ت.

٣٩- المؤلف نفسه، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تقديم: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٤٠- المؤلف نفسه ، مختار الأخبار، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٤١- الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك(ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، كنز الدرر وجامع الغرر (ج٩، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق: هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، د.ط، د.ت.

٤٢- المؤلف نفسه، كنز الدرر وجامع الغرر(ج٨، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية) تحقيق: ولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، د.ط، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

٤٣- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان(ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام(٥٢ج)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٤٤- المؤلف نفسه، ذيل تاريخ الإسلام، إعتناء: مازن بن سالم باوزير، دار المغني، الرياض، د.ط، د.ت.

٤٥- المؤلف نفسه، سير أعلام النبلاء، (٢٥ج)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٤٦- المؤلف نفسه، العبر في خبر من غبر(٤ج)، تحقيق: محمد السعيد بن زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٤٧- المؤلف نفسه، معجم محدثي الذهبي، تحقيق: روحية عبد الله السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٤٨- ابن رجب، الإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي(ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)، المنتقى من معجم شيوخ شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن رجب الحنبلي، تعليق: عبدالله الكندري، غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

٤٩- الرمزي م.م، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار(٢ج)، قدم له وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٥٠- ابن الساعي، علي بن أنجب بن عثمان السلامي البغدادي(ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، تاريخ ابن الساعي وبذيله الضائع من تاريخ ابن الساعي، تحقيق: محمد عبدالله القدحات، دار الفاروق، عمان، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٥١- ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر الغربي(ت بعيد٩٢٦هـ/١٥١٩م)، صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط (٢ج)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٥٢- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي(ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، طبقات الشافعية الكبرى(١٠ج)، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، ط٢، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م.

٥٣- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت٩٠٣هـ/١٤٩٧م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع(١٢ج)، ضبطه وصححه: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٥٤- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم الرفاعي ومحمد العثماني، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٥٥- السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة(٢ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٥٦- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي(ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الذيل على الروضتين(تراجم رجال القرنيين السادس والسابع)، راجعه: السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٥٧- المؤلف نفسه، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية(٢ج)، تحقيق: أحمد البسيومي، وزارة الثقافة السورية، دمشق، د.ط، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٥٨- ابن الشحنة، أبو الوليد محمد بن محمد الشحنة(ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، تحقيق: سيد محمد مهنى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. روضة المناظر، طبعة بولاق بهامش الجزء التاسع من كتاب الكامل لابن الأثير، القاهرة، ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، ويلاحظ في هذه الطبعة تسميته بـ " روضة المناظر " بدل " روض المناظر "

٥٩- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي الحلبي(ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة(ج١)، تحقيق: دومينيك سورديل، دمشق، د.ت، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

٦٠- المؤلف نفسه، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة(ج٢)، تحقيق: سامي الدهان، المعهد القرشي للدراسات العربية، دمشق، د.ط، ١٣٧٥هـ /١٩٥٦م.

٦١- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة(ج٣)، تحقيق: يحي عبارة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د.ط، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٦٢- المؤلف نفسه، تاريخ الملك الظاهر، اعتناء: أحمد حطيط، مركز الطباعة الحديثة، بيروت، د.ط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٦٣- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم(ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الملل والنحل(٢ج)، تحقيق: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٦٤- الشوكاني، محمد بن علي(ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع(٢ج)، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٦٥- ابن صصري، محمد بن محمد(ت٨٠٠هـ/١٣٩٧م)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق: وليم م. برينر، جامعة كاليفورنيا، لوس أنجيلوس،١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

٦٦- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، أعيان العصر وأعوان النصر(٦ج)، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٦٧- المؤلف نفسه، الوافي بالوفيات(٢٩ج)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٨- الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود(ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان(٤ج)، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، د.م، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٦٩- ابن طاووس، علي بن موسى(ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة، علق عليه: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م

٧٠- المؤلف نفسه، فلاح السائل، قدم له: محمد مهدي الخرسان، المكتبة الحيدرية، النجف، ط٢، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٧١- الطبري، محمد بن جرير(ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري(١٠ج)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت.

٧٢- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا(ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبدالقادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٧٣- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي(ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية(٢ج)، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٧٤- ابن عبد الظاهر، علاء الدين علي بن محمد، الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٧٥- ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان المصري(ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، د.ن، الرياض، ط١، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

٧٦- ابن عبد الهادي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: طلعت ابن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٧٧- ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي(ت٦٨٥هـ/١٢٨٦)، تاريخ مختصر الدول، د.ن، د.م، د.ط، د.ت.

٧٨- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب(١١ج)، تحقيق: سهيل زكار، د.ن، دمشق، د.ط، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٧٩- المؤلف نفسه، زبدة الحلب من تاريخ حلب(٢ج)، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٨٠- ابن عربشاه، أبو محمد أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي، (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٨١- ابن العربي، القاضي أبوبكر محمد عبد الله الإشبيلي المالكي(ت٥٤٣هـ/١١٤٨م)، العواصم من القواصم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ط، د.ت.

٨٢- العز، عبد العزيز بن عبد السلام السلمي(ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)، أحكام الجهاد وفضائله، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٨٣- المؤلف نفسه، فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، تحقيق: محمد جمعة كردي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٨٤- ابن العز، علي بن علي بن محمد الحنفـي(ت٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، شـرح عقيـدة الطحاوي، تحقيـق: مجموعـة مـن العلمـاء، المكتـب الإسـلامي، بيـروت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٨٥- العسقلاني، شافع بن علي بن عباس الرواحي الزنبالي(ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق: عبد العزيز الخـويطر، مطـابع القوات المسلحة، الرياض، د.ط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٨٦- المؤلف نفسه، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٨٧- العليمي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد الحنبلي(ت٩٢٨هـ/١٥٢٢م)، الأنـس الجليل بتاريخ القدس والخليل(٢ج)، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيـد نباتـة، مكتبـة دنديس، عمان،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٨٨- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي(ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب(١٠ج)، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٨٩- العمري، شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، عـرف التعريف في المكاتبات، تحقيق: سمير الـدروبي، دار ابـن الجـوزي، عمـان، د.ط، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٩٠- المؤلف نفسه: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، البـاب٦، تحقيـق: دوروتيـا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٩١- المؤلف نفسه، مسالك الأبصار في ممالـك الأمصـار(٢٤ج)، تحقيـق: مجموعـة محققين، المجمع الثقافي، أبو ظبي، د.ط، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٩٢- المؤلف نفسه، عرف التعريف في المكاتبات، تحقيق: سـمير الـدروبي، دار ابـن الجوزي، عمان، د.ط، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٩٣- ابن العميد، المكين جرجس (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافـة الدينية، بور سعيد، د.ن، د.م، د.ط، د.ت.

٩٤- العيني، بدر الدين محمود(ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان(٤ج)، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، د.ط، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٩٥- ابن ميمون، عبد الله، الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ أو مهير، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، د.ط، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٩٦- الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي(ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، مطالع البدور في منازل السرور (٢ج)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ط، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

٩٧- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن أيوب (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

٩٨- أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(٢ج)، تعليق: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٩٩- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم(ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات(٩ج)، تحقيق: قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، د.ط، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

١٠٠- ابن الفركاح، تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم(ت٦٩٠هـ/١٢٩١م)، مسألة الغنائم، تحقيق: عبد الستار أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

١٠١- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس(ت بعد ٣١٠هـ/٩٢٢م)، رحلة ابن فضلان، حررها: شاكر لعيبي، دار السويدي، أبوظبي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٠٢- ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الحنبلي(ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، تلخيص مجمع الآداب(ج٤)، تحقيق: مصطفى جواد، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، د.ط، د.ت.

١٠٣- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبوبكر بن أحمد الأسدي الدمشقي(ت٨٥١هـ/١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبة(٤ج)، تحقيق: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، د.ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٠٤- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)، الإمامة والسياسة(٢ج)، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٠٥- القرطبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر(ت٦٧١هـ/١٢٧٢م)، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة(٢ج)، تعليق: الداني بن منير آل زهوي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٠٦- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن عبد الله (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء(١٤ج)، دار الكتب السلطانية، القاهرة، د.ط، ١٣٣٨هـ/١٩١٩م.

١٠٧- المؤلف نفسه، مآثر الإنافة في معالم الخلافة(٣ج)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب، بيروت، د.ط، د.ت.

١٠٨- الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات(٤ج)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١،ج١/١٩٧٢م، ج٢/١٩٧٣م، ج٣ وج٤/١٩٧٤م.

١٠٩- المؤلف نفسه، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر و نبيلة عبد المنعم داود، دار الحرية، بغداد، د.ط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١١٠- ابن كثير، أبوالفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية(٢٠ج)، راجعه: عبدالقادر الأرناؤوط و بشار عواد معروف، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

١١١- المؤلف نفسه، طبقات الشافعية(٢ج)، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١،١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

١١٢- الكرمي، مرعي بن يوسف الحنبلي(ت١٠٣٣هـ/١٦٢٣م)، الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١١٣- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(ت٢٧٣هـ/٨٨٦م)، سنن ابن ماجه، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، د.ت.

١١٤- مؤلف مجهول، كتاب الحوادث(وهو الكتاب المنسوب لابن الفوطي باسم الحوادث الجامعة والتجارب النافعة)، تحقيق: بشار عواد معروف و عماد عبدالسلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١١٥- مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(ت٢٦١هـ/٨٧٤م)، الجامع الصحيح، دار المغني، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١١٦- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة(٢ج)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١١٧- المؤلف نفسه، السلوك لمعرفة دول الملوك(٤ج)، تصحيح: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٣، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

١١٨- المؤلف نفسه، المقفى الكبير(٨ج)، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

١١٩- المؤلف نفسه، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية(٣ج)، تحقيق: محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٢٠- المكي، أبو الفضل تقي الدين محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي(ت٨٧١هـ/١٤٦٦م)، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.

١٢١- ابن منكلي، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تحقيق: سليمان الرحيلي، د.ن، الرياض، د.ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٢٢- النحاس، أحمد بن إبراهيم(ت٨٠٣هـ/١٤٠١م)، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام(٢ج)، تحقيق: إدريس محمد علي ومحمد خالد إسطنبولي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١٢٣- النسوي محمد بن أحمد (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م)، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، د.م، د.ط، د.ت.

١٢٤- النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي(ت٩٧٨هـ/١٥٧٠م)، الدارس في تاريخ المدارس(٢ج)، أعد فهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٢٥- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب(٣٣ج)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

١٢٦- الهمذاني، رشيد الدين بن فضل الدين (ت٧١٦هـ/١٣١٦م)، جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان)، ترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٣هـ/١٤٠٣م.

١٢٧- المؤلف نفسه، جامع التواريخ (تاريخ هولاكو)، ترجمة: محمد صادق نشأت وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، د.م، د.ط، د.ت.

١٢٨- المؤلف نفسه، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٢٩- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم(ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب(٥ج)، تحقيق: جمال الدين الشيال، د.ن، د.م، د.ط، د.ت.

١٣٠- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي(٢ج)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٣١- اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي اليمني المكي(ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان(٤ج)، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٣٢- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي الحنبلي(ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان(٤ج)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ثالثا: المـــــــــــــــراجع:

١- آمنة، أبو حجر، موسوعة المدن العربية، دار أسامة، عمان، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٢- إسماعيل، اكتمال، الحملات المغولية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية على بلاد الشام(١٢٥٠هـ-١٤٠٠م)، دار رسلان، دمشق، د.ط، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٣- الأعسم، عبد الأمير، الفيلسوف نصير الدين الطوسي، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٤- أنس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، د.ن، د.م، ط٢، د.ت.
٥- البار، محمد علي، كيف أسلم المغول، دار الفتح، عمان، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٦- باكثير، علي أحمد، وا إسلاماه، مكتبة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت.
٧- بدوي، عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء، المنصورة، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٨- برجاوي، سعيد أحمد، الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٩- بطاينة، محمد ضيف الله، علوم الأوائل وأثرها في المجتمع الإسلامي، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
١٠- البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١١- التكريتي، سلمان، بغداد مدينة السلام، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، د.ط، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٢- جبران، نعمان محمود، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مكتبة حماده، إربد، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٢م.
١٣- جرار، مأمون فريز، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٤- الجمل، إبراهيم محمد حسن، الفتوة في الإسلام، نهضة مصر، د.م، د.ط، د.ت.

١٥- الجهني، مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة(٢ج)، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٦- حسن، نزار يونس، نظام الإقطاعيات الحربية في مصر المملوكية، د.ن، د.م، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٧- الحريري، إبراهيم محمد محمود، المدخل إلى القواعد الفقهية الكلية، دار عمار، عمان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨.

١٨- الحصني، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات التواريخ لدمشق(٣ج)، تقديم: كمال سليمان الصليبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٩- حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، د.م، د.ط، د.ت.

٢٠- حلاق، حسان وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٢١- عبد الحليم، رجب محمود، انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، د.م، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٢٢- الخزاري، محسن، بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، دار الميزان، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢٣- الخضري، محمد، الدولة العباسية، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ط، د.ت.

٢٤- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٢٥- الخطيمي، أحمد محمد، الفتوة نشأتها وتطورها حتى سقوط الخلافة العباسية، د.ن، عمان، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٢٦- خلاف، عبد الوهاب، علم أصول الفقه، دار القلم، الكويت، ط١٨، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٢٧- خلف، عبد الجواد، القاضي بدر الدين بن جماعة- حياته وآثاره -، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، د.ط، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢٨- الخوند، مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، دار رواد، بيروت، د.ط، د.ت.

٢٩- دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٣٠- المؤلف نفسه، ولاة دمشق في عهد المماليك، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٣١- الدوري، عبد العزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٣٢- الذيب، منير، معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية، دار العراب، دمشق، د.ط، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٣٣- الزركلي، خير الدين، الأعلام(٨ج)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٧، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٣٤- زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام(٢ج)، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٣٥- السرجاني، راغب، الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي(٢ج)، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٣٦- سرور، محمد جمال الدين، تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٣٧- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر(ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة، تحقيق: خالد بن علي المشيقح، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٣٨- أبو سعيد، حامد تميم، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٣٩- سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي(٤ج)، منشأة المعارف، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٤٠- سليمان، أحمد السعيد، معجم الأسر الإسلامية الحاكمة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٤١- سليمان، أحمد عبد الكريم، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، دار النهضة العربية، د.م، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٤٢- شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي(٢٢ج)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٤٣- شبارو، عصام محمد، قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٤٤- الشبيبي، محمد رضا، مؤرخ العراق ابن الفوطي(٢ج)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، د.م، د.ط، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٤٥- شلبي، محمود، حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢.

٤٦- الصمانجي، عزيز قادر، التاريخ السياسي لتركمان العراق، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٠م.

٤٧- الصياد، فؤاد عبد المعطي، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذاني، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٩٧م.

٤٨- المؤلف نفسه، المغول في التاريخ(٢ج)، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٤٩- الطباخ، محمد راغب بن محمود هاشم، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء(٢ج)، المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م.

٥٠- طقوش، محمد سهيل، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٥١- الطهراني، آغا بزرك، الأنوار الساطعة في المائة السابعة، تحقيق: علي تقي منزوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٥٢- عاشور، سعيد عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٥٣- عاشور، فايد حماد، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٥٤- المؤلف نفسه، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، دار المعارف، القاهرة، ط١، د.ت.

٥٥- العاني، نوري عبد الحميد، العراق في العهد الجلائري(دراسة في أوضاعه الإدارية والإقتصادية)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٥٦- العبادي، أحمد مختار، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، ١٤١٣هـ/١٩٩٥م.

٥٧- المؤلف نفسه، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ط، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٥٨- العبود، نافع توفيق، الدولة الخوارزمية(نشأتها. علاقاتها مع الدول الإسلامية. نظمها العسكرية والإدارية)، مطبعة الجامعة، بغداد، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٥٩- عربش، سمير، أرمينية أرض وشعب، دار الريحاني، د.م، د.ط، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٦٠- العريني، السيد الباز، المغول، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٦١- العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي، د.ن، الدمام، ط٣، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٢- العلبي، أكرم حسن، تيمورلنك وحكايته مع دمشق، دار المأمون للتراث، دمشق، د.ط، د.ت.

٦٣- المؤلف نفسه، معارك المغول الكبرى في بلاد الشام، دار المأمون للتراث، دمشق، د.ط، د.ت.

٦٤- أبو عليان، عزمي عبد محمد، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، دار النفائس، عمان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٦٥- عمران، محمود سعيد، المغول والأوروبيون والصليبيون وقضية القدس، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٦٦- الغامدي، سعد محمد حذيفة، سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام، دار ابن حذيفة، الرياض، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٦٧- الغامدي، علي محمد علي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، مكتبة الطالب الجـامعي، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م.

٦٨- فرغلي، إبراهيم، المؤرخ المصري ابن عبد الظاهر، العربـي للنشـر والتوزيـع، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٦٩- فهمي، عبد السلام عبد العزيز، تاريخ الدولة المغولية في إيـران، دار المعـارف، القاهرة، د.ط، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٧٠- قاسم، عبد قاسم، أهل الذمة في مصـر، عـين للدراسـات والبحـوث الانسـانية والاجتماعية، الهرم، د.ط، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٧١- القدحات، محمد عبد الله، الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخيـر، دار البشير، عمان، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٧٢- القزاز، محمد صالح داود، الحياة السياسية فـي العـراق فـي العصـر العباسـي الأخير(٥١٢-٦٥٦هـ)، مطبعة القضاء، النجف، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٧٣- المؤلف نفسه، الحياة السياسية في العراق في عهـد السـيطرة المغوليـة، مطبعـة القضاء، بغداد، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٧٤- كرد علي، محمد، خطط الشام(٥ج)، دار القلم، بيروت، د.ط، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٧٥- الكردي، محمد علي الصويركي، الأكراد الأردنيون ودورهـم فـي بنـاء الأردن الحديث، دار سندباد، عمان، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٦- الكوراني، علي العاملي، كيف رد الشيعة غزو المغـول، دار الهـدى، قـم، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٧٧- مؤنس، حسين، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعـلام العربـي، القـاهرة، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٧٨- مصطفى، شاكر، التاريخ والمؤرخون(٥ج)، دار العلـم للملايـين، بيـروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٧٩- معروف، ناجي، تاريخ العلماء المستنصرية(٢ج)، مطبعـة العـاني، بغـداد، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

٨٠- المؤلف نفسه، المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، دار الشعب، القاهرة، ط٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٨١- عبد المُهدي، عبد الجليل حسن، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصريين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٨٢- النقر، محمد الحافظ، القوى الفاعلة في المجتمع في العصريين الأيوبي والمملوكي، دار المسار، المفرق، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

رابعا: المراجع المعربة:

١- آ.آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢- إقبال، عباس، تاريخ المغول، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المركز الثقافي، أبوظبي، د.ط، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٣- بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة: صلاد الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٦- جمال، ناديا إيبو، الناجون من الغزو المغولي، ترجمة: سيف الدين العقير، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧- ستوف، فلاديمير، حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية، ترجمة: سعد محمد حذيفة الغامدي، د.ن، د.م، د.ط، د.ت.

٨- شبولير، بيرتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، د.ن، د.م، د.ط، د.ت.

٩- المؤلف نفسه، المغول في التاريخ، ترجمة: يوسف شلب الشام، المغول في التاريخ، دار طلاس، د.م، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٠- فيشل، والتر ج، لقاء ابن خلدون لتيمورلنك، ترجمة: محمد توفيق، مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت.

١١- كاهن، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م

١٢- لسترنج، كي، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٣- لويس، برنارد، الحشيشية، ترجمة: سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

١٤- لين، ستانلي بول، الدول الإسلامية(٢ج)، ترجمة: محمد صبحي فرزات، مطبعة الملاح، دمشق، د.ط، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

خامسا: الرسائل الجامعية:

١- أحلام حسن مصطفى النقيب، " سياسة الخليفة الناصر الداخلية "، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، بغداد، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢- الشهري، عبدالله بن فراج، " دور العلماء المسلمين في حركة الجهاد ضد المغول "، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٣- بني عيسى، عبد المعز عصري محمد، " الغزو المغولي لدمشق وآثاره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية "، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٤- الغرايبة، قيصر صالح مصطفى، " الرقيق العسكري في المجتمع المملوكي"(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٥- فايزة، عبد الرحمن حجازي، " أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي "، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٦- هدى إبراهيم أحمد الموسى، " العلاقات السياسية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر "، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة آل البيت، المفرق، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

٧- هدى خليل أبو نعمه، " الفتوة في بغداد في عهد الخليفة العباسي الناصر "، بحث تخرج للبكالريوس غير منشور، كلية الآداب، جامعة آل البيت، المفرق، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

سادسا: المراجع غير العربية:

١- إقبال عباس، تاريخ مغول وأوايل أيام تيموري، نشر نامك، طهران، د.ط، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

٢- B.lewis "Ibn AL-Adim", The Encyclopaedia of Islam, vol.III, Leiden-London, ١٩٨٦, P.٦٩٥.

سابعا: المجلات والدوريات

١- إسماعيل، محمود، " الإقطاع في العالم الإسلامي "، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، حولية ١١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٢- حتاملة، عبد الكريم عبده، " دور السلطان محمود غازان في نشر الإسلام بين المغول "، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية)، المجلد ٣٠، العدد ٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٣- حجة، شوكت، " مواقف أئمة المسلمين من الغزو الإيلخاني(مغول فارس) لبلاد الشام ومصر "، مجلة الجامعة الإسلامية(سلسلة الدراسات الإنسانية)، مجلد: ١٥، العدد: ٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٤- جبران، نعمان محمود، " الديانة المغولية في عهد جنكيز خان "، اليرموك(مجلة ثقافية فصلية جامعة)، العدد:٩٠، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٥- العمادي، محمد حسن وجبران، نعمان محمود، " المعتقدات الدينية عند المغول حتى نهاية عصر جنكيز خان "، رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

Summary of the study

Passed the nation throughout its long history of the Islamic condition that different,Varied between the strengths and weaknesses, progress and decline and the triumph and defeat, but that which distinguishes all of these variables and vocabulary that combines the rich heritage and strong inventory of cultural and intellectual high heel side of the Islamic Ummah. As granting all that the nation an extension of civilization to make it the capital despite its weakness, and influential despite its inability to, no better evidence of what happened in the case of the Mongol invasions of the land of Islam, since the victory of the nation the real Mongols was not in the military side, as it was in the side of civilization'm going strength starting with the Mongols into Goliath, and the end of being muslims.

Hence the study to detect the position of some of the most elite of society, namely the elite scientists to reflect the reality of their position on the invasion of the Mongols to the land of Islam, and the contribution of this position in the victory referred to.

The subject was taken through an introductory chapter and three main chapters and a conclusion incl. to the most important results.

Included the first quarter to pave the remembrance of the conditions of Iraq and the Levant political, economic, intellectual, such as the Mongol invasion, and this study showed the situation on the eve of the Mongol invasion and its relationship to the fall of Baghdad and the Levant, however, the Also touched on this chapter to show the Mongols and the origin and then Tusaathm in Islamic countries, and the division of state after the death of its

founder Genghis Khan, even ended up most of States Mongols to convert to Islam, with a focus after Islam, the Mongols conflict Mughal state Ilkhanid in Persia and Iraq with the MamlukMongols were expelled from the eye after the battle of Goliath.

The second chapter addressed the statement of the positions of the scholars of Iraq and the Levant from the Mongol invasion the first, where the view of those positions in the three sections are the political attitudes and mindsets and attitudes of the military and in the fourth section of this chapter have been shown the positions of Iraqi scientists after they became part of the state Mongol Ilkhanid of Mongol invasion of the Levant.

In the third chapter explained researcher positions of the scholars of Iraq and the Levant from the Mongol invasion the second, the invasion came from the Mongols after their Islam has been interpreted by the researcher those positions in political attitudes, intellectual and military, as the researcher introduced the positions of the scholars of Iraq from the invasion of Tamerlane to their country after the demise of the Covenant Alaikhani.

In It was in the last chapter of the study, Chapter IV Statement attitudes cooperating with the Mongols the first and second invasion of Iraq and the Levant. It was clear from the study that the attitude of the scholars were rejecting and condemning Balgsogn Amooliyn the first and the second of Iraq and the Levant, and convert to Islam, the Mongols did not affect change in the attitude of the scholars parallel to the conquest of the Levant and Iraq. As it turns out that the positions of collaborating scientists and welcoming the Mongol invasion, the first and the second of Iraq and the Levant had been very little in return for the positions of that two invasions.